

أدب
٢٠١٥

مسرحيات راسين

المجلد الأول والثانى

تأليف: جان راسين

ترجمة
مجموعة من المترجمين



الهيئة المصرية العامة للكتاب

الوصول إلى الحقيقة يتطلب إزالة العوائق
التي تعترض المعرفة، ومن أهم هذه العوائق
رواسب الجهل، وسيطرة العادة، والتبجيل المفرط
لمفكري الماضي
أن الأفكار الصحيحة يجب أن تثبت بالتجربة

روجر باكون

التعليم ليس استعدادا للحياة ، إنه الحياة ذاتها
جون ديوي
فيلسوف وعالم نفس أمريكي



مسرحيات راسين

المجلد الأول والثانى



اللجنة العليا

فوزى فهمى رئيسًا
أحمد على عجيبة
أحمد زكريا الشلق
جرجس شكرى
جمال الغيطانى
خالد منتصر
خلف عبد العظيم الميرى
سيد حجاب
فاطمة المعدول
محمد بدوى
محمد شعير
محمد عنانى
مصطفى لبيب
نبيل عبد الفتاح
هالة خليل
أحمد مجاهد المشرف العام

الوزارات المشاركة:

وزارة الثقافة
وزارة التخطيط
وزارة السياحة

تصميم الغلاف
وليد طاهر

الإشراف الفنى
على أبو الخير
صبرى عبد الواحد
هشام متولى حامد

تنفيذ
الهيئة المصرية العامة للكتاب

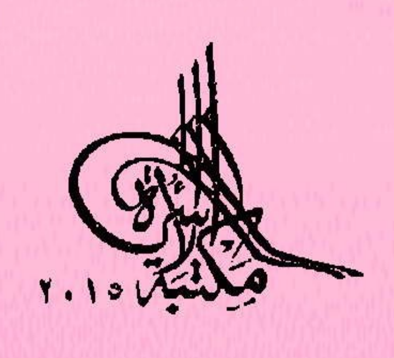
مسرحيات راسين

المجلد الأول والثانى

١ ـ مأساة طيبة أو الشقيقان العدوَّان.
٢ ـ الإسكندر.
٣ ـ أندروماك.
٤ ـ المتقاضون.
٥ ـ بريتانيكيس.
٦ ـ برينيس.

تأليف: جان راسين

ترجمة: مجموعة من المترجمين



راسين، جان، ١٦٣٩ ـ ١٦٩٩.

مسرحيات راسين/ ترجمة مجموعة من المترجمين . ـ

القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٥.

٦٤٠ ص، مج ١ ـ ٢؛ ٢٠سم . ـ (مكتبة الأسرة).

تدمك ٧ ـ ٣٦١ ـ ٩١٠ ـ ٩٧٧ ـ ٩٧٨

المحتويات: مأساة طيبة أو الشقيقان العدوّان ،

٢ ـ الاسكندر، ٣ ـ اندروماك.

١ ـ المسرحيات الفرنسية.

أ ـ لوقا، أنور (مترجم).

ب ـ البحيري، كوثر عبد السلام (مترجم مشارك).

جـ ـ العنوان.

رقم الإيداع بدار الكتب ١٠٩٨٧/٢٠١٥

I.S.B.N 978- 977- 910-361-7

ديوى ٨٤٢

توطئة

الحقيقة المؤكدة التي تنطلق منها «مكتبة الأسرة»، هي أن تجليات الارتقاء في الممارسات المجتمعية، تتحقق عندما ينشط النسق المعرفي والفكري والثقافي للمجتمع ويتسع، بوصفه أهم الدوائر المؤثرة في استمرار المجتمعات وتطورها واستقرارها، حتى لا يصبح المجتمع أسير أجوبة متخشبة جاهزة متوارثة في مواجهة ضغوط احتياجاته، باجترار ثوابت معرفية تجاوزتها فتوحات الزمن المعرفي الراهن، بتنوعات إنجازاته المتجددة، في حين أن رهانات المجتمع لتحقيق تجدده تتطلب ليس فقط أن يعرف المجتمع نفسه؛ بل أن يصنع نفسه، ويؤسس ذاته في سياق إدراك دائم أن المجتمع لا يمكن أن يكون إلا بتحرير العقل العام، ليقرأ، ويتمعن، ويستوعب، ويدرك، ويعرف وتتحول مقروءاته، ومعارفه المستجدة إلى شبكة ممارسات يومية تسود كل مظاهر وآليات البنيات الاجتماعية والفردية وعلاقاتها، التي تواجه الصدوع اللامعقولة، وحالات التسلط المغلق التي تغلف وعي الناس بشطحات الارتداد والعزلة.

كما تستند «مكتبة الأسرة» إلى يقين أن إمكانات الإنسان أكثر ثراءً من الواقع، وأيضًا أن لا شيء يتأبد في الحياة الاجتماعية، ليمنع العقل من بناء المعرفة الجديدة؛ إذ شحذ العقل باستخدامه الحر العام - بوصفه أداة الانتصار الإنساني - يشكل إدراكًا معرفيًا عماده القراءة، يحرر المجتمع من عطالته، ويفتح نوافذ التأمل التي تدفع المجتمع إلى رؤية أشد تحولاً، وتؤسس لتفعيل إرادته وتحرير مصيره، وتضعه إيجابيًا في مواجهة صورة الوجود الحقيقي أمام الممكنات المفتوحة التي ينتجها التواصل، والحوار مع الآخر، واستيعاب الاكتشافات الجديدة؛ إذ غياب القراءة يمنع المجتمعات من تحولها المتواصل، وينفيها من التأسيس الفعلي لزمن اجتماعي، فالقراءة هي البداية الكبرى التي إن ظلت مغلقة يصاب المجتمع بالخرس والصمت، حيث في غياب القراءة تتجلى علامات العجز عن إحداث شيء، استنادًا إلى أن الصمت عن القراءة يبقى

صاحبه خارج موضوع المعرفة، محجوبًا عن التكوين الذاتى، والفعل الاجتماعى، إذ المعارف المستجدة تجعل الفرد يتمكن من أن يكون ، وأن يفعل، وتؤسس مسيرة إدراك المجتمع لمصيره الآمن، بأن تثرى امتلاكه قدرة إيقاظ ينابيع تخيل صورة وجوده، وإمكانية تحقيقها تصويبًا للواقع.

إن «مكتبة الأسرة» تسعى إلى فك احتكار فعل القراءة بالانتشار المتشعب للكتاب، وتقريبه للناس حتى تتحقق جدارة اكتساب الجميع مشروعية المعرفة، ومشروعية الفهم وتداولها، وذلك ما يشكل صميم جهد «مكتبة الأسرة» وتطلعه، تحقيقًا لحيوية مجتمعية تعقلن قبول التغيير باستباق الفهم، وتمارس التحرر من فكرة المعرفة المطلقة، التى تخلق حالات من حصر التفكير وانحصاره، نتيجة هيمنة أفكار مطلقة منسيدة، تؤدى إلى الانغلاق، وعدم الانفتاح على المستقبل.

لا شك أن ثمة تناقضًا بين الدعوة إلى القراءة، وغياب الكتاب عن متناول شرائح اجتماعية لا تسمح ظروفها الاقتصادية باقتنائه، وذلك ما شكل معضلة أصبحت المحك الموضوعي فى تحقيق الدعوة إلى القراءة على المستوى المجتمعى، وقد نجحت وزارة الثقافة عام ٢٠١٤ بتفعيل التكاتف المؤسسى، وذلك بتجاوز الأطر التقليدية، فى دعم «مكتبة الأسرة»، لتبدد التمايز فى ممارسة حق القراءة بالنشر المدعوم، الذى يحرر الكتاب من استحالة وصوله إلى شرائح المجتمع، وقد استجابت لهذا التكاتف المؤسسى فى دعم «مكتبة الأسرة»، كل من وزارة التربية والتعليم، ووزارة التخطيط، ووزارة السياحة، انطلاقًا من أن دعم حق اكتساب المعارف يخلق تغييرًا يلبى طموحات الأجيال الشابة الصاعدة والمجتمع بأسره، وهو ما ينعكس فكريًا وثقافيًا فى ممارسات المجتمع الحيانية.

رئيس اللجنة

فوزى فهمى

مسرحيات راسين

المجلد الأول

١ - مأساة طيبة أو الشقيقان العدوّان

٢ - الإسكندر

٣ - أندروماك

چان راسين

١ - مأساة طيبة أو الشقيقان العدوان

(عام ١٦٦٤)

ترجمة : الدكتور أنور لوقا

مراجعة وتقديم : عبد الحميد الدواخلى فحص : الدكتور محمد محمد القصاص

٢ - الإسكندر

(عام ١٦٦٥)

ترجمة : الدكتورة كوثر عبد السلام البحيرى

مراجعة وتقديم : الدكتور محمد محمد القصاص فحص : عبد الحميد الدواخلى

٣ - أندروماك

(عام ١٦٦٧)

نقلها إلى العربية : الدكتور طه حسين

تقديم

لمسرح راسين

جان راسين (Jean Racine) (١٦٣٩ – ١٦٩٩)

إنه لكسب كبير للثقافة العربية أن يترجم مسرح « راسين » إلى لغتنا القومية ليتبين القراء عن قرب فن هذا الأديب الفرنسي ، ويستمتعوا بروعة أدبه ، ودقة تحليله النفسي للعواطف والغرائز والميول البشرية ، وليطلعوا على مرحلة جديدة من مراحل الأدب الكلاسيكي ، تلك المرحلة التي تعالج الشهوات البشرية بطريقة فنية رائعة ، لا بإلقاء المواعظ الشعرية والخطب الحماسية ، ولكن بتحليل نفسي عميق ، ينطوي على الترفيه ويثير الانتباه من بدء المسرحية حتى نهايتها . فن بديع رائع قد تخلص من افتعال الأحداث الخارجية والمغامرات البطولية الزائفة التي كانت شائعة في مسرح « كورني » Corneille ، وعمل على التركيز الشديد لتحليل النفوس البشرية بما تنطوي عليه من حب وأطماع وغيرة وكراهية وحقد ، ويلقي أضواء نفاذة على أهون العثرات لتنال جزاءها الصارم ، ويشعر الناس بأن مجرد التفكير في الخطيئة يثير مواقف لا تقل خطورة وهولا وسخطاً عن ارتكاب المعاصي نفسها .

وتتجلى عبقرية راسين فى أنه لم يقم وزناً لتصوير العظمة والبطولة بقدر عنايته بالبحث عن الحقيقة والمسلك الطبيعى ، وأخذ يحلل فى دقة الفيلسوف البواعث التى تدفع إلى العمل ، والأحاسيس البشرية المختلفة المتباينة . ثم صور لنا الحب فى مختلف صوره وخاصة الحب الغيور العاصف ، لأن الغيرة عند راسين تعتبر بمثابة الإرادة فى مسرح « كورنى » ومسرحيات راسين لا تتغنى بالحماسة ولا تمجد البسالة ، ولكنها تنم عن واقعية أكثر ما تكون واقعية حزينة ، تشعر الإنسان بنواحى ضعفه . وتراه يسير على هدى الشعراء اليونانيين القدماء ، وخاصة شاعره المفضل « أوربيد » ويستوحى بعض موضوعاته من التاريخ الرومانى مما سنراه حين نتحدث عن بريتانكيس وبرينيس Britannicus, Bérénice ، كما يلجأ إلى التوراة والإنجيل ليقتبس موضوعى مسرحيتيه إستير وأتالى (Esther, Athalie)

إنه لمشروع جليل فكر فيه أستاذنا الكبير ، عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين فأخرجت الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية منذ سنوات مسرحيات شكسبير ، وها هى ذى الآن تخرج لقراء الوطن العربى مسرح راسين ، فأحسنت صنعاً حين قدمت هذين الأديبين الكبيرين نموذجاً رائعاً للأدبين الفرنسى والإنجليزى ، وإن ظل هناك الكثيرون من الأعلام فى اللغات المختلفة ينتظرون دورهم ويتطلع العرب فى شوق كبير إلى قراءة مؤلفاتهم كاملة غير مجزوءة فى لغة سهلة يسيرة وفى ترجمة صادقة أمينة .

حياة راسين :

ولد جان راسين فى اليوم الحادى والعشرين من شهر ديسمبر سنة ١٦٣٩ ببلدة « لافرتيه ميلون La Ferté Milon » وهى بلدة صغيرة بإقليم « إِنْ Aisne » فى مقاطعة شمبانيا بفرنسا ، فى أسرة برجوازية متواضعة . فقد أبويه وهو فى الثالثة أو الرابعة من عمره فكفلته جدته لأبيه .

تعلم هذا الطفل اليتيم فى مدرسة « بوڤيه Beauvais » حيث قضى سنيه الأولى مع جدته . ولما دخلت هذه الجدة « دير پور رويال دى شان » عهدت إلى السادة رجال بور رويال بإتمام تربيته ، فأدخل مدرسة صغيرة من مدارسهم هى مدرسة دى جرانج . وحينما أغلقت هذه المدارس بأمر ملكى ، ظل هذا الصبى الذكى الموهوب التلميذ الوحيد لهؤلاء الأساتذة الأجلاء ، فوقفوا جهودهم على تعليمه وهو فى السادسة عشرة من عمره حتى بلغ التاسعة عشرة . أخذ هذا الشاب المراهق يحيا حياة الوحدة والعزلة ، ليس له رفيق فى عمره يتحدث إليه فى ذلك الوادى المنعزل الهادئ . يعيش مع أساتذته الذين طبعوه بطابع عميق من المذهب الجنسينى Jansénisme [1] وعلموه فأحسنوا تعليمه ، وثقفوه ثقافة عميقة

---

(١) الجنسينية أو المذهب الجنسينى :

مذهب ينسب إلى « جنسينيوس Jansénius » أحد أساقفة إيبر Ypres ومؤلف رسالة الأجوستينوس L'Augustinus عام ١٦٤٠ . وهذا المذهب يدعو إلى مقاومة التحلل الدينى =

رصينة : علموه الدين والعلم والفلسفة وأتقن اللغتين اللاتينية واليونانية . وكان ملاذه فى وحدته الرهيبة بالنسبة لسنه، كتب الأدب التى كان يختلسها اختلاساً ويتخفى تحت شجرة من أشجار الدير ليقبل على قراءتها فى شغف شديد . فأصبح فى هذه السن ينشد الشعر متغنياً بجمال الطبيعة فى الريف ويترجم الترانيم اللاتينية التى يرتلونها فى المحراب فى صلاة المساء .

منهج فريد فى التعليم يتسم بالعمق ، لا تدانيه المناهج التى كانت مطبقة وقتذاك فى المدارس، كان يقوم على تنفيذه « سادة پور رويال »، أولئك العلماء الزهاد الأفاضل الذين رغبوا عن الحياة الدنيا وكرسوا أنفسهم ووقتهم للعبادة والعلم والفلسفة ، فعاشوا عيشة الزهد والرهبنة وإن لم يكونوا رهباناً .

وحينما بلغ راسين التاسعة عشرة من عمره ، رحل إلى باريس ليدرس

= الذى ساد المجتمع الأوربى فى عصره، ويعمل على إيقاظ العقيدة الدينية لدى الكاثوليكيين، مبيناً عجز العقل البشرى إذا لم تتغلغل العقيدة فى النفوس .

وتعد « الجنسينية » حلا لمشكلة الحرية البشرية ، إذ تقول بأن الإنسان لا يستطيع أى شىء بنفسه ، وأن الله هو الذى يفعل له كل شىء ، وهو الذى يهبه النجاة أو الهلاك . ولذلك نادى هذا المذهب بالتقشف الشديد والأخلاق الصارمة ، كما أشاع نظرية الفضل الإلهى ، التى تحمل العقل على التواضع .

ودخلت الجنسينية فرنسا عن طريق القس دى سان سيران De Saint Cyran وجمعية البوررويال النسوية .

المنطق والفلسفة فى «كوليج دار كور Col'ège d'Harcourt » ثم عمل موظفاً لدى عمه فيترا الذى كان يعمل مديراً لحسابات الدوق دى شفريز والدوق دى لوينس ، فتخلصت نفسه فى باريس من نير الكبت الذى كان يعانيه فى پور رويال ؛ ولم يعد يعيش عيشة العزلة فخالط الشعراء والندماء واتصل بمواطنه جان دى لافونتن (Jean de La Fontaine) . وجد فى هذا الوسط الفنى منطلقاً لعبقريته الشعرية ولحريته الشخصية التى لم تعد تخشى لوماً ولا تأنيباً من أساتذته . شرع ينظم الشعر ، فألف قصيدة يهنئ فيها الملك لويس الرابع عشر بزواجه أسماها «حورية السين» La Nymphe de la Seine عام ١٦٦٠ فكافأه الملك بمائة جنيه ذهب ، وجعل له معاشاً قدره خمسة وعشرون جنيهاً ذهباً . لفتت هذه القصيدة إليه الأنظار فأخذ يعرف فى الأوساط الأدبية ويتردد على الحانات ، ويحيا تلك الحياة الخليعة ويقترض مالا ينفق منه ، مما جعل أساتذته من رجال « پور رويال » وأهله المتدينين يغضبون ، بل يرتاعون ارتياعاً شديداً لأنهم قد علموه ليصبح رجلا فاضلا من رجال الدين . وقد اتفقوا جميعاً على أن يرسلوه إلى عمه الذى كان يشغل منصب كبير قساوسة مدينة « أوزيس Uzès » بإقليم اللنجدوك ليلحقه بمنصب دينى . فرضخ راسين للأمر كارهاً وغادر باريس ليدرس علم اللاهوت على مضض ، إلا أنه ظل يقرأ دواوين الشعر ، ويقرض شعراً غزلياً ويراسل أصدقاءه الباريسيين . ولما لم يوفق هذا العم فى إيجاد عمل له فى « أقل كنيسة » ، عاد راسين راضى النفس

إلى باريس ، موطداً عزمه على أن يشغل منصباً دنيوياً ، معرضاً تماماً عن المناصب الدينية . عاد إلى الأضواء واللهو والمسرح والشعر عام ١٦٦٣ فتعرف ببوالو كبير نقاد عصره وبموليير Molière رائد المسرح الفكاهى ، ولم يعد يقيم لسلطان أساتذة پورروﻳﺎل وزناً . كان قد بلغ العشرين من عمره فتخفف من وطأة ماضيه القريب وأخذ لا يعوقه شىء عن التحرر التام والاستقلال الكامل فى حياته بعد أن مات أقرباؤه ، ولم يعد على قيد الحياة إلا عمة تلبس مسوح الراهبات فى « پور رويال دى شان » أعيتها الحيل فى أن ترد ابن أخيها إلى حظيرة الدين .

عاد راسين إذن إلى أصدقائه الباريسيين ، وأخذ يتردد معهم على المشارب الذائعة الصيت وقتذاك مثل : « الخروف الأبيض » و « صليب اللورين » . . . ورأى عن قرب المخادنات الحرة وتذوق اللذات وعرف الشهوات الجامحة ، ودرس كل ما كان عليه أن يصوره شعراً عذباً فى مسرحياته . وتمت القطيعة بينه وبين أساتذة پور رويال حين ظن أنه هو المقصود بالعبارة التى قالها « نيكول » ، واعتقد أنهم يصفونه « بنافث السم العام الذى لا ينفث سمّه فى الأجسام ، بل فى نفوس المؤمنين » .

لقد حمله اعتقاده الخاطئ على أن يحمل حملة شديدة ، مدفوعاً بحساسيته وبسرعة الإثارة التى كان يتصف بها ، على أساتذته فوجه لهم كتاباً هجائياً ينطوى على هجوم عنيف . وكان فى عزمه أن يتبعه بخطاب آخر لولا أن تدخل فى الأمر صديقه الطيب القلب « بوالو Boileau» فأثناه

عن عزمه. ويروى مؤرخو الأدب الفرنسي أن المقصود بعبارة «نيكول» كان الشاعر القصاص « ديماريه دى سان سورلان Desmarets de Saint-Sorlin» الذى كان قد هاجم فى عنف جماعة البور رويال .

فى تلك السنة أنشأ قصيدة « إبلال الملك من مرضه » وأخذ يعمل للمسرح فكتب مأساة طيبة de Thébaïde عام ١٦٦٤ ، والإسكندر Alexandre سنة ١٦٦٥ ، وقد مثلتهما فرقة موليير المسرحية .

وخلال عشرة الأعوام التالية ألف ثمانى مسرحيات ، تعد من أروع ماكُتب للمسرح الفرنسى هى :

أندروماك Andromaque (١٦٦٧)		المتقاضون Les Plaideurs (١٦٦٨)	
بريتانيكيس Britannicus (١٦٦٩)		برينيس Bérénice (١٦٧٠)	
بايزيد Bajazet (١٦٧٢)		ميتريدات Mithridate (١٦٧٣)	
إيفيجينى Iphigénie (١٦٧٤)		فيدر Phèdre (١٦٧٧)	

ثم اعتزل المسرح تماماً مدى اثنى عشر عاماً ، بعد أن شهد ما لقيته مسرحيته الأخيرة من فشل نتيجة مؤامرة حاكها أعداؤه فى دقة وبراعة حين استكتبوا شاعراً من أتباعهم مسرحية تعالج الموضوع نفسه ، وأقيمت تجربتها فى قصر جينيجو Génégaud ، كما أقيمت تجربة مسرحية راسين فى قصر بورجونيا Hôtel de Bourgogne ، ولم يفصل بين العرضين سوى يومين اثنين . واستأجر الفريق المعادي لراسين المسرحين طوال الليالى العشر الأولى للعرض . وبذلك استطاعوا أن يبعدوا الجمهور الحقيقى عن

مشاهدة مسرحية راسين. ثم أخذ أنصار راسين وأعداؤه يتراشقون بالمقطوعات الهجائية ، وهُدِّدَ راسين وبوالو بالضرب . كانت معركة سلاحها الخديعة والغش ، لا تمت إلى الأدب بأى سبب ، أثيرت من قبل ضد مسرحية إيفيجنى Iphigénie . ولكن تدخل الأمير كونديه الكبير Le Grand Condé وضع حداً لها ، ونالت « فيدر » حقها من النجاح والإعجاب حين استطاع الجمهور الحقيقى أن يجد طريقه إلى المسرح .

كان راسين قد انتخب عضواً فى الأكاديمية الفرنسية عام ١٦٧٣ ، وهو شرف لا يناله إلا القليلون ممن أوتوا علماً واسعاً وثقافة عميقة .

راسين فى بلاط الملك :

يعدّ راسين من شعراء القرن السابع عشر القريبين من قلب الملك لويس الرابع عشر ، كان شاعراً من شعراء البلاط إلا أنه لم يتصف بملق رجال الحاشية . كان يعيش عن قرب مع الأمراء والأميرات فأتيحت له الفرصة ليدرس صفاتهم وعاداتهم وعواطفهم ومشاعرهم وشهواتهم مما كان له أثر كبير فى مسرحياته . وفى سنة ١٦٧٢ أنعم عليه الملك بلقب من ألقاب النبلاء ، ثم عينه هو و« بوالو » ليكتبا تاريخ ملكه عام ١٦٧٧ ، فاعتبر راسين « اختيار جلالته فضلا من الله الذى بعث إليه هذا العمل الهام ليصرفه نهائياً عن الشعر » وأقبل على عمله الجديد إقبالا شديداً وانكب عليه بكل كيانه فرافق الملك لويس الرابع عشر فى حملاته الحربية ، وهدأت

ثورته العارمة التى حملته – وهو فى عنفوان عبقريته رأوج إنتاجه الأدبى وذروة نجاحه المسرحى – على أن يمزق المؤلفات الأدبية التى كان قد بدأها ، وتبددت أزمته النفسية التى أوحت إليه ، وهو لا يزال فى السابعة والثلاثين من عمره، أن يلبس مسوح الرهبان «الشرتريين» ، ويعود إلى الإيمان الهادئ العميق الذى عرفه فى شبابه بين جدران البور رويال فى ظلال أشجاره، وعشرة أساتذته الزاهدين المؤمنين. تبددت الأزمة حين حكم رجال البوررويال على فيدر بأنها « مكتملة الجمال ، مستلهمة من روح المسيحية » ففتحوا بذلك قلوبهم لابنهم التائب الذى كان يبتغى من وراء تأليف هذه المسرحية إصلاح ما بينه وبين أساتذته القدماء ، لأن فيدر هى الوحيدة من بين بطلات راسين التى تشعر شعوراً جلياً بأنها فى سبيل ارتكاب الخطيئة وأنها ارتكبتها لعجز إرادتها عن كبت شهواتها، لأنها محرومة من فضل الله .

هدأت الثورة وتبددت الأزمة واستجاب راسين لمشورة أهل التقوى والورع ، فاستمع لنصيحة القس الذى كان يتلقى اعترافه وأقدم على الزواج ليحيا حياة طيبة كريمة . وفى أول يونيو عام ١٦٧٧ تزوج كاترين دى رومانيه "Catherine de Romanet" وهى فتاة برجوازية ساذجة ، طيبة ومثقفة ، ولكن جمال الشعر كان لا يستهويها ، ويروى أنها لم تقرأ مؤلفات زوجها ولم تدخل مسرحاً من المسارح . ولكنها أنجبت له ولدين وخمس بنات . وأخذ يحيا فى أسرته الحياة المباركة ، يعلم أولاده بعيداً عن الأضواء الزائفة ، ويقرأ لهم الإنجيل ويفسر لهم ما يسمعون،

لا يقرض شعراً ولا يؤلف مسرحية . وقد أصبح ابنه الأصغر لويس شاعراً مجيداً بدوره . غير أن راسين لم يستطع أن يرفض رجاء « مدام دى مانتنون » حين طلبت منه أن يكتب « مسرحية أخلاقية أو تاريخية تخلو من الحب تماماً » لفتيات معهد « سان سير » Saint-Cyr الذى كان يضم مائتين خمسين طالبة من بنات النبلاء الفقراء تشرف هى على تعليمهن . استجاب راسين لرجائها فألف استير (١٦٨٩) وأتالى (١٦٩١) ، مستوحياً موضوعى المسرحيتين من التوراة والإنجيل .

غير أن أخريات أيامه شابها حزن عميق ، لأن حساسيته الشديدة قد جعلته يشعر بإعراض الملك عنه وإن ظل يتبع الحاشية فى تنقلها بين قصرى مارلى وفونتنبلو . وقد اختلف مؤرخو الأدب الفرنسى فى تفسير أسباب هذا الإعراض ، فذهب قوم إلى القول بأن راسين قدم للملك مذكرة تتناول « شقاء الشعب » ويزعمون أن جواب لويس الرابع عشر كان قوله : (هل يريد أن يكون وزيراً لأنه شاعر كبير ؟) ويزعم آخرون أن سبب الفتور فى علاقة الملك بشاعره هو أن راسين ألح إلحاحاً شديداً فى أن يعفى من دفع إحدى الضرائب .

ويخيل إلى أن السبب الحقيقى أعمق من هذا ، فلويس الرابع عشر كان قد انتشل راسين من أزمته النفسية عام ١٦٧٧ وعينه مؤرخاً يكتب له تاريخ ملكه ، ليبقى عليه مدنياً ويباعد بينه وبين رجال البور رويال ، كما عين فى الآونة نفسها وفى العمل ذاته بوالو الذى يعد أوفى أصدقاء

راسين وخير ناصح وأخلص المعاصرين له . ولكن الملك رأى بعد ذلك أن راسين قد تقرب تقرباً شديداً إلى رجال البور روبال ، وأصبحت الجنسينية هى الطابع العميق الذى يطغى على حياته اليومية وتصرفاته ، كما كوّنوا من قبل ذوقه ومنحوه حسّه الممتاز بالنسبة للثقافة اليونانية القديمة .

لقد بدأ اضطهاد البور روبال سنة ١٦٣٨ ، ولكنه استمر طوال القرن كله ، كما امتدت نتائجه خلال القرن الثامن عشر . ويالها من حرب ضروس دارت رحاها بين البورروبال من ناحية وبين السلطة المدنية ومناصريها اليسوعيين من ناحية أخرى . فلم يترك أعداء المذهب الجنسيني وسيلة لسحق الجنسينيين إلاّ استخدموها : فأغلقوا مدارس البورروبال وبددوا شمل الزاهدين مرات ومرات وطردوا الراهبات ، بل هدموا البور روبال نفسه فى سنة ١٧١٠ ، كما هدموا كنيسته ومقبرته ، وما ذلك إلا لأن البور روبال كان يعتبر فى ذلك الوقت المركز الدينى للكنيسة الجديدة ، يولى الناس وجوههم شطره من جميع أنحاء العالم . ولكن لم يكن لكل ذلك أثر كبير ، ولم يفلحوا فى قتل الجنسينية . غير أننا نتساءل هل كان راسين واهماً فى حزنه ؟ وهل كان الملك صادقاً حين تحدث إلى بوالو عن راسين « بطريقة تغرى رجال الحاشية بأن يتمنوا الموت لو ضمنوا أن جلالته سيتحدث عنهم كما تحدث عن راسين » ؟

ومهما يكن من شيء ، فقد مات راسين محزوناً عام ١٦٩٩ بين أفراد

أسرته وصديقه الهرم الوفى بوالو ، ودفن كما أوصى بجوار قبر أحب أساتذته القدامى إليه وهو السيد آمون Hamon بمقبرة البور رويال ، وحينما هدمت هذه المقبرة ، نقلت رفاته إلى كنيسة سانت إتيين دى مون Saint-Etienne-du-Mont سنة ١٧١١ ، حيث نقرأ تأريخ وفاته باللغة اللاتينية من تأليف صديقه الوفى بوالو .

أما ابنه الأكبر جان باتيست فقد عاش أعزب ومات فى التاسعة والستين من عمره . وكان ابنه الأصغر لويس راسين شاعراً يعرف له الأدب الفرنسى « الفيض الإلهى » و « الدين » . ثم ألف كتاباً عن حياة والده ، ورزق بولد مات فى الهزة الأرضية التى حدثت بلشبونة عام ١٧٧٥ . أما بنات راسين الخمس فقد تزوجت إحداهن وأصبحت ثلاث منهن راهبات .

مسرح راسين بين التقليد والتجديد

مرحلة التقليد :

لم تكن هناك دلائل قبل عام ١٦٦٧ تشير إلى أن راسين قادر على أن يكتب مسرحيته الرائعة أندروماك . لقد كان حتى ذلك التاريخ شاعراً رقيقاً يصف الطبيعة ويتحدث عن الحب ويمدح مليكه فى شعر سهل يسير ، وينال إعجاب مواطنيه وتقدير الملك لويس الرابع عشر فمنحه معاشاً قدره خمسة وعشرون جنيها ذهباً ، على نحو

ما ذكرنا من قبل . وكان هذا الشاعر الشاب قد ألف مسرحيتين تنطويان على الكثير من تأثير معاصريْه « بيير كورنى Pierre Corneille » و« فيليب كينو Philippe Quinault » وعلى القليل من عبقرية راسين المسرحية .

مأساة طيبة : La Thébaïde

مأساة طيبة أو الأخوَان العدوان (١٦٦٤) ، أولى محاولاته المسرحية . إنها تساير فن كورنى وتوائم ذوق العصر وقتذاك . كانت مشهداً مفزعاً لكوارث كبرى ، تضج نهايتها بالقتلى والمنتحرين ، تقاتل الشقيقان « إتيوكل وبولينيس » ولدى « أوديب » قتالا مريراً على عرش طيبة حتى قتل كل منهما الآخر ، ثم قتل « هيمون » حبيب أختهما « أنتيجون » وهو يحاول الحيلولة بينهما ، ويشتد الحزن بأمهما « جوكاست » فتقتل نفسها ، وتنتحر « أنتيجون » حسرة وهلعاً على أخويها ومرارة وولعاً على قتل حبيبها هيمون . ويقضى كريون على نفسه بعد أن تحقق له ما كان يصبو إليه ، حين خلا له العرش وكاد يتبوأه . لقد عمل كريون جاهداً على تأجج نار العداوة والبغضاء بين الأميرين ولدىْ أخته ، وبث الفرقة بين الناس ليتقاتلوا وأوقع بين اليونانيين وأهل طيبة ليناصر أولئك ايتوكل ويناصر الآخرون بولينيس؛ لا يرعى عهد القرابة ولا تحركه عاطفة الأبوة . يضحى ابنه مينسيه بنفسه ، بعد أن يتقدم وسط المعسكرين دون وجل ويهتف باليونان وأهل طيبة قائلا : « قفوا أيها المتوحشون ! اعملوا حكم القدر الذى

قضى أن يضع حداًّ لشقائكم . إننى آخر دم من نسل ملوككم ، وقد فرضت عليه الآلهة أن يسفك ، فتقبلوا هذا الدم الذى ستريقه الآن يدى ، وتقبلوا السلام الذى لم تطمح إليه خواطركم » ، ولكن التضحية لا تثنى « كريون » عن عزمه ويمضى فى خطته حتى النهاية ، منافساً ابنه هيمون فى حب أنتيجون ، معتبراً ولده غريمه فى الحب . نسمعه يتحدث إلى وصيفه « أتال » قائلا :

— « إن الحرب أشد فتكاً بى منها بأعدائى ، وغضب السماء يجعلها علىّ فادحة القسوة ، فهو يتسلح بمأربى ضدى ، ويستخدم ذراعى ليطعن بها صدرى . لقد اشتعلت الحرب ، نكاية بى ، حينما فارقنى هيمون لينضم إلى پولينيس ، وأصبح الشقيقان بسعيى عدوين ، وأصبحت يا آتال عدو ابنى . وأخيراً ، مضيت اليوم أعمل على نقض الهدنة ، وأستنفر الجند ، فيثور المعسكر بأجمعه ويدور القتال ، وإذا بوالدى القانط يموت ، ويتوقف القتال فى معركة جهدت فى إعدادها . ولكن بقى لى ولد ، وأشعر أنى أحبه ، ولو أنه متمرد علىّ بل غريمى فى الحب . إنى أريد أن أطيح بأعدائى دون أن نطيح به . وما أبهظ ما يكلفنى ذلك إن كان ولداى ثمناً له .

غير أن تباغض الأميرين قد استفحل ، فلا تظنن أنه يرتضى السلام إطلاقاً . وإنى لمتقن إذكاء هذا البغض حتى يقضى عليهما تماماً ، دون أن يدع لهما سبيلا إلى أن يتحابا[1] . إن سائر الأعداء لا يتباغضون إلا لأمد

---

(١) الفصل الثالث ، المشهد الثالث .

قصير ، وأما إذا فصمت عُرى الطبيعة ، أيهما العزيز أتال ، فلن يفلح شيء فى أن يجمع شمل أولئك الذين لم تستطع تلك العُرى الوثقى أن تربطهم جميعاً . والمرء يغلو فى البغض حينما يبغض أخاه . ولكن تباعدهما يخفف من بغضهما ، فمهما نضمر من بغض لعدو متكبر ، فإننا نفقد نصف هذا البغض إذا كان العدو بعيداً عنا . فأقلع إذن عن العجب من أننى أعمل على أن يلتقيا ، إنى أريد — إذ يلتقيان — أن يندفع حنقهما وأن يتذكرا ضغنهما ، وبدلا من أن يقضيا عليه ، فسيخنق كل منهما الآخر يا أتال ، إذا هما بالتعانق » .

أتال : لم يعد عليك ، يا مولاى ، أن تخشى سوى نفسك ، فمع التاج — يحمل المرء الندم .

كريون : حينما يرتقى المرء العرش تستأثر بعنايته مهام أخرى عديدة ، ويصبح الندم أهون ما يثقل علينا : فالنفس التى تستحوذ عليها لذة الملك تحول خاطرها عن الماضى بأسره ، والروح التى نأت عن كل غرض آخر تعتقد أنها لم تعش ما لم تملك .

ولكن هلم ، فليس الندم هو الذى يغشانى ، ولم يعد لى فؤاد ينفره الإجرام .

إن الكبيرة الأولى تكلف مرتكبها بعض الجهد ، بيد أن المرء ، يا أتال ، يقترف الثانية بلا ندم »[1] .

---

(١) الفصل الثالث : المشهد السادس .

غير أننا نرى الطاغية كريون يتهالك فى نهاية المسرحية ، لأن للأطماع البشرية — مهما استفحلت — حدًّا تقف عنده . علم بانتحار أنتيجون فانهار انهياراً شديداً واستيقظ ضميره أخيراً فأخذ يصيح قائلا :

— « وهكذا — أنتيجون — عرفت تفرين من عاشق بغيض ، وبيدك أيتها القاسية تطفئين عينيك الجميلتين . تغمضين إلى الأبد هاتين العينين الساحرتين اللتين أعبدهما . ولكيلا تريانى أردت أن تطبقيهما إلى الأبد ! ولو أن هيمون عزيز عليك ، إلا أنك تلوذين بالمنية رأنت أشد إيثاراً لأن تتجنبينى منك لأن تتبعى خطاه .

ولكن ، إذا كنت تمادين فى القسوة علىّ ، وكان مكانى فى الجحيم بغيضاً لديك وظل سخطك بعد المنية حيًّا ، فإنى — أيتها المتوحشة ملق بنفسي وراءك . سوف ترين هناك دائمًا من تبغضين ، وسوف تردد زفراتى لك ألمى دائمًا ، لتستعطفك أو لتعذبك ولن تستطيعى بعد ذلك أن تموتى مرة أخرى كى تتجنبينى ، فلنمت إذن . . . »

آتال : آه ، مولاى . . . يا لها من نزعة قاسية . . .

كريون : آه . . . إنك لتغتالنى بالإبقاء على حياتى . أيها الحب والغيظ والطرب ، هلموا إلى نجدتى ، هلموا وضعوا حدًّا لأيامى الكريهة . . . أحبطوا عقبات كل هؤلاء الأصدقاء القساة . . . وأنت أيتها السماء ، برهنى على صدق نبواتك ! . . إننى آخر سلالة لايوس التعيس . . . أهلكينى ، أيتها الآلهة القاسية ، وإلا بوئى بالخسران . . . استردى ،

استردى هذا السلطان المشئوم . إنك تنتزعين منى أنتيجون ، فانتزعى كل شىء آخر . إن العرش ونعمك جميعاً تثير سخطى . لا أريد منك سوى صاعقة . فلا تأبيها على مناى ، بل على آثامى . أضيفى تعذيبى إلى سائر أولئك الضحايا العديدين . ولكنى عبثاً ألح عليك ، وقد أخذ ما اقترفت من جرائم يشعرنى بجميع الأوزار التى ارتكبتها . إن بولينيس و إيتوكل وجوكاست وأنتيجون وولدىّ اللذين أهلكتهما فى سبيل صعودى إلى العرش وسواهم من عديد الأشقياء الذين تسببت فى آلامهم ، قد أخذوا يعملون فى مهجتى عمل الجلادين . قفوا . . . فإن مصرعى سوف يثأر الآن لهلاككم ، ستنقض الصاعقة ، ولقد انفغرت الأرض ، إنى أتجرع فى آن واحد ألف لون من سوء العذاب ، وسأمضى ألتمس الراحة فى الجحيم »[١].

كتب راسين هذه المسرحية وهو فى الخامسة والعشرين من عمره ، فلا غرو أن قلد كورنى ، أستاذ المسرح فى تلك الفترة ، وحشد فى مسرحيته سبعة من القتلى ، فأصبحت مهشداً « للأرواح العظيمة » ، تلك الأرواح التى تتملكها الأطماع البشرية وتسيطر عليها الجريمة وتتنازعها الأهواء كما تستولى عليها البطولة .

أما موضوع المسرحية فقد استقاه من استاس[٢] Stace وهى

---

(١) الفصل الخامس . المشهد السادس .

(٢) استاس : شاعر لاتينى ولد فى مدينة نابولى (حوالى ٤٠ – ٩٦ ميلادية) . ألف ملحمة حرب طيبة والسلفيات فى أسلوب بديع و إن لم يخل من التكلف .

حرْب طيبة التى وقعت فى القرن الرابع عشر قبل الميلاد . وخير ما توصف به هذه المسرحية تلك الكلمة التى قالها لويس رابين : « إنها مجرد محاولة لعبقرية حققت لنا الآمال الكبرى » .

ثم هى بعد ذلك كله تدور أحداثها حول فكرة واحدة عبر عنها راسين ، حين قال :

« مصلحة الدولة فى ألاّ يكون لها سوى ملك واحد » .

● **الإسكندر أو الإسكندر الأكبر (١٦٦٥) : Alexandre (le Grand)**

استقى راسين موضوع هذه المسرحية من المؤرخ اللاتينى « كنت — كورس Quinte-Curce » الذى عاش فى القرن الأول الميلادى وألف « تاريخ الإسكندر » وهو تاريخ « رومنسى » أكثر منه حقيقى .

صاحبت هذه المسرحية بعض أحداث ، فقد قرئت فصولها الثلاثة الأولى ونصف الفصل الرابع فى مستهل سنة (١٦٦٥) بقصر نيڤير على مسمع من « مدام دى لافايت ولاروشفوكو وبوالو » وغيرهم من كبار رجال الرأى والأدب فى ذلك العصر . وبعد أن فرغ منها راسين ، ذهب بها إلى كورنى ليبدى رأيه فيها فأثنى على شعره ، ولكنه وجد أن المؤلف الشاب لا يجيد نظم الشعر الدرامى . ومثلتها فرقة موليير على مسرح الباليه رويال لأول مرة فى الرابع من شهر ديسمبر من نفس العام ، ولكنها لم تمكث فى هذا المسرح سوى خمسة عشر يوماً ، ثم سحبها راسين لتمثل

على مسرح قصر بورجونيا لعدم رضاه على ممثلي الفرقة . فغضب موليير وزاد غضبه حين استطاع راسين أن يغرى خير الممثلات وهى مدموازيل دى بارك فجعلها تترك فرقة موليير لتمثل فى قصر بورجونيا . فكانت القطيعة بين الصديقين ، التى يرى فيها بعض مؤرخى الأدب كل الخير لراسين ، لأنه وجد نفسه وطابعه الخاص فى أعماله المسرحية ، كما كانت مسرحية الإسكندر فاتحة صراع شديد بين راسين وأنصار كورنى : لقد استولى عليهم ذعر شديد حين رأوا أن هذا المؤلف الشاب يلقى نجاحاً كبيراً وأن الجمهور يقبل إقبالا شديداً على مشاهدة الإسكندر كما أقبل من قبل على مأساة طيبة .

لقد جمعوا أمرهم واستعدوا للوقوف فى وجه هذا الشاب حتى لا يقضى بفنه وأدبه على شيخ المسرح الدرامى پيير كورنى الذى يكبر راسين بثلاثة وثلاثين عاماً . وظلت المعركة قائمة طوال اثنى عشر عاماً ، يتربصون لكل مسرحية لينقدوها نقداً مريراً تارة ويؤلفوا مثيلة لها تارة أخرى ، أو يحولوا بين الجمهور الحقيقى وبين مشاهدة المسرحية إلى غير ذلك من المناورات التى كانت تعمد إليها دوقة بويون Bouillon ودوق نيڤير Nevers وغيرهم من عصابة « الظرفاء » أعداء راسين وحساده ، حتى اشتد به الألم واستولت عليه الأزمة النفسية التى أشرنا إليها من قبل وحملته على أن يترك المسرح سنة ١٦٧٧ بعد معركة فيدر (Phèdre) .

أما موضوع المسرحية فهو أن الإسكندر الأكبر كان قد فرغ من

فتح بلاد الفرس ، واتجه إلى الهند . وكان يحكم تلك البلاد وقتذاك ملكان هما بوروس وتاكسيل اللذان يحبان الملكة أكسيان ويتنافسان فى طلب يدها . والإسكندر فى طريقه إلى بلادهم يهدد ممالكهم جميعاً . غير أن كليوفيل — أخت الملك تاكسيل — تحب الإسكندر وتتلقى منه رسائل الغرام ، فتنصح أخاها بألا يدخل فى حرب ضد الإسكندر بل يستسلم له . ولكن بوروس وأكسيان يبغضان الفاتح المقدونى ، وقد عزما على الدفاع عن بلادهما ، واحتقرا الملك تاكسيل لاستسلامه لمشورة أخته .

فإذا ما كان الفصل الثانى وجدنا الإسكندر يبعث رسوله أفستيون ليعرض السلام على الملكين ، فيصده بوروس فى عنف شديد ، معلناً الحرب على الإسكندر . أما تاكسيل فيظهر ميله بقبول تلك الصداقة السامية منذ الوهلة الأولى . ولكن أكسيان تثير نخوته وتتوسل إليه فيتردد بين قبول الصداقة وامتشاق السلاح لمحاربة الإسكندر . ثم نراها تلمح لبوروس أنه هو وحده الذى يملك قلبها .

وفى الفصل الثالث يأتى تاكسيل مبهور الأنفاس ليعلن لأخته وللملكة أن بوروس قد منى بالهزيمة . ثم لا يلبث الإسكندر أن يحضر فيفضى بحبه لكليوفيل ويعدها بإتمام الزواج بين أكسيان وتاكسيل .

ثم نرى فى الفصل الرابع أكسيان تنتحب باكية بوروس الذى نبئت بموته وتؤكد أنها لن تتزوج إلا بمن ينتقم لموت بوروس .

على أن الفصل الخامس يتضمن أخباراً ترد فجأة منبئة بظهور بوروس

الذى يقاد أسيراً أمام الإسكندر بحضور الملكة أكسيان والأميرة كليوفيل فيعلن موت تاكسيل الذى جاء يتحداه فى ميدان المعركة . وعندئذ يعيد إليه الإسكندر ولاياته ويبارك زواجه من أكسيان .

هاجم النقاد هذه المسرحية ، وكان أهم نقد هو البحث الذى كتبه « سانت إفريمون Saint-Evremond » وأسماه « بحث عن الإسكندر : Une Dissertation sur Alexandre » أخذ فيه على راسين تمويع شخصية الإسكندر فقد جعل من أعظم فاتح فى العصور القديمة مجرد عاشق ولهان على الطريقة الرومنسية . والواقع أن راسين قد تأثر تأثراً واضحاً بمعاصره الشاعر كينو[1] فى هذه المسرحية ، إذ أن أحاديث الحب تترى فى كثرة شديدة ، حتى لا يكاد يخلو مشهد من مشاهد المسرحية من تأوهات الغرام وتنهدات القلوب وسحر العيون وقيود الحب . . . إنه حب يعبر القارات يولد فى قلب الإسكندر باليونان فيستجيب له قلب كليوفيل فى أطراف الهند . . . « حب يوجه قدمى الإسكندر ، ويجعله يسعى إلى كليوفيل وهو يعدو إلى المعارك . من أجلها شوهد وهو يقهر كل هؤلاء الأمراء ويخترق الهند

(١) كينو Quinault (١٦٣٥ – ١٦٨٨) بدأ حياته الأدبية بكتابة مسرحيات فكاهية فى نهاية عام ١٦٦٥ مثلت مسرحيته « الأم المتأنقة La Mère Coquette » وهى مسرحية شعرية رائعة ، ظلت تمثل مدة طويلة وتمتاز بشعرها السهل البديع . عرف النجاح قبل أن يعرفه راسين فكانت مسرحياته الفكاهية تلقى إعجاباً شديداً من الجمهور وخاصة تلك الكتيبات التى ألفها للأوبرا ووضع موسيقاها « لولى Lulli » مثل پروزربين Proserpine وأرميد Armide وغيرهما، فهى تتسم بالاتساق الجميل والشاعرية الرقيقة . أما مسرحيته الدرامية أسترات Astrate (١٦٦٣) فلم تلق من بوالو سوى السخرية والاستنكار .

مندفعاً بقوة وعنف ، ويحطم فى عبوره بشدة ضرباته كل ما كان يعترض طريقه للوصول إليها . . . إن هذا الفاتح الخجول يخشى بعد كل هذه الانتصارات أن يكون ما زال بعيداً عن قلبها ! . . . وماذا يفيده الجرى من بلد إلى آخر إذا كان محتوماً أن تغلق كليوفيل فى وجهه السبيل إلى قلبها ، وإذا كانت تحاول كل يوم الشك فى حبه حتى لا تستجيب لتمنياته الصادقة[1] ؟ . . . »

هذا هو بعض حديث أفستيون كاتم سر الإسكندر لكليوفيل حبيبة مولاه ، أما الإسكندر نفسه فقد أجرى راسين على لسانه ما لا ينطق به إلا أمير فرنسى شاب قد ولّهه الحب أو أضناه الغرام أو أتقن فن مغازلة النساء . يتحدث الإسكندر الأكبر إلى معشوقته قائلا : « إن أكاليلى التى أتوج بها أصدقائى والأموال التى كسبتها بحق الفتح التى أنثرها على رءوسهم ، كل هذا يدل على أننى أتحرق شوقاً لغزو آخر . كنت قد وعدتك بأن يقربنى ساعدى بعد قليل من سحرك المقدس ، ولكن أتذكرين يا سيدتى أنك وعدتنى فى ذلك الوقت نفسه ببعض المكانة فى قلبك ؟

ها أنذا قد أتيت : لقد حارب الحب من أجلى ، كما حافظ النصر نفسه على جهدى .

إن كل شىء حولى خاضع لى ولم يبق إلا أنت . لقد وعدنى قلبك بذلك ، فهل تراه يريد أن يدافع عن نفسه ؟ وهل يستطيع هو وحده

---

(١) من حديث أفستيون لكليوفيل ، المشهد الأول ، الفصل الثانى .

الهرب اليوم إزاء شجاعة منتصر لا يسعى إلا إليه[١] ؟ » .

ثم يتحدث إلينا راسين نفسه فى المقدمة الأولى لهذه المسرحية قائلا :

« على أن أهم اعتراض وجه إلى موضوع المسرحية أنه سرف فى البساطة ، بل سرف فى العقم . وليس فى وسعى أن أعلم هؤلاء المعترضين تذوق التاريخ القديم الذى أرى أنهم لا يعرفون منه إلا تفاهاته . ولكن لماذا يشكون ، إذا كانوا يرون مناظرى حافلة ، وأنها ترتبط ببعضها ارتباط ضرورة ؟ وإذا كان جميع أشخاصى لا يظهرون على المسرح إلا وهم يعرفون الباعث الذى دفعهم للظهور عليه ؟ ثم إذا كنت قد وفقت — باستغلال قليل من المادة وقليل من الأحداث — فى كتابة مسرحية لعلها جعلت أذهان هؤلاء النقاد أنفسهم تتعلق بها ، بالرغم منهم ، منذ البداية حتى النهاية ، أفهذا مما يعاب ؟ »

الواقع أن النقاد رأوا جديداً فى هذه المسرحية لا عهد لهم به من قبل ، فقد درجوا على أن يروا فى المسرحيات الكورنوية ملابسات كثيرة غريبة وأحداثاً متداخلة ومفاجآت غير معقولة تطرأ من الخارج على المواقف والأشخاص على السواء ، ومشكلات مختلفة وأزمات مفتعلة . أما مسرح راسين فيعالج النفوس البشرية بما فيها من عواطف ومشاعر وبما تنطوى عليه من خير أو شر ، ويعرض ألوان الصراع التى تعتمل داخل هذه النفوس فتوجه أعمال أشخاصه وتدفعهم دفعاً إلى طريق القدر المحتوم

---

(١) الفصل الثالث ، المشهد الثالث .

لا يعوقهم عائق ولا تقف فى سبيلهم عقبات .

سمة البساطة التى تؤخذ عليه هى دعامة ثورته المسرحية ، هى فنّه الجديد الذى يطبقه فى صدق وإخلاص فى جميع مسرحياته وعلى الأخص فى مسرحية برينيس التى تفوّق فيها على كورنى تفوقاً كبيراً حين نازله فى تأليف مسرحية موضوعها سهل يسير ، لا يتعدى موقفاً واحداً هو : وداع حبيبين ، شاءت الأقدار أن تفرق بينهما على نحو ما سنرى حين نتحدث عن برينيس . فالمسرح لدى راسين ليس إذن حركات تمثيلية ولا أشباحاً تحوم فى أرجائه ولا خناجر توضع عن قصد فى أيدى الممثلين مما يغرى حب الاستطلاع لدى سواد الجماهير التى تشاهد مسرحيات كورنى أو شكسبير ، وإنما هو مسرح النفوس البشرية. أما الأحداث فليست فى فن راسين إلا تعبيراً عن بعض عواطف هذه النفوس أو علة لمشاعرها أو أثراً من آثار غرائزها .

وهنا يستطيع الممثلون أن يشدوا انتباه النظارة ويستولوا على مشاعرهم من مشهد إلى مشهد ومن فصل إلى فصل كى يدركوا إدراكاً واعياً تطور موضوع القصة ، ويعرفوا كيف ينتصر القلب على العقل وكيف تتغلب عاطفة على أخرى ، وكيف ينمو شعور ويقوى فينطلق ثائراً ؛ أو كيف يفتر ويضعف فيهدأ صاحبه ويستسلم مذعناً . ومقدرة المؤلف الدرامى حقًّا فى إظهارنا على اتجاهات مشاعر أشخاصه وأسبابها الخفية والكشف عن الحوافز الدفينة التى تظهر على غير علم منهم خلال أحاديثهم وتصرفاتهم .

* * *

مرحلة التجديد والأصالة

أندروماك (Andromaque) :

مصادر المسرحية ، مصدرها الرئيسي : فرجيل ، الإنيده ٣ – ٥ ، الأبيات من ٢٩٢ – ٣٣٢ ، إلياذة هوميروس ، وأندروماك لأوريبيد .

تدور أحداث هذه المسرحية فى إيبير بقصر « بيروس » بن أخيل .

يطالعنا الفصل الأول بوصول أورست إلى بلاط بيروس حيث يلتقى بصديقه الوفىّ بيلاد – ويدلنا حديثهما على أن أورست قد أوفده اليونانيون ليطالب بيروس بتسليم الطفل أستياناكس بن هكتور الذى يعيش مع أمه أندروماك فى بلاط بيروس . غير أن هذه المهمة كانت محببة إلى قلب أورست ، لأنه يحب هرميون – خطيبة بيروس – التى زهدت فى حب أورست وفضلت الزواج ببيروس . ويذكر لصديقه بيلاد أنه علم أن بيروس قد وقع فى غرام أندروماك ، فنسى هرميون . لم يوافق بيروس على تسليم الطفل إلى اليونانيين ، ولكنه يطالب أندروماك أن تتزوج به فى الحال . غير أنها تريد أن تظل وفية لذكرى زوجها البطل هكتور .

ونرى فى الفصل الثانى أن هرميون قد استولى عليها الحنق والغيظ والغيرة لهوان شأنها وهى الأميرة الإغريقية الجميلة ، حين فضّل بيروس عليها تلك الأميرة الطروادية ، وأخبرت أورست أنها ستعود معه إلى بلادها . غير أننا نرى من ناحية أخرى أن بيروس قد استولى عليه الملل من شدة

صدود أندروماك ، فيعلن بالرغم من تردده أنه سيتزوج هرميون .

ونرى فى الفصل الثالث مقدار الخيبة التى أصابت أورست فى أعز أمانيه ويكشف لنا عن يأسه البالغ ، ثم عن مدى سعادة هرميون . نرى أندروماك تركع عند قدمى هرميون ، ترجوها أن تحمى ولدها أستياناكس . غير أن هرميون تنهرها فى عنف وقوة واحتقار . فتتجه أندروماك إلى بيروس تتوسل إليه، فيطالبها بأن تختار أحد الأمرين إما أن تتزوجه فى الحال ، فيحمى ولدها ويشرف على تنشئته وإما أن يسلمه إلى اليونانيين .

فإذا ما كان الفصل الرابع نجد أندروماك تعتزم الزواج ببيروس لتضمن لابنها الحماية ، على أن تقدم على الانتحار بعد أن تتم مراسم الزواج فى المعبد وفاء لزوجها هكتور . ثم تزداد هرميون ثورة وغيظاً وحسرة فتعهد إلى أورست بقتل بيروس ، وترد على اعتذاراته بلوم مرير وتهديد شديد فى ثورة عارمة .

أما الفصل الخامس فيحمل لنا الصورة القاتمة : هرميون فريسة لحبها وغضبها ، وأورست يقدم على قتل بيروس فى المعبد تلبية لطلب هرميون . غير أنها تثور عليه ثورة عنيفة لتغلب عاطفة الحب لديها على كل عاطفة أخرى ، وتهرع إلى المعبد لتقتل نفسها على جثة بيروس .

وعندئذ يصاب أورست بالجنون ويأتى إليه صديقه بيلاد ليخلصه من غضب شعب الإيبير الذى ثار لاغتيال مليكه .

* * *

لأندروماك فى الأدب الفرنسى أهمية تعادل أهمية « السيد (Le Cid) لكورنى Corneille » ، وإذا كانت مسرحية كورنى قد وصفها النقاد بالروعة وضرب بها المثل حين كان يقال : « جميل كالسيد » فإن أندروماك بدورها تتسم بالبساطة وتوصف « بأنها طبيعية وحقيقية » ، وإن كان كل مشهد فيها ينطوى على معركة من المعارك على حد تعبير فولتير [١]. وتتمثل هذه المعارك فى الصراع الشديد بين العواطف والمشاعر والشهوات ونزوات القلوب والغيرة والكراهية والأنانية والوحشية . . . وهو صراع يعبر تعبيراً صادقاً عن الحياة البشرية الحقيقية . ولكن من أين لراسين بكل هذه القوة وهذه الخبرة وتلك المعرفة العميقة بالعواطف البشرية ؟ لنستعرض تحليلا موجزاً لمسرحية أندروماك بعد أن عرفنا موضوعها ، لنتبين مدى هذا الصراع فى الحياة البشرية وكيف يؤدى إلى أحداث متشابكة ، يعرض بعضها للبعض الآخر ويتداخل بعضها فى بعض فى تحليل نفسى رائع إلى أن تقودنا إلى عقدة المسرحية .

تحليل المسرحية :

إن وحدة المسرحية لدى راسين أوضح منها فى مسرح كورنى ، وتمثل أندروماك الكمال الكلاسيكى للمأساة . فكل العناصر قد كشفت عن نفسها فى الفصل الأول ، غير أن تطور الشهوات فى قلوب أشخاص

---

(١) خطاب إلى الأب پوريه Père Porée فى ١٥ من يناير سنة ١٧٣٩ .

المسرحية وتأثير كل منهم على الآخرين هو الذى يؤدى فى سلسلة من الأحداث مرتبطة أشد الارتباط إلى عقدة المسرحية فنهاية المسرحية تبدو لنا واضحة من الدلائل التى يتضمنها الفصل الأول لو فطنا إلى طابع الأشخاص : فأندروماك سيدة فاضلة وعاقلة تواجه ثلاثة أشخاص بعيدين عن الفضيلة والعقل . وبينما هى لا تشغل نفسها إلا بالقيام بواجبها كأم وزوجة وفية لذكريات هكتور ، نرى الآخرين قد أعماهم الحب : فبيروس لا يفكر إلا فى زوجة هكتور السابقة ، وهرميون لا يشغلها إلا حب بيروس ، وأورست لا يفكر إلا فى غرامه بهرميون . هؤلاء الثلاثة معلقون بقرار أندروماك ، واتخاذ هذا القرار هو الذى يقودنا إلى جميع أحداث المسرحية .

وأندروماك بسبب سموها الخلقى هى التى تمسك بمصائر أشخاص المسرحية .

ولكن ما هى مراحل هذه المسرحية ؟

تتجلى قوة هذه المسرحية فى أن بيروس يراوده الأمل فى أن تستجيب أندروماك لحبه فتحقق رغبته بالزواج منه ، وعندئذ يرفض أن يسلم ابنها استياناكس إلى اليونانيين . فمصير ولدها متوقف إذن على قرارها ثم ما هى الآثار التى تترتب على رفض أندروماك ؟

يبدو لنا بيروس وقد تخلى عن هرميون ، وقد نتج عن هذا الهجر

غضب هرميون واستقبالها لأورست الذى يكاد يطير سعادة وفرحاً ويعدها بأنه سينفذ كل ما تطالبه به .

غير أن أندروماك تصدّ بيروس دون هوادة ، فيترّتب على هذا الصدد أن يعود بيروس إلى هيرميون التى تسعد بعودته سعادة كبيرة بينما يغضب أورست غضباً شديداً .

على أن أندروماك تنتهى إلى خطة نهائية فتلبي رغبة بيروس لتجعل منه حامياً وسنداً لولدها أستياناكس : لقد أهانتها « هرميون » إهانة بالغة حين التقيتا فى المشهد الأول من الفصل الثالث فلا مفر لها إذن من أن تدافع عن كرامتها مستعملة أسلحتها التى تنطوى على دلال مشوب بالفضيلة والعفة .

النتائج الخطيرة لهذا القرار :

غضبت هرميون وثارت ثورة عارمة وأخذت تعدّ العدة للانتقام ، وأطاعها أورست طاعة عمياء ، متخلياً عن مثله العليا حين قبل أن يقتل بيروس الذى سلك بدوره مسلكاً متهوراً فى غمرة فرحته خلال إعداد العدة للزواج ، فيقتل على مذبح المعبد بتدبير من هرميون وتنفيذ من جانب أورست ورجاله .

يترّتب على هذه النهاية صراع دموى ، نتج عنه ازدواج فى مشاعر هرميون :

غضب ثائر قبل مصرع بيروس ويأس قاتل بعد موته .

كالت السباب لأورست ، ثم انتحرت على جثة حبيبها .

كما يتصف أورست بضعف مزدوج يتجلى فى طاعته العمياء قبل ارتكاب الجريمة ويأسه الشديد حين استبان له نكران الجميل من جانب هرميون . وينشأ عن هذا أن أصيب بمس من الجنون .

والحق وحده هو الذى ينتصر بانتصار أندروماك .

راسين شاعر العواطف :

هذا هو الطابع العام لمسرحيات راسين الذى يؤمن بأن الشهوات أو المشاعر البشرية تنطوى على قوى انفجارية تكمن فى قلب الإنسان . وإذا انطلقت من مكمنها أدت إلى ظهور الوحشية الطبيعية لدى أعرق الأشخاص حضارة . غير أن الحب هو أعنف هذه العواطف وأرهبها ، وهذا هو السبب فى أن الحب هو مركز الثقل فى مسرح راسين .

وهذه العاطفة التى تصل أحياناً إلى حد القسوة ، تحمل لدى راسين طابعاً آخر هو الحتمية : فالعاشقون الذين استحوذ عليهم عنفوان الحب قديماً يحاولون مقاومته دون جدوى ، وقد يحللون أنفسهم ويحاكمونها ، بل يحكمون عليها كما فعلت « فيدر » التى تراودها رغبة قوية فى أن تطهر نفسها من الإثم ، ولكن أنّى لها ذلك ، لا بد « أن تصبح فيدر » ، بالرغم

منها ، إما مخادعة وإما مرتكبة للمحظور مع المحارم » ، كما يصفها بوالو[١] (Boileau)

لا مفرّ للإنسان من أن ينساق وراء شهواته لأنها لا تقاوم . وإدراك الطبيعة البشرية على هذا النحو هو من صميم التعاليم الجنسينية . وراسين وإن كان قد قطع صلته بأساتذته القدماء من رجال البوررويال فى تلك الفترة من حياته ، كما ذكرنا من قبل – إلا أن مذهبهم ظلّ كامناً فى نفسه مؤمناً به كل الإيمان : فالطبيعة البشرية ضعيفة ، موزعة بين الغريزة والإرادة ، عاجزة عن توجيه نفسها عجزاً تامّاً إذا ما حرمت من لطف الله .

وهنا نرى خلافاً أساسيًّا بين كورنى وراسين ، ففى مسرح كورنى تنتصر الإرادة دائمًا على الشهوات ؛ أما مسرحيات راسين ففيها استجابة للعواطف ، لأن الاستسلام للعاطفة أشيع فى نفوس البشر من مقاومة الإرادة لها ، ولذلك يقول النقاد دائماً إن أشخاص راسين أقرب إلينا من أشخاص كورنى .

« ويتجلى ضعف الطبيعة البشرية خاصة فى المرأة ، ولهذا كان مسرح راسين مسرحاً نسويًّا . فهو يؤمن بأن إرادة المرأة ضعيفة أو تكاد تكون مفقودة وأن عقلها قابل للاستسلام، وهى لا تكاد تتبع إلا غرائزها »[٢]،

---

(١) الرسالة السابعة ، البيت رقم ٨٠ .

(٢) جوستاف لانسون : تاريخ الأدب الفرنسى ، ج ١ ، ص ٣٢٨ ، النسخة العربية ترجمة الدكتور محمد محمد القصاص ، ومراجعة الدكتورة سهير القلماوى (ط . دار المعارف) .

والواقع أن المرأة تحتل المكانة الأولى فى جميع مسرحيات راسين ؛ وينبغى لنا ألا ننسى أن المرأة كانت تحتل المكانة الأولى فى المجتمع الفرنسى وقتذاك ، وأنها أكثر أنوثة وأقل خشونة من المرأة فى مسرح كورنى ، وحياتها الداخلية عاطفية أكثر منها عقلية .

صور لنا راسين النفوس النسوية فى دقة وبراعة وأبرز لنا أخفى مظاهرها وأدق خلجات القلوب فى تحليل نفسى عميق ، لم يرسم لنا صورة واحدة للحب وإنما رسم صوراً مختلفة ، متعددة ومتباينة : منهم محبون محبوبون ، وهم كائنات مجاملة رقيقة ، نفوسها راضية قانعة ، يتحدثون لغة تنطوى على التظرف والرقة ، تلك اللغة المصطنعة التى كانت متفشية بين أفراد حاشية الملك فى ذلك العهد. أما قوة راسين التصويرية فتبدو تماماً فى طبقة العاشقين غير المعشوقين من أمثال بيروس وأورست ومتريدات ونيرون .

على أن مسرح راسين لم يقتصر على دراسة الحب وحده ، وقد تجنت عليه مدام دى سيفينيه حين ذهبت إلى « أنه لن يستطيع تأليف مآسى يوم يخلو العالم من العشاق »[1]. والواقع أننا نجد فى مسرحيات الحب نفسها شخصيات ليس للحب الذى تقصده مدام دى سيفينيه أى اعتبار : فأندروماك أم وأرملة ، فريسة الخوف على مصير ولدها ووفية لعهد هكتور. وأحمد الوزير التركى واقعى ، لا يهتم بغير مصالحه السياسية ؛ وهناك مسرحيات ليس الحب فيها إلا تعلة من التعلات مثل : إيفيجينى

---

(١) خطاب ١٦ من مارس سنة ١٦٧٣

وبريتانيكيس ، بل هناك أخرى ليس للحب فيها أى مجال مثل أتالى ، التى تعد أقوى تصوير للحماسة الدينية عرفتها الإنسانية بأسرها .

أثر الحب فى قلوب العاشقين :

ومهما يكن من أمر فإن الحب يتسلل إلى قلوب المحبين على حين غفلة يضنى أجسامهم ويشيع الحيرة الشديدة فى نفوسهم ، تصف إينون — مرضعة فيدر ووصيفتها — علة سيدتها وهى تتحدث إلى هبوليت محبوب سيدتها ، على غير علم منه ، قائلة له :

— « آه يا سيدى ليس من هم فى الوجود يعدل همى . فالملكة تكاد تدنو من منيتها . إننى لا أفارقها ليل نهار ، ولكن بلا جدوى ، فهى تحتضر بين يدىّ ، بداء تخفى سره عنى . إنها فى حالة من اختلاط الفكر ليس لها من نهاية . لقد أقض العذاب المقيم مضجعها ، وانتزعها من مضجعها ، وانتزعها من فراشها فقامت تسعى إلى ضوء النهار . غير أنى مضطرة ، إزاء ألمها الدفين ، أن أقصى عنها الجميع »[1] .

ثم يدور حوار ممتع بين فيدر ووصيفتها ، تلح إينون إلحاحاً شديداً فى أن تعرف سرّ سيدتها إلا أن فيدر تكتّم سرها كتماناً كبيراً ، ثم تنهار لضعفها لتفضى إلى الوصيفة قائلة لها :

— إن دائى يرجع إلى أبعد من ذلك ، فمنذ ربطنى وثاق الزواج

---

(١) فيدر : الفصل الأول — المشهد الثانى .

بابن إيجيه ، خيل إلى أنني قد ضمنت الراحة والهناءة ، حتى وقع بصري في أثينا على عدوي الصلف . رأيته فاحمر وجهي ، ثم امتقع لوني ، وشرد عقلي ، واضطربت نفسي وعشيت عيناي ، وارتج عليّ القول .

لقد أحسست أن جسمي يرتعد تارة ويلتهب تارة أخرى ، فعرفت في ذلك ڤينوس ونارها الرهيبة ، تطارد بها أسرتي ، ولا سبيل إلى تجنب ويلاتها . وظننتني أستطيع أن أحول وجهة هذه النار عني ، فقدمت النذور نذراً بعد نذر ، وشيدت للآلهة معبداً عنيت بزينته ، وكانت القرابين تنحر حولي في كل آونة ، فأبحث في بطونها عن عقلي التائه ، يالها من عقاقير عجزت عن علاج حب لا يرجى البرء منه ! وعبثاً أحرقت بيدي البخور على المذابح ، ولكني حينما كنت أبتهل ، واسم الآلهة على شفتيّ ، فإنما كنت أعبد هيبوليت . لقد كنت أراه دائماً ، حتى على أعقاب المذابح التي جعلتها تعبق بالبخور ، ومن ثم فإنني كنت أقرب القرابين جميعاً لهذا الإله الذي ما جسرت على ذكر اسمه . ليت شعري ، لقد تجنّبت رؤيته في كل مكان . يا لمنتهى الشقاء ! كانت تراه عيناي في ملامح أبيه ، وثرت آخر الأمر على نفسي ، ودفعت قلبي دفعاً إلى اضطهاده . لقد افتعلت الضيق والضجر ، وظهرت بمظهر زوجة الأب الظالمة ، وسعيت في إبعاد هذا العدو الذي أعبده ، وأخذت أتعجل نفيه ، وواصلت النواح والشكاة ، حتى انتزعته من قلب أبيه ومن بين أحضانه . وتنفست الصعداء ، يا إينون ، فمنذ غاب عني

هدأت نفسي ، وجرت حياتي بريئة طاهرة ، أقدم فروض الطاعة لزوجي وأقوم على تربية صغاري ، ثمرة زواجنا الشقي ، بينما كنت أكتم أشجاني ! ولكن يا له من حذر باطل ويا للقدر القاسي ! لقد جاء بي زوجي إلى تريزين ، فالتقيت بالعدو الذي سعيت في إبعاده ، وسرعان ما نزفت جراحي الحية دماً ، وأحسست أن ما بي ليس ناراً تضطرم في جوانحي أقوى أنا على إخفائها ، وإنما هي ڤينوس في كامل سطوتها تنشب أظفارها في فريستها . استشعرت الهول حقاً من جريمتي ، فكرهت حياتي ، واستبشعت حبي ، وودت أن أنقذ بالموت شرفي ، وأقضي على شهوة هوى مشين . لكنني لم أستطع مقاومة دموعك ، ولم أصمد لإلحاحك ، فأفضيت إليك بكل شيء ، وما أنا بنادمة على ذلك . وكل ما أرجو أن تعرفي لساعتي الأخيرة حرمتها ، فلا تعذبيني بالملام الظالم ، ولا تحاولي نجدتي ، فلا جدوى من ذلك ، لأنك لن تبعثي ضرام الحياة في جذوة ستخبو وشيكا »[1] .

هذا الحب العارم يشتد أواره حين تختلط به الغيرة عند ما اكتشفت فيدر أن هيبوليت يحب أريسيا ، فتثور كبرياؤها كملكة محبة غير محبوبة ، وتصمم على الانتقام وتعمل على التفرقة بين الحبيبين . غير أنها تثوب أخيراً إلى رشدها وترى غور الهوة السحيقة التي تردت فيها . غير أن وصيفتها تحاول جاهدة أن تخفف عنها وقع هذا الحب الحرام ، فتخاطبها قائلة :

---

(١) فيدر : الفصل الأول ، المشهد الثالث .

« إيه يا سيلتى ، اطرحى عنك رعباً ليس له ما يبرره ، وانظرى بغير النظرة إلى خطأ أنت فيه تعذرين . إنك تحبين ، وليس للمرء من سبيل لردّ ما قدر له . لقد سلط عليك القضاء سحره . فانسقت وراء هذا السحر . أفى ذلك أمر خارق لم نسمع به من قبل ؟ وهل أنت وحدك من استسلمت حتى اليوم لسلطان الحب ؟ إن الضعف طبيعة فى الناس دون ريب ، وإنك لبشر ، وعليك أن تلقى ما يلقى البشر من مصير ، أنت تشكين من عبء يثقل كاهلك منذ زمن بعيد ، ولكن الآلهة نفسها ، تلك الآلهة التى سكنت قمم « الأولمب » والتى ترتعد من هول ذكرها نفوس المجرمين ، هذه الآلهة قد خفقت قلوبها أحياناً بالحب الآثم » .

ولكن فيدر لا تستطيع الإنصات لمربيتها إينون أكثر من ذلك ، يصحو ضميرها فتنهرها وتأبى أن تساير غيها ، ثم تثور عليها قائلة :

— ماذا أسمع ؟ وكيف تجترئين على أن تسدى إلىّ هذه النصائح ؟ أتريدين أيتها الشقية أن يسرى سمك فى نفسى حتى النهاية ؟ هكذا أوردتنى موارد التهلكة . كنت حبيسة حجرتى ، هاربة من وضح النهار ، فزينت لى الخروج ، وألححت علىّ تتوسلين فنسيت واجبى . تجنبت رؤية هيبوليت ، فسعيت أنت حتى ألقاه . ما الذى حملك على ذلك ؟ ما لفمك الدنس يجترئ على اتهامه فيلطخ صفحة حياته بالعار ؟ قد يلقى حتفه وأنت السبب ، وقد تتحقق لأبيه المخبول أمنيته الخبيثة . لن أصغى لك بعد اليوم . أغربى عن وجهى ، فإنك وحش كريه !

اذهبي ، اتركيني وشأني لألقى مصيرى التعس . ليت السماء العادلة تجزيك عن شرورك بما تستحقين ! وعسى أن يكون فى عذابك ما ترتعد له إلى الأبد قلوب أولئك الجبناء ، أولئك الذين يفتعلون مثلك الحيل والخداع ليشبعوا نزوات التعساء من الأمراء، يدفعونهم إلى حيث يميل بهم الهوى ، ويمهدون لهم بغير ما ورع سبل الجريمة ، بضاعتهم الملق البغيض، وإنهم لشر هدية تهديها للملوك غضبة السماء ! »[١]

* * *

بعد هذا كله ، لن نستطيع أن نتحدث عن كل مسرحيات راسين ، شارحين أحداثها محللين لها ، ناقدين أبطالها ، لأن القارئ الكريم سيجد لكل مسرحية مقدمة تتناول هذا كله بقلمى أو بأقلام السادة الزملاء المترجمين أو المراجعين أو الفاحصين . على أن الذى يعنينا بعد ذلك هو أن راسين ، حين قوض مسرح كورنى ، قد أقام مسرحه على الدعائم نفسها وعلى الأسس التى ألفها معاصروه . ارتضى راسين قيود المسرح فى سهولة ويسر وطبق قانون الوحدات الثلاث : وحدة الزمان ووحدة المكان ووحدة الموضوع .نظم مسرحياته شعراً من بحر الألكساندران[٢] وقسم كل

---

(١) الفصل الرابع ، آخر المشهد السادس .

(٢) الألكساندران : أجزل بحور العروض الفرنسى ويتألف البيت من اثنى عشر مقطعاً . وسمى بذلك لاستخدامه فى نظم ملحمة هى « قصة الإسكندر » التى ترجع إلى القرن الثالث عشر الميلادى .

مسرحية إلى خمسة فصول . واتخذ أشخاصها من الملوك والأمراء ورجال الحاشية . ونجد بجانب أولئك وهؤلاء حشداً من الأمناء والأمينات والوصفاء والوصيفات يتحدث إليهم أشخاص المسرحيات ويتحدثون هم بدورهم ، وما ذلك كله إلا ليتحاشى راسين الخطب الشعرية الطويلة التي يلقيها الأبطال فى مسرح كورنى . وبهذا يقوم مسرح راسين على أحاديث عذبة ومحاورات ممتعة ومناقشات عنيفة ؛ وكلها تكشف لنا الأحداث وتصف مشاعر الأشخاص وتشد انتباه المشاهدين شدًّا كبيراً . ولكى تساير المسرحية الواقع ، التزم راسين بأن تجرى أحداثها فى أربع وعشرين ساعة ، وفى حدود منظر واحد لا يتغير ؛ كما يجب أن تعرض موضوعاً واحداً واضح التخطيط ، محكم العقدة ، مطابقًا للحقيقة ، مشابها للواقع والطبيعة . والأهمية الشديدة مركزة تماماً فى التعبير عن الشخصيات.

وحينما انتقد راسين كورنى وأسماه « الهرم الذائع الصيت » كان يعيب عليه ميله إلى كل ما هو غريب عن المعتاد ، كما كان يأخذ عليه الحبكات المعقدة والولع الشديد بضروب الإلقاء . وقد حكم راسين على هذا الطراز المسرحى بالتقادم ، وعارضه بمنهجه هو ، فكان خالقًا لنوع درامى جديد ، حين اكتشف قوة العواطف والشهوات البشرية .

حقًّا لقد كان هناك عاطفيون وشهوانيون فى مسرحى كينو (Quinault) وتوما كورنى (Thomas Corneille) ، وكان أولئك وهؤلاء مستعدين تماماً للتضحية بواجبهم وحياتهم فى سبيل امرأة جميلة يحبونها . غير أن أمثال

هؤلاء المحبين قد ينسون مصلحتهم وشرفهم ، ولكنهم لا ينسون إطلاقاً قواعد الغزل ، فكانت عبارة « إنى أكرهك » تقال فى رقة ونعومة على حد تعبير بوالو ، وكانت تصريحات الكراهية وسباب اليأس والقنوط تستخدم العبارات نفسها التى تجرى على ألسنتهم حين يعبرون عن الحب ونشوته !

كان أبطال المآسى قبل راسين يستجيبون للقواعد الأدبية قبل أن يستجيبوا لعواطفهم ومشاعرهم ، والتجديد الذى أحدثه راسين هو أنه أبرز كما قلنا من قبل ، هذه العواطف وتلك الأهواء والشهوات وأحلها جميعاً محل تلك العبارات ، وجعلها توضح الأحداث المختلفة .

ومما لا ريب فيه أن بيروس وأورست ومتريدات وفيدر ونيرون وهرميون ليسوا أكثر عنفاً من أبطال وبطلات كينو وتوما كورنى ، غير أننا نعرف تماماً ما سيقوله هؤلاء الأبطال وما سيتخذونه من قرارات فى مسرح هذين الشاعرين . إنهم يستجيبون لالتزامات المحبين التى جرى عليها عرف عصرهم فى المسرحيات والقصص . أما أبطال راسين فهم على العكس من ذلك تماماً : يشعروننا بأن قوة خفية تدفعهم دفعاً وتسيطر على مصائرهم ، لا يستطيع أحد أن يتنبأ بكنهها ولا بعنفوانها حينما تبدأ شكاتهم أو يستولى عليهم الغضب . إننا نتبينهم وكأن لا شأن للمؤلف بهم وإنما تقودهم فى سلوكهم حياة عاصفة ، غامضة تنشأ عنها مآسيهم ، فى تحليل سيكولوجى رائع عميق . إننا نسمع مثل هذه العبارات من أشخاص

مسرحية أندروماك :

« إننى أستسلم كالأعمى للقدر الذى يقودنى ! » .

« أخشى أن أتعرف على نفسى فى الحالة التى أنا عليها » .

« أى سحر يجذبك إليها بالرغم منك ! » .

ثم نستمع إلى تلك الصرخة المدوية التى أطلقتها هرميون مستعدية أورست ، حاثة له على قتل بيروس :

« عد إلىّ مضرجاً بدماء الخائن ! » .

« هيا : وكن واثقاً من قلبى لو استطعت إلى ذلك سبيلا » .

وحينما يقتل أورست « الخائن بيروس » تصرخ فى وجهه صرخة مروعة تنطوي على الحزن الشديد واليأس والألم القاتل :

« لماذا قتلته ؟ ماذا فعل ؟ بأى حق قتلته ؟ »

« ومن طلب منك أن تقتله ؟ » . . .

بساطة الموضوع

أعلن راسين فى كثير من مقدمات مسرحياته أنه يفضل دائماً الموضوعات البسيطة التى لا تحمل فى ثناياها « إلا القليل من المادة » . وقد أعجب بموضوع مسرحية برينيس « لأنه وجده فى غاية البساطة ...» على حد تعبيره فى مقدمة المسرحية . وبساطة الموضوع فى رأى راسين

تجعله قريباً من الحقيقة الواقعة وجديراً بالمعالجة على شرط أن نحترم بساطته .

ويوضح ذلك قائلا : « ينحصر كل ابتكار فى عمل شىء من لا شىء » .

وموضوع هذه المسرحية يتمثل فى موقف واحد . فراق حبيبين .

تيتوس : إمبراطور روما يحب برينيس ملكة فلسطين الشابة الجميلة منذ خمس سنوات ، إلا أن قوانين روما تحرم على أباطرتها أن يتزوجوا بأجنبيات . يفرغ تيتوس من إقامة الطقوس الجنائزية لأبيه ڤسپاسيان وتنتشر إشاعة تقول بأن تيتوس، وقد أصبح حرًّا ، سيتزوج من برينيس. ويطرب قلب الملكة الشابة لهذا النبأ وتسعد به سعادة كبيرة . على أن تيتوس كان قد اتخذ قراره منذ أن نُصّب إمبراطوراً على روما ، وانتهى الصراع بين الحب والواجب فى قلبه .

غير أننا نراه يؤجل مفاتحة برينيس بقراره ، لأنه يشفق على حبيبته ويتجنب أن يصدمها فى حبها ، لا تنقصه شجاعة التقرير وإنما تنقصه دائمًا الجرأة على الإفضاء بقراره إذا التقى بها . وتأثره بشخص برينيس تأثر صادق بليغ ، وإشفاقه عليها يجعله يعجز عجزاً تامًّا عن أن يفضى إليها بعزمه ، فيلجأ إلى صديقه أنطيوخس ملك كوماجين ، ذلك الرجل الذى يتصف بطيبة القلب وصفاء السريرة ، المخلص فى حبه لبرينيس وفى صداقته لتيتوس . يظلّ طوال المسرحية متنقلا بين الحزن والفرح ، بين

اليأس والاستسلام دون أن يبذل جهداً فى السعى إلى شىء من ذلك ، فهو شخصية ثانوية وعنصر سلبى ، لا يحرك أحداث القصة ، وإنما يدور معها وتجرى فى خارجه .

القصة كلّها تدور فى نفس برينيس ، فى ذلك الصراع العاطفى فى قلب امرأة تحبّ ، فيستخفها الحب ويحدوها الأمل المشرق ، وترسم فى ذهنها صوراً باهرة لسعادتها حين يتم زواجها ، وتحاول أن تشرك الدنيا بأسرها بل تشرك الآلهة فى سعادتها ، فتنحر الذبائح وترفع إلى آلهتها الدعاء . إنها لواثقة كل الثقة بالمستقبل وقلبها مفعم بالسعادة الكبرى والأمل والهناءة .

ولكن سرعان ما تَصْدق شكوك وصيفتها فينيس . فتبغض برينيس روما بغضاً شديداً وترى فيها غريمة لها لأنها تريد التفرقة بينها وبين حبيبها تيتوس بما سنّت من شرائع جائرة ! وتتطور مشاعر برينيس فى كل فصل من فصول المسرحية وتختلف أحاسيسها اختلافاً شديداً : فتراها تتأرجح بين أمل باسم وشك مقيت وحيرة شديدة وغضب جامح وإعجاب كبير وإذعان مرير لفراق أليم ، ظلّت ترفضه فى إصرار عنيد ! إنها ثورة عاطفية عاتية تنتهى بتضحية برينيس بحبها . وهذه التضحية آخر مرحلة من المراحل الطبيعية لتلك العاطفة المشبوبة ، تقدم عليها محطمة النفس بعد أن أيقنت أن تيتوس لا يزال مولهاً بحبها وأنه سيقتل نفسه لو علم أنها أقدمت على الانتحار . خاطبها قائلا :

تيتوس[1] : سيدتى ، من الحق علىّ أن أفضى إليك باعتراف خالص . فإنى حينما واجهت اللحظة الرهيبة — التى فيها أرهقتنى شرائع واجب صارم ، حتى كان علىّ أن أرغب إلى آخر الدهر عن رؤيتك ، وحينما أحسست دنو هذا الوداع المحزن ، وأحسست بوادر خوفى ونضالى ودموعك ولومك — هيأت نفسى لجميع الآلام التى يثيرها فى القلب أجل الخطوب ، ولكن ينبغى أن أقول لك إنى ، على شدة ما تهيبت ، لم أكن مقدراً من هذه الآلام إلا جنحها الأصغر . كنت أعتقد أن شجاعتى أقل أهبة للانهيار ، والآن فإنى أخجل من هذا الاضطراب الذى أراها قد تهاوت إليه .

لقد شهدت نصب عينى روما بأسرها مجتمعة ، وخاطبنى مجلس الشيوخ ؛ غير أن نفسى المرهقة كانت تصغى ولا تسمع ، ولم تترك لهم لقاء تهللهم إلا صمتاً مثلوجاً . وما زالت روما حتى الآن مرتابة فى مصيرك . وأنا نفسى ، فى كل لحظة ، لا أذكر إلا فى عناء إن كنت إمبراطوراً أم رومانيا . لقد أقبلت نحوك وأنا لا أدرى ما خطتى ، فقد جذبنى إليك حبى ، ولعلى إنما جئت أبحث عن نفسى وألتمس أن أتعرفها . فماذا وجدت ؟

هأنذا أرى الموت مرتسماً فى عينيك ، وأرى أنك تغادرين هذه الربوع ساعية إليه . هذا كثير ، هذا هول لا يطاق ! لقد بلغ ألمى فى

(١) الفصل الخامس ، المشهد السادس .

هذا المشهد الحزين أقصى مداه . وإنى لأكابد الآن جميع ما أستطيع أن أكابده من الآلام ، ولكنى أرى مخرجى منها .

لا تتوقعى إطلاقاً ، وقد أجهدتنى كل هذه المخاوف ، أن أغيض دمعك بزواج سعيد . فمهما يكن ما تدفعيننى إليه من شطط ، فإن شرفى الصارم ، الذى لا يلين ، يتبعنى فى كل لحظة ، وهو لا ينى يمثل لنفسى الذاهلة نفور الدولة من قرانك ، ويحدثنى بأننى بعد الصخب الذى ثار وبعد الخطى التى خطوتها ، قد أصبحت اليوم أبعد ما أكون عن الاقتران بك.

أجل سيدتى ، وأبعد من ذلك قولى لك إنى مستعد أن أنزل من أجلك عن العرش ، فأتبعك وأمضى ، راضياً مغتبطاً بأغلالى ، إلى أقصى الدنيا أرسل وإياك الزفرات . بل إنك لتخجلين — لو فعلت — من هذا المسلك الخسيس ، وإنك لترين آسفة فى إثرك ملكاً وضيعاً ، ملكاً بلا كرامة ، وبلا مملكة وبلا قصر ، ويا له من مشهد دنىء يمثل للناس ما فى الحب من الهوان ! . . .

إن اتصل انسجام دمعك ومضى يؤلم ناظرى ، وإن رأيتك تصرين دائماً على الموت ، وإن كان علىّ فى كل لحظة أن أرتعد خوفاً على حياتك ، وإن لم تقسمى لى أنك سوف تصونين حرمة أيامك فعليك يا سيدتى أن تتوقعى دموعاً أخرى ، فإنى فى الحال التى أنا فيها ، أستطيع أن أقدم على كل شىء ، ولا أضمن آخر الأمر ألا تضرج يدى بالدماء على مرأى منك وداعنا المشئوم .

برينيس : واحسرتاه ! . . .

تيتوس : لا ، إنى لا أعجز عن شىء ، وما من شىء يستعصى علىّ . فها أنت ذى الآن مسئولة عن حياتى . قدرى الأمر يا سيدتى ، وأحسنى التقدير ؛ فإذا كنت عزيزاً عليك . . .

برينيس (إلى تيتوس) : لقد عرفت قلبى يا سيدى ، وأستطيع أن أقول إنه لم يكن يوماً يتمنى الإمبراطورية ، فإن جاه الرومان وأرجوان القياصرة لم يجذبا إطلاقاً أنظارى ، وأنت تعلم ذلك . ولقد أحببت يا سيدى وأحببت ، وكنت أريد أن أُحَبّ . واليوم خالجتنى الشكوك وساورتنى المخاوف وإنى لأعترف بذلك . فلقد ظننت أن حبك قد أوشك أن ينقضى . ولكنى عرفت الآن غلطى ، فإنك مقيم على حبى . ولقد تبلبل قلبك ، ورأيت دمعك ينسجم . على أن برينيس يا سيدى لا تستحق كل هذا الجزع ، ولا تستحق أن يتعس الملأ حبك . . . .
وأعتقد أنى منذ خمس سنين حتى هذا اليوم الأخير ، قد أحببتك حباً صادقاً برهنت عليه . ولكن ، ليس هذا كل شىء ، فإنى أريد فى هذه اللحظة الرهيبة أن أكلل بمجهود أخير جميع ما تبقى . سأعيش وسأتبع أوامرك المطلقة . فوداعاً سيدى ، أحكم ، ولن أراك بعد اليوم .

(إلى أنطيوخس) : وأنت أيها الأمير ، إنك لترى بنفسك ، بعد هذا الوداع ، أنى لا أرضى بأن أخلى حبيبى ، لأمضى بعيداً عن روما فأصغى لأمان أخرى . عش وجاهد نفسك جهاداً نبيلا . اسلك مسلك تيتوس

ومسلكي فهأنذى أحبه وأنأى عنه ، وها هو ذا يجبنى ويخلينى فاحمل بعيداً عن عينى نفثاتك وأغلالك .

وداعاً ! ولنكن نحن للدنيا مثلا لأصدق الحب عاطفةً وأتعسه حظاً ، مثلا قد تحفظ الدنيا قصته الأليمة[١] . . . »

* * *

هذه هى برينيس ببساطة موضوعها وبالتحليل النفسى العميق لعواطف البشر ومشاعرهم وأهوائهم ونزعاتهم ... برينيس التى فوّق بها راسين على شيخ المسرح الفرنسى بيير كورنى حينما عالجا موضوعاً واحداً ، فكان النصر لراسين فى هذه المعركة الأدبية ، كما ذكرنا من قبل .

هذه هى الموضوعات السهلة اليسيرة التى تناولها راسين فى مهارة ودقة وذكاء وبراعة ، وجعل منها مسرحيات رائعة تعبر عن الحياة الحقيقية للبشر وتحلل العواطف والشهوات والغرائز والأهواء تحليلا نفسياً عميقاً :
« لقد تثقف راسين بالثقافة اليونانية الوثنية وبالثقافة المسيحية ، وعرف اللغتين الإيطالية والإسبانية ، وهضم خير ما أنتجته أجيال الإنسانية من هومير إلى سوفوكل إلى فرجيل ، فكان مثله مثل الوارث المترف الذى لا حاجة به إلى الكد والتحصيل ، ولا هم له إلا الإنفاق والاستمتاع » .

هذه شهادة صدق قالها تييرى مونييه وهو يتحدث عن راسين ، فأدرك أبعاد ثقافته ومقدار عمقها وجوانبها الفنية المختلفة ، تلك الثقافة التى تعبر

---

(١) الفصل الخامس ، المشهد السابع .

تعبيراً حقيقيًّا عن الحياة الدنيوية الطبيعية بما فيها من تعقيد ومآس وآلام وأفراح وأتراح .

على أن هناك جانبًا آخر يشهد بعبقرية راسين وعمقه يكشف لنا كيف « تتواطأ الأنانية الخائفة مع الغيرة العمياء لمناصرة البدعة البغيضة ، فتعم الفتنة فى كل مكان . . . ويبسط الجحيم على كل شيء سحبه القاتمة فتغشى ظلماته أقدس العيون [1] » هذا الجانب يقودنا إلى أن نتحدث عن المأساة الدينية ، وعما أدخله فيها راسين من تجديد .

* * *

المسرح الدينى : إستير (Esther) (١٦٨٩) أتالى (Athalie) (١٦٩١) :

• **إستير** Esther

عاد راسين إلى التأليف المسرحى سنة ١٦٨٩ بعد أن انقطع عنه منذ عام ١٦٧٧ ، على أثر معركة فيدر وما أصابها من فشل مؤقت نتيجة لتآمر أعداء راسين عليها . حملته على الرجوع إلى المسرح بواعث أوردتها مدام كيلوس (Mme de Caylus) فى مذكراتها ، ومؤداها « أن مدام دى مانتنون (Mme. de Maintenon) كانت تتولى تربية فتيات معهد سان سير ، وهن من بنات النبلاء الفقراء ، متوخية فى مهمتها مبادئ البر والتقوى الصحيحة لإعداد هؤلاء الفتيات ليكن زوجات صالحات وسيدات

(١) تمهيد مسرحية إستير .

متعلمات جديرات بالمجتمع فى عصر لويس الرابع عشر ، أو راهبات تقيات قانتات .

كان من بين مواد الدراسة فى هذا المعهد الملكى الغناء والرقص . وكانت مديرة المعهد مدام دى بريتون من السيدات المتعلمات ، تسند إلى تلميذاتها تمثيليات تافهة من تأليفها ، لم ترض عنها مدام دى مانتنون ؛ ولم تلبث أن أبدلتها بأخرى من روائع المآسى المعروفة وقتذاك مثل سينا الكورنى وأندروماك لراسين . ويروى أن الفتيات قد أجدن تمثيل أندروماك فتقمصن فى صدق شخصيات المسرحية وعبّرن فى دقة شديدة ما يختلجها من عواطف ومشاعر وأهواء ، كما أجدن إلقاء الشعر . لفت نجاحهن انتباه رجال البلاط وأثار اعتراض بعض رجال الدين ، وحمل مدام دى مانتنون على تجنيبهن خطر الغواية ومزالق الغرور ، فاستبعدت تمثيل مثل هذه المسرحيات استبعاداً تامًّا ، وطلبت من راسين أن « يؤلف لفتياتها فصولا أخلاقية وتاريخية للتسلية البريئة ، يبعدهن فيها عن مواقف الحب والهوى » .

وقد تردد راسين بعض الوقت قبل أن يلبى طلب مدام دى مانتنون ، ولكن ما كان له أن يتوانى طويلا فى الاستجابة لرغبة تلك السيدة العظيمة التى كانت تعد وقتذاك ملكة فرنسا غير المتوجة ؛ فقدم لها هذه المسرحية الدينية التى اقتبسها من الكتاب المقدس ، وصاغها فى ثلاثة فصول تنطوى على أغان وترانيم من ألحان الموسيقى « جان باتيست مورو » عازف الأرغن

بمعهد سان سير . ومثلت للمرة الأولى بالمعهد في اليوم السادس والعشرين من يناير عام ١٦٨٩ وطبعها في العام نفسه الناشر كلود باربان .

وتدور أحداث المسرحية في مدينة سوز Suze في أيام استعباد اليهود ونقلهم إلى بلاد الكلدان . ونرى « هامان » نديم الملك أشويروس وكبير وزرائه ، يطاردهم ببغضه ويوعز إلى الملك أن يبيدهم جميعاً .

يستجيب له الملك ويصدر أمره بذبحهم بعد عشرة أيام ، بما فيهم رئيسهم ماردوشيه الذي نراه يتعالى دائماً على هامان ، ويضمر كل عنهما الكراهية للآخر . وعندئذ يستخدم بنو إسرائيل سلاحاً من أسلحتهم الماضية الفتاكة التي يحسنون استعمالها على مر العصور : استخدموا سلاح « الجنس » مع الملك ، فزجوا عليه فتاتهم إستير الجميلة ، الرائعة الحسن ، والتي فاقت بنات جنسها من شتى الأمم فتنة وأنوثة فيحدث قبل انقضاء المدة أن يتزوج الملك الشاب من إستير الفتاة اليهودية التي لا يعرف حقيقة جنسيتها إلا بنو دينها . تنال الملكة الشابة عطف الملك وتحظى لديه بالرعاية والحب ويدفعها رجاء عمها « ماردوشيه » إلى أن ترتمي على أقدام الملك لتكاشفه بيهوديتها ، وتخبره بأن اليهود لا يتآمرون عليه كما يزعم هامان وإنما يدعون له بالخير ، وأن هامان هو الذي يتآمر عليه كما كشف ذلك من قبل « ماردوشيه » حين أحبط مؤامرة للقضاء على حياة أشويروس نفسه .

ويقوم الملك بإنزال العقاب بهامان وإغداق النعم على اليهود ورد حريتهم إليهم والسماح لهم بتشييد معبدهم ، وتقوم جماعة الفتيات

اليهوديات بمصاحبة الأحداث المختلفة بأناشيدها حتى تختتم المسرحية بنشيد « شكراً لله ، حامى الأبرياء » .

هذه المؤامرة الإسرائيلية لا تخفى على راسين ، بل هو يظهر لنا دقائقها : لم يكن فى وسع بنى إسرائيل أن يجتذبوا إليهم ملكاً شاباً ، فاحش الغنى ، واسع الجاه بسلاح المال ، فسلطوا عليه كما قلنا سلاح « الجنس » ووضعوا فى فراشه تلك الفتاة الرائعة الجمال ، الشديدة الفتنة . وحين علموا أنها ملكت عليه قلبه وملأت أحاسيسه ، طالبوها بأن تطلع الملك على يهوديتها ، وتكون رسولاً لديه تشفع لهم وتودى بأعدائهم .

وتسيطر على هذه المسرحية عاطفة دينية عميقة تحمل طابع راسين وقوة إيمانه بالله، توحى بالثقة التامة بالعناية الإلهية والحب الصادق والتفانى فى ذات الله الخالق العظيم ، مع لمسة مسيحية من تلك اللمسات التى يتقنها راسين تلميذ البورروبال إتقاناً كبيراً . جاء كبير اليهود ماردوشيه يطلب من إستير أن تظهر الملك على حقيقتها وتتوسل إليه أن ينقذ قومها من شر هامان ، فيدور بينهما حديث يكشف خطوط المؤامرة الإسرائيلية فى فن ودقة وبراعة ، إزاء موافقة الملك على إبادة الإسرائيليين ، وفقاً لما اقترحه هامان وأعد له عدته من خناجر وسيوف ليفتك بهم فى شتى ولايات ملكه . « لقد استهان الإسرائيليون بشريعة الله ونكثوا عهودهم وخانوا ربهم وخالقهم وأشركوا فى عبادته آلهة آخرين » . كما وصفتهم

إستير فى المشهد الثالث من الفصل الأول . ويبين لنا راسين انحرافات بنى إسرائيل وينقدهم نقداً مرًّا فى أكثر من موضع فى مسرحياته وخاصة فى إستير وأتالى . وهو فى هذا يعبر تعبيراً صادقًا عن روح المسيحية التى لن تنسى ما يسببه الإسرائيليون للبشرية من تنكيل وتدمير للقيم الروحية السماوية وتعذيب وإرهاب للجنس البشرى فى مختلف أرجاء الأرض وأنحاء العالم ، رغبة فى السيطرة العاتية والسيادة المسعورة .

أدخل راسين فى هذه المسرحية ، كما أدخل فى أتالى أيضًا ، جماعة من الفتيات اليهوديات ، استعان بها على التعبير عن العواطف بتلك القوة التى يضفيها التغنى بالشعر ، وقد حقق بذلك مشروعًا كان يجول بخاطره على نحو ما يحدثنا هو قائلا :

« لقد لاحظت وأنا أكتب الموضوع الذى طلب إلىّ كتابته ، أنى مقبل على تحقيق مشروع طالما جال بخاطرى ألا وهو ربط الغناء بالعمل المسرحى ، محاكاة للمأساة اليونانية القديمة ، واستخدام المجموعة — التى كانت فى المسرح القديم تتغنى بأمجاد المقدسات الزائفة — فى التسبيح بحمد الله الحق » . إنها لمحاولة رائعة من جانب راسين جعلت المسرحية الدينية نوعًا جديداً فى المسرح الكلاسيكى .

* **أتالى : Athalie (١٦٩١)**

ألف راسين أتالى أيضًا لطالبات معهد سان سير ، وهى مسرحية دينية بدورها .

كانت الملكة أتالى هى التى تتولى حكم اليهود فى ذلك الوقت . وكانت من عبدة الإله الفينيقى « بعل » ، أرادت أن تنفرد بالملك فقتلت أحفادها جميعاً ، واعتقد الناس أن ذرية داود قد أبيدت تماماً ، واختفى معها كل أمل فى ظهور المخلّص . غير أن أحد الأطفال وهو الصغير « يوعاس » كان قد نجا من الموت والتقطه القس الأعظم يوعاد وزوجته يوسان وربّياه فى المعبد باسم « الياسين » ويقرر يوعاد أن اللحظة المناسبة لإعلان الياسين ملكاً قد حانت ، وترى أتالى فى المنام أحلاماً تنطوى على بعض مخاوف غامضة تنذرها بأن حياتها وملكها قد أشرفا على نهايتهما ، وتكشف وجود إلياسين فى المعبد وترى فى وجهه آثار الجروح التى رأتها من قبل فى منامها. تستجوبه فيجيبها فى براعة وذكاء وصراحة ، وتطلب تسليمه إليها بعد أن تمادت فى إغرائه بالمال والجاه وبكل ما يلذ لمن كان فى سنه ، فيأبى يوعاد فى إصرار ويرفض فى عناد معتمداً على ثقة مطلقة بتأييد الله له . ويغلق القس الأكبر أبواب المعبد ويتوج الطفل فى احتفال رسمى ، ويستعد لقتال الملكة ، غير عابئ بالقوات التى جلبتها الملكة من مدينة صور وحصارها للمعبد . ثم توجه أتالى ليوعاد إنذارها الأخير ليسلمها الطفل المجهول وكنوز داود التى زعموا أنها موجودة بالمعبد . ويتظاهر يوعاد بالقبول وتصل الملكة إلى المعبد لا يحرسها إلا قوادها ، وما تكاد تدخل حتى تغلق الأبواب وتفاجأ بوجود يوعاس متوجاً وجالساً على عرشه . ويحاصرها اللاويون مدججين بالسلاح ، فتشعر بقرب منيتها ، وتثور ثورة عنيفة وتمطر

حفيدها باللعنات إلا أنها تقاد للموت . ويقوم الشعب الثائر خارج المعبد بتشتيت الكتائب الصورية ويهتف مؤيداً ملكه الجديد .

* * *

وإذا كنا قد التقينا بماردوشيه فى مسرحية إستير ، فإننا نلتقى هنا بيوعاد الذى يعتبر القوة المحركة لأحداث المسرحية بعقيدته وثورته العارمة وكراهيته الشديدة للملكة ، وحبه الدافق للصغير يوعاس وحكمته وبعد نظره . نسمعه يتحدث عن اليهود قائلا :

« حقًّا، إنه لشعب جبان ، خلق ليستعبد ؛ ولا يَتَجَنْتَرِئُ إلا على الله فحسب » ، وهنا يكشف لنا راسين عن حقيقة رأيه صراحة فى شعب بنى إسرائيل ، كما فعل ذلك من قبل فى برينيس وإستير . ويبرز لنا فى هذه المسرحية آفة أخرى من آفاتهم الكبرى التى عرفوا بها على مر العصور ، هى : حب المال لدرجة عبادته والاستهانة بالمثل العليا فى سبيل الحصول عليه .

الملهاة فى مسرح راسين :

كتب راسين ملهاة واحدة فى ثلاثة فصول هى : المتقاضون Les Plaideurs عام ١٦٦٨ مستقياً موضوعها من الزنابير Les Guêpes لأرستوفان . نرى فيها قاضياً يدعى دندان Dandin ، يتعصب لمهنته تعصباً كبيراً ويولع بالمحاكمة ولعًا شديداً . ينفق كل وقته بين المتخاصمين

والشهود ، باذلا جهوداً عنيفة ليفصل فى القضايا التى تكدست مستنداتها فى عدة جوالات ، حتى ضعف جسمه واعتلت صحته « وبح صوته » . ويرى ابنه لياندر Léandre أن أباه يبالغ فى عمله مبالغة شديدة ، فيحتجزه فى بيته ويفرض عليه حراسة دائمة بمساعدة جان الصغير ، حتى لا يستطيع الفرار إلى ساحة المحكمة .

وتطلعنا أحداث المسرحية على اعتراف يصدر من لياندر بأنه يحب حبًّا شديداً « إيزابيل » ابنة شيكانو أحد المتقاضين المشهورين والمشاكسين العتاة ، ممن يكثر ترددهم على المحكمة لتعدد خصوماتهم . ثم تقع خصومة جديدة بين شيكانو والكونتس دى پمبيش ، إحدى المتقاضيات المضحكات فتتاح الفرصة للياندر ليذهب إلى منزل شيكانو ، متخفياً فى زى شرطى هو وصديقه « لنتميه » الذى تآمر معه وتخفى فى زى محضر ، ليقوما بعمل استجواب وتحرير محضر لتعدى شيكانو على الكونتس دى پمبيش ويوقع شيكانو على المحضر المزعوم ، والحقيقة أنه وقع على عقد زواج قد استوفى الشروط القانونية ، ولم يبق سوى موافقة القاضى ديدان على الزواج .

ويحتال لياندر فيعقد لأبيه محكمة فى المنزل ويطلب منه محاكمة الكلب « سترون » الذى سرق ديكاً والتهمه . وبعد جلسة أعدت لها جميع الطقوس التى تستلزمها العدالة ، يطلب لياندر من أبيه أن يحكم أيضاً فى قضية زواج ، قائلاً :

« العاشق يرغب فيه والفتاة تريده ووالدها يوافق عليه » . فيصدر

دندان حكمه قائلاً : « إنى أعقد الزواج بأسرع ما يمكن » .

وعندئذ يتقدم لياندر إلى إيزابيل ويخاطبها قائلا : « آنستى ، تفضلى بتحية حميك ». ولم يكن هناك سبيل إلى إلغاء حكم أصدره دندان بالرغم من احتجاج شيكانو الذى وقع على العقد بغير علم منه .

وبمناسبة هذا الزواج السعيد ، يصدر دندان حكماً بالعفو عن الكلب سترون .

* * *

نالت هذه المسرحية إعجاب الملك ورجال البلاط ، فكان لويس الرابع عشر يتقبلها قبولا حسناً ويغرق فى الضحك حين يشاهد تمثيلها . ولم يتوقف عرضها فى الكوميدى فرانسيز حتى الآن .

وكثيراً ما تساءل النقاد : لماذا كتب راسين هذه الملهاة وحدها ؟

ويجيب البعض عن السؤال زاعمين أن راسين كان قد خسر قضية كلفته مالا كثيراً ووقتاً طويلا قضاه فى متاهات المحاكم ، فأراد أن يثأر لنفسه بالسخرية من رجال القانون . غير أن نقاداً آخرين يقولون بأن راسين أراد أن يؤكد لمعاصريه أنه قادر على التأليف فى النوعين المسرحيين : المأساة والملهاة على السواء ، شأنه فى هذا شأن منافسه الأكبر كورنى .

وإذا كان راسين يدين لأرستوفان بجزء من عقدة المسرحية ، فإن الملهاة كلها خاضعة للروح الفرنسية والتقاليد التى سار عليها الكتّاب من قبل وخاصة François Rabelais فرانسوا رابليه . وكثيراً ما سمع راسين

والشهود ، باذلا جهوداً عنيفة ليفصل فى القضايا التى تكدست مستنداتها فى عدة جوالات ، حتى ضعف جسمه واعتلت صحته «وبح صوته» . ويرى ابنه لياندر Léandre أن أباه يبالغ فى عمله مبالغة شديدة ، فيحتجزه فى بيته ويفرض عليه حراسة دائمة بمساعدة جان الصغير ، حتى لا يستطيع الفرار إلى ساحة المحكمة .

وتطلعنا أحداث المسرحية على اعتراف يصدر من لياندر بأنه يحب حبًّا شديداً «إيزابيل» ابنة شيكانو أحد المتقاضين المشهورين والمشاكسين العتاة ، ممن يكثر ترددهم على المحكمة لتعدد خصوماتهم . ثم تقع خصومة جديدة بين شيكانو والكونتس دى پمبيش ، إحدى المتقاضيات المضحكات فتتاح الفرصة للياندر ليذهب إلى منزل شيكانو ، متخفياً فى زى شرطى هو وصديقه «لنتميه» الذى تآمر معه وتخفى فى زى محضر ، ليقوما بعمل استجواب وتحرير محضر لتعدى شيكانو على الكونتس دى پمبيش ويوقع شيكانو على المحضر المزعوم ، والحقيقة أنه وقع على عقد زواج قد استوفى الشروط القانونية ، ولم يبق سوى موافقة القاضى ديدان على الزواج .

ويحتال لياندر فيعقد لأبيه محكمة فى المنزل ويطلب منه محاكمة الكلب «سترون» الذى سرق ديكاً والتهمه . وبعد جلسة أعدت لها جميع الطقوس التى تستلزمها العدالة ، يطلب لياندر من أبيه أن يحكم أيضاً فى قضية زواج ، قائلاً :

«العاشق يرغب فيه والفتاة تريده ووالدها يوافق عليه» . فيصدر

دندان حكمه قائلاً : « إنى أعقد الزواج بأسرع ما يمكن » .

وعندئذ يتقدم لياندر إلى إيزابيل ويخاطبها قائلا : « آنستى ، تفضلى بتحية حميك » . ولم يكن هناك سبيل إلى إلغاء حكم أصدره دندان بالرغم من احتجاج شيكانو الذى وقع على العقد بغير علم منه .

وبمناسبة هذا الزواج السعيد ، يصدر دندان حكماً بالعفو عن الكلب ستّرون .

* * *

نالت هذه المسرحية إعجاب الملك ورجال البلاط ، فكان لويس الرابع عشر يتقبلها قبولا حسناً ويغرق فى الضحك حين يشاهد تمثيلها . ولم يتوقف عرضها فى الكوميدى فرانسيز حتّى الآن .

وكثيراً ما تساءل النقاد : لماذا كتب راسين هذه الملهاة وحدها ؟

ويجيب البعض عن السؤال زاعمين أن راسين كان قد خسر قضية كلفته مالا كثيراً ووقتاً طويلا قضاه فى متاهات المحاكم ، فأراد أن يثأر لنفسه بالسخرية من رجال القانون . غير أن نقاداً آخرين يقولون بأن راسين أراد أن يؤكد لمعاصريه أنه قادر على التأليف فى النوعين المسرحيين : المأساة والملهاة على السواء ، شأنه فى هذا شأن منافسه الأكبر كورنىّ .

وإذا كان راسين يدين لأرستوفان بجزء من عقدة المسرحية ، فإن الملهاة كلها خاضعة للروح الفرنسية والتقاليد التى سار عليها الكتّاب من قبل وخاصة فرانسوا رابليه François Rabelais . وكثيراً ما سمع راسين

من أصدقائه بوالو وفورتيير ولا فونتين وشابل الأهاجى المقذعة الطريفة الموجهة لرجال القضاة والدعايات اللاذعة والقصص المضحكة التى تكشف عن نواحى النقص فى تصرفاتهم وإجراءاتهم القانونية . كان كل ذلك يحكى فى حانة الخروف الأبيض (Les Mouton Blanc) بباريس، حيث كان يلتقى أولئك الأعلام من رجال الأدب الفرنسى فى القرن السابع عشر .

* * *

نرى فى المشهد الأول من هذه المسرحية « بيتى جان » Petit Jean أو جان الصغير بواب منزل القاضى داندان يجر كيساً كبيراً مليئاً بالقضايا ، يتحدث عن نفسه ويصف لنا سيده القاضى ، قائلا :

« لعمرى إنه لمجنون حقاً هذا الذى يعتمد على ما يأتى به الغد، فإن من يضحكه يوم الجمعة قد يبكيه يوم الأحد! فى العام الماضى ، ألحقنى قاض بخدمته ، وأتى بى من بلدى « أميان » ليتخذنى حاجبه وحارس بابه . حاول جميع النورمانديين الذين أعايشهم أن يتسلوا بى ؛ لكن مخالطة الذئاب ، كما يقال ، تعلم العواء . فقد أصبحت فيهم ذا مكر وخداع ، وإن كنت بيكاردى الأصل، وتعلمت كيف أتعالى وأتعاظم ، كما يفعل كبار السادة وصاروا لا يخاطبوننى إلا وهم حاسرو الرأس . وبكل تبجيل وتعظيم يدعوننى : « يا سيد بيتى جان » بيد أن التبجيل دون مال علة وسقم .

لعمرى ! لقد تشبهت ببواب مسرح الكوميديا[1] ، وتركت الناس يدقون بابى دون جدوى ، ويرفعون القبعات بلا فائدة ، فلا أسمح لأحد بالدخول عندنا ما لم يستمل البواب بالعطايا والهبات ، لا مال ، لا بواب والباب موصد ! والواقع أنى أؤدى لسيدى عملا ما : فنحن نتحاسب أحيانًا ، وقد تعهدت بتموين البيت بالشموع والأعلاف . بيد أنى لم أتكبد أية خسارة من جراء ذلك ، بل زدت عليه — كيفما اتفق — تموين القش فضلا عن ذلك بالقدر الكافى .

ومما يستوجب الأسف أنه كان يوجه همه ، كل همه ، إلى شئون مهنته . إنه أول من يصل إلى مجلس القضاء ، كل يوم ، وآخر من يغادره . وكثيراً ما يبقى فيه وحده . ولو أطعناه لاتخذ من المجلس مخدعاً ينام فيه أيضًا دون طعام أو شراب . كنت أقول له أحيانًا : « سيدى بيران داندان ، أصارحك أنك تبكر فى الاستيقاظ كل يوم . ومن يريد أن يطيل السفر فعليه ألا يرهق المطية . فكل واشرب ، ونم وأطل أيام حياتك » .

لكنه لم يحفل بنصيحتى ، بل تمادى فى السهر وأفرط فى العمل حتى اختلط عقله ، فيما يقال . إنه يريد أن يحاكمنا جميعًا ، الواحد تلو الآخر ، ثم هو يتمتم دائمًا بكلام لا أعى منه شيئًا ، ويأبى طوعًا أو كرهًا إلا أن ينام فى كسوة القاضى ، وعلى رأسه قلنسوته المربعة . وقد

---

(١) كان بواب مسرح « الكوميديا » يتسلم أجرة الدخول من جمهور النظارة . ولعله كان يتساهل مع من ينقده شيئاً من المال .

اشتد غضبه فأمر بقطع رأس ديكه بحجة أنه تأخر فى إيقاظه عن الوقت المعتاد ، زاعماً أن أحد المتخاصمين من أرباب القضايا الخاسرة قد أغرى هذا الحيوان المسكين بالرشوة . ومنذ أن صدر حكمه هذا ، والرجل لا يفتأ يهذى حتى إن ابنه أصبح لا يطيق أن يحدثه أحد فى الشئون القضائية ، ووضعه تحت حراستنا الشديدة ليل نهار ، خشية أن يفلت ويذهب إلى المجلس . إنه علم الله ، جد نشيط ، حين يحاول الهرب منا . أما أنا فلم يعد لى سبيل إلى النوم ، لذا نحل جسمى وأصبح منظرى يثير الشفقة . إنى أتهيأ للنوم ولا أستطيع سوى التثاؤب . ولكن ليسهر من يشاء كما يشاء لأنى سأنام هذه الليلة ملء جفونى . وتلك وسادتى[1] .

والنوم فى العراء لا يضير أحداً .

فلننم . [ويرقد على الأرض][2] » .

* * *

ونقرأ بعد ذلك حواراً ممتعاً يدور بين القاضى وابنه ، يمثل لنا اختلاف ميول كل منهما فى الحياة ، ويكشف لنا البون بين عقليتين إحداهما تعيش فى الماضى ، والأخرى تتمسك بحياة عصرها ، ولا سبيل إلى أن تلتقيا . ثم يا له من قاض يعبر لنا فى وضوح عن عيوب رجال القضاء فى عصره . على أن أمتع الحوار يتجلى فى الأحاديث التى تدور بين

---

(١) كيس القضايا .

(٢) الفصل الأول . المشهد الأول .

شيكانو والكونتيسة دى يمبيش ، لأنها تنطوى على السرعة والظرف وتكشف خبايا رجال القانون ، وكيف تتعقد أمور المتقاضين لو بخلوا على القضاة !

فلنقرأ الآن الحوار الذى يدور بين القاضى وابنه ويشهده كاتم سره وبوابه .

داندان : « الراحة ؟ آه ! أتريد أن تنظم حياة أبيك على غرارك ؟ أتظن أن لا هم للقاضى سوى تناول الطعام الجيد ، والتسكع فى الطرقات مثل تلك الفئة من الباحثين عن الملذات ، وارتياد المراقص ليلا ونوادى الميسر نهاراً ؟

إن المال لا ينهال علينا بالسرعة التى يتصورها البعض . إن كل شريط من ملابسك يكلفنى قيمة حكم أصدره . إن ثوب القضاء يخجلك ! ابن قاض ! آه ، تبًّا لك ! تريد أن تتشبه بالرجل النبيل . يا سليل داندان ، أى صديقى ، قلِّب النظر فى محتويات غرفتى ، وفتش صوان ملابسى تر صور آل داندان : لقد ارتدوا جميعاً ثوب القضاء ، وهذا هو السبيل القويم . قارن بين هدايا القاضى وبين هدايا « الماركيز » . انتظر حتى تحين نهاية شهر ديسمبر[1] . ثم ، من هو النبيل ؟ إنه عمود فى حجرة الانتظار[2] . كم رأيت أنت الكثيرين من بين أوسعهم ثراء ،

---

(١) فى القرن السابع عشر ، كان العرف يقضى بتقديم الهدايا للقاضى قبل النظر فى الدعوى . ثم أصبحت هذه الهدايا ، فيما بعد ، جزءاً من مرتبه .

(٢) يبادى داندان مقدار سروره لأنه يترك الأشراف الذين يحضرون لمقابلته ينتظرونه طويلا .

وأرفعهم شأناً ، منصرفين إلى النفخ فى أصابعهم ، طلباً للدفء واقفين فى بناء دارى وأيديهم فى جيوبهم ، يتدثرون بالمعاطف حتى أنوفهم ، وينتهى بهم طلب الدفء إلى سفد الشواء[1] . هكذا أعاملهم . آه منك ، أى بنى ، المسكين أهذا هو الدرس الذى تلقيته من المرحومة أمك ؟ رحمك الله يا « بونيت » وأسفاه عليك ! كلما أفكر فى أنها لم تتخلف قط عن مشاهدة أية جلسة ، أية جلسة ، ولم تفارقنى إطلاقاً ! وعلم الله كم حملت معها عقب كل جلسة . كم أخذت من مناشف من صاحب المقصف حتى لا تعود إلى الدار صفر اليدين ! وهكذا يكون تدبير البيوت الطيبة ! انصرف ، فلن تكون إلا صاحب غفلة .

لياندر : إنك ستصاب بالبرد هنا يا أبتاه . أى بيتى جان ، عد بسيدك إلى الدار ، أرقده فى سريره وأغلق الباب والنافذة ، وأغلق كل شىء حتى يزداد دفئاً .

بيتى جان : إذن أقم الحواجز فى الطابق العلوى على الأقل .

داندان : كيف ؟ أيراد بى أن آوى إلى مضجعى على هذه الصورة ؟ لا بد من اتخاذ قرار يبين كيف يجب على أن أنام .

لياندر : هيا يا أبتاه واضطجع مؤقتاً إلى أن تتم الإجراءات .

داندان : سأذهب ، ولكنى سأغيظكم جميعاً : إننى لن أنام .

لياندر : حسن ! خيراً تفعل : (مخاطباً بتى جان) لا تفارقه . أما أنت

---

(١) يفخر داندان بأن هؤلاء الأشراف يسمح لهم بدخول مطبخه طلباً للدفء رحمة بهم.

يا لنتيميه فابق هنا[١]» .

* * *

أسلوب راسين :

رأينا أن مسرح راسين يقوم أساساً على بساطة الموضوعات والتحليل النفسي العميق للعواطف والأهواء والميول والنزوات البشرية ، وأن أحداث المسرحيات تشبه تماماً تلك الأحداث التي تجرى فى حياتنا اليومية ، ليس فيها ما يخالف المألوف فيحمل المؤلف على تبريره كما هو الحال فى مسرح كورنى . وهذه البساطة هى التى جعلت راسين يختار الموضوعات التاريخية ، حتى لا يكون أبطال مسرحياته وأشخاصها « الذين يشبهون كل الشبه أولئك الذين نراهم عن قرب خالية من الهيبة ومن الشعر . والتاريخ وحده هو الذى يخلع عليها الشاعرية والهيبة[٢]» .

وكان راسين مقلداً للإغريق فى هذا الاتجاه ، لأنهم كانوا يبحثون دائماً فى أقدم أساطيرهم عن الموضوعات التى عالجوها فى أدبهم ، غير أنه كان يفضل دائماً الشعراء . فليست المصادفة هى التى ساقت راسين إلى أن يختار موضوعات مآسيه من الشعراء أو من المؤرخين الشعراء :

فأندروماك وإيفيجينى وفيدر مأخوذة من أوربيد وهوميروس وفرجيل ، كما أخذ موضوع بريتانيكيس من « تاسيت » الذى يعد أعظم مصور

(١) الفصل الأول ، المشهد الرابع .
(٢) راسين : مقدمة مسرحية بايزيد .

للتاريخ القديم ، واستوحى موضوع مسرحية ميتريدات من بلوتارك الذى يمتاز بالعبقرية فى التراجم الدرامية وهو الذى استمد منه شكسبير شعره العاطفى .

كان الموضوع الذى يجتذب راسين إذن هو الذى تتوافر فيه الصورة الشعرية إلى جانب الحركة الدرامية . وقد حاول جاهداً الاحتفاظ الشديد بتلك الصور الشعرية القديمة التى كانت أول ما حرك قلبه وتفتحت لها حاسته الفنية وميوله الأدبية وهو لا يزال صبياً يعيش مع أساتذته فى اليوررويال .

إن قراءة مسرحيات راسين توحى فى الواقع بأثر عام للاتساق والصدق وتطلعنا على شعر موزون منسجم دائماً ، متصل دواماً ، فلا يبدو فيه أدنى تفكك . هذا الأسلوب الممتاز قراءة ، لا تظهر خصائصه الذاتية إلا حين ينطق به أشخاص المسرحيات الراسينية . فهو أسلوب دقيق يظهر لنا جميع خفايا الميول والأهواء والنزوات ، حين يتعرض للتحليل العاطفى لدى البشر ، ويظهرها واضحة متميزة . ثم هو أسلوب يلائم المواقف المختلفة ملاءمة تامة : أنيقاً حين يتحدث بريتانيكيس أو بيروس أو إكسفاريس ، مرناً ينم عن التلميح وتكفى فيه الإشارة حين نسمع نرسيس أو ماتان ، عارماً جارفاً حين تنطق أجريبين أو يتكلم أتالى أو ميتريدات ، رقيقاً حزيناً حين يصدر عن أندروماك أو مونيم . ثم هو بجانب هذا كله ، ينطوى على الكثير من القوة والجبروت حين يتكلم يوعاد وأجاممنون . والفقرات الهادئة فى مسرحيات راسين ترينا أسلوباً ممتازاً إلى حد كبير ،

متسق المجازات والاستعارات ، فنيًّا فى كل تقديم وتأخير .

أما ما يشعر حقًّا بروعة هذا الأسلوب ، فهى تلك المواضع التى تظهر فيها « الشهوة وحدها » وهى تحرك الشخصيات : فهرميون وفيدر وأجريبين ويوعاد وغيرهم يتخلون تمامًا — حين يستولى عليهم الغضب — عن كل ألوان الأناقة فى الكلام ويتركون جميع الصور البلاغية ، ويصبح كل تقديم أو تأخير أو حذف ، استجابة لدقات القلوب وثورة العواطف ، لا مجرد صور بلاغية فنية . وأكثر من ذلك أن اللغة نفسها — فى قوتها المباشرة — قد تصبح مبتذلة فى بعض الأحيان ، وفقًا لما تقضى به كل طبيعة بشرية لا زيف فيها . غير أن راسين لا يستخدم غالبًا إلا الألفاظ المنتقاة ، ذات الطابع الشعرى ، ويعرف كيف يضفى عليها كل قوتها لتكتسب بذلك وضوحها وعمقها .

أما صوره الشعرية فهى صور مباشرة ، صور حقيقية تفتح الأبصار لتدرك أبعاد النفس البشرية ، وإن لم تتعد هذه الصور حدود الاستعمالات المجازية المسموح بها . ولو أمعنا النظر فى مسرح راسين لوجدنا أن القوة العنيفة التى تتخلل بعض مسرحياته والثورات الشهوانية التى قد تصل فى حدتها إلى أن تصبح أهواء جنونية مثل ثورة روكسان وفيدر وهرميون ، ما هى فى حقيقة الأمر إلا صورة من الصور الأدبية المألوفة فى القرن السابع عشر فى الخطب الشعرية على طريقة كورنى .

ولكن مهارة راسين تتجلى فى إيضاح التدرج المنتظم والتقلبات

العاطفية التي يرسمها في مهارة فائقة وفي أسلوب من الشعر الرفيع ، يعد أنقى تعبير عن العبقرية الكلاسيكية .

يخضع مسرح راسين للوحدات الثلاث ويخضع شعره للقواعد التي وضعها مالرب وبوالو ، بالرغم من بعض المخالفات الجريئة ، إلا أن راسين يعده مؤرخو الأدب والنقاد مثلا فريداً في تاريخ « الأدب الفرنسي » بل في الآداب العالمية ، إذ لم يستطع غيره أن يعبر عن حياة ضافية في فن رفيع كما عبر هو ، ولذلك أراد فولتير أن يكتب على كل صفحة من صفحات مؤلفاته : جميل ... فريد ... رائع !

عبد الحميد الدواخلي



مأساة طيبة
أو
الشقيقان العدوّان

(عام ١٦٦٤)

ترجمة
الدكتور أنور لوقا

مراجعة وتقديم
عبد الحميد الدواخلي

فحص
الدكتور محمد محمد القصاص

تقديم

مأساة طيبة (أو الشقيقان العدوان) مسرحية شعرية فى خمسة فصول ، مثلتها فرقة موليير فى العشرين من شهر يونيو عام ١٦٦٤. ويحدثنا راسين فى مقدمة المسرحية التى طبعت عام ١٦٦٧ قائلاً بأنه كان قد نظم بعض أشعار وقعت مصادفة بين أيدى بعض أصدقائه ممن وهبوا ثقافة وذكاء ، فاقترحوا عليه أن يجعل منها مسرحية واختاروا له اسمها حين أطلقوا عليها : مأساة طيبة . على أن بعض النقاد يزعمون أن موليير هو الذى قاد راسين خلال محاولاته الأدبية الأولى ، ولكن لويس راسين يؤكد لنا أن والده كان قد فرغ من تأليف مسرحية مأساة طيبة قبل أن يتعرف بموليير ، وأنه كان قد أتمها فى الفترة التى قضاها بمدينة أوزيس بإقليم اللنجدوك لدى عمه القسيس ، خلال تلك الفترة التى خشى عليه فيها أساتذة پورروريال من أن ينغمس فى الفساد حين انطلق يتصل فى باريس بالشعراء والندماء وبمواطنه جان دى لافونتين ، وأخذ ينظم شعراً وحصل من الملك على هدية قدرها مائة جنيه ذهبى ومعاش سنوى قدره خمسة وعشرون جنيهاً ذهبيًّا ، كما أخذ يخالط الممثلين ويجرب تأليف المآسى .

ومصادر هذه المسرحية هو فنيقيات أوريبيد : فمنشدات المسرحية فينيقيات وتجرى أحداثها فى طيبة . كما يعترف راسين صراحة فى مقدمته أنه قد استوحى مسرحية أنتيجون للكاتب « روترو » التى ظهرت عام ١٦٣٨ ، غير أنه عدّل فيها فجعل خاتمتها ، وهى مصرع الأخوين لا توحى بأحداث أخرى كما هو الشأن فى مسرحية روترو .

على أن روترو وراسين قد تأثرا على السواء بمسرحيات كورنى ، لا فى الحوار الذى يدور على لسانى إتيوكل وبولينيس فى الفصل الرابع وحده — وهو حوار يذكرنا بما دار بين رودريج والكونت فى مسرحية « السيد » — كما يقلد راسين كورنى فى السداسيات الشعرية التى ترد على لسان أنتيجون فى الفصل الخامس والتى تذكرنا بالسداسيات التى ينطق بها رودريج . وعلى الجملة فمأساة طيبة قد ألفت على نسق مسرحيات كورنى .

أما العمل المسرحى فيقوم على الأحداث لا على المشاعر والعواطف البشرية ، ومن الواضح أن راسين قد وجد عسراً شديداً فى كتابة خمسة فصول ، حين جعل أشخاص مسرحيته يعمدون إلى الأحاديث البليغة والخطب الفصيحة إلى أن يأتيهم رسول يخبرهم بما يجرى فى الخارج من أحداث دامية تقع بين أنصار أتيوكل ومعضدى بولينيس : وما ذلك إلا لأن إتيوكل يحكم طيبة ويرفض تماماً أن يترك العرش لأخيه بولينيس ليحكم طيبة بدوره عاماً وفقاً لاتفاق سابق بينهما . ولهذا يحضر بولينيس مطالباً بالحكم ، يسانده الجيش ويحاصر طيبة .

وتحاول جوكاست ، أمهما التعسة ، جاهدة ، التوفيق بين ولديها ، كما تحاول أختهما أنتيجون أن تنهى الموقف فى سلام ، مستعينة بما يربطها بأخيها بولينيس من حب ، كما لجأت إلى حبيبها وابن خالها هيمون ، الذى يدير أعمال أخيها بولينيس ويسيطر عليه سيطرة شديدة ، ليصلح بين الأخوين . وهى لا تعلم أن حبيبها واقع تحت تأثير والده كريون الذى يعمل جاهداً لتزداد البغضاء بين الأخوين ويشتد النزاع فيقضى كل منهما على الآخر ، ليخلو مكانهما لابنه هيمون ، فيصبح هو الحاكم الوحيد لطيبة . مطامع ضارية تضطرب فى نفوس بشرية لا تعرف حناناً ولا حبًّا ولا رحمة ولا عدلاً ، لا تؤمن إلا بمصالحها مضحية فى سبيلها بصلات القربى !

على أن تضرعات الأم كانت كفيلة بأن يلتقى الأخوان ؛ ولكن يا له من لقاء !

تتحدث جوكاست إلى ولديها قائلة :

« ـــ ها أنذى أوشك أن أبلغ غاية مناى ، ما دامت السماء قد جمعت الآن شملكما . إنك لتلقى أخاً فى هذا القصر الذى ولدتما فيه ، بعد أن غبت عنا عامين . وأما أنا ، فإنى أحظى بسعادة ما كنت أجرؤ على تصورها ، إذ أستطيع أن أعانقكما معاً . ألا فابدآ ـــ يا ولدىّ ـــ هذا الوئام المحبب ، فليتعرف كل منكما على أخيه ، وليرَ كل منكما ملامحه

فى وجه أخيه . إنه لن يراها واضحة حتى ينظر إليها عن كثب . ليتكلم الدم خاصة ، وليفعل فعله . اقترب ، إتيوكل ، تقدم بولينيس !

ما هذا ؟ بدلاً من أن تقتربا ، أرى كلا منكما يتراجع ، ما مصدر هذا اللقاء القاتم ؟ وما مردّ هذه النظرات النابية ؟ ثم ما هذا التردد ؟ أو ليس ذلك لأن كلا منكما — لكى يحيى أخاه — ينتظر أن يحييه أخوه ؟

كأن كلا منكما لا يريد أن يكون أول معانق لأخيه ، لأنه يتكلف أن يكون له شرف التنازل أخيراً ! فيا لغرابة هذا الطموح الذى لا يصبو إلا للجرم حين يعد أشد الثائرين فيه كريماً ! أحرى بالفائز أن يخجل من هذا العراك المشين ، وأول المغلوبين هم الأكرمون . فلنر إذن أيكما الأشجع ومن يريد أن يكون السابق إلى قهر غيظه . ماذا ! ألا تفعلان مما تسمعان شيئاً ؟ عليك أنت أن تتقدم ، إنك آت من فج بعيد ، ينبغى أن تبدأ : هيا ابدأ ، بولينيس ، عانق أخاك ، وأظهر أنك . . .

يقاطع إتيوكل أمه قائلا :

— أى مولاتى ! فيم هذا الإلغاز ؟ إن جميع هذه المعانقات لا تكاد تناسب المقام . فليتكلم ويشرح أمره ويتركنا فى راحة وسلام » .

عندئذ يشتد الجدل بين الأخوين وتحتدم المناقشة بين الأم وابنها بولينيس ، تلين تارة وتقسو تارة أخرى ، تتحدث إلى ولديها مستثيرة

عواطفهما وحنانهما ولكن هيهات أن يقتنعا بمنطق سليم أو يؤمنا بالعواطف الإنسانية . لقد أعماهما التمسك بعرش طيبة . ويأبى بولينيس فى إصرار شديد أن يترك أخاه حاكماً على عرش طيبة ويقبل هو العرش الذى يقدمه له والد خطيبته . إنه يعد ذلك امتهاناً لكرامته ولا يريد إلا أن يسقط أخاه عن عرشه ولو كان فى ذلك هلاكهما وهلاك أهل طيبة . وينتهى بهما الأمر إلى أن يدعو كل منهما الآخر إلى نضال فردى لا يتدخل فيه الجيشان ، فيشتد عراكهما ويقتل كل منهما الآخر ، بعد أن قتلا هيمون حين أراد أن يفصل بينهما فى معركتهما الوحشية ، وكان الابن الثانى لكريون قد ضحى بنفسه من أجل السلام .

أما أمهما جوكاست فقد بلغ بها الألم أقصاه حين قتل ولداها فانتحرت ، ولا تلبث أنتيجون أن تزهق روحها بيدها . وكان اليأس قد بلغ بكريون ذروته حين رأى ولديه صريعين وقد فشلت مشروعاته الجهنمية ، فألحق نفسه بالمنتحرين من أسرته . وعلى هذا أصبحنا نرى سبع جثث ! ووسط هذه الوحشية ، نرى أن عبارات الحب والغرام لا محل لها . ويدرك راسين هذه الحقيقة حق الإدراك معتذراً فى مقدمته ومخالفاً فى ذلك رأى كورنى ، من أن الحب يبدو حباً مصطنعاً غير حقيقى حين لا يكون هو الموضوع الرئيسى الذى تتناوله المسرحية .

وأشخاص المسرحية ، بعد هذا كله ، غير مرتبطين من الناحية

الفنية ارتباطاً شديداً . غير أن لغة راسين طيعة وموسيقية ، ولكنه مع ذلك يرجو مشاهدى مسرحيته وقراءها ألا يقسوا فى الحكم عليها لأنها تعد أولى محاولاته الأدبية .

ولكن مأساة طيبة لم تحدث ضوضاء كبيرة على عكس مسرحياته الأخرى ، غير أنها قد قوبلت — على ما يبدو — باستحسان كبير وإقبال شديد .

عبد الحميد الدواخلى

رسالة الإهداء

إلى مولاى الدوق دى سانت - إينيان

« پير دى فرانس »

مولاى!

إنى أقدم إليك عملا قد لا يكون له من دواعى التقدير سوى شرف إعجابك به. وإن هذا الشرف ليعظم عندى حقاً، حتى لأستطيع أن أقول - ولو لم تدر علىّ مسرحيتى غير هذا الفضل - إن نجاحها قد فاق كلّ آمالى. وماذا كنت أستطيع أن آمل أسمى من تقريظ مَنْ يعرف كيف يقدر الأشياء حق قدرها، وهو نفسه موضع إعجاب من الجميع؟ لذا - يا مولاى - فإن كانت « مأساة طيبة » قد لقيت بعض الثناء، فذلك أن القوم لم يجرؤوا دون ريب على نقض الحكم الذى أصدرته فى جانبها، ويبدو أنك نقلت إليها موهبة الاستئثار بالإعجاب، تلك الموهبة التى تصحب جميع أفعالك.

وإنى لأرجو - وقد تجردت من زينة المسرح - أن تظل نظرتك إليها نظرة الرضا. وإذا كان الأمر كذلك، فلست أخشى عليها

شيئاً ، مهما يعرض لها من أعداء ما دامت فى كنف حام لم يعهد أن تزعزعه كثرة الأعداء . ويعلم الناس ، يا مولاى أنك ، على درايتك التامة بجميع الآثار ، لا تقدم على عظيم المآثر بهمة أدنى ، وأنك قد جمعت فى شخصك هاتين الصفتين الممتازتين ، اللتين صنعت كل منهما على حدة الكثيرين من العظماء . غير أن أخوف ما أخافه أن يبلغ مديحى من الإثقال عليك ما بلغه مديحك من فضل عميم عليّ : وما أنا فى الواقع بذاكر لك سوى أشياء يعرفها عنك الجميع ، وتريد أنت وحدك أن تجهلها .

وحسبى أن تأذن لى فى أن أقول لك ، بعميق الاحترام ، إننى ، يا مولاى ، خادمك جدّ المتواضع وجدّ المطيع .

راسين

مقدمة

ليأذن لى القارئ فى أن أسأله أن يولى هذه المسرحية شيئاً من الرحمة يفوق رأفته بالمسرحيات التى تتبعها ؛ فلقد كنت فى مقتبل الشباب حين أنشأتها . وكانت بعض أبيات من الشعر قرضتها إذ ذاك قد وقعت مصادفة بين أيدى نفر من أهل الفطنة ، فحثونى على إنشاء تراجيديا ، واقترحوا على موضوع « مأساة طيبة » . وهذا الموضوع كان قد عالجه قديماً « روترو » ، تحت عنوان « أنتيجون » . غير أنه دفع الشقيقين إلى الموت منذ مستهل الفصل الثالث . وكانت البقية نحواً من بداية تراجيديا أخرى ، يدخل المرء فيها على أغراض جديدة كل الجدة . وهكذا جمع فى مسرحية واحدة موضوعين مختلفين ، يكفل أحدهما مادة « الفينيقيات » لأوريبيد والآخر مادة « أنتيجون » لسوفوكل . وأدركت أن هذا الازدواج فى الموضوع كان من شأنه أن يضر بمسرحيته ، وإن كانت مليئة بكثير من المقطوعات الجميلة . ووضعت خطتى على نمط « الفينيقيات » لأوريبيد تقريباً . وأما عن « مأساة طيبة » التى وردت ضمن مؤلفات « سينيك » ، فإنى أرى فيها بعض ما يراه « هينسيوس » ، وأقدر مثله أنها ليست تراجيديا لـ « سينيك » فحسب ، بل إنها بالأحرى عمل منشد لم يكن يدرى ما هى التراجيديا .

وقد يغلب على فاجعة مسرحيتي الإسراف في سفك الدماء ، فما يكاد يظهر فيها ممثل إلا مات في النهاية . ولكن هكذا كانت « مأساة طيبة » ، إنها أشد موضوعات الأقدمين تفجيعاً .

والحب ، الذى يستأثر عادة بحظ عظيم فى التراجيديات ، لا يكاد يحظى هنا بمكان . وأشك فى أننى مفسح له السبيل لو أعدت كتابة المسرحية مرة أخرى : إذ ينبغى فى تلك الحال أن يكون أحد الشقيقين عاشقاً ، أو أن يكونا عاشقين معاً . ويا للتكلف فى أن تنسب إليهما مآرب أخرى عدا مآرب ذلك البغض المشهور الذى كان يستغرقهما استغراقاً تامًّا ! وقد ينبغى إلقاء الحب على شخصية من الشخصيات الثانوية كما فعلت ، وإذ ذاك لا تستطيع هذه العاطفة – التى تصبح كأنها غريبة عن الموضوع – أن تنتج إلا آثاراً هينة . وعلى الجملة ، فإنى مقتنع بأن ما يخالج العشاق من حنان أو غيرة إنما هى ألوان من العاطفة لن تجد لها إلا موضعاً ضئيلا بين الزواج المحرم من ذوى القربى ، وقتل الأهل ، وسائر تلك المنكرات التى تؤلف قصة « أوديب » وأسرته الشقية .

راسين

الأشخاص

إتيوكل : ملك طيبة .

پولينيس : شقيق إتيوكل .

أنتيجون : أخت إتيوكل ، وبولينيس .

جوكاست : أم هذين الأميرين وأم أنتيجون .

كريون : خال الأميرين والأميرة .

هيمون : ابن كريون ، وعاشق أنتيجون .

أولامب : وصيفة جوكاست .

أتال : وصيف كريون .

جندى من جيش بولينيس .

غلام .

حارس .

المشهد فى طيبة ، فى إحدى قاعات القصر الملكى .

* * *

الفصل الأول

المشهد الأول

جوكاست ، أولامب

جوكاست : هل خرجوا يا أولامب ؟ آه ! أيتّها الآلام المميتة ! لحظة راحة ، كم ستكلفنى من البكاء ! لقد انفتحت عيناى منذ ستة شهور للدموع ، فهل يغمضهما الكرى بين هذه النذُر ، ليت الموت بالأحرى يسبلهما إلى الأبد ، ويمنعنى من رؤية أشد الجرائم سواداً . ولكن هل التحموا بالأيدى ؟

أولامب : لقد رأيتهم من أعلى السور وقد اصطفوا جميعاً للمعركة ؛ رأيت السيوف وقد ومضت من كل صوب ؛ ولكى آتيك بالأنباء غادرت الأسوار . رأيت إتيوكل نفسه ، منتضياً سيفه . إنه يتقدم فى الطليعة ، وبحمية قصوى ، يبين لأشجع الشجعان كيف يتحدى الخطر .

جوكاست : لا نشك فى ذلك يا أولامب ، لسوف يتناحران . فليسرع إلى الأميرة من يخطرها ويتعجلها . إنى أنتظرها ، أيتّها السماء

العادلة ، أعينى ضعفى ! ينبغى أن نسرع يا أولامب فى إثر هذين المتوحشين . ينبغى أن نفصل بينهما ، أو نموت بأيديهما . ها نحن أولاء، وا شقوتاه، قد بلغنا هذا اليوم الكريه الذى كنت من قبل أبتئس من مجرد رهبته ! لم يجدنى الدعاء ولا البكاء أى شىء ، وإنما أراد سخط القدر أن يتشفى . وأنت أيتها الشمس ، أنت يا من تعيدين النور للدنيا ، ليتك تركتها فى ظلام دامس ! أتعيرين شعاعك آثاماً فى مثل هذا السواد ؟ أو تستطيعين ، دون ذعر ، أن تبصرى ما نبصر ؟ غير أن هذه الأعمال البشعة ، وا حسرتاه ! لا تكاد تروعك ؛ فقد جعلها جنس لايوس مألوفة : إنك لتستطيعين أن تشهدى بلا رهبة جرائم ولدىّ ، بعد ما اقترف الأب والأم من ذنوب . وإنك لا تعجبين من أن يكون ولداى غادرين ، وأن يكون كلاهما شريراً وسفاحاً لأهله ، فإنك تعلمين أنهما نتجا من دم حرام ، بل إنك لتعجبين او كانا فاضلين !

* * *

المشهد الثانى

جوكاست ، أنتيجون ، أولامب

جوكاست : يا ابنتى ، هل علمت فوادح رزئنا ؟

أنتيجون : نعم ، يا مولاتى ، أتانى حديث ما أقدم عليه أخواى من جنون شديد .

جوكاست : هلمى ، عزيزتى أنتيجون ، ولنهرع إليهما توًّا لنحول — إذا استطعنا — بين سواعدهما وبين قتل الأهل . هلمى بنا لنطلعهما على أرق ما لديهما من مشاعر ، ولنر أيستطيعان إزاءنا الصمود ، أم عساهما يجرؤان ، فى غيظهما الأسود ، على أن يريقا دمنا توطئة لسفك دمهما .

أنتيجون : مولاتى ، لقد قضى الأمر ، ها هوذا الملك نفسه .

* * *

المشهد الثالث

جوكاست ، إتيوكل ، أنتيجون ، أولامب

جوكاست : أولامب ، أعينينى ؛ إن ألمى لعظيم .

إتيوكل : مولاتى ، ما بك ؟ وأى اضطراب . . .

جوكاست : آه ! ولدى ، آثار أى دم أرى على ثيابك ؟ أهى من دم شقيق ، أم هى من دمك ؟

إتيوكل : لا ، يا مولاتى ، إنها ليست من هذا ولا من ذاك ، فبولينيس ما زال قاعداً فى معسكره حتى الآن ، ولم يلح أمام عينى للقتال . وإنما تجاسرت فرقة من الأرجيين على أن تنازعنى الخروج من أسوارنا ، فجعلت هؤلاء المتجاسرين يلعقون الثرى ، ودمهم هو هذا الذى يبدو لناظريك .

جوكاست : فماذا كنت تبغى ؟ وأية حمية مفاجئة ساورتك فدفعتك إلى النزول إلى السهل ؟

إتيوكل : مولاتى ، كان قد حان لى أن أقدم على هذا ، فقد كدت أفقد مجدى بالمكوث هنا . وأخذ الشعب ، وقد انتابه الخوف من الجوع — يتذمر من قلة نشاطى ، ويعيب علىّ أنه توجنى وأنى لست أهلاً لتولى المنصب الذى منحنى إياه . لابد من إرضائه ، ومهما يحدث من أمر ، فإن طيبة لن تبقى بعد اليوم أسيرة : إنى أريد — إذ لم أدع فيها جندياً واحداً من جنودنا — أن تكون هى الحكم بيننا فى القتال . إن لى من القوات ما يكفى للسيطرة على المعركة ؛ ولو صاحب أسلحتنا شىء من حسن الطالع ، لترك بولينيس الوقح وحلفاؤه الأغرار طيبة حرة ، أو لماتوا عند قدمىّ .

جوكاست : أو تستطيع بدم كهذا — أيتها السماء! — أن تلطخ أسلحتك؟ وهل للتاج فى نفسك كل هذا السحر ، ولو كان الفوز به يدفعك إلى قتل أهلك ؟ آه ! ولدى ، أتريد بهذا الثمن أن تملك ؟ إنما رَهنٌ بك وحدك ، لو شبَّ فى روحك الشرف ، أن تهب لنا السلام دون الاستعانة بجريمة ، وأن تتغلب اليوم على غضبك ، فترضى أخاك وتحكم معه .

إتيوكل : أتسمين ملكاً أن أشطر تاجى ، وأن أنزل خانعاً عما هو حق لى ؟

جوكاست : إنك لتعرف ذلك يا ولدى ، إن العدل والدم يعطيانه ، مثلك ، نصيبه من هذه المرتبة السامية . فلقد أمر أوديب ، وهو يختتم مصيره التعس ، أن يملك كل منكما سنة واحدة ، ولما لم تكن له سوى مدينة واحدة يضعها تحت شرائعكما ، أراد أن يكون كل منكما ملكاً ، الواحد تلو الآخر . ولقد تفضلت فأقررت هذه الشروط . ودعاك القدر إلى السلطان أولا ، فتبوأت العرش ، ولم يحقد أخوك لذلك عليك إطلاقاً ؛ أما أنت فلا تريد أن يتبوأه بعدك !

إتيوكل : كلا ، يا مولاتى ، لم يعد له أن يطمح إلى السلطان : فإن طيبة لا تريد أن تنصاع لذلك القرار ، ولست أنا بل هى

التى تولت طرده من العرش حينما أراد أن يحتله . وهل لطيبة أن تستهين ببأسه ، بعد أن بلت بطشه ستة أشهر ؟ أتراها تطيع هذا الأمير الذى تنكر للإنسانية ، واستعدى أخيراً عليها السيف والجوع ؟ أو تتخذ ملكاً لها عبد مبسين ، هذا الذى لم يعد يضمر لجميع أهل طيبة إلا البغض ، وقد خضع لملك أرجوس خضوع الهوان ، ومن يربطه رباط المصاهرة بأعدائنا الأغرار ؟ إن ملك أرجوس ، عندما اختاره ختناً له ، إنما كان يرجو أن يرى طيبة وقد استحالت بيديه رماداً . لقد كان للحب حظ ضئيل فى هذا الزواج المخزى ، ولم يضرم جذوته سوى احتدام الغيظ . وقد توجتنى طيبة اتقاء لأغلالها ، وهى تتوقع أن ترى على يدى نهاية آلامها . إنى لأتجنى عليها ، لو حنثت بعهدى لها ، وما أنا إلا أسيرها لا ملكها .

جوكاست : بل قل ، قل أيها القلب الجاحد النفور ، إنك إزاء التاج لا يؤثر فيك أىّ شىء . غير أنى أتورط فى الخطأ ، فإن هذا المنصب لا يستهويك ، وللجريمة وحدها مفاتن تخلبك . إذن ، ما دمت كلفاً بها إلى هذا المدى ، فها أنذى أسلم لك أن تقتل أهلك مرتين : أسفك دم الشقيق ، وإذا لم يكفك دمه ، فإنى أدعوك إلى أن تريق دمى أنا أيضاً . وعندئذ لن يصبح أمامك عدو تناهضه ، ولا عقبة تجتازها ،

ولا إثم تقترفه ، وإذ تتربع على العرش دون أن يزاحمك منافس عنيد ، فسوف تكون أعظم المجرمين شأناً .

إتيوكل : كذا ، مولاتى ، كذا ينبغى أن أرضيك : ينبغى أن أتخلى عن العرش وأتوج أخى ، ينبغى — لكى أعضد مسعاك المجحف — أن أصبح تابعاً له بعد أن كنت ملكاً عليه ، ولكى تبلغى غاية الطرب ينبغى أن أسلم نفسى فريسة لغضبه ، ينبغى بمصرعى . . .

جوكاست : آه ! أيتها السماء ! يا للقسوة ! ما أضلك فى النفوذ إلى أعماق قلبى ! إنى لا أسألك أن تنزل عن السلطان ، بل املك دائماً يا ولدى ، ذلك ما أبتغيه . ولكن إذا كانت جميع هذه البلايا تثير فيك الشفقة ، وإذا كان فؤادك يحفظ لى شيئاً من الود ، وإذا كنت تحرص على مجدك ذاته ، فأشرك أخاً لك فى شرف هذا المنصب الأعلى : فإنه لن ينال منك إلا زيفاً من البهاء ، وإن ملكك ليقوى بذلك ويطيب . لسوف تحمد الشعوب هذا الفضل السامى ، وتستبقى والياً عليها ذلك الملك الكريم ، ولن يضعف هذا العمل الرائع من حقوقك ، بل سيجعل منك أعدل الملوك وأعظمهم ، وأما إذا قدر على أمانىّ أن تجدك عصيًّا ، وإذا بدا لك السلام بهذا الثمن محالا ، وإذا أغراك التاج

كل هذا الإغراء ، فواسنى ولو بفسحة من السلام وجيزة المدى . أنعم بهذه المنة على أم باكية . وفى هذه الأثناء سأمضى يا ولدى لأرى أخاك : فلعل الشفقة تصادف مكاناً فى نفسه ، وإلا فإنى ذاهبة لأودعه الوداع الأخير . إئذن لى الآن أن أخرج : سأمضى إلى خيمته ، وسأذهب دون حرس ، راجية أن أستلين قلبه بزفراتى الصادقة .

إتيوكل : مولاتى ، تستطيعين أن تلقيه دون أن تخرجى ، وما دمت تتعللين بسحر هذا اللقاء، فإن وقف أسلحتنا مرتهن بموقفه . ولك منذ الآن أن تحققى رجاءك ، وأن تستقدميه إلى قلب هذا القصر . وسوف أمعن إلى أبعد من هذا المدى ، فلكى أبين مقدار افترائه فى وصفى بالخيانة ، وأثبت أننى لست طاغية ذميما ، فلنطلب كلمة الشعب والآلهة . وإن قبل الشعب ذلك ، نزلت له عن مكانى ، على أن يذعن للأمر إذا طرده الشعب . إننى لا أرغم أحداً ، وأقطع العهد على نفسى أن أدع لأهل طيبة أن يختاروا لهم ملكاً .

* * *

المشهد الرابع

جوكاست، إتيوكل ، أنتيجون ، كريون ، أولامب

كريون : مولاى ، لقد بث خروجك الذعر فى كل مكان : ظنت طيبة أنها فجعت فيك فأضحت والدمع يغمرها ، وساد الرعب والهلع جميع الأرجاء ، وراح الشعب الفزع يرتعد فوق حصونه .

إتيوكل : لن يلبث هذا الخوف الباطل أن يهدأ . مولاتى ، إنى عائد إلى جيشى ، وفى هذه الأثناء تستطيعين أن تحققى رجاءك، فتدخلى بولينيس وتحدثيه عن السلام . كريون ، إن الأمر هنا للملكة فى غيابى ، هيىء الجميع لطاعتها ، وأقم ابنك مينيسيه لتلقى وتبليغ أوامرها ، لقد وقع عليه اختيارى ، وبما أنه يتحلى بالشرف كما يتحلى بالشجاعة ، فسينزع هذا الاختيار كل ريبة لدى الأعداء ، ونضاله كفيل بأن يبث فيهم الطمأنينة . أصدرى إليه أوامرك يا مولاتى . (إلى كريون) عليك أن تتبعنى .

كريون : ماذا ! مولاى . . .

إتيوكل : أجل ، كريون ، لقد تقرر الأمر .

كريون : أو هكذا تتنزل عن السلطة المطلقة ؟

إتيوكل : لا تعذب نفسك فى أن أنزل عنها أو لا أنزل ، افعل ما آمرك واتبع خطاى .

* * *

المشهد الخامس

جوكاست ، أنتيجون ، كريون ، أولامب

كريون : ماذا صنعت يا مولاتى ؟ وبأى مسلك تكرهين الظافر على أن يلوذ هكذا بالفرار ؟ ستضيع هذه المشورة كل شىء .

جوكاست : بل ستحفظ كل شىء ، وبهذه المشورة وحدها تستطيع طيبة النجاة .

كريون : ما هذا يا مولاتى ، ما هذا ! ونحن عند المدى الذى بلغناه الآن ، إذ يؤازر أهل طيبة نيف وستة آلاف رجل ، ويعدهم القدر بكل شىء ، أيدع الملك النصر يغتصب من بين يديه ؟

جوكاست : ليس النصر دائماً ، يا كريون ، على مثل ما يوصف به من الجمال ، فطالما يتلوه الخزى والندم . حينما يتأهب للتناحر شقيقان مسلحان ، فإن فى عدم الفصل بينهما

إضاعتهما معاً . أيمكن أن تلحق بالظافر سبة أشد سواداً من أن يتاح له مثل ذلك النصر ؟

كريون : إن غضبهما قد بلغ مبلغاً . . .

جوكاست : يمكن أن يخفف .

كريون : كلاهما يريد أن يحكم .

جوكاست : وسيحكمان .

كريون : إن جاه السيادة لا يقتسم إطلاقاً ، ولا هو مال يترك تارة ويسترد تارة أخرى .

جوكاست : ستقوم مصلحة الدولة أمامهما مقام الشريعة .

كريون : مصلحة الدولة فى ألا يتولى أمرها سوى ملك واحد، يحكم أمصارها بنظام ثابت ، فيعود الشعب والأمراء شرائعه . وأما هذا الملك المتقطع لملكين مختلفين ، فإنه إذ يهب للدولة ملكين ، إنما يفرض عليها طاغيتين . وما أكثر ما سوف يتعارض نظاماهما ، فيهدم الأخ ما صنع أخوه . لسوف ترينهما دائماً يدبران المؤامرات ، ويغيران كل عام وجه الدولة . وهذا الأجل المحدود الذى يراد تعيينه لهما ، إنما يذكى من عنفهما إذ يحد من سلطانهما . كلاهما بدوره سيدفع الشعب إلى الأنين ، وسيكون مثلهما كمثل تلك السيول

التى لا تدوم إلا يوماً واحداً : فكلما ضاق مجراها اشتد أذاها ، ودلت الخسائر الهائلة على مسراها .

جوكاست : بل ستراهما يتنازعان حب رعاياهما بخير المشروعات ، ألا فاعترف ، يا كريون ، بأن مصدر كل ألمك هو أنك ترى السلام يخيب أملك ، ويضمن لولدىّ العرش الذى ترمى إليه ، ويقطع الشرك الذى به تتربص لهما . إن حق الوراثة ، بعد مصرعهما ، يضع السلطة العليا بين يديك ، ولذا بات الدم الذى يربطك بولدىّ الأميرين يجعل منهما فى نظرك ألدّ أعدائك ، وأصبح طمعك ، الذى يرمى إلى أن تحظى بمكانتهما يثير فى نفسك لهما بغضاً شاملا . إنك توحى إلى الملك بنصائحك الخطرة ، وتخدم أحدهما لتقضى عليهما معاً .

كريون : أنا لا أرتع فى مثل هذه الأوهام ، وإنما أضمر للملك ولاء فياضاً صادقاً ، وغاية مطمعى أن أستبقيه على العرش الذى تظنين أننى أريد أن أرتقيه . إن حرصى على عظمته هو حافزى الوحيد ، فإنى أبغض أعداءه ، وتلك هى كل جريرتى ، ولست بكاتمها . ولكن — فيما أرى — ليس كل امرئ هنا مجرماً مثلى .

جوكاست : إننى أمّ ، يا كريون ، وإذا كنت أحب أخاه ، فشخص الملك ليس أقل منزلة فى قلبى . وقد يستطيع لئام رجال البلاط أن يبغضوه ، ولكن أمًّا لا تستطيع مطلقاً أن تتنكر لأمومتها .

أنتيجون : إن مصالحك هنا تطابق مصالحنا ، فليس جميع أعداء الملك أعداءك ، إنك أب يا كريون ، ولعلك تذكر أن لك ابناً بين أولئك الأعداء . وكلنا نعلم بأية حمية يخدم « هيمون » بولينيس .

كريون : أجل ، إنى لأعلم ذلك ، وإنى لأنصفه : علىّ أن أميزه فعلاً من العامة ، ولكن لأبغضه كما لا أبغض أحداً . وإننى لأتمنى ، فى غضبتى المحقة ، أن يكرهه كل إنسان كما يبغضه أبوه .

أنتيجون : بعد كل ما بلت ذراعه ، لا يتمثل الجميع بك فى هذا الشأن .

كريون : إنى لأشهد بذلك يا سيدتى ، وهذا هو ما يحزننى : غير أنى أعلم يقيناً إلامّ تضطرنى ثورته ، وحسن بلائه الذى يستأثر بإعجاب الناس ، هو بعينه ما يحملنى على مقته . إن العار يتبع دائماً حزب المتمردين ، فأروع فعالهم هى

أشدها إجراماً ، إنما هم يبرزون جرمهم إذ يبرزون سواعدهم ،
ولا مجد حيث لا يوجد الملوك .

أنتيجون : أحسن الإصغاء قليلا إلى صوت الطبيعة .

كريون : كلما عز عليّ المهين ، اشتدّ شعورى بالإهانة .

أنتيجون : أينبغى لأب أن يندفع إلى هذا المدى ؟ إنك لتفرط فى البغض .

كريون : وأنت تفرطين فى الطيبة . لقد أسرفت ، يا سيلتى ، فى الحديث دفاعاً عن متمرد .

أنتيجون : إن البراءة لتستحق أن نتحدث عنها .

كريون : أنا أعلم ما الذى يجعله بريئاً فى نظرك .

أنتيجون : وأنا أعلم ما الذى يجعله بغيضاً لديك .

كريون : للحب عينان غير عيون سائر الناس .

جوكاست : إنك تستغل ، يا كريون ، ما آلت إليه حالنا . كل شيء يبدو لك مباحاً ، ولكن عليك أن تحذر غضبي : فإن ما تستبيحه الآن سينقلب عليك فى النهاية .

أنتيجون : إن صالح الشعب لا يكاد يؤثر فى نفسه ، وحب الوطن يحجب عنا جذوة أخرى. إنى لأعرفها ، ولكنى ، يا كريون أمقت مدارها ؛ ومن الخير لك حقاً ، أن تحجبها دائماً .

كريون : سأفعل ذلك يا سيدتى ، وأريد ، سلفاً ، أن أوفر عليك حتى عناء مشاهدتى . إن إجلالى لك ليضاعف من ازدرائك إياى ، هأنذا أفسح المكان لذلك الولد السعيد . إن الملك يدعونى إلى غير هذا المكان ، وعلىّ أن أطيع . وداعاً . استقدما هيمون وبولينيس .

جوكاست : لا تشك فى ذلك ، أيها الشرير ، فسيأتيان ، ويحبطان مآربك الدنيئة .

* * *

المشهد السادس

جوكاست ، أنتيجون ، أولامب

أنتيجون : يا للغادر ! إلى أى حد تبلغ قحته !

جوكاست : لسوف تنقلب عليه أقواله المزهوة خزياً . وإذا حققت السماء ما نتمنى ، فسرعان ما يثأر السلام لنا من هذا الطامع . ولكن يجب علينا أن نسرع ، فكل ساعة لدينا ثمينة : لنعجل بدعوة هيمون وأخيك : إنى فى سبيل ذلك على استعداد لأن أمنحهما جميع ما قد يطلبان من عهود الأمان . وأنت أيتها السماء ، إذا كانت نكباتى قد أعيت

عدالك ، فهيئ للسلام قلب بولينيس ، أعبئ زفراتى ، ظاهرى عبراتى ، وأنطق آلامى كما ينبغى !

أنتيجون (ماكثة قليلا بعد أمها) :

وإذا أشفقت على جذوة بريئة ، أيتها السماء ، فأعدت هيمون إلى حبيبته ، أعيديه وفيًّا ، وائذنى لى فى هذا اليوم أن ألقى الحب إذ ألقى الحبيب !

الفصل الثانى

المشهد الأول

أنتيجون ، هيمون

هيمون : ماذا؟ أتأبين علىّ طلعتك الحبيبة ، بعد عام كامل من عذاب وغياب؟ أولم تدعينى ، يا سيدتى ، إلى وصالك إلا لتنتزعى منى فى الحال هبة ما أحلاها لدىّ ؟

أنتيجون : هل تريد أن أفارق أخاً بمثل هذه السرعة ؟ ألا ينبغى لى أن أصحب أمى إلى المعبد؟ وهل يجوز لى من أجل حبك وإرضاء أمنياتك — أن أوثرك على ما أراه واجباً علىّ نحو السلام ؟

هيمون : سيدتى ، ذلك إسراف فى التماس العقبات أمام سعادتى ؛ إن فى استطاعتهم الذهاب ، دوننا ، لاستشارة الكهنة . إيذنى لقلبى ، إذ يلقى عينيك النجلاوين ، أن يعرف من إلهتيه ما آل إليه أمره . هل أستطيع أن أسألهما — دون تهور منى — أيحفظان لى رقتهما المعهودة ؟ أيتقبلان ، بغير عبوس ، ودّى المشبوب ؟ وهل يراودهما بعض الرحمة بما نفثا فىّ من سقم ؟ طوال ذلك الأمد الكئيب الذى

استغرقه بيْنٌ قاس، هل تمنيت أن أكون وفيًّا ؟ هل جال بخلدك أن الردى بات يهدد — بعيداً عنك — عاشقاً لا يحق له أن يموت إلا عند قدميك ؟ آه ! حينما تجرح نفس بمثل هذا الحسن ، ويتاح لقلب أن يرفع إليك خاطره ، فما أحلى أن يهيم المفتون بهذا السحر السماوى ! ولكن ما أشدّ ما يعانى أيضاً إذا احتجب عنه ! لقد كانت اللحظة الواحدة ، بعيداً عنك ، حولاً طويلاً ؛ وكنت خليقاً بأن أنجز مائة مرة مصيرى التعس ، لو لم يراودنى إلى حين موعد أوبتى . إنّ بعدى عنك ،برهن على حبى لك، وإن ذكرى طاعتى متحدثة من أجلى فى غيبتى ، وإنك إذا تمثلتنى ذكرت أيضاً أن هذه الطاعة إنما تنطوى على الحب الجم .

أنتيجون : أجل ، لقد كنت واثقة من أن نفساً بهذا الوفاء لتجد فى البين لوعة قاسية ، ولو جاز لعواطفى أن تتكشف لك ، فقد كنت أرجو ، يا هيمون ، أن تعذبك الغيبة ، وأن يمتد إليك ظل من الحسرة فيظهر لك الأيام — وأنت ناء عنى — أطول من عهدك بها ، ولكن لا تشكُ شيئاً : فما كان قلبى المثقل بالهموم يرجو لك غير ما يبلو فى شغافه ، لا سيما منذ اتصلت هذه الحرب ، وحجبتم هذه الأرض بجملة السلاح . أيتها الآلهة ! فى أى عذاب رسف قلبى وهو يرى

في كلا الجانبين أرق أحبائه ! لقد مضى يمزق أحشائي ألف داع من دواعي الألم ، كنت أجدها خارج أسوارنا وداخلها ، إذ كانت كل هجمة توقع في قلبي ألف نزال ، وكنت ألقى المنايا ألف مرة في اليوم .

هيمون : فماذا فعلتُ ، في هذا الخطب الفادح ، سوى ما أمرتني به أميرتي نفسها ، لقد تبعتُ بولينيس ، لقد أردتِ أنت ذلك ، وأصدرت لي أمراً لا مردّ له . ومنذ ذلك الحين خصصتُه بصادق الودّ ؛ لقد رحلت عن بلدي ، وفارقت أبي ، واستنزلتُ عليّ بهذا الرحيل غضبه ، بل نأيت عنك أنت أيضاً .

أنتيجون : إني لأذكر ذلك ، يا هيمون ، وأنصفك تماماً . لقد كنت تخدمني أنا حينما كنت تخدم بولينيس ، كان عزيزاً عليّ في ذلك الحين كما هو عزيز عليّ الآن ، وكنت أتقبل ما يؤدى له كما لو كان يؤدى لي . كنا نتبادل الحب منذ نعومة عهد الطفولة ، وكان لي على قلبه سلطان كامل ؛ كنت أجد لذة فائقة في أن أروقه ، وكانت أحزان الأخ لأخته أحزاناً . آه ! لو باتت لي عليه نفس السطوة ، لأحب السلام الذي يصبو إليه قلبي ، ولخفت بذلك شقوتنا الشاملة ،

إذ كان يتاح لى أن أراه ، يا هيمون ، كما يتاح لك أن تراني !

هيمون : إنه تمقت صورة هذه الحرب البشعة . لقد رأيته يصعد الزفرات ألماً وغيظاً ، عندما اضطر – ليرتقى عرش أبيه – إلى سلوك سبيل هذه القسوة . فلنأمل أن ترق السماء لبؤسنا ، فتجمع عما قريب شمل الأخوين . ليتها تعيد المحبة إلى قلبيهما ، وتحفظ الحب فى قلب الأخت !

انتيجون : واحسرتاه ! لا تشك إطلاقاً فى أن هذا الصنيع الأخير أيسر عليها من تهدئة ثورتهما : فإنى أعرفهما ، وأقطع بأن قلبيهما ، يا عزيزى هيمون ، أشد صلابة من قلبي . ولكن الآلهة تصنع أحياناً معجزات خارقة .

* * *

المشهد الثانى

أنتيجون ، هيمون ، أولامب

أنتيجون : ماذا وراءك ! أتحملين إلينا نبوءة الكهان ؟ ماذا ينبغى لنا أن نفعل ؟

أولامب : وا نكبتاه !

انتيجون : ماذا ؟ ما الذى تلقاه القوم عنها ؟ أهى الحرب ، يا أولامب ؟

اولامب : آه ! بل شر منها !

هيمون : فما هذا الشر العظيم الذى ينذر به سخطها ؟

اولامب : أيها الأمير ، لكى ترى فى ذلك رأيك ، أنصت إلى جوابهم :

أن يخضب أرضكم بمصرعه آخر من يجرى فى عروقه الدم الملكى ، إن ذلك لأمر محتوم .

أنتيجون : أيتها الآلهة ! ماذا جنى عليك هذا الدم المنكود ؟ ولماذا أدنتيه بأكمله ؟ ألم ترضك ميتة أبى ؟ وهل قضى على دمنا بأجمعه أن يبوء بغضبك !

هيمون : سيدتى ، إنّ هذا الحكم لا يعنيك . وفضلك يصونك من الردى : فإن الآلهة لتعرف كيف تميز الأبرياء .

أنتيجون : أما أنا فلست أخشى على نفسى ثأرها . لن تكون براءتى ، يا هيمون ، إلا سنداً واهياً ، إذ ينبغى — وأنا ابنة أوديب — أن أموت من أجله . إنى أنتظر هذا الموت ،

وأنتظره دون شكاة ، ولو أتيح لى أن أفضى إليك بسر خوفى ، فإنى عليك أخاف ؛ أجل ، عزيزى هيمون ، عليك أنت . إنك لسليل هذا الدم المنكود مثلنا ؛ وما أرى إلا جليًّا أن غضب السماء سوف يؤدى لك ما أدى لنا من تلك التحية الشديد شؤمها ، وسوف يجعل أمراء طيبة يأسفون لأنهم لم ينحدروا من نسل أدنى الناس .

هيمون : أو يندم المرء على إحراز هذه المزية العظمى ؟ إن شرف مثل هذا المصرع ليستهوى شجاعتى ، وجميل أن يكون المرء سليل دم ملوكه ، ولو كتب عليه أن يرد هذا الدم ساعة يتلقاه .

أنتيجون : ما هذا ؟ إذا ارتكب بعضنا ما يغضب ، أفينبغى أن تثأر السماء لذلك منك ؟ أولا تكتفى بالأب والأبناء ، دون أن تمعن إلى أبعد من هذا المدى فى التماس الأبرياء ؟ إن علينا وحدنا الوفاء بما جنى أهلنا : فعاقبينا نحن ، أيتها الآلهة العظيمة ! ودعى الآخرين . لسوف يدفعك أبى إلى الهلاك اليوم ، يا عزيزى هيمون ، ولعلى أفوقه بدورى أيضاً فى دفعك إلى الهلاك . فإن السماء تنزل عليك وعلى أسرتك عقوبة آثام الأب وغرام ابنته بك ، بل إن هذا الغرام

المشئوم ليجر عليك من الأذى شراً مما يجلبه لك جرم أوديب ودم لايوس .

هيمون : ماذا ؟ حبي ، يا سيدتي ؟ وماذا به من شؤم ؟ هل أجرم من أحب حسناً سماوياً ؟ وفيم يستحق حبي سخط السماء ، ما دمت تتقبلينه دون غضب ؟ إياك وحدك يعني غرامي ، فلك أنت أن تفصلي في أمره إن كان قد ساءك . وحسبما تصدر فيه أحكامك التي لا مرد لها ، سيكون مذنباً أو بريئاً . ولتفعل السماء بحياتي ما تشاء ، فلسوف أوثر بها كلتا القضيتين ، إذ أموت مجيداً من أجل دم ملوكي ، وأموت أوفر سعادة في ظل شرائعك . وماذا عساني أصنع إذا حانت هذه الكارثة الشاملة ؟ أو أستطيع أن أحمل نفسي على العيش بعد ذلك ؟ ومهما شاءت الآلهة أن ترجئ مصرعي ، فسوف ينجز يأسي ما لا تنجزه هي . ولكن ، بالرغم من هذا كله ، قد يكون تخوفنا عبثاً ، فلننتظر ... بل ها هما بولينيس والملكة .

* * *

المشهد الثالث

جوكاست ، بولينيس ، أنتيجون ، هيمون

بولينيس : مولاتى ، باسم الآلهة ، أمسكى عن الوقوف فى وجهى . إنى لأرى أن السلام لا يمكن إقراره . لقد كنت أرجو من عدل السماء ، الذى لا حد له ، أن يتجلى ضد الطغيان ؛ وأن يرد لكل امرئ نصابه الشرعى ، بعد أن سئم رؤية سفك الدماء . ولكن ما دامت السماء تحرص علانية على الجور ، وتتواطأ مع المجرمين ، فهل يجوز لى أن آمل — وهى باغية — أن يصغى شعب ثائر إلى داعى الإنصاف ؟ وهل يجب علىّ أن أحتكم إلى كتيبة وقحة ، هى العدة العاتية لغاصب غرير ، تخدم عدوى لغرض خسيس ، وما فتئ يحرضها وإن ظل فى مكانه بعيداً ؟ إن العقل لا يؤثر إطلاقاً فى الدهماء . ولقد سبق لى أن بلوت جرأة هذا الشعب ؛ وهو بدلاً من أن يستعيدنى بعد أن طردنى ، يحسب أنه يرى طاغية فى أمير قد امتهن كبرياءه . وإذ لم يكن للشرف يوماً سلطان عليه ، فإنه يظن أن الناس جميعاً يصبون إلى الثأر ، وليس هناك ما يقف دون عدائه ،

فهو إن أبغض مرة ، أراد أن يقيم على البغض دائماً .

جوكاست : ولكن إن صحّ ، يا ولدى ، أن هذا الشعب يخشاك ، وأن جميع أهل طيبة يرهبون ملكك ، فما بالك بهذا الدم الغزير تلتمس أن تحكم هذا الشعب الذى قسا عليك ولا يستطيع شىء أن يكسبك وده ؟

بولينيس : وهل للشعب ، يا مولاتى ، أن يتخير سيداً ؟ وحينما يبغض الشعب ملكاً، فهل ينبغى أن نعتزل المُلك ؟ وهل بغضه وحبه هما أول الحقوق التى ترفع الملوك إلى العرش أو تقصيهم عنه ؟ ليرهبنا الشعب أو ليودنا كما يشاء ، فإن الدم وحده هو الذى يبوئنا العرش ، لا هوى الشعب ؛ عليه أن يقبل ما يمنحه إياه الدم ، وإن كان لا يحب الأمير ، فعليه أن يحترمه .

جوكاست : لسوف تكون طاغية مكروهاً من بلادك .

بولينيس : هذا اسم لا يليق بالأمراء الشرعيين ؛ إن حقوقى لتعصمنى من هذا اللقب المنكر : إن بغض الرعايا لا يصنع الطغاة . أطلقى هذا الاسم على إتيوكل نفسه .

جوكاست : إنه محبوب من الجميع .

بولينيس : إنه طاغية محبوب ، يتوسل بشتى الدنايا للبقاء فى المنصب

الذى عرف بالقوة كيف يبلغه ، وإن كبره ليحيله – بأثر عكسى – عبداً لشعبه وطاغية على أخيه . إنه – لكى تسلم له الإمرة وحده – ينزل على إرادة الشعب ، ويرضى الهوان من أجل أن يجعلنى مبغضاً منهم . ولأمر ما يؤثر القوم علىّ خائناً : فالشعب يحب عبداً ، ويحذر سيداً : غير أنى أحسبنى أخون جلالة الملوك لو اتخذت الشعب حكماً فى حقوقى .

جوكاست : أفهكذا يستهويك الخصام ؟ وهل تتوق إلى السلاح الذى لم تكد تلقيه ؟ أو لن نمسك ، بعد جميع هذه النكبات ، فتكفّ أنت عن سفك الدماء وأكف أنا عن سكب الدموع ؟ ألن تبذل شيئاً لأم باكية ؟ يا ابنى ، قبّل أخاك ، إذا استطعت إلى ذلك سبيلا ، فهذا القاسى لم يكن يود سواك .

أنتيجون : آه ! إذا كانت نفسه قد تجردت من الرحمة نحوك ، فماذا عسانى أرجو من مودة ماضية ، لم يفعل طول البين إلا الإمعان فى محوها ؟ هيهات أن أجد الآن فى غير ذاكرته بعض الحظوة ، فهو لم يعد يكاف ولا يستمتع إلا بسفك الدماء . كفىّ عن أن تلتمسى فيه ذلك الأمير الشهم ، ذلك الأمير الذى كان يستنكر الجريمة ، وكانت نفسه

الكريمة تفيض رقة ، وكان يحترم أمه ويود أخته . فالطبيعة لم تصبح لديه إلاَّ وهماً ، وأصبح يغض من قدر أخته ، ويزدرى أمه ؛ ويحسبنا الجاحد ، من الوضع الذى دفعه إليه كبره ، غرباء عنه أو أعداء له .

بولينيس : لا تنسبي هذا الجرم لنفسى المفجوعة . بل أولى لك أن تقولى يا أختاه بأنك أنت التى تبدلت ؛ قولى إن الجائر الذى اغتصب منصبي قد عرف كيف يسلبنى أيضاً محبة أختى . إنى لأعرفك دائماً ، ولم أتغير أبداً .

انتيجون : أو تحبنى أيها القاسى ، مثل ما أحبك ، وأنت لا تلين لأنّاتى الحزينة ، وتعرضنى فوق ذلك لكل هذه الكروب ؟

بولينيس : وأنت يا أختاه ، أيتجلى حبك لأخيك إذ توجهين إليه هذا الرجاء الجائر ، وتريدين انتزاع الصولجان من يده ؟ أيتها الآلهة ! بماذا يفوقها إتيوكل قوة ؟ إنك لتسرفين فى تأييد طاغية يحط من قدرى .

انتيجون : لا ، لا ، إن مصالحك لأهم عندى . لا تظنن أن دموعى تنطوى على مثل هذا القدر من الغدر ؛ إنها مع أعدائك لا تتآمر إطلاقاً عليك . وإنى لأشقى بهذا السلام الذى أبتغيه ، إذا كان صولجان بولينيس ثمناً له . إن ما أطمع

فيه ، يا أخي ، أن تمنحنا منّةً واحدة ، هي أن تتيح لي رؤيتك زمناً أطول . فحقق رجاءنا في أن نراك بضعة أيام فحسب ، وأعطنا من الوقت ما نتلمس فيه سبيلا يعيدك إلى مصاف أجدادك ، دون أن تريق دماً غالياً . أو تستطيع أن تأبى على عبرات أخت وزفرات أمٍّ هذا الفضل اليسير ؟

جوكاست : وأي خوف عساه الآن يساورك ؟ فيم تتعجل هذه العجلة ؟ ماذا ! أو ليس هذا اليوم بأكمله ضمن الهدنة ؟ أفينبغي أن تنتهي فور أن بدأت ؟ إنك لترى أن إتيوكل قد أغمد السلاح ، فهو يريد أن ألقاك ، وأنت لا تريد .

أنتيجون : نعم ، يا أخي ، إنه ليس مثلك عصيًّا : لقد بدا عليه التأثر لدمع أمه ، وأخمدت عبراتنا اليوم نار غضبه . إنك لتصفه بالقسوة ، بيد أنك أقسى منه .

هيمون : مولاي ، ليس هناك ما يدعو إلى العجلة ، ولا بأس عليك من أن تدع الأميرة والملكة تواصلان التدبير . هب سحابة هذا اليوم لرغبتهما الملحة ؛ ولنر هل يمكن لغايتهما أن تتحقق . لا تتح لأخيك الأثير شماتة القول بأن السلام ، لولاك ، كان من المستطاع إقراره . وهكذا ترضى أمًّا وأختاً ، وترضى فوق كل شيء شرفك . ولكن ماذا يريد هذا الجندي ؟ إنه لمضطرب النفس !

* * *

المشهد الرابع

جوكاست ، بولينيس ، أنتيجون ، هيمون ، جندى

الجندى(لبولينيس): مولاى ، لقد اشتبكوا بالأيدى ، ونقضت الهدنة . إن كريون وأهل طيبة ، بأمر ملكهم ، يهاجمون جيشك ، ويحنثون بعهدهم . ويجهد هيبوميدون الباسل ، نيابة عنك ، فى صد هجمتهم بكل ما أوتى من قوة . وبأمره ، يا مولاى ، جئت لأخطرك .

بولينيس : آه ، الخونة ! هيا ، هيمون ، ينبغى أن نخرج . (للملكة) مولاتى ، أترين كيف يحفظ وعده ؟ إنه إنما يريد القتال ، ويهاجمنى ، وإنى لمسرع إليه .

جوكاست : بولينيس ! ولدى ! . . . ولكنه لم يعد يسمعنى . إن صيحاتى كعبراتى لا جدوى لها . عزيزتى أنتيجون ، هلمى ، الحقى بهذا الجانى . اذهبى ولو لسؤال هيمون أن يفصل بينهما . إن قوتى تفارقنى ، فلا أستطيع أن أمضى إلى هناك ، وقصارى ما أستطيع أن أفعله ، وا نكبتاه ! هو أن أموت .

الفصل الثالث

المشهد الأول

جوكاست ، أولامب

جوكاست : أولامب ، اذهبي لرؤية هذا المشهد المشئوم . اذهبي لترى هل اعترضت هياجهما بعض العقبات ، وهل استطاع شيء أن يؤثر في هذا الحزب أو ذاك؟ يقولون إن مينيسيه قد خرج لهذا الغرض .

أولامب : لست أدرى أى غرض كان يذكى عزمه ، فلقد كانت جذوة من البطولة تتجلى على وجهه ، إنما عليك ، يا مولاتى ، أن تتمسكى بالأمل حتى النهاية .

جوكاست : اذهبي لترى كل ما هنالك — يا عزيزتى أولامب — وعودى لتحدثينى بكل شيء ، عجلى بكشف ما يستولى علىّ من قلق كئيب .

أولامب : أو يجوز لى أن أتركك فى مثل هذه الوحدة ؟

جوكاست : اذهبي ، إنى أريد أن أكون وحيدة فى الحال التى أنا فيها ، لو كان فى استطاعة الإنسان أن يكون وحيداً مع مثل هذه الآلام !

* * *

المشهد الثانى

جوكاست (وحدها)

تُرى هل تظل هذه الآلام المشئومة تلح علىّ ؟ ألا تستنفد هذه المحن القاسية ثأر السماء ؟ أتجعلنى أعانى كل هذه المنايا القاتلة دون أن تمضى بخطاى إلى القبر ؟ أيتها السماء ! كم يهون الخوف من بطشك ، لو نزلت الصاعقة أولا على المذنبين ! وكم يطول عقابك فيبدو أبدياً عندما تدّعين الحياة لمن تعاقبينهم ! إنك لا تجهلين أننى منذ اليوم المنكر الذى وجدت فيه نفسى زوجة ولدى ، بات أهون عذاب يعانيه فؤادى يعدل جميع الآلام التى يعانيها البشر فى الجحيم ؛ ومع ذلك ، أيتها الآلهة ، هل يستحق جرم غير متعمد أن يستنزل علىّ كل غضبكم ؟ أو كنت أعرفه ، وا شقوتاه ! ذلك الولد المنكود ؟ إنكم أنتم الذين استدرجتموه إلى أحضانى . إنكم أنتم الذين حفرتم لى بقسوتكم هذه الهوة . وهكذا تصدر العدالة العليا عن أولئك الآلهة العظام ! إنهم يقودون خطانا حتى شفا الإثم الذى يدفعوننا إلى ارتكابه ، ثم لا يغفرونه لنا . أفيلذ لهم أن يصنعوا

المذنبين ، ليجعلوا منهم بعد ذلك ، أعلام الشقاء ؟ أولا يستطيعون ، عندما يهيج غضبهم ، أن يتعقبوا آثمين لا يزالون يستمتعون بالإثم ؟

* * *

المشهد الثالث

جوكاست ، أنتيجون

جوكاست : ماذا وراءك ! هل قضى الأمر ؟ وهل أجهز أحد الغادرين على أخيه السفاح النبيل ؟ تكلمى ، تكلمى يا ابنتى .

أنتيجون : آه ، مولاتى ! أجل ، لقد تحققت النبوءة ، وأرضيت السماء .

جوكاست : ماذا ؟ هل مات ولداى ؟

أنتيجون : دم آخر ، يا مولاتى ، يعيد السلام إلى الدولة ، والطمأنينة إلى نفسك ؛ دم جدير بالملوك الذين انحدر عنهم ، بطل ضحى بنفسه فى سبيل الدولة . لقد مضيت أعدو كى أستلين هيمون وبولينيس ، بيد أنهما كانا قد ابتعدا قبل أن أخرج وراءهما . لم يسمعانى ، وراحت صيحاتى الأليمة بلا جدوى تردد اسميهما وتهيب بهما . لقد خفا مسرعين

صوب ميدان القتال ؛ أما أنا ، فارتقيت أعلى السور ، حيث كان الشعب المشدوه يرتقب ، مثلى ، نشوب عراك كان يقتله رعباً . وفى تلك اللحظة المحتومة ، إذا بآخر أمرائنا ، وشرف دمنا ، ومناط أمل بلادنا ، إذا بمينيسيه — شقيق هيمون الجدير بأخوته ، وإن كان لا يجدر به إطلاقاً أن يكون ابناً لكريون — مسفراً عن نفسه التى استولى عليها حب الوطن ، يتقدم وسط المعسكرين دون وجل ، ويهتف باليونان وأهل طيبة : « قفوا ، قفوا ، أيها المتوحشون ! » ولم يعارض هذه الكلمات الجبارة أى معارض . وبهت الجند من هذا المشهد الفريد ، فخلوا ضرام حميتهم السوداء ؛ وعلى أثر ذلك واصل هذا الأمير خطابه قائلاً : « اعلموا حكم الأقدار ، الذى قضى أن يضع حداً لشقائكم . إننى آخر دم من نسل ملوككم ، وقد فرضت عليه الآلهة أن يسفك . فتقبلوا هذا الدم الذى ستريقه الآن يدى ، وتقبلوا السلام الذى لم تطمح إليه خواطركم . » وإذا هو يلوذ بالصمت ، ويضرب نفسه عقب إلقاء تلك الكلمات .

وإذا بأهل طيبة — وهم يشهدون احتضار ذلك البطل — وكأن خلاصهم قد أصبح عذابهم ، ينظرون مرتعدين إلى هذه التضحية الكريمة . ورأيت هيمون الحزين يغادر صفه

ويمضى ليعانق هذا الأخ المضرج بالدماء . وأسوة به ، ألقى كريون السلاح ، وأقبل على هذا الابن المحتضر هامى الدمع ؛ ورآهما هذا المعسكر وذاك ينسحبان ، فانصرفا عن القتال وافترقا . وأما أنا ، وقد ارتعدت مهجتى ، واضطربت نفسى ، فقد حولت بصرى عن هذا المشهد المفجع الأليم ، وأنا شديدة الإعجاب بما أبداه هذا الأمير من حمية البطولة .

جوكاست : إننى مثلك أعجب به ، وأفرق لذلك رعباً . أيمكن ، أيتها الآلهة ، بعد هذه المعجزة العظيمة ، أن تعترض راحة أهل طيبة عقبةٌ أخرى ؟ ألا يستطيع هذا المصرع الرائع أن يهدئ ثائرتكم ، وهو الذى أدى بولدىّ إلى إلقاء السلاح ؟ أو ترفضونها هذه الضحية الكريمة ؟ إذا كان المعروف يمس نفوسكم كما يمسها المنكر ، وإذا كنتم تثيبون مثلما تعاقبون ، فأى آثام بهذا الدم لا تمحى ؟

أنتيجون : أجل ، أجل ، سوف يثاب هذا المعروف ؛ لقد عظم قربان الآلهة بدم مينيسيه ؛ فإن دم بطل واحد ، لدى الخالدين ، خير من دم ألف مذنب .

جوكاست : أدركى ما غاب عنك من محتوم ثأر السماء . إنها تعمد

إلى أن تتخلل ألمى فسحةٌ ما ، ولكن ، وا شقوتاه ! عندما يبدو أن يدها تعيننى ، فإنها إذ ذاك تتأهب للفتك بى . لقد كفكفتُ هذه الليلة من عبراتى ، لكى أصبح فأرى السلاح مشهوراً . وإن عللتنى بأمل فى السلام ، سرعان ما يسلبنى هتاف الغيب ، فى قسوة هذا الأمل إلى الأبد ! إنها تقود إلىّ ولدى ، وتريد أن ألقاه ، غير أنها ، وا بؤساه ، ما أفدح الثمن الذى تبيعنى به تلك الفرحة ! فهذا الولد لا يرق ولا يصغى لى ، وها هى ذى فجأة تنتزعه منى ، وتدفعه إلى القتال. إنها على هذا النحو ، قاسية دائماً ، غاضبة دائماً ، تُظهر الرضا وتمعن فى البطش ؛ إنها لا تقف ضرباتها إلا لتضاعفها ، وترفع ذراعها لكى تهوى علىّ بشدة .

أنتيجون : مولاتى ، لنأمل كل خير فى هذه المعجزة الأخيرة .

جوكاست : إنّ تباغُض ولدىّ لعقبة كأداء فى طريق هذا الأمل : لقد قست نفس بولينيس ، وأصبح لا يصغى إلا لحقوقه ؛ وأما الآخر فيصغى لصوت الشعب وصوت كريون . أجل ، كريون اللئيم. إن هذه النفس المغرضة لتفسد علينا كل ثمرة

لدم مينيسيه . عبثاً من أجل نجاتنا يهلك هذا الأمير
العظيم ، فإن الأب ليضرنا أكثر مما ينفعنا الابن
ألا إن هذا الأب الخائن لشابين من الأبطال . . .

أنتيجون : آه ! ها هوذا يا مولاتى ، مع أخى الملك .

* * *

المشهد الرابع

جوكاست ، إتيوكل ، أنتيجون ، كريون

جوكاست : ولدى ، أهكذا يحفظ المرء عهده ؟

اتيوكل : مولاتى ، إن هذا القتال لم يصدر عنى ، بل صدر عن
جنود — من أرجوس ومن قومنا على السواء — تشاجر بعضهم
فحركوا ساكن الجيش كله ، وأحالوا الاشتباك البسيط
إلى قتال شديد . وكادت المعركة بلا ريب أن تكون دامية ،
وأوشك نشوبها أن يضع حدًّا لشجارنا ، وإذا بمصرع
البطل ابن كريون يشلّ سواعد جميع المقاتلين . إن هذا
الأمير ، وهو آخر سلالة الملوك ، قد استجاب لردّ الآلهة
المحتوم ؛ وانطلق من تلقاء نفسه نبيلاً نحو الردى يحدوه
حب الوطن .

وكاست : آه ! إذا كان ما سرى في نفسه من حب الوطن وحده قد جعله يعرض عن مباهج الحياة ، أفلا يستطيع هذا الحب ، يا ولدى ، أن يكبح على الأقل جماح طمعك ؟ إن هذا المثل الرائع يدعوك إلى الاقتداء به . ولا يستوجب ذلك أن تنصرف عن المُلك ولا عن الحياة ، وإنما في مقدورك — إذ تنزل عن شيء من مكانتك — أن تفعل فوق ما فعل بإراقة دمه كله . لا ينبغي إلا أن تنصرف عن بغض أخيك ؛ ولسوف تصنع خيراً أكثر مما استطاع أن يقدمه مصرعه . يا للآلهة ! أهكذا يصير حب الأخ أخاه أشق جهداً عليه من كراهية الحياة وسعيه إلى الموت ؟ أو ينبغي أخيراً أن يكون أيسر على سواك أن يريق دمه من أن يعزّ عليك دماك ؟

إتيوكل : إن فضله الرائع ليخلبني كما يخلبك ؛ بل إني لأحسده على مثل هذه الميتة الجميلة . ومع ذلك ، يا مولاتي ، ينبغي أن أقول لك إن مفارقة العرش أشق على المرء من مفارقة الحياة . وما أكثر ما يدفعنا المجد إلى بغضها ؛ لكن هيهات أن يسعى إلى المجد سيد بالخضوع . لقد كانت الآلهة تريد دمه ، دون جريرة ، فلم يكن لهذا الأمير أن يأبى على الدولة ضحيتها ؛ غير أن هذا البلد — الذى كان

يطلب دم مينيسيه — هو نفسه الذى يطلب منى أن أحكمه ، وهو الذى يثبتنى على عرشه ، وإنى لمقيم فيه حتى يخلعنى عنه . وما عليه إلا أن يقول كلمته ، وعلىّ الطاعة فوراً ، ولسوف ترانى طيبة ، فى سبيل توطيد سلامها ، أنزل عن العرش وأسعى إلى الموت سعياً حثيثاً .

كريون : آه ! لقد مات مينيسيه ، والسماء لا تريد سواه . فدع دمه يسكب دون أن تمزج به دمك ، وما دام قد ضحى ليمنحنا السلام ، فأقرره ، مولاى ، استجابة لأمانينا العادلة .

إتيوكل : ما هذا ؟ حتى كريون ينادى بالسلام ؟

كريون : لأننى تماديت فى حب هذه الحرب الضروس ، ها أنتذا ترى ما غمرتنى فيه السماء من بلايا . لقد مات ولدى ، يا مولاى !

إتيوكل : ينبغى أن يؤخذ بثأره .

كريون : وممن عسانى أثأر فى هذا الخطب الفادح ؟

إتيوكل : إن أعداءك ، يا كريون ، هم أعداء طيبة ؛ فاثأر لها واثأر لنفسك .

كريون : آه ! بين أعدائها أجد أخاك ، وأجد ولدى . أفترانى أسفك دمى ، أم أسكب دمك ؟ وهل ينبغى لى أن أفقد

ولداً ثأراً للآخر؟ مولاى ، إن دمى عزيز علىّ ، وإن دمك علىّ حرام؛ أفعسانى أمتهن المقدسات ، أم أتنكر للفطرة ؟ هل ألطّخ يدى بدم أجلاّه ؟ هل أقتل أهلى لكى أصبح أباً براً ؟ لن يستطيع مثل هذا العون القاسى أن يسليني ؛ بل إن فى ذلك القضاء علىّ بدلاً من الثأر لى . إنما السلوى التى ينشدها ألمى ، هى أن تكون أرزائى على الأقل نافعة لسلطانك . وسوف أتعزى إذا أتيح لولدى الذى أرثى له أن يضمن موته الطمأنينة لأهل طيبة . إن السماء لتعدّ السلام لدم مينيسيه، فأنجز ، يا مولاى ، ما بدأه ولدى ؛ أثبه بما تاق إليه من خير ، فلا يذهبن دمه المسفوك هدراً .

جوكاست : كلا ، ما دمت قد أصبحت ترثى لأرزائنا ، فلن يستعصى شيء على دم مينيسيه . لتطمئن طيبة بعد هذا الجهد العظيم : وما دام قد غير نفسك ، فلسوف يغير مصيرها . ليس السلام منذ هذه الآونة بعيد المنال ؛ وما دام كريون يريده ، فإنى لأحسبه وطيداً . ولسوف نرى قريباً هذه القلوب الحديدية قد لانت : فإن فى استطاعة قاهر كريون أن يقهر ولدى . (إلى إتيوكل) ليثن عزمك هذا التحول الكبير وليؤثر فى نفسك ؛ دع ، يا ولدى ، دع ذلك البغض الشديد؛ هوّن على أم ، وعزّ كريون ؛ ردّ

إلىّ بولينيس ؛ وإليه ردّ هيمون :

إتيوكل : إنما يعنى ذلك أننى أشاء أن أفرض على نفسى سيداً . وليس يخفى عليكم أن بولينيس يريد أن يكون ذلك السيد . إنه يطلب قبل كل شىء السلطان المطلق ، ولا يريد أن يعود إلا والصولجان فى يده .

* * *

المشهد الخامس

جوكاست ، إتيوكل ، أنتيجون ، كريون ، أتال

أتال : إن بولينيس ، يا مولاى ، يطلب لقاء ؛ هذا ما أنبأنا به مجىء مناد من قبله . وهو يعرض عليك ، يا مولاى ، إما أن يأتى هنا أو أن ينتظر فى معسكره على السواء .

كريون : لعل حدة طمعه قد خفّت ، فلانَ ورأى إنهاء هذه الحرب التى طال بها العهد : فهو بهذه المعركة الأخيرة يعلم اليوم أنك على الأقل تعادله بأساً . لقد سئم اليونان أنفسهم من أن يظلوا خدام غضبه ؛ وقد وقفت ، منذ وقت قصير ، على أن حماه الملك ، إذ يؤثر على الحرب راحة وطيدة ، إنما يحتفظ بميسين ، وينصبه ملك أرجوس . ومهما يكن

من شجاعته، فهو لا يريد — دون ريب — إلا أن ينسحب انسحاباً مشرفاً . وما دام يعرض عليك اللقاء ، فأحسب أنه يريد السلام . إن هذا اليوم لا بد أن يقر السلام ، أو ينقضه إلى الأبد . حاول فى هذا السبيل أن تقوى عزمه ، وعده بكل شيء ، سوى التاج .

إتيوكل : إنه فيما عدا التاج لا يطلب شيئاً .

جوكاست : ولكن ينبغى لك أن تلقاه على الأقل .

كريون : أجل ، ما دام يود ذلك ، وإنك لفاعل وحدك أكثر مما نستطيع أن نفعله ؛ ولسوف تتولى رابطة الدم سلطانها المعتاد .

إتيوكل : هيا إذن لنلقاه .

جوكاست : أناشدك يا ولدى ، باسم الآلهة ، أن تنتظره بالأحرى ، وأن تلقاه هنا .

إتيوكل : لك ذلك ، يا مولاتى ، لك ذلك ! فليأت ، وليُمنح كل عهود الأمان محافظة عليه . هيا .

أنتيجون : آه ! إذا أعاد هذا اليوم السلام لأهل طيبة ، فسوف يكون السلام ، يا كريون ، من صنع يديك .

* * *

المشهد السادس

كريون ، أتال

كريون : ليست مصلحة أهل طيبة هى التى تستأثر بعطفك ، أيتها الأميرة المتكبرة ؛ وصاحبة النفس النافرة ، تلك التى تتملقنى بعد ما كان من ازدرائها لى ؛ لم تعد تفكر فى السلام بقدر ما تفكر فى وصال ولدى . ولكننا سرعان ما سنرى هل تزدرى أنتيجون المتكبرة العرش مثلما تزدرى قلبى . سنرى ، حين تنصبنى الآلهة ملكاً عليكم ، هل يتغلب على هذا الولد السعيد ؟

أتال : ومن ذا الذى لا يعجب بهذا التحول الفريد ؟ إن كريون نفسه هو الذى يدعو إلى السلام !

كريون : أفتصدق أن السلام هو موضع اهتمامى ؟

أتال : نعم ، أصدق ذلك ، يا مولاى ، فى الوقت الذى أمسيتُ فيه أبعد الناس عن تصوره . وإنى إذ أرى — فى الواقع — هذا السعى الحميد يحفزك ، أعجب فى كل لحظة بهذا الجهد الكريم الذى يحملك أخيراً على أن تدفن بغضاءك فى اللحد . وما فعله مينيسيه ، وهو يموت ، ليس أروع

من ذلك . وإن من استطاع أن يضحى ببغضه من أجل وطنه ، لفى وسعه أيضاً أن يضحى بحياته فى سبيل هذا الوطن .

كريون : آه ! بلاشك ، إن من يبلغ به الكرم أن يحب عدوه ، ليستطيع أن يحب الموت . ماذا ! أو أقعد عن أمر ثأرى ، وأتولى الدفاع عن عدوى ؟ إن قاتل ولدى هو بولينيس ، أفأصبح أنا حاميه الخانع؟ ولو أننى أعرضت عن هذا الحقد المتغلغل ، هل أستطيع أن أكف عن حب التاج ؟ لا ، لا ، سوف ترانى فى حمية متصلة ، أبغض أعدائى وأودّ عظمتى . لقد كان العرش دائماً بغية أعز نزعاتى ؛ وإنى لأخجل من الخضوع هنا حيث ملك آبائى ؛ وأتلهف إلى رؤية نفسى فى مصاف أجدادى ، لقد كان ذلك قبلة أنظارى منذ تفتحت عينىّ . منذ عامين على الأخص ، بات هذا السعى النبيل يحفز همتى ؛ فما أكاد أخطو خطوة لا ترمى إلى السلطان . إنى أذكى غضب الأميرين ولدىْ أختى ، وطموحى يجيز طموحهما . لقد ساندت أولا جور إتيوكل ، ودفعته إلى أن يأبى العرش على پولينيس . وأنت تعلم أننى كنت أنتوى منذ ذلك الحين أن أتبوأه ؛ ولقد بوأته العرش ، يا أتال ، لكى أطرده منه .

أتال : ولكن ، يا مولاى ، إذا أغرتك الحرب كل هذا الإغراء ، فما بالك تنتزع السلاح من أيديهما ؟ وما دام شقاقهما غاية أمانيك ، فلماذا اقتضت مشورتك أن يلتقيا الآن ؟

كريون : إن الحرب أشد فتكاً بى منها بأعدائى ، وغضب السماء يجعلها علىّ فادحة القسوة ؛ فهو يتسلح بمآربى ضدى ، ويستخدم ذراعى ليطعن بها صدرى . لقد اشتعلت الحرب حينما فارقنى هيمون – نكاية بى – لينضم إلى بولينيس ، وأصبح الشقيقان – بسعيى – عدوين ؛ وأصبحت يا أتال ، عدو ابنى . وأخيراً ، مضيت اليوم أعمل على نقض الهدنة ، وأستنفر الجندى ، فيثور المعسكر بأجمعه ، ويدور القتال ؛ وإذا بولدى القانط يموت ، ويتوقف القتال فى معركة جهلت فى إعدادها . ولكن بقى لى ولد ، وأشعر أنى أحبه ، ولو أنه متمرد علىّ بل هو غريمى . إنى أريد أن أطيح بأعدائى ، دون أن أطيح به . وما أبهظ ما يكلفنى ذلك إن كان ولداى ثمناً له : غير أن تباغض الأميرين قد استفحل ، فلا تظنن أنه يرتضى السلام إطلاقاً . وإنى متقن إذكاء هذا البغض حتى ليقضى عليهما تماماً دون أن يدع لهما سبيلا إلى أن يتحابا . إن سائر الأعداء لا يتباغضون

إلا لأمد قصير ، وأما إذا فُصمت عرى الطبيعة ، أيها العزيز أتال ، فلن يفلح شيء في أن يجمع شمل أولئك الذين لم تستطع تلك العرى الوثقى أن تربطهم جميعاً . والمرء يغلو في البغض حينما يبغض أخاه . ولكن تباعدهما يخفف من بغضهما : فمهما نضمر من بغض لعدو متكبر ، فإننا نفقد نصف هذا البغض ، إذا كان العدو بعيداً عنا . فأقلع إذن عن العجب من أنني أعمل على أن يلتقيا ؛ إني أريد — إذ يلتقيان — أن يندلع حنقهما ، وأن يتذكرا ضغنهما ، وبدلاً من أن يقضيا عليه ، فسيخنق كل منهما الآخر ، يا أتال ، إذا هَمَّا بالتعانق .

أتال : لم يعد عليك ، يا مولاى ، أن تخشى سوى نفسك : فمع التاج يحمل المرء الندم .

كريون : حينما يرتقى المرء العرش تستأثر بعنايته مهام أخرى عديدة ، ويصبح الندم أهون ما يثقل علينا . فالنفس التى تستحوذ عليها لذة الملك ، تحوِّل خاطرها عن الماضى بأسره ؛ والروح التى نأت عن كل غرض آخر تعتقد أنها لم تعش ما لم تملك ولكن هلمّ . فليس الندم هو الذى يغشانى ، ولم يعد لى فؤاد ينفِّره الإجرام . إن الكبيرة الأولى تكلف مرتكبها بعض الجهد ؛ بيد أن المرء ، يا أتال ، يقترف الثانية بلا ندم .

الفصل الرابع

المشهد الأول

إتيوكل ، كريون

إتيوكل : أجل ، يا كريون ، إن عليه أن يأتى إلى هنا بعد قليل ، وفى وسعنا أن ننتظره معاً فى هذا المكان . سوف نرى ماذا يريد ؛ غير أننى أقطع بأن هذا اللقاء لن يجدينا شيئاً . إنى أعرف بولينيس وشيمته المتعالية ، كما أعلم أن بغضه لى ما زال شديداً ؛ ولست أظن أن من المستطاع وقف تيار هذه الكراهية ؛ وأما أنا ، فلا أزال أحس بأنى مقيم على بغضه .

كريون : ولكنه إذا نزل لك فى آخر الأمر عن مقام السيادة ، وجب عليك ، فيما يبدو ، أن تصرف غِلّك .

إتيوكل : لست أدرى أيرضى قلبى يوماً : فأنا لا أكره كبرياءه ، وإنما شخصه هو الذى أكرهه . إن بنا ، كلينا ، بغضاً عنيداً ، لم تنفثه فينا ، يا كريون ، سنة واحدة ، بل وُلد معنا ، ودبّت ثورته السوداء فى مهجتينا منذ دبت فينا

الحياة . لقد تعادينا منذ أرق عهود الطفولة ؛ بل ماذا أقول ؟ لقد كنا كذلك قبل أن نجبل من دم المحْرم جبلة تعسة منكودة ! بينما كانت تضمنا كلينا نفس الأحشاء ، نشبت فى جنبي أمى حرب باطنة دلتها على أصل شقاقنا . وظهر خصامنا ، كما تعلم ، فى المهد ، ولعله سوف يتبعنا أيضاً إلى اللحد . كأن السماء قد أرادت ، بقضاء مشئوم ، أن تعاقب هكذا والدينا على زيجتهما الحرام وكأنها أرادت أن تنجب طىّ دمنا أحلك ما فى البغض والحب معاً من سواد . والآن ، يا كريون ، إذ أنتظر مجيئه ، لا تظنن أن إحنتى عليه تنقص ؛ فهو كلما دنا ، بدا لى أبغض من ذى قبل ؛ ولا شك فى أنها ستتجلى لعينيه . بل إنى لآسف لو أنه نزل لى عن السلطان ؛ ينبغى له ، بل يجب عليه أن يفرّ لا أن ينسحب . أنا لا أريد ، يا كريون ، أن أبغضه نصف البغض ؛ إن الذى أخشاه من مودته لأعظم مما أخشاه من غيظه . أريد ، لكى أطلق العنان لغلّى ، أن تبيح ثورته ثورتى . وما دام قلبى فى ختام الأمر لا يستطيع أن يتنكر لنفسه ، أريد أن يمقتنى حتى أمقته . لسوف ترى أنه ما زال على هياجه ، وأن قلبه يصبو دائماً إلى التاج ، وأنه لم يبرح يشنؤنى ويبتغى الملك ، وأن من

المستطاع قهره لا اكتسابه

كريون : روّضْه إذن ، يا مولاى ، إنه لم يزل صلب العود . ومهما بلغ به الكبر ، فما هو بالذى لا غالب له ؛ وما دام العقل لا يستطيع التأثير فى قلبه ، فابلُ ما يستطيعه ساعد دوماً منتصر . أجل ؛ إنى وإن كنت آنس فى الظلام سحراً ، فلسوف أكون أول من يستأنف حمل السلاح ؛ وإذا كنت أطلب وقف القتال ، فإنى لأطلب فوق ذلك أن تحكم أنت دائماً . فلتشتعل الحرب ولا تخمد إطلاقاً ، إن وجب ، مع السلام ، أن يحكمنا بولينيس ! لا يطلعنّ علينا بعد ذلك من يزين لنا خيراً عميا ، فالحرب وأهوالها تلذّ لنا معك . إن جميع شعب طيبة يتحدث إليك بلسانى ؛ لا تخضعنه لهذا الأمير المتوحش . إذا حق للسلام أن يحل ، فإن الشعب راغب مثلى فى السلام . على أنك إذا كنت تحب الشعب ، فاحفظ له مليكه . ومع ذلك استمع للأمير أخيك ، وإذا كان الأمر مستطاعاً ، يا مولاى ، أخف عنه غضبك ، تصنّع . . . ولكن ها هو ذا امرؤ قادم .

* * *

المشهد الثانى

إتيوكل ، كريون ، أتال

إتيوكل : هل اقتربوا من هنا ؟ أتراهم قادمين ، يا أتال ؟

أتال : نعم ، يا مولاى ، ها هم أولاء . لقد لقوا فى طريقهم الأميرة والملكة ، وسرعان ما يبلغون الغرفة المجاورة .

إتيوكل : فليدخلوا . إن هذا الاقتراب يثير غضبى . ما أشد ما نبغض العدوّ عندما يدنو منا !

كريون : آه ! ها هوذا . (على حدة) أيها القدر ، أنجز تدبيرى وأسلمهما معا لغمار غيظهما !

* * *

المشهد الثالث

جوكاست ، إتيوكل ، بولينيس ، أنتيجون ، هيمون ، كريون

جوكاست : ها أنا ذى أوشك أن أبلغ غاية مناى ، ما دامت السماء قد جمعت الآن شملكما . إنك لتلقى أخاً فى هذا القصر الذى ولدتما فيه بعد أن غبت عنا عامين . وأما أنا ، فإنى أحظى بسعادة ما كنت أجرؤ على تصورها ، إذ أستطيع

أن أعانقكما معاً . ألا فابدآ - يا ولدىّ - هذا الوئام المحبب ، فليتعرف كل منكما ، على أخيه ، لير كل منكما ملامحه فى وجه أخيه ، ولن يراها واضحة حتى ينظر إليها عن كثب ، ليتكلم الدم خاصة ، وليفعل فعله . اقترب ، إتيوكل ، تقدم ، بولينيس .

ما هذا ؟ بدلاً من أن تقتربا ، يتراجع كل منكما ! ما مصدر هذا اللقاء القاتم ، وهذه النظرات النابية ؟ أو ليس ذلك لأن كلا منكما ، بنفس مترددة ، ينتظر لكى يحيى أخاه - أن يحييه أخوه ؟ وأن كلاًّ منكما يتكلف شرف أن يكون آخر من يتنازل ، فلا يريد أن يصبح أول من يعانق ؛ يا لغرابة هذا الطموح الذى لا يصبو إلا للجرم حين يعدّ أشد الثائرين فيه كريماً ! وأحرى بالفائز أن يخجل فى هذا العراك المشين ؛ وأول المغلوبين هم الأكرمون . فانر إذن أيكما الأشجع ، ومن يريد أن يكون السابق إلى قهر غيظه . ماذا ! ألا تفعلان من ذلك شيئاً ؟ عليك أنت أن تتقدم ، إنك آت من فج بعيد ، ينبغى أن تبدأ : هيا ابدأ ، بولينيس ، عانق أخاك ، وبيِّنْ . . .

إتيوكل : أى مولاتى ، فيم هذا الإلغاز ؟ إن جميع هذه المعانقات

لا تكاد تناسب المقام . فليتكلم ، فليشرح أمره ويتركنا في سلام .

بولينيس : ماذا ؟ أيجب عليّ أن أطيل في شرح أفكاري ؟ إنما يستطيع أن يكشفها الناظر في الأمور الماضية : فالحرب ، والمعارك ، وما أريق من دماء ، كل ذلك يكفي إفصاحاً عن أن العرش حقّ لي .

إتيوكل : وهذه المعارك ذاتها ، وهذه الحرب نفسها ، وهذا الدم الذي ضرج الأرض مراراً ، حسبُ هذا كله إفصاحاً عن أن العرش لي ؛ ولا يمكن أن يؤول إليك ما حييت .

بولينيس : إنك لتعلم أنك تحتل هذا المكان جورا .

إتيوكل : إن الجور يلذ لي ، ما دمت أطردك من العرش .

بولينيس : إن كان لا يسعك أن تتخلى عنه ، فلسوف تسقط منه .

إتيوكل : إذا سقطت ، فسوف تهوي معي .

جوكاست : أيتها الآلهة ! ما أقسى أن أراني خائبة الرجاء ! هل تعجلت هذا اللقاء المشئوم لبثّ الفرقة بينهما أشد من ذي قبل ؟ آه ، يا ولديّ ! أهكذا يكون الحديث عن السلام ؟ اتركا ، بحق الآلهة ، هذه الأفكار الفاجعة ؛ لا تجددا ما فات من خصامكما ؛ لستما هنا في مجال

الوحشية . أأنا التى أضع السلاح فى أيديكما ؟ تأملا هذه الربوع التى فيها ولدتما ، أما لمرآها من سطوة على قلبيكما ؟ إنكما ها هنا قد تلقيتما الحياة ؛ وكل ما هنا لا يحدثكما إلا عن السلام والحب . فهذان الأميران ، وأختكما ، يُدينون جميعاً ضغائنكما ؛ وأخيراً أنا التى من أجلكما تجشمت دائماً العناء الشديد ، والتى فى سبيل التوفيق بينكما أود لو أنحر فداء لكما . . . واحسرتاه ! إنهما يديران رأسيهما ، ولا يصغيان لى ! إن لكل منهما نفساً أصلب من أن ترق ؛ فما عدا يدركان صوت الطبيعة . (إلى بولينيس) وأنت الذى كنت أحسبك أكثر وداعة وامتثالاً . . .

بولينيس : إنى لا أريد منه سوى ما وعدنى به : ولن يحكم دون أن يصبح حانث العهد .

جوكاست : كثيراً ما تكون العدالة القصوى ظلماً . إن العرش لحق لك ، أن أستطيع الشك فى ذلك ؛ غير أنك تقوضه من حيث تريد أن تتبوأه . أو لا تسأم هذه الحرب الرهيبة ؟ أتريد ـــ بلا رحمة ـــ أن تدمر هذه الأرض ، وأن تقضى على هذه الدولة لكى تفوز بها ؟ أفعلى الموتى تريد أن تملك ؟ إن طيبة يحق لها أن تخشى حكم أمير يفجر أنهار الدم فى أرجائها : أتراها تطيع شريعتك الجائرة ؟ إنك

طاغيتها قبل أن تكون ملكها . أيتها الآلهة ! أهكذا كل من يعظم شأنه يفسد أمره ؟ وإذا خسر المرء الفضيلة ليكسب الدولة ، فماذا تغدو حينما تتولى الملك إذا كنت واحسرتاه قاسياً وأنت لا تملك ؟

بولينيس : آه ! إذا كنت قاسياً ، فإنما أنا مرغم على ذلك ؛ ولا سلطان لى على أفعالى : إنى لأستنكر الفظائع التى أرانى مضطرًّا إليها ؛ وإن الشعب يظلمنى حين يخشانى . ولكن ينبغى لى فى الواقع أن أخفف عن وطنى ؛ فلأناته ترق نفسى . إن فيضاً من الدم البرىء يهدر كل يوم ؛ ويجب علىّ أن أضع حدًّا لنكباته ، ودون أن أدفع إلى الأنين طيبة أو اليونان ، فإنى أتجه إلى مصدر آلامى : فحسبنا اليوم دمه أو دمى .

جوكاست : دم أخيك ؟

بولينيس : نعم – يا مولاتى – دمه . على هذا النحو ينبغى أن ننهى تلك الحرب الوحشية (إلى تيوكل) نعم أيها السفاح . ومن أجل ذلك جئت بنفسى أدعوك إلى هذا النزال . لقد كنت أخشى أن أتحدث بذلك إلى أحد سواك ؛ فلو أنى فعلت لعارض كل إنسان رأيى ، ولما أنبأك به أحد فى هذه الربوع .

إنى أعلنه لك إذن. وعليك أن تثبت هل تعرف أن تحتفظ بما سلبته . أرنا كيف تكون جديراً بمثل هذه الفريسة الرائعة .

إتيوكل : إنى أقبل تحديك ، وأقبله مبتهجاً . ويعلم كريون ماذا كانت رغبتى فى هذا الشأن : ولو أنى قبلت العرش دون ذلك لقل به سرورى . إنى أحسبك الآن جديراً بالتاج ؛ ولسوف أحمله إليك على طرف هذا السيف.

جوكاست : ألا بادرا أيها السفاحان إلى طعن صدرى ، واستهلا بمقتلى قصدكما الفظيع ! لا تنظر إلىّ إطلاقاً على أنى أمك ، بل اعتبرنى أماً لأخيك . إذا كنت تلتمس دم عدوك ، فالتمس مصدره فى هذا الجنب المنكود . إننى لكليكما العدو المشترك ، ما دام عدوك قد تلقى منى الحياة ؛ فلولاى لما رأى هذا العدو النور . وإذا مات ، أفلا ينبغى أن أموت بدورى؟ لا تشكا فى ذلك ، يجب أن يجمع الموت بينه وبينى : ينبغى أن يكون الموت لكلينا ، لا لواحد منا ، بدلاً من أن تتصف بنصف الوداعة أو بنصف القسوة ، ينبغى أن أهلك أو ينجو عدوك . إذا كانت تعجبكما الفضيلة ، إذا كان يحفزكما الشرف ، أيها المتوحشان ، فاخجلا من اقتراف مثل هذا الجرم . وأما إذا كان الجرم يستهويكما

إلى هذا الحد ، أيها المتوحشان ، فاخجلا من ألا ترتكباه سوى مرة واحدة . وما الحب فى الواقع هو الذى يمسكك إذا أنقذت حياتى وتعقبتَ حياته : فإنكما لا تتورعان ، أيها السفاحان ، عن الفتك بى ، إذا حلَّتْ لحظة بينكما و بين الملك ! أهكذا يعامل الولد أمه ، يا بولينيس ؟

بولينيس : إنى أصون وطنى .

جوكاست : وتقتل أخاك !

بولينس : إنى أعاقب غادراً .

جوكاست : ولسوف يجعلك مصرعه اليوم أشد منه ذنباً وغدراً .

بولينيس : أفينبغى أن أتوج بيدى هذا الخائن ، وأن أمضى من بلاط إلى بلاط ألتمس سيداً ؟ أينبغى أن أبرح دولتى هائماً شريداً ، احتراماً لشرائع لا يحترمها هو ؟ هل أغدو أنا الضحية لما يقترف من جرائم ؟ أهكذا يكون التاج جزاء الإثم ؟ أى حق أو أى واجب لم ينتهك هو حرمته ؟ ومع ذلك يكون له الملْك ، ولى المنفى !

جوكاست : ولكن إذا نزل لك ملك أرجوس عن تاج . . .

بولينيس : هل يجب علىَّ أن ألتمس فى غير هذا المكان ما يخوله الدم لى ؟ أيكون كل شرفى أن أصاهره دون أن أحمل إليه شيئاً ؟

وهل أستمد منزلتي من مجرد إنعامه عليّ ؟ أو ينبغي أن أطرد من عرش هو حق لى ، وأن أسعى إلى مرتبة أمير أجنبي ؟ كلا ، كلا ، إنني دون أن أحط من قدري بالتزلف إليه ، أريد أن أقوم بالتزاماتي نحو الصولجان وفاء لمن أدين له بالحياة .

جوكاست : سواء عليك أن يؤول إليك العرش ، يا ولدى ، من صهر أو من والد ، فلسوف تظل يدهما عزيزة عليك دائماً .

بولينيس : كلا ، كلا ، شتان ما بينهما فى نظرى ؛ فهذا يحيلنى عبداً ، وذاك يجعلنى ملكاً . ماذا ! أتصبح عظمتى من صنع امرأة ؟ إنى لأستحيي فى نفسى من هذه الأبهة المخزية . أهكذا من غير الحب أحرم من العرش ولا يقدّر لى أن أملك ما لم أعشق ؟ إنى أريد أن أصل إلى العرش بساعدى أو لا أرتقيه إطلاقاً ؛ وعندما أصعد إليه ، أريد أن أتبوأه سيداً ؛ ليكن الشعب مكرهاً على طاعتى وحدى ؛ وليكن من حقى أن أحمله على إبغاضى . ثم أريد أن أكون الحكم فى أمر عظمتى ، فإما ألا أكون ملكاً إطلاقاً ، يا مولاتى ، وإما أن أصبح بحق ملكاً . ليتوجنى الدم ؛ وإذا لم يكف الدم ، فلست أريد أن أعضده بغير ساعدى .

جوكاست : افعـــل أكثر من ذلك خـــذ كل شيء بشجاعتك

العظيمة ؛ ليتول ساعدك وحده الأخذ بنصيبك ؛ وامض ، مزدرياً خطا الملوك الآخرين ، فكن يا ولدى ، كن صنيعة يديك . وبفضل حسن بلائك توّج نفسك بنفسك ، وليكن تاجك من فاخر الغار ؛ املك وانتصر ، وأضف فى آن واحد مجد الأبطال إلى أرجوان الملوك . ماذا ! أينحصر طموحك فى أن تملك بدورك إبان سنة واحدة ؟ ابحث لهذا القلب الكبير ، الذى لا يستطيع شىء أن يكبحه ، عن عرش ما ، لا يحق لسواك أن يرقى إليه . إن ألف صولجان جديد تعرض لسيفك ، دون أن نراه مخضباً بمثل هذا الدم الحبيب . ولن تنزل علىّ انتصاراتك إلا برداً وسلاماً ، بل سيمضى أخوك نفسه ليشاركك النصر .

بولينيس : أتريدين أن يغترّ قلبى بهذه الأوهام ، فيدع غاصباً على عرش آبائى ؟

جوكاست : إذا كنت تتمنى له فى الواقع كل هذا الشر ، فارفعه أنت إلى هذا العرش المشئوم . فلقد كان هذا العرش دائماً هوة خطيرة ، تحف به الصاعقة كما تحف به الجريمة . إن أباك وأسلافك من الملوك ، ما إن تبوأوه حتى رأوا أنفسهم وقد أطيح بهم .

بولينيس : ولو كان عليّ أن ألقى الرعد في السماء ، خيرٌ لي أن أرتقيه من أن أزحف على الثرى . إن قلبي ليهفو إلى مآل أولئك العظماء البائسين ، فهو يريد أن يسمو ، يا مولاتي ، مثلهم وأن يهوى معهم .

إتيوكل : سوف أعرف كيف أوفر عليك غرور هذا السقوط .

بولينيس : آه ! إن سقوطك ، صدقني ، سوف يسبق سقوطي .

جوكاست : يا ولدي ، إن حكمه لموضع الرضى .

بولينيس : ولكنه بغيض عندي .

جوكاست : إن الشعب معه .

بولينيس : ومعي الآلهة .

إتيوكل : لقد شاءت الآلهة أن تحرّم عليك هذه المكانة السامية ، ما دامت قد رفعتني أولاً إلى السلطان : فما كانت تعلم إلا يقين العلم ، عندما أقرت هذا الاختيار ، أن المرء يريد أن يحكم دائماً إذا ما تولى الحكم مرة واحدة . وما شوهد إطلاقاً فوق عرش أكثر من سيد ؛ فالعرش لا يتسع لاثنين مهما كبر ؛ إن واحداً منهما ، عاجلا أو آجلا ، سيرى نفسه وقد انقلب ، وزحمه هناك آخر . ألا فاحكموا ،

هل أستطيع أن أشاطر هذا اللئيم التاج وهو لا يوحى لى إلا بالكراهية الشديدة ؟

بولينيس : أما أنا ، فمن فرط ما أمقتك، لا أريد أن أشاطرك نور السموات .

جوكاست : هلما إذن ، إنى لراضية ، هلما إلى الهلاك . إنى أدعوكما إلى هذا القتال الدامى . ما دامت جميع جهودى لا تفلح فى تبديلكما ، ما بالكما تتلكآن ؟ هلما تفانيا واثأرا لى . جاوزا — لو أمكن — جرائم آبائكما ؛ وأظهرا بتناحركما أنكما شقيقان . إنكما مدينان بالحياة لأعظم الآثام ، وجدير بكما أن تضحيا بها قرباناً لإثم مماثل . لم أعد أستنكر بعد ما يدفعكما من ثورة ، ولم أعد أجد نحو دمى رحمة ولا حناناً : فإن مسلككما يعلمنى كيف أكف عن حبه ؛ وها أنذى ماضية ، أيها السفاحان ، لأعلمكما كيف يكون الموت .

* * *

المشهد الرابع

إتيوكل ، بولينيس ، أنتيجون ، كريون ، هيمون

أنتيجون : مولاتى . . . أيتها السماء ! ماذا أرى ؟ واحسرتاه ! لا شيء يؤثر فيهما !

هيمون : ليس هناك قوة تستطيع أن تثنيهما عن عزمهما الوحشى .

أنتيجون : أيها الأمراء . . .

إتيوكل : فلنختر لهذا النزال مكاناً .

بولينيس : لنمض سراعاً . وداعاً يا أختاه .

إتيوكل : وداعاً ، يا أميرة ، وداعاً

أنتيجون : شقيقىّ ، قفا ! أيها الحراس استبقوهما ! أضيفوا كل آلامكم إلى ألمى . إنكم لتقسون عليهما لو أظهرتم لهما الاحترام.

هيمون : مولاتى ، لم يعد ثمة ما يستطيع أن يقفهما .

أنتيجون : آه ! أيها الكريم هيمون ، إنك أنت وحدك الذى أبتهل إليه . . . إذا كانت الفضيلة تروقك ، وإذا كنت مبقياً على حبى ، فإن من المستطاع وقف أيديهما السافكة لدماء ذوى القربى ، واشقوتاه ! فى سبيل إنقاذى ، أنقذ هذين المتوحشين .

الفصل الخامس

المشهد الأول

أنتيجون (وحدها)

ماذا اعتزمت ، أيتها الأميرة المنكودة ؟ ها هى ذى أمك قد احتضرت بين ذراعيك ؛ أفلا تستطيعين أن تتبعى خطاها، فتنهى بالموت مصيرك التعس؟ أتريدين أن تعيشى بعدها لجديد من الكوارث ؟ لقد التحم أخواك بالأيدى ، ولا يستطيع شىء أن ينقذهما من أسلحتهما القاتلة . إن التمثل بهما ليحفزك إلى أن تطعنى جنبك ، فأنت وحدك تسكبين دمعاً ، بينما الجميع سواك يسكبون دماً .

أين من نكباتى غايتها المميتة ؟ وبم ينبغى لألمى أن يستصرخ ؟ أينبغى أن أعيش ؟ أينبغى أن أموت ؟ إن عاشقاً يستبقينى ، وأمًّا تنادينى ؛ إنى لأراها فى ظلام القبر تنتظرنى . وما يريده العقل ، يأباه علىّ الحب ، وينتزع منى الرغبة فيه . كم أرى من دواع لفراق الحياة ! ولكن ، وا لوعتاه ! ما أشد ما يحرص المرء على الحياة ، عندما يرتبط بالحب فى مثل هذه القوة !

أجل ، إنك تستبق ، أيها الحب ، نفسى النافرة ؛
وإنى لأعرف صوت قاهرى : فلقد مات الرجاء فى قلبى ؛
بيد أنك حى ، وتريد أن أحيا ؛ تقول إن حبيبى لا بد
سيتبعنى إلى القبر ، وعلىّ أن أحفظ مشعل أيامى حتى أنقذ
مَنْ أحب . هيمون ، ألا فاشهد ما للحب علىّ من
سلطان : ما كنت لأعيش من أجل نفسى ، وأريد أن
أعيش من أجلك .
ولو شككت يوماً فى وفاء حبى المضطرم . . . ولكن
ها هى ذى أنباء القتال المشئومة .

* * *

المشهد الثانى

أنتيجون ، أولامب

أنتيجون : إيه ، عزيزتى أولامب ، هل شهدت ذلك الجرم الفاحش ؟

أولامب : لقد أسرعت إلى هناك بلا جدوى ، كان قد قضى الأمر ، فمن أعلى حصوننا رأيت الشعب يهبط هامى الدمع ، يعدو ، ويزأر داعياً إلى حمل السلاح ؛ وجملة ما أقوله لك عن مصدر هلعه ، إن الملك قد مات ، يا مولاتى ، وأخوه قد غلب . ويتحدث القوم أيضاً عن هيمون ؛

يقولون إن همته جهدت وقتاً طويلاً فى وقف ثورتهما، ولكن جميع مساعيه قد ذهبت سدى . هذا ما فهمته من ألف شائعة مبلبلة للخواطر .

انتيجون : آه ! أنا لست أشك فى الأمر ، فإن هيمون لشهم كريم ؛ إن قلبه الكبير كان يستبشع الإثم دائماً . لقد ناشدته أن يمنع هذه الجريمة ؛ ولو استطاع أن يفعل ذلك، لفعله يا أولامب . لكن ، واشقوتاه ! لم يكن هناك من سبيل إلى إطفاء ثائرتهما ، فقد كانت تتطلب مزيداً من الدم لتخمد . يا لجحودكما أيها الأميران ! ها أنتما الآن تقنعان . كان الموت وحده هو الذى يستطيع أن يقر السلام بينكما . كان العرش أضيق من أن يسعكما معاً ، وهكذا قضت السماء فى هذه الهوة السحيقة بينكما فآثرت أحدكما بالحياة وكتبت الموت على الآخر . ما أتعسكما ، وما أجدركما، بالرثاء ! ومع ذلك فأنتما أقل منى الآن شقاء ، إذ أنكما لا تشعران بأى من الآلام التى نزلت بكما ، أما أنا فأشعر بها جميعاً !

أولامب : ولكن هذه البلية نكبة أهون عليك مما لو انتزع الردى منك بولينيس . لقد كان هذا الأمير محل عنايتك ورعايتك ، وكانت مصالح الملك أقل استئثاراً بعطفك .

أنتيجون : حقًّا ، لقد كنت أخلص له الودّ ، كنت أحبه أكثر مما أحب أخاه : والذى كان يسبغ عليه ما أضمر له من خير ، هو أنه كان فاضلا ، يا أولامب ، وكان تعيساً . لكن ، واحسرتاه ! لم يعد يتحلى بتلك النفس الكريمة ، لقد أصبح مجرماً توجته جريمته . وأخذ أخوه يفوقه فى إثارة عطفى : فإنه – فى شقائه – بات أحب إلىّ منه .

أولامب : كريون قادم .

أنتيجون : إنه كاسف البال ؛ ولكنى أعرف سر ذلك : فموت الملك يعرضه لبطش الغالب . إنه لجميع نكباتنا الصانع الخبيث .

* * *

المشهد الثالث

أنتيجون ، كريون ، أولامب ، أتال ، حرس

كريون : سيدتى ، أحقًّا ما سمعت وأنا أدخل هذا المكان ؟ أحقًّا أن الملكة . . .

أنتيجون : نعم ، يا كريون ، لقد ماتت .

كريون : أيتها الآلهة ! هل أستطيع أن أعرف بأية طريقة غريبة

انطفأ مشعل حياتها المنكودة ؟

الرسول : إنها ، يا سيدى ، قد فتحت القبر لنفسها ، حينما استولت في لحظة مشئومة على خنجر أجهزت به على نكباتها وعلى حياتها .

أنتيجون : لقد عرفت الثكلى كيف تتجنب آلام الفاجعة فى ولدها .

كريون : آه ، سيدتى ! من الحق أن الآلهة الناقمين . . .

أنتيجون : أنت وحدك المسئول عن مصرع شقيقى الملك ، لا تنسب ذلك إلى سخط السماء ، بل انسبه إلى هذا القتال المشئوم ، فأنت وحدك الذى استدرجته إليه : لقد آمن بنصائحك ، وكان موته ثمرتها . وهكذا يصبح الملوك ضحايا مخادعيهم ، إنكم تعجلون بالقضاء عليهم حين تزينون لهم جرائمهم . إنكم أنتم الذين تحكمون سقوط الملوك ؛ غير أن الملوك ، فى سقوطهم ، يجرفون معهم مخادعيهم . وإنك لترى ذلك ، يا كريون ، إن بليته المميتة لشر عليك بقدر ما هى فاجعة لنا : فإن السماء ، إذ أهلكته ، قد ثأرت منك ، وربما كتب عليك أن تبكى مثلنا .

كريون : سيدتى ، إنى لأعترف بذلك ! وإذا كنت تبكين

شقيقين فإن الأقدار العنيدة تدفعنى إلى أن أبكى ولدين .

أنتيجون : شقيقاى وابناك ! أيتها الآلهة ! ما معنى هذا الكلام ؟
هل قضى امرؤ نحبه سوى إتيوكل ؟

كريون : أفلم تبلغك أنباء تلك القصة الدامية ؟

أنتيجون : علمت أن بولينيس قد فاز بالنصر ، وأن هيمون جهد فى أن يفصل بينهما دون جدوى .

كريون : لقد كان حصاد المعركة أشد وحشية من ذلك . إنك — فيما يبدو — تجهلين خسائرك وخسائرى — يا لهول الفاجعة — ألا فاعلمى هذه وتلك .

أنتيجون : أيها القدر الصارم ، أكمل غضبك علينا ! آه ، هذه — بلا ريب — هى آخر ضرباتك !

كريون : لقد رأيت — يا سيدتى — كيف خرج الأميران من هنا تدفعهما إلى التناحر ثورة هوجاء وحمية سوداء ، وأن أفكارهما لم تتفق يوماً خيراً من هذا الاتفاق . إن ظمأ الأخ إلى السبح فى دم أخيه راح يفعل ما لم يستطعه نداء الدم الواحد . فمن فرط بغضهما كانا يبدوان متحدين تماماً ، وإذ تأهبا للتناحر لاح أنهما صديقان . تخيرا فى أول الأمر — ميداناً لنزالهما — موضعاً قريباً من المعسكرين ، عند أسفل السور . هناك استأنفا ثورتهما الأولى ، فاستهلا فى آخر الأمر ذلك القتال

المروع . والتمس كلٌّ ، بحركة مرعبة ، وعين تتقد غيظاً ، منفذاً فى صدر الآخر ؛ واستولت الثورة على سواعدهما تدفعها ، فبدا أنهما يعدوان معاً لاستقبال الردى . وإذا بولدى ، الذى كانت نفسه تذوب حسرة لذلك ، يذكر أوامرك ، يا سيدتى ، ويلقى بنفسه بينهما ، ويزدرى فى سبيلك أوامرهما القاطعة التى وقفتنا جميعاً دون حراك . كان يمسك ذراعيهما ، ويدفع جسميهما ويرجوهما ، وليفصل بينهما كان يتعرض لهياجهما الشديد . ولكنه كان يجهد عبثاً فى وقف تيار القتال ، فهذان الثائران يتقاربان دائماً . وهو مع ذلك ثابت فى مكانه ، لا تهن عزيمته مطلقاً ، ويبدد عاصفة من ألف طعنة فاتكة ، إلى أن مدّ الملك سيفه الفادح الصرامة ، إما ليصيب أخاه أو ليصيب هذا الولد التعس ، فيلقى به عند قدميه وهو يوشك أن يلقى مصرعه .

أنتيجون : والألم لم ينتزع منى الحياة بعد ؟

كريون : وأهرع إليه ، فأرفعه بين ذراعى ، وأحتضنه ، ولا يكاد يقع بصره على وجهى حتى يقول بصوت خافت جداً : « ما أسعدنى وأنا أموت من أجل أميرتى الجميلة . عبثاً تبادر محبتك إلى نجدتى ؛ إنما عليك أن تحول بين هذين الثائرين :

افصل بينهما، يا أبتاه، ودعني أحتضر. » ويلفظ مع هذه الكلمات آخر أنفاسه ، وهذا المشهد الوحشي لا يقوم حائلاً دون ثورتهما السوداء ؛ غير أن بولينيس يبدو لذلك محزوناً ، ويقول : « انتظر ، هيمون ، لسوف يُثأر لك ». وفي الحق إن مشهد هيمون المؤلم قد جدّد غيظ بولينيس وحمله على انتزاع النصر . أما الملك فقد أصابته طعنة نجلاء عجلت له الهزيمة ، وسقط مضرجاً بدمه . وعلى الفور استسلم المعسكران لما اجتاحهما ، فمعسكرنا نهب للألم ، واليونان نهب للشماتة ؛ وجزع الشعب لمصرع ملكه ، فأظهر فزعه من شاهق أبراجه . وامتلأ بولينيس تيهاً لنجاحه في جرمه ، ونظر — في تشفٍ — إلى ضحيته وهي تحتضر ، قائلا لأخيه — وكأنه يسبح في دمه — : « أما أنت فتموت ، وأما أنا فسأحكم . انظر في يديّ إلى السلطان والنصر ، وبُؤْ بالخزي في الجحيم من فرط مجدي ، ولكي تموت بحسرة أشدّ ، أيها الغادر ، تذكر أنك تموت وأنت تابع لي » . ويفرغ من هذه الكلمات ، فيدنو بمشية المختال من الملك الراقد على الثرى ، ويمد ذراعه ليجرده من السلاح . ويترصد الملك ، الذي يبدو ميتاً ، جميع خطاه . إنه يراه ، إنه ينتظره ، وكأن روحه المغيظة قد تريثت لغرض عظيم . لقد

ظلت نار الثأر تؤجج رغائبه ، وتؤخر نزعه الأخير . إنه إذ يوشك أن يسلم الحياة ، يخفى ما تخلف منها ، وينطوى موته على شرك وبيل للمنتصر : فى هذه اللحظة ، وحينما هم ذلك الأخ المتوحش أن ينتزع السلاح من اليد القابضة عليه ، يد أخيه الملك ، كانت روحه الناقمة تشد على يده لينجز ضربة نافذة فى ذلك القلب القاسى ، وتفارق الحياة بعد أن ثأرت لنفسها . ويخر « بولينيس » ينضح صراخه بدمه ، وتفر روحه إلى الجحيم تتميز غيظاً . وما أظنه — يا سيدتى — إلا مقيماً على سخطه وحقده برغم الموت ، حتى لكأنه ما يزال يتوعد أخاه ! لقد بدا لى وجهه ، الذى كسته ملامح الموت ، أشد إرهاباً ، وأعظم كبراً مما كان عليه من قبل .

أنتيجون : يا للطمع الوبيل ! ويا للعمى المشئوم ! ويا لها من خاتمة بينة لنبوءة قاسية ! لم يبق من الدم الملكى كله سوانا . ليت الآلهة قد أنجزت مشيئتها فى ، فخلصتنى من هذا اليأس القاتل ، وألحقتنى بأمى ، حتى لا يبقى من الدم الملكى سواك يا كريون !

كريون : حقاً كأن غضب الآلهة المشبوب لإهلاكنا قد نفد ؛ لأن شدته فى آخر الأمر ، كما ترين ، يا سيدتى ،

لا تبهظنى أقل مما تفجع نفسك ، حين انتزعت منى ولدىّ . . .

أنتيجون : آه ! إنك تملك ، يا كريون ، والعرش ، فى يسر ، يسليك عن هيمون . ولكن دع لى ، رحماك ، شيئاً من الوحدة ، ولا تضايق أسيف همى . إن أحزانى خليقة بأن تدركك . لسوف تجد فى غير هذا المكان أحاديث أعذب من أحاديثى . فالعرش ينتظرك ، والشعب يناديك . تذوّق لذة جاه جديد توافيك غير منقوصة . وداعاً . نحن لا نفعل إلا أن يعوق كل منا الآخر ، فإنى أريد أن أبكى ، يا كريون ، وأنت تريد أن تحكم .

كريون (وهو يستوقف أنتيجون) : آه ، مولاتى ، املكى ، تبوئى العرش . إن هذا المنصب الرفيع لا يئول إلا لأنتيجون العظيمة .

أنتيجون : بل إنى لأتعجل أن تحتله أنت . إن التاج لك .

كريون : وأنا أضعه عند قدميك .

أنتيجون : إنى لأرفضـــه من يد الآلهة أنفسهم ، فكيف تجرؤ أنت ، يا كريون ، على أن تقدم لى التاج ؟

كريون : إنى أعلم أن هذا المنصب الرفيع لا يمتاز بشىء مجيد إلا هان إزاء شرف تقديمه لعينيك . و إنى لأعرف أننى غير جدير بمثل هذا المصير النبيل . ولكن إذا استطاع المرء أن

يطمح إلى هذا المجد المرموق ، وإذا كان للمرء أن يستحقه بعظيم المآثر ، فما الذى يجب أن أفعل ، يا مولاتى ؟

أنتيجون : أن تفعل مثلى .

كريون : وما الذى أحجم عن فعله فى سبيل مثل هذا الفضل ! يكفى أن تأمرينى بما ينبغى لى أن أعمله لتجدى منى سميعاً مجيباً .

أنتيجون (وهى تنصرف) : سوف نرى .

كريون (وهو يتبعها) : إنى هنا فى انتظار أوامرك .

أنتيجون (وهى تنصرف) : انتظر .

* * *

المشهد الرابع

كريون ، أتال ، حرس

أتال : ترى هل هدأ غضبها ؟ أتظن أنك ستستلينها ؟

كريون : نعم ، نعم ، يا عزيزى أتال ؛ ليس هناك من حظ يعدل سعادتى . فى هذا اليوم السعيد ، سوف ترى منى الطامح وقد استوى على العرش ، والعاشق وقد كُلل حبه

بالوصال . لقد كنت أسأل السماء أن تهبنى الأميرة والعرش : وها هى ذى تضع فى يدى الصولجان وتمنحنى أنتيجون . ولكى تتوج رأسى وهواى فى يوم واحد ، فقد جندت لصالحى البغض والحب معاً ، تشعل من أجلى عاطفتين متعارضتين : تلين قلب الأخت ، وتغلظ قلب الأخوين ؛ تؤجج سخطهما ، وتلين شدتها ، وتفتح لى فى آن واحد عرشهما وقلبها .

أتال : فى الحق إنى لأرى كل شىء يواتيك ، ولو لم تكن أباً لكنت سعيداً . لم يعد للطموح ولا للحب أرب ؛ ولكن ، يا مولاى ، للطبيعة كثير من دواعى البكاء ، فبفقد ولديك . . .

كريون : أجل ، إن فقدهما ليحزننى ، فأنا أعلم ما يقتضيه منى مكارم الأبوة . لقد كنت أباً . غير أننى فوق كل شىء قد ولدت لأملك ، وإنى لأخسر أقل بكثير مما أعتقد أنى كسبته . إن اسم الأب ، يا أتال ، لقب مبتذل ، هو هبة هيهات أن تأباها علينا السماء : فليس فى مثل هذا النعيم الشائع ما يحلو لى ، إنه ليس نعيماً ، ما دام لا ينشئ حساداً . ولكن العرش خير تضن به السماء . وهذا المنصب الرفيع يفصلنا عن سائر البشر ، وقليل هم أولئك الذين

يشرفون بمثل هذه الهبة النفيسة ، فعلى الأرض من الملوك أقل مما فى السماء من آلهة . ثم إنك تعلم أن هيمون كان متيماً بالأميرة ، وأنها كانت تسرّله حبًّا عميقاً . فلو كان حيًّا ، لبات حبه وبالاً على حبي . إن السماء إذ تحرمني ولداً ، إنما تنتزع مني غريماً . إذن لا تحدثني بعد ذلك إلا عن دواعي البشر والسرور ، وتقبَّل مني أن أطلق لنفسي العنان لما يلتهمني من طرب ولذة : وإياك أن تذكرني بأشباح فى الجحيم ، وإذا حدثتني ، فاسألني كم أربح ؟ ولا تسألني ماذا خسرت ؟ حدثني عن الملك ؟ حدثني عن أنتيجون : فسرعان ما أنال قلبها ، وقد نلت الآن العرش . إن جميع ما مضى ليس لدىّ إلا حلماً : فقد كنت أباً رتابعاً ، وهاأنذا عاشق وملك . وللأميرة والعرش فى نفسي من السحر ما . . . ولكن أولامب مقبلة . . .

أتال : أيتها الآلهة ! إنها هامية الدمع .

* * *

المشهد الخامس

كريون ، أولامب ، أتال ، حرس

أولامب : ماذا تنتظر يا مولاي ، لقد قضت الأميرة .

كريون : قضت ، يا أولامب !

أولامب : آه ! يا للحسرات الضائعة سدى ! إنها لم تفعل سوى أن دخلت الغرفة المجاورة ؛ وبنفس الخنجر الذى ماتت به الملكة ، ودون أن أستطيع الوقوف على نيتها النكداء ، طعنت هذه الأميرة الأبيّة صدرها الجميل . لقد طعنت به نفسها الطعنة القاتلة ، وفى دمها ، ويلتاه ! فجأة هوت . قدرّ هول مادهانى . ولكن روحها النبيلة حين أوشكت أن تفيض ، سمعتها تهمس بهذه الكلمات : « حبيبى هيمون ، إنى من أجلك أضحى بنفسى » . وختمت تلك اللحظة حياتها . وأحسست بجسمها البديع وقد احتواه البرد وهو بين ذراعىّ ، وظننت أن روحى قد همّت بأن تتبع خطاها . وما كان أسعدنى ألف مرة لو أن ألمى المميت قد غمرنى فى ظلمات القبر معها !

* * *

المشهد السادس

كريون ، أتال ، حرس

كريون : وهكذا ، يا أنتيجون ، تفرين من عاشق بغيض ، وبيدك ، أيتها القاسية ، تطفئين عينيك الجميلتين . تطفئين إلى الأبد هاتين العينين الساحرتين اللتين أعبدهما ؛ ولكيلا ترياني تمعنين في إغماضهما ! ولو أن هيمون عزيز عليك ، إلا أنك تلوذين بالمنية وأنت أشد إيثاراً لأن تتجنبيني، منك لأن تتبعي خطاه . ولكن ، إذا كنت تمادين في القسوة عليّ ، وكان محضري في الجحيم بغيضاً لديك ، وظلّ سخطك بعد المنية حيًّا ، فإني ، أيتها المتوحشة، لملقٍ بنفسي وراءك . سوف ترين هناك دائماً مَنْ تبغضين ، وسوف تردد زفراتي لك ألمي دائماً ، سواء لتستلينك أو لتعذبك ؛ ولن تستطيعي بعد ذلك أن تموتي مرة أخرى كي تتجنبيني . فلنمت إذن . . .

أتال (وهو ينتزع منه سيفه): آه ، مولاى ! يا لها من نزعة قاسية . . .

كريون : آه ! إنك لتغتالني بالإبقاء على حياتي ! أيها الحب ،

والغيظ ، والطرب ، هلموا إلى نجدتى ، هلموا وأنجزوا أيامى الكريهة ! أحبطوا عقبات كل هؤلاء الأصدقاء القساة ! وأنت أيتها السماء ، برهنى على صدق نبوءاتك ! إننى آخر سلالة لايوس التعيس ؛ أهلكونى ، أيها الآلهة القساة ، وإلا بؤتم بالخسران ! استردوا ، استردوا هذا السلطان المشئوم . إنكم تنتزعون منى أنتيجون ، فانتزعوا منى كل شىء آخر . إنما العرش ونعمكم تثير سخطى . لا أريد منكم سوى صاعقة . فلا تأبوها على مُناى ، بل على آثامى . أضيفوا تعذيبى إلى سائر أولئك الضحايا . ولكنى عبثاً ألح عليكم ، وقد أخذ ما اقترفت من جرائم يشعرنى بجميع الأوزار التى ارتكبتها . إن پولينيس ، وإتيوكل ، وجوكاست ، وأنتيجون ، وابنىّ اللذين أهلكتهما فى سبيل صعودى إلى العرش ، وسواهم من عديد الأشقياء الذين كنت سبب آلامهم ، قد جعلوا يعملون فى مهجتى عمل الجلادين . قفوا ! فإن مصرعى سوف يثأر الآن لهلاككم ، ستنقض الصاعقة ، ولقد انفغرت الأرض ؛ إنى أتجرع فى آن واحد ألف لون من سوء العذاب ، وسأمضى ألتمس الراحة فى الجحيم .

(يسقط بين أيدى الحرس)

* * *



الإسكندر

(عام ١٦٦٥)

ترجمة

الدكتورة كوثر عبد السلام البحيري

مراجعة وتقديم

الدكتور محمد محمد القصاص

فحص

عبد الحميد الدواخلي

مقدمة

لم يكن قد تم من المسرحية غير فصولها الثلاثة الأولى ونصف الفصل الرابع حين جلس راسين فى قصر نيفير[١] فى ضيافة مدام دى باسيس جينيجو[٢] وراح يقرأ ما أنجزه من مسرحيته أمام بوالو[٣] ولاروشفوكو[٤] ومدام دى لافايت[٥] وغيرهم من تلك النخبة التى كان رأيها فى الأدب والفن يعتبر قانوناً فى ذلك العهد. كان ذلك فى بداية عام ١٦٦٥ ، والجمهور ينتظر بثقة وفروغ صبر المسرحية بعدما شاهده من نجاح المؤلف فى مسرحيته السابقة التى كانت أولى مسرحياته. وعرضت المسرحية فى الرابع من شهر ديسمبر من نفس العام على أيدى فرقة الباليه رويال. ولكن التنفيذ لم يكن دقيقاً بالنسبة لمسرحية من هذا المستوى؛ فاضطر راسين إلى سحبها بعد اليوم الخامس من العرض وتقديمها إلى مسرح قصر بورجنى[٦] حيث لاقت من النجاح أكثر مما كان مقدراً لها. ولكن كان ثمن هذا النجاح أن دبّ الخلاف بين المؤلف وبين موليير الذى اختطف منه راسين إحدى ممثلاته دون وجه حق. ثم لم يلبث المعجبون بكورنى الهرم أن تحركوا واستولى عليهم نوع من الذعر لهذا النجاح،

---

(١) Hôtel de Nevers

(٢) Mme du Plessis Guénégaud

(٣) Boileau

(٤) La Rochefoucaud

(٥) Mme de Lafayette

(٦) Hôtel de Bourgogne

فجمعوا أمرهم واستعدوا للهجوم . وكان من أهم البحوث التى نشرت فى الهجوم على المسرحية ذلك البحث الذى كتبه سانت أفريمون[١] بعنوان « بحث عن الإسكندر »[٢] . وقد أجمع كل من نقدوا راسين من سانت أفريمون إلى برادون[٣] . على أن أخطر مطعن فى المأساة ينحصر فى أن المؤلف قد جعل شخصية الإسكندر شخصية مهزوزة ، فصار أعظم فاتح فى العصور القديمة مجرد عاشق ولهان على الطريقة الرومانسية . كما أخذوا عليها أنها تجعل من بوروس شخصية أعظم من شخصية الإسكندر .

ويرد راسين نفسه على مهاجميه فى مقدمته الأولى للمسرحية فيقول : « ماذا أستطيع أن أجيب به على أولئك الذين ينكرون علىّ حتى عنوان مسرحيتى التى سميتها الإسكندر ، مع أن الإسكندر هو محور الحدث فيها ، ومع أن موضوعها ليس شيئاً آخر سوى كرم هذا الفاتح ؟ فهو لم يقنع بالانتصار على بوروس بقوة السلاح ، ولكنه قهر جنوحه بكرم حين ردّ إليه ولاياته . وهم يجدون من الغريب أن يبقى الإسكندر بعد أن كسب المعركة ، بجانب حبيبته ، بدلاً من امتشاق حسامه من جديد والعودة إلى قتال شرذمة من اليائسين الذين لا يسعون إلا إلى حتفهم . ومع ذلك فإننا إذا أولينا ثقتنا ما رواه واحد من أكبر قواد هذا العصر ، تبيّن لنا أن إفستيون نفسه لم يحضر هذه المعركة (التافهة) . وهم لا يستطيعون

---

(١) Saint Evremond (٢) "Une Dissertation sur Alexandre"

(٣) Pradon

أن يهضموا قيام إفستيون برواية أخبار موت تاكسيل أمام بوروس ، لأن فى هذه الرواية تمجيداً للأخير . ولكنهم لا يدركون أن المديح الذى يضفى على شخص فى حضرته لا يمكن أن يستهجن إلا إذا اشتمت منه رائحة الملق ، وأن هذا المديح يحدث أثراً عكسياً حين يجرى على لسان عدو ويكون الممدوح غارقاً فى محنته . فهذا معناه تكريم الفضيلة وإنصاف صاحبها ، حتى وهو مكبل بالأغلال . بل يبدو لى أن هذا السلوك يتفق تمام الاتفاق مع الفكرة التى تركها لنا المؤرخون عن تابع الإسكندر المفضل . غير أنهم يعودون فيقولون إنه كان يجب على إفستيون على الأقل ألا يحاول إثارة سيده والإطاحة بصبره بمبالغته فى تقدير مزايا عدوه أمامه . وأغلب الظن أن أولئك الذين يزعمون هذا الزعم قد نسوا أن بوروس كان خارجاً لتوه من هزيمة منكرة على يد الإسكندر . فالمديح الذى يضفى ، فى هذه الحال ، على المقهور من شأنه أن يعود فيعلى من شأن القاهر . أما من يأخذون على أنى جعلت الإسكندر يرد إلى بوروس اعتباره فى حضرة كليوفيل ، فلن أرد عليهم . فإن ما يعتبر خطأ فى نظر هؤلاء الأشخاص الذين لم يقرءوا من التاريخ إلا قصص الحب ، والذين يرون أنه لا يصح لبطل أن يبرم أمراً إلا بإذن معشوقته ، قد حظى بآيات المدح من أبطال عظام ممن لهم حدهم الحق فى الحكم على تصرفات أمثالهم . وأخيراً فإنى أعتبر أهم اعتراض وجه إلى موضوعى أنه سرف فى البساطة ، بل سرف فى العقم . وليس فى وسعى أن أعلم هؤلاء المعترضين تذوق التاريخ القديم الذى أرى

أنهم لا يعرفون منه إلا تفاهاته . ولكن مم يشكون ؟ إذا كانوا يرون مناظرى حافلة ، وأنها ترتبط بعضها ببعض ارتباط ضرورة ، وإذا كان جميع أشخاصى لا يظهرون على المسرح إلا هم يعرفون الباعث الذى دفعهم للظهور عليه ، ثم إذا كنت قد وفقت ، باستغلال قليل من المادة وقليل من الأحداث فى كتابة مسرحية لعلها جعلت أذهان هؤلاء النقاد أنفسهم تتعلق بها ، بالرغم منهم ، منذ البداية حتى النهاية ، أفهذا مما يعاب ؟ »

والواقع أن هذه النقطة الأخيرة التى يأخذها عليه نقاده تعتبر من السمات العامة لمسرح راسين بأسره ، بل هى من سمات فنه الدرامى الأصيلة. فكل موضوعاته تمتاز بالبساطة ، ولا تبعد عن النسق الطبيعى » لتغرق فى خضم ما هو مخالف للواقع المألوف ، ولا تحمل إلا القليل من المادة ، أو كما قال هو فى بواعث اختياره لموضوع «برنيس» : « إننى أعجبت به لأنه فى غاية البساطة ومن ثم كان أقرب إلى الحقيقة الواقعة وأجدر بالمعالجة على شرط احترام بساطته ، لأن كل ابتكار ينحصر فى عمل شىء من لا شىء ». ولكنه إذا كان يحترم الحقيقة التاريخية ويحافظ عليها ، فإنه لا يرى أن يتقيد بالتفاصيل . ولكن لندع الحكم على أعمال راسين بوجه عام للمقدمة العامة التى ستكتب لتقديم جملة أعماله .

وهكذا نرى أن راسين نفسه قد تكفل بالرد على منتقديه رداً معقولاً مقنعاً . ولكنه لم يتعرض بصورة مباشرة ، لما وجه إليه من إغراق فى معالجة

موضوع بالطريقة التى يمكن أن ندعوها بالطريقة الرومانسية مما قد يضيف قيمة الفكرة التى توارثها الأجيال عن بطله العظيم . وقد يجاب عن ذلك بأنه إذا كان فى الحياة أبطال يسمون عن حد المألوف ، فإنهم بشر على كل حال . وعلى الجملة ، فإن هذا المأخذ لا يبرر تجاهل الكثيرين من النقاد ومؤرخى الأدب لمسرحية الإسكندر حتى يومنا هذا . فما عسى أن يكون الباعث على هذا المسلك يا ترى ؟ نحن نعتقد أن السرّ فى ذلك يرجع إلى أن شخصية بوروس فى المسرحية تبدو أكثر اجتذاباً لعطف القارئ واستيلاء على قلبه وإعجابه من شخصية الإسكندر نفسه . ولا يرجع ذلك إلى أن راسين قد قصد إبراز هذه النتيجة عن شعور وعمد ، بل لأن من طبيعة البشر — كما قال نقلا عن سينكا « إنه لا شيء يملؤهم بالإعجاب بإنسان أكثر من أن يروه يتجرع غصص محنته بشجاعة » .

والأوربيون الذين يبدأ تاريخ نظرتهم ، أو نظرة بعضهم ، التعصبية نحو الشرق واعتباره نوعاً آخر من البشرية فى مقابلة العالم الغربى ، من نتائج وقائع الحرب بين الفرس واليونان لا يستطيعون ، عن شعور أو غير شعور ، أن يغفروا لكاتب جعل أميراً شرقيًّا يفوق الإسكندر ، ولو ظاهريًّا ، فى اجتذاب عطف الآخرين وإعجابهم .

ويذكر راسين صادقاً أن أحداثه هذه أحداث تاريخية استقاها من

مصدرين ، هما المؤرخان اللاتينيان جوستان Justin وكنت كورس . Quinte-Curce

هذا ونختم هذه الكلمة بتقديم تحليل مقتضب للمسرحية :

الفصل الأول : بوروس وتاكسيل ملكان من ملوك الهند ، يتنافسان فى طلب يد الملكة أكسيان . والإسكندر يهدد ممالكهم . لكن كليوفيل — أخت تاكسيل — تحب الإسكندر وتتلقى منه رسائل الحب ، فتنصح أخاها بالاستسلام إليه . وهذا الاستسلام لا يجلب عليه احتقار بوروس وحده ، بل احتقار أكسيان أيضاً التى تشارك بوروس بغضه للفاتح المقدونى .

الفصل الثانى : يبعث الإسكندر بإفستيون رسولاً من لدنه ليعرض السلام على الأميرين ، فيصده بوروس بعنف ، أما تاكسيل فيظهر ميله منذ الوهلة الأولى لقبول هذه الصداقة السامية . ولكن يبدو أن توسلات أكسيان تثير نخوته ، فيتردد بعض الوقت بين هذا القبول وامتشاق الحسام لقتال الإسكندر . وفى الوقت نفسه تلمح أكسيان لبوروس بأنه هو الذى يملك قلبها .

الفصل الثالث : يأتى تاكسيل مسرعاً مبهور الأنفاس ليعلن إلى أخته وإلى الملكة أن بوروس قد باء بالهزيمة . ثم لا يلبث الإسكندر أن يحضر ، فيعلن بنفسه حبه لكليوفيل ، ويعدها بإتمام زواج أكسيان وتاكسيل .

الفصل الرابع : تنتحب أكسيان على بوروس الذى نبئت بموته وتقول إنها لن تعطى يدها إلا لمن ينتقم لموت بوروس .

الفصل الخامس : وهنا ترد الأخبار فجأة منبئة بظهور بوروس الذى كان قد أعلن موته ، ويقاد أسيراً أمام الإسكندر والأميرتين ، فيعلن إليهم موت تاكسيل الذى جاء يتحداه فى ميدان المعركة . وحينئذ يعيد إليه الإسكندر ملك ولاياته ويبارك زواجه من أكسيان .

محمد محمد القصاص

إهداء إلى الملك

مولاى : إليكم عملا فنيًّا ثانياً لا يقلّ جرأة عن العمل الأول . ولا أكتفى بوضع اسم الإسكندر على رأس مسرحيتى وإنما أضع كذلك اسم جلالتكم . ومعنى هذا أننى أجمع فيها كل ما يقدمه لنا هذا القرن والقرون السابقة من دلائل العظمة . ولكنّى آمل يا مولاى ألا تغضبكم هذه الجرأة الثانية لا سيما وأنها لا تناقض سابقتها . ومهما تكن الجهود التى بذلت لمسخ شخصية الإسكندر كما رسمتها ، فإن تلك الشخصية ما تكاد تظهر حتى تعلن عن الإسكندر . ومن عساى أتخذ من حكَمٍ غير ملك انتشرت عظمته فى آفاق الأرض كما انتشرت عظمة ذلك الفاتح ، ملك نستطيع أن نقول عنه إن شعوب الأرض جميعاً تلوذ أمامه بالصمت كما قال الكتاب المقدس عن الإسكندر ؟ وإنى لأعرف جيداً أن هذا الصمت هو صمت الدهشة والإعجاب ، وإنك حتى الآن لم تفرض عليهم قوة سلاحك كما فرضت عليهم قوة شمائلك . غير أن شهرتك – يا مولاى – ولو أنها لا تعتمد على الحرائق والخراب والدمار ، إلا أنها لا تقل تألقاً وبريقاً عن شهرة الإسكندر . ولقد بلغت جلالتك أوج العظمة عن طريق جديدة أكثر وعورة من الطريق التى سلكها الإسكندر . وليس من الغريب فى شىء أن نرى شابًّا يكسب المعارك ويشعل النار فى جميع أرجاء الأرض ،

ولم يكن من الأمور المستحيلة أن يقوده شبابه وحظه ، منتصراً ، إلى أقاصى الهند . والتاريخ ملىء بالفاتحين الشبان .

وإنا لنعرف جميعاً بأية حمية انتهزتم جلالتكم الفرص للظهور فى عصر لم يكن الإسكندر يستطيع أن يفعل فيه سوى البكاء على انتصارات أبيه . ولسوف تسمحون لى جلالتكم أن أقول إن أحداً لم ير ملكاً غيركم يسلك فى عصر الإسكندر مسلك الإمبراطور أوجست ، إنه دون أن يبتعد عن قلب مملكته ينشر نوره فى أقاصى الأرض وقد بدأ عهده بما سعى به كبار الأمراء إلى إنهاء عهودهم به . ولطالما تجادل القدامى فيما إذا لم يكن للحظ عند الإسكندر نصيب أكبر مما لشجاعته فى انتصاراته . ولكن أى نصيب يستطيع الحظ أن يدعيه لدى ملك لا يدين الرخاء الذى يسود مملكته إلا لتوجيهاته وحدها ؟ ملك لا يشعر بالحاجة إلا إلى نفسه لكى تخشاه أوربا بأسرها !

ولا أظن يا مولاى أننى إذ أمدح جلالتكم أقوم بعمل واسع عسير ، ولكن ينبغى قبل ذلك أن أجرب حظى ببعض أبطال العصور القديمة . وأرى أننى كلما أضفت إلى قوتى قوة جديدة ، فإن جلالتكم تتقلدون مجداً جديداً . وربما رأيناكم قريباً على رأس جيش فتتم المقارنة بينكم وبين الإسكندر وتضيفون لقب الفاتح إلى لقب أحكم ملوك الأرض . وحينئذ ينبغى لرعاياك أن يكرسوا سهراتهم جميعاً لرواية أمجادكم العظيمة فلا يتيحون لجلالتكم مجالا للشكوى ، كما فعل الإسكندر حين أخذ يتذمر من أن أحداً

فى حياته لم يستطع أن يترك للأجيال القادمة ذكرى شجاعته وشمائله .

ولا أمل لى فى أن يسعدنى الحظ فتظهرنى قيمة مؤلفاتى ، ولكنى أعلم أننى سأظهر على الأقل بفضل الولاء العميق الذى يجعلنى يا مولاى رعيتكم وخادمكم المتواضع المطيع .

راسين

المقدمة الأولى (سنة ١٦٦٦)

إننى لن أنقل هنا ما يذكره التاريخ عن بوروس إذ ينبغى حينئذ نقل الجزء الثامن من تاريخ كانت ـ كورس ، كما أننى لن أبالى كثيراً بالاعتذار عن المواضع التى هوجمت فى مسرحيتى . ذلك أننى لم أدع أننى أقدم للجمهور عملا فنيًّا كاملا . وإننى لأحكم حكماً عادلاً على نفسى إذ أقول إن أملا كهذا لم يجرؤ على مراودتى بعد . ومهما كان النجاح الذى أحرزته مسرحيتى « الإسكندر » ، ومهما شهدت لها أهم شخصيات الأرض ومن يمثلون الإسكندر فى زماننا هذا فإننى لن أترك مثل هذه التأييدات تبهرنى . إننى أود الاعتقاد بأنهم إنما أرادوا تشجيع شاب وحثه على مزيد من التقدم فى المستقبل . ولكننى أعترف بأنه مهما كان من عدم ثقتى فى نفسى ؛ فإننى لم أستطع أن أمنعها من اتخاذ رأى معين فى مسرحيتى حينما رأيت العناء الذى تكبده بعض الناس فى سبيل إسقاطها .

ولا يمكن أن يبذل كل هذا الجهد ضد مؤلف لا يشعرون نحوه بالتقدير ، إذ يكتفى الناس عادة بمشاهدته مرة واحدة ثم يتركونه يسقط من تلقاء نفسه دون تكليف أنفسهم عناء الإسهام فى إسقاطه . ومع ذلك فقد أسعدنى أن أرى أكثر من ست مرات متوالية وجوه هؤلاء النقاد الذين لم يخشوا من تعريض أنفسهم كل هذه المرات للاستماع إلى شىء لا يعجبهم .

لقد بذلوا بسخاء وقتهم وجهدهم لكي يأتوا وينقدوه دون أن يحسبوا حساباً للألم الذي قد يسببه لهم التصفيق الذي لم يمنع حضورهم الجمهور من توجيهه لي. وليس معنى ذلك — كما قلت — أنني أعتقد أن مسرحيتي لا عيب فيها فالكل يعلم الاهتمام الذي أوليته لما وجهه لي أصدقائي الحقيقيون من آراء مخلصة ، بل سوف يرى الناس أنني أفدت في بعض المواضع من النصائح التي تلقيتها . ولكني لن أقوم بأي عمل لو توقفت دقائق لدى بعض النقاد الذين يزعمون تكييف ذوق الجمهور ، مع قلة ذوق عقولهم المريضة ، والذين يتوجهون إلى المسرح ولديهم نية ثابتة بألا يجدوا فيه أية متعة ، والذين يعتقدون أنهم بهزات رءوسهم وتكشيراتهم المصطنعة يثبتون للمشاهدين جميعاً أنهم درسوا « فن الشعر » لأرسطو .

وبماذا أجيب في الواقع هؤلاء النقاد الذين يهاجمون حتى اسم مسرحيتي ولا يريدون مني أن أسميها « الإسكندر » مع أن الإسكندر يقوم فيها بالدور الأول ، وبالرغم من أن الموضوع الحقيقي للمسرحية لا يتعدى كرم هذا الفاتح ؟ إنهم يقولون إنني أجعل بوروس أعظم من الإسكندر ، فأين إذن يبدو أكثر عظمة ؟ أليس الإسكندر هو المنتصر ؟ إنه لا يكتفي بالانتصار على بوروس بحدّ السيف ، بل إنه ينتصر على كبريائه ذاته بالكرم الذي يبديه نحوه وهو يعيد إليه ممالكه : وهم يجدون غريباً ألاّ يعود الإسكندر على رأس جيشه بعد كسبه للمعركة ويبقى ليتحدث إلى حبيبته بدلا من الذهاب لمحاربة عدد قليل من اليائسين الذين لا يسعون إلا

إلى الموت . ومع ذلك فلو صدقنا أحد كبار قواد هذا العصر ، فإن أفستيون ما كان عليه هو نفسه أن يذهب لقتالهم . وهم لا يطيقون أن يقص أفستيون قصة موت تاكسيل أمام بوروس لأن هذه القصة كلها فى صالح هذا الأمير . ولكنهم لا يضعون فى اعتبارهم أن لا لوم على المديح الذى يوجه إلى شخص فى حضوره إلا إذا كان يظن فيه التملق ، وأنه يحدث تأثيراً مختلفاً تماماً إذا صدر من فم عدو ، وإذا كان الشخص الذى نمدحه فى مأزق . إن هذا يسمى حينئذ الحكم العادل على الفضيلة واحترامها حتى وهى مكبلة بالأغلال . ويبدو لى أن هذا التصرف يرد رداً حسناً على الفكرة التى يعطينا إياها المؤرخون عن صديق الإسكندر المقرب . ولكن على الأقل ، حسب ما يقولون ، كان واجباً عليه أن يحرص على صبر سيده فلا يطرى أمامه شجاعة عدوه . إن من يسوقون هذا الحديث قد نسوا ولا شك أن بوروس هزم لتوه بواسطة الإسكندر ، وأن المدائح التى تكال للمهزوم إنما توجه فى الحقيقة للمنتصر . ولن أرد بشىء على من يلومون الإسكندر لأنه أعاد بوروس إلى مملكته فى حضرة كليوفيل . ويكفينى أن ما تعتبره هذه العقول خطأ ، أولئك الذين لم يقرءوا التاريخ إلا فى الروايات ، والذين يعتقدون أن البطل لا ينبغى أن يخطو خطوة دون إذن حبيبته ، هذا نفسه قد حظى بإعجاب من كانوا هم أنفسهم أبطالا عظاماً ومن يحق لهم الحكم على جدارة من يشابهونهم . وأخيراً فإن أهم اعتراض يقدم لى هو أن موضوعى مفرط فى البساطة والعقم . ولن أمثل لهؤلاء النقاد

ذوق العصور القديمة إذ أرى جيداً أن معرفتهم به جد ضعيفة . ولكن مم يشكون إذا كانت كل مشاهدى ممتلئة ومرتبطة الواحد بالآخر برباط حتمى ، وإذا كان الممثلون جميعاً لا يظهرون على خشبة المسرح دون أن يكون السبب الذى يجىء بهم إليها معروفاً تماماً ، وإذا كنت رغم بساطة الحوادث وبساطة المادة قد وفقنى الحظ إلى خلق مسرحية استطاعت أن تستحوذ عليهم بالرغم منهم من أولها إلى آخرها ؟ ولكن ما يعزينى هو أن أرى نقادى مختلفين فيما بينهم : فيقول بعضهم بأن تاكسيل ليس رجلاً شريفاً ويقول البعض الآخر إنه لا يستحق ميتته ! ويتمسك البعض بأن الإسكندر لم يكن غارقاً فى الحب ، بينما يلومنى البعض الآخر لأنه لم يظهر على خشبة المسرح إلا ليتحدث عن الحب . وهكذا أرانى لست فى حاجة إلى أن يتكبد أصدقائى عناء تبرير موقفى ، وما علىّ إلا إرسال أعدائى لأعدائى ، أعتمد عليهم فى الدفاع عن مسرحية يهاجمونها دون فهم منهم لها وبمشاعر متناهية فى التناقض .

راسين

المقدمة الثانية

لم يحترم التاريخ فى أية مأساة كما احترم فى هذه المأساة وقد استُقى الموضوع من عدة كتّاب ولاسيما من الجزء الثامن من كتاب كانت — كورس . ففى هذا الجزء نستطيع أن نرى كل ما فعله الإسكندر حينما دخل الهند ، والسفراء الذين أرسلهم إلى ملوك تلك البلاد والاستقبالات المختلفة التى أعدوها لهؤلاء الرسل ، والتحالف الذى عقده الإسكندر مع تاكسيل ، والكبرياء التى حدت ببوروس إلى رفض الشروط التى عرضت عليه ، والعداوة القائمة بين بوروس وتاكسيل ، وأخيراً الانتصار الذى حققه الإسكندر على بوروس ، والردّ الكريم الذى ردّ به هذا الهندى الشجاع على الفاتح حين سأله كيف يريد أن يعامل ، والكرم الذى ردّ به الإسكندر إليه كل ممالكه مع إضافة كثير غيرها .

إن هذا العمل من قبل الإسكندر قد اعتبر من أعظم الأعمال التى حققها فى حياته . والخطر الذى جعله بوروس يتعرض له فى المعركة بدا له أعظم خطر تعرض له من قبل . وقد اعترف بذلك هو نفسه حين قال إنه عثر أخيراً على خطر جدير بشجاعته . ولقد صاح قائلا فى نفس تلك المناسبة : « أيها الأثينيون كم من المتاعب أتحمل لأحصل على مديحكم ! »

وقد حاولت أن أجعل من بوروس عدوًّا جديراً بالإسكندر ، وأستطيع أن أقول إن شجاعته وشمائله قد حازت الإعجاب على مسرحنا لدرجة أن بعضهم لامني لأنني جعلت من بوروس شخصاً أكثر عظمة من الإسكندر. ولكن هؤلاء لا يضعون فى الاعتبار أن الإسكندر كان حقًّا أعظم من بوروس فى المعركة وفى النصر ، وأنه ليس ثمة بيت واحد فى هذه المأساة إلا ويهدف إلى مديح الإسكندر ، بل إن ما يكنّ له بوروس وأكسيان من ضغينة وموجدة هى نفسها مدائح تكال لعظمة هذا الفاتح . وربما كان لبوروس وضع يجعله موضوع الاهتمام وهو أنه فى موقف تعس وكما يقول سينك : « إن من طبيعتنا ألا يحوز إعجابنا فى هذا العالم أكثر من شخص يعرف كيف يكون تعساً بشجاعة ! » .

إن حبّ الإسكندر وكليوفيل ليس من اختراعى ، فقد تحدث عنه جوستان وكانت — كورس على السواء .

ويحكى هذان المؤرخان أن ملكة فى بلاد الهند تدعى كليوفيل استسلمت لهذا الأمير مع المدينة التى كان يحاصرها . وقد أعاد إليها ملكها تقديراً لجمالها . وقد رزقت منه بولد أسمته الإسكندر .

راسين

أشخاص المسرحية

الإسكندر		Alexandre
بوروس	ملكان من ملوك الهند	Porus
تاكسيل	ملكان من ملوك الهند	Taxile
أكسيان	: ملكة إقليم من أقاليم الهند	Axiane
كليوفيل	: أخت تاكسيل	Cléofile
إفستيون	: أمين الإسكندر	
تابعو الإسكندر		Suite d'alexandre

* * *

تجرى الأحداث على شاطئ نهر جيلان فى معسكر تاكسيل

الفصل الأول

المشهد الأول

الأشخاص : تاكسيل ، وكليوفيل

كليوفيل : ماذا ! أتحارب ملكاً يبدو كما لو كان نفوذه يضطر السماء ذاتها إلى الدفاع عنه ، ملكاً رأت آسيا كل ملوكها يسقطون تحت قدميه ، ملكاً يأتمر الحظ بأمره ؟ افتح عينيك يا أخى ، لتعرف من هو الإسكندر : انظر فى كل مكان تر العروش تصير إلى رماد ، والشعوب تستعبد ، والملوك يصفدون بالأغلال ، وتجنب المصائب التى جرت كل ذلك .

تاكسيل : أتريدين أن تريني أمام هذا الخوف الدنىء ، أقدم رأسى للنير الذى يهددنا ، وأن أسمع من يقول لشعوب الهند إننى أنا الذى صنعت قيودى وقيودهم؟ هل أترك بوروس ؟ هل أخون هؤلاء الأمراء الذين اجتمعوا على الاهتمام بتحرير بلادنا ، أولئك الذين يعرفون كيف يعيشون ملوكاً ويموتون ملوكاً؟ دون أن يحول بينهم وبين المضى فى هدفهم النبيل أى تردد ؟ هل ترين من بينهم شخصاً واحداً ينهار لمجرد سماع اسم الإسكندر دون أن يحاول القيام بأى عمل ، ويهرول

إليه هرلة العبيد طالباً أن يعجل بتصفيده بالأغلال ؛
بعد أن استقر فى نفسه أنه أصبح سيد العالم ؟ إنهم يتقهقرون
أمام آيات مجده ، بل يهاجمونه حتى وهو فى أوج نصره .
وأنت يا أختاه ، أتريدين أن يذهب تاكسيل اليوم ، وهو
على أتم الاستعداد لمحاربته ، لكى يستجدى منه العون ؟

كليوفيل : ولذلك لا يقوم هذا الأمير إلا لك ، ولا يبغى إلا المسارعة لصداقتك أنت وحدك . وحينما تثور الصاعقة وتصبح على وشك الاندلاع ، ستراه يضطرنى إلى حمايتك من جحيمها .

تاكسيل : ولماذا كنت أنا الوحيد الذى يجنبنى غضبه ؟ وهل أنا وحدى ، من بين جميع الذين يوجههم نهر جيلان لتحدى شجاعته ، الذى استحققت هذا العطف الكريم ؟ ألا يستطيع أن يتقدم بصداقته لبورس ؟ آه ! لعله يعتقد أن نفسه أكرم من أن تصغى إلى مثل هذا العرض المشين : إنه يبحث عن مزية أقل إقداماً على مقاومته ، ولعله اعتقد أنى أولى باهتمامه .

كليوفيل : بل قل ، دون أن تتهمه بالبحث عن عبد له ، إنه يرى فيك أشجع أعدائه ، وإنه إذ ينتزع السلاح من يدك فإنه يضمن لنفسه الانتصار على الباقين . إن اختياره لك

لا يلقى على اسمك أى غبار ، وصداقته لم تكن قط من نصيب الجبناء . وهو إذا كان يتحرق لرؤية العالم أجمع خاضعاً لسلطانه ، فإنه لم يتح لأحد أن يرى عبداً يرقى إلى مصاف أصدقائه . آه ، وإذا كانت صداقته كفيلة بتاويث مجدك فلماذا لا تجنبنى شر هذه الوصمة السوداء ؟ إنك تعلم مقدار الاهتمام الذى يبديه نحوى على الدوام ، وليس فى مقدور أحد أن يعترض سبيله سواك . فأنت ترانى هنا عشيقة لروحه ، ومئات الرسائل السرية التى تصلنى منه تؤكد لى هيامه بى ، وأن تأوهاته الملتهبة لا تصل إلىّ إلا بعد أن يتفشى أمرها خلال المعسكرين المتعاديين . وبدلاً من أن تكرهه ، وأن تضطرنى إلى كراهيته رأيتك تشكو من شدة تحفظى نحوه . لقد حملتنى على أن أتحمل حبه لى ، بل ربما علىّ أن أحبه بدورى ، يا أخى .

تاكسيل : إن فى مقدورك دون أن تخجلى من سلطان سحرك ، أن تجبرى هذا المحارب الكبير على أن يسلم لك سلاحه . قد تمكن قاهر الفرات من أن يجعلك تلقين السلاح على غير شعور من قلبك . ولكن الدولة سوف تتبع اليوم مصيرى ، وإنى لأمسك بمصيرها معلقاً بمصيرى . ومهما تحاولين بنصائحك ، أن تثنينى عن عزمى فإنه يجب علىّ

أن أظل حراً حتى أقوم بتحريرها . إننى أعلم القلق الذى يجره عليك هذا المصير ولكنى أسير وراء حبى كما تسيرين وراء حبك ، يا أختى . إن عينى أكسيان الجميلتين ، عدوا السلام ، يعبئان كل سحرهما ضد هذا الإسكندر الذى تحبين . إن هذه الملكة التى تتربع على عرش جميع القلوب تعد كل سلاح من أجل تلك الحرية التى تحطمها مفاتنها . وهى ترى وجنتيها تحمران خجلا من رؤية الأغلال التى يبعثون بها هنا لأنها لا تستطيع أن تقبل طغياناً من غير عينيها . يجب ، يا أختاه ، أن أكون خادماً لغضبها العظيم ، يجب أن أذهب . . .

كليوفيل : إذن ! أسلم نفسك للضياع من أجل مرضاتها ، خذ بالقرار القاتل الذى أصدره هذان الطاغيان العزيزان . كن فى خدمتها ، أو على الأصح كن فى خدمة غريمك ، وارض له أن يتوج بنفسه أكاليل الغار التى تتوج هامتك . حارب من أجل بوروس ما دامت أكسيان تأمر بذلك . واجعل من أعمالك البطولية الرائعة ظهيراً لغضبه لكى تجعل من بوروس مملكة لقلبها .

تاكسيل : آه ! يا أختى ! أتظنين أن بوروس . . .

كليوفيل : ولكن هل تشك أنت نفسك فى أن أكسيان لا تحبه ؟

ماذا ! ألا ترى إلى أى حد يبلغ بها الحماس حين تشيد هذه الجاحدة بشجاعته، حتى أمامك ؟ وإذا صدقنا ما تقوله ، فإنه ، مهما يكن من شجاعة غيره ، فهو الذى يستحوذ وحده على النصر ، وبدونه تصبح كل خطط ترسمها عديمة الجدوى ، فإن حرية الهند كلها بين يديه . ولولاه لتحولت جدران بيوتنا الآن إلى رماد ، وهو وحده الذى يستطيع إيقاف تقدم الإسكندر . إنها تتخذ لنفسها من هذا الأمير الساحر إلهاً ، وأنت أما زلت تشك حتى الآن فى أنها تتخذ منه حبيباً ؟

تاكسيل : كنت أحاول أن أشك فى ذلك يا كليوفيل القاسية : يا للأسف! أيدى خطة تاكسيل ! لماذا تصورين له هذا الأمر البشع ؟ كان الأجدر بك أن تساعديه ، على أن يكذب عينيه . قولى له إن أكسيان ذات جمال متعال على الناس جميعاً كما هو متعال على أخيك . امنحيه بعض الأمل . . .

كليوفيل : احتفظ بآمالك فإنى أقرك عليها ، ولكن لا تعلق الكثير من تلك الآمال على جهودك القاصرة . ولماذا تحاول أن تحصل من خلال المعارك على نصر تطيب نفس الإسكندر بمنحك إياه ؟ لا ينبغى أن يكون الصراع على هذا النصر

موجهاً ضده . إن بورس هو العدو الذى تهفو نفسه إلى انتزاعه منك . فإن الشهرة الظالمة لا تشيد إلا باسمه ، كأنها تتناسى أسماء بقية رجال الجيش . ومهما يكن الجهد الذى تبذله ، فإنه هو وحده الذى ينتزع جميع الأضواء ، ويقودك كما يقود رعاياه إلى المعركة . آه ! إذا كان هذا اللقب ، لقب الرعية ، يروقك وإذا كنت تسعى إلى أن تكون إياه ، فإن الإغريق والفرس يدلونك على سيد . وسوف تجد مائة ملك مصفدين معك بالأغلال ، بل إن بوروس نفسه سوف يرد هذا المورد مع جميع من عداه . ولكن الإسكندر لا يعد لك أية أغلال ، بل سيترك على جبينك تلك العلامات العظيمة التى يجرؤ غريمك هنا على احتقارها . إن بوروس يضعك فى خدمته ، أما هو فسيجعلك ملكاً ؛ وبدلاً من أن تكون ضحية لبوروس فإنك ستكون .. . ولكن ها هوذا غريمك العظيم .

تاكسيل : آه يا أختاه ! إننى مضطرب ، إن قلبى يحدثنى حين يرى هذا الغريم ، بأنها تحبه .

كليونيل : إن الوقت يحثك إلى الإسراع ، وداعاً . ولك أنت أن تختار ، فإما أن تصبح عبداً لبوروس أو صديقاً للإسكندر ،

* * *

المشهد الثانى

بوروس– تاكسيل

بوروس : سيدى ، إما أن أكون مخطئاً ، وإما أن يكون أعداؤنا المغرورون يتقدمون بأقل مما كانوا قد منوا أنفسهم به . إن قوادنا وجنودنا يتحرقون حماساً وتبدو على جباههم ثقتهم القوية فى أنفسهم . إنهم يشجعون بعضهم بعضاً ، وأقل محاربينا شأناً يمنون أنفسهم منذ الآن بحصاد أكاليل الغار . وقد رأيت من الصيحات الكريمة التى أطلقوها لدى رؤيتهم لى ، أن تلك الحمية تنتشر من صف إلى صف . وهم يشكون من تعطلهم فى معسكرهم ، ذلك التعطل الذى يقضى على قوتهم بدلاً من أن يضعوا شجاعتهم الكبيرة موضع التجربة . فهل نترك هذه الشجاعة العظيمة تحت رحمة طول الانتظار ؟ إن عدونا ، يا سيدى ، يتحسس الظروف الملائمة له ، ويشعر أنه ما زال ضعيفاً . ولكى يبقينا أفستيون حيث نحن نراه يطلب إجراء محادثات معنا ، ويطلب ذلك بعبارات لا جدوى منها . . .

تاكسيل : سيدى ! يجب أن نستمع إليه . فإننا نجهل حتى الآن

ما يريده الإسكندر ، وربما كان السلام هو ما يريد عرضه علينا .

بوروس : السلام ! أوه ! وهل تستطيع أن تقبله من يده ؟ ماذا ! إننا كنا سنراه يعكر ، بحروبه المروعة ، صفو الهدوء الجميل الذى كانت تنعم به أراضينا ، ويدخل بلادنا والحديد فى يده ليهاجم ملوكاً لم يوجهوا له أية إهانة . كنا سنراه ينهب مقاطعات بأسرها ويصبغ أنهارنا بدماء رعايانا . والآن وقد استعدت السماء لكيى تتخلى لنا عنه ، أأسمع القول بأن الطاغية قد تنازل وصفح عنا ؟

تاكسيل : لا تقل أبداً ياسيدى إن السماء قد تخلت عنه فإن عنايتها ما زالت تحوطه حتى الآن كما كانت تحوطه من قبل . إن ملكاً يجعل كل تلك البلاد ترتعد تحت إمرته ليس بالعدو الذى تستهين به الملوك .

بوروس : إننى أبعد ما أكون عن الاستهانة به ، بل أعجب بشجاعته وأمنحها كل ما تستحق من إجلال . ولكنى أريد بدورى أن أكون جديراً بالديون التى أرانى مضطراً لتقديمها قرباناً لمزاياه . نعم إننى أوافق على رفع الإسكندر إلى عنان السماء ، ولكن لو استطعت ، يا سيدى ، لأسقطته

منها . وسأذهب لقتاله حتى بين المعابد التي يقيمها له سائر الناس وهم يرتعدون . على هذا النحو حكم الإسكندر على جميع هؤلاء الأمراء الذين غزا بلادهم بشجاعته . وهل كان فى وسع دارا أن يعتبر ملكاً له ، وهو على فراش الموت ، لولا الهلع الذى أثارته فى آسيا شجاعته ؟

تاكسيل : لو كان دارا ، ياسيدى ، قد عرف قدر نفسه ، لظل يحكم حتى الآن هناك حيث يحكم سيد آخر . ومع ذلك فإن هذا المغرور الذى تسبب فى موته كان يقوم على أساس لم يهتد إليه بعدُ احتقارك . فإن شجاعة الإسكندر لم تكن قد عرفت بعد ، إذ كانت تلك الصاعقة لا تزال محجبة بالسحب . وكان دارا ، فى سباته الهادئ العميق ، يجهل حتى اسم ذلك العدو الضعيف . ثم ما لبث أن عرفه ؛ وفى غمار دهشته من كل تلك القوة ، جنحت نفسه إلى الاستسلام . لقد رأى ذراعاً قوية تلقيه أرضاً ، واستطاعت الصاعقة وهى تنقض عليه أن تفتح عينيه .

بوروس : ولكن بأى ثمن تعتقد أن الإسكندر يستطيع إقرار السلام المشين الذى يريد أن يفاجئنا به ؟ سل عنه يا سيدى مائة شعب مختلفة ألقى بها ذلك السلام فى الأصفاد . لا ! لن نخدع أنفسنا ! إن لطفه ورقته يحملان إهانة لنا ، وصداقته

تجر وراءها دائماً العبودية الطويلة . وعبثاً يدعى الناس أنهم لا يطيعون إلا نصف طاعة ، فإن المرء إذا لم يكن عبداً له ، كان عدوًّا له .

تاكسيل : سيدى ، يستطيع المرء دون أن يكون جباناً أو متهوراً ، أن يرضيه ببعض الاحترام الذى لا قيمة له . فلنتملق هذا الأمير الطموح بالاحترام الذى تدعوه فورة غروره إلى أماكن أخرى . إنه سيل عابر يفرض اندفاعه سلطانه على كل ما يعترض طريقه ؛ وهو وقد تغذى ببقايا مائة شعب مختلفة يريد أن يملأ العالم أجمع بضوضاء جريانه . ما جدوى إثارته بغرور أحمق ؟ لنحى مروره بنا بلقاء طيب ، وبتنازلنا عن حقوق لن نلبث أن نستردها بعد أن نؤدى له بعض الواجبات التى لا تكلفنا شيئاً .

بوروس : لا تكلفنا شيئاً ياسيدى ؟ أتجرؤ على الاعتقاد فى ذلك ؟ وهل ترانى أعد ضياع مجدى أمراً تافهاً ؟ إننا نشترى إمبراطوريتك وإمبراطوريتى بثمن باهظ لو كان ذلك الثمن أقل قدر ممكن من الجبن من جانب بوروس . ولكن أتظن أن أميراً مفعماً بكل تلك الجرأة لن يترك مروره أثراً لدينا ؟ كم من ملوك تحطموا على تلك الصخرة المشئومة فلم يعودوا يحكمون إلا بالطريقة التى تحلو لغروره ! إن

تيجاننا سوف تصبح أولاً ، ملكاً له بحق الغزو ، وسوف تتأرجح فوق رءوسنا طيلة حكمنا ، وأن صوالجتنا سوف تصبح تحت رحمته أو ازدرائه ، ولن يتلفظ بكلمة حتى تسقط من بين أيدينا . لا تقل أبداً إنه يتنقل من بلد إلى آخر ، فإنه لم يفك قط أغلال أمير وقع في قيوده . ولكي يزداد تمكنه من استعباد الشعوب وإمساكها تحت سطوته فإنه في غالب الأحيان يبحث لهم عن ملوك قد تمرغوا في التراب[1] . ولكن هذه الأمور غير اللائقة لا تكترث لها شجاعتي . إن مصلحتك وحدها هي التي أوحت إليّ بهذا الحديث ، أما بوروس فلا هدف له فيه . فحيثما يتحدث المجد يصم بوروس أذنيه عن سماع أي شيء آخر .

تاكسيل : إنني أستمع مثلك إلى ما يوحي إليّ به الشرف يا سيدي . ولكن الشرف يلزمني بصيانة إمبراطوريتي .

بوروس : إذا كنت تريد اليوم إنقاذ كلا الأمرين فلننذر الإسكندر ولنسر لقتاله .

تاكسيل : إن الجرأة والازدراء مرشدان ينقصهما الإخلاص .

---

(١) إشارة إلى « أبد الوتيم » ، وكان رجلا فقيراً يتكسب من عمله كبستاني وقد أجلسه الإسكندر على عرش صور . والحقيقة أن ملوك صور كانوا أجداده البعيدين .

بوروس : إن العار يتبع الجرأة المترددة .

تاكسيل : إن الشعب يحب الملوك الذين يعرفون كيف يذودون عنه .

بوروس : ويزداد تقديره للذين يعرفون كيف يحكمون .

تاكسيل : إن تلك النصائح لا تروق إلا للنفوس المتعجرفة .

بوروس : إنها تروق لبعض الملوك وربما بعض الملكات .

تاكسيل : إن من يسمعك يظن أن الملكة لا توجه أنظارها إلا إليك .

بوروس : إن العبد بالنسبة لها شيء يثير غضبها .

تاكسيل : ولكن أتظن يا سيدى أن الحب يأمرك بأن تعرض معك للخطر شعبها وشخصها ؟ لا ، لا ، ودون أن أتملقك أعترف أنك فى هذا اليوم تسير وراء كرهك ، لا وراء حبك .

بوروس : حسن ! سأعترف لك بذلك ، سأعترف بأن غضبى الحق يحببنى فى الحرب ، بقدر ما تحب أنت السلم . سأعترف بأننى أتقدم لقتال الإسكندر لأجرب شجاعتى ، تدفعنى فى ذلك حمية نبيلة . وإن نفسى التى تؤرقها أنباء انتصاراته تترقب منذ وقت طويل هذا اليوم السعيد . وقبل أن يسعى إلىّ ، كانت الكبرياء القلقة قد حولتنى إلى عدو خفى وسط مشاعر هذه الغيرة النبيلة ، كنت أراه بطيئاً شديد البطء فى عبوره آسيا ، وكنت أجذبه إلى هنا بأمان بلغ

من قوتها أن جعلتنى أغار من سعادة الفرس . والآن أيضاً لو خيب آمال شجاعتى وحاول العثور على ممر يغادر منه هذه الأماكن لوجدتنى أسعى أنا نفسى حاملا سلاحى لإيقافه ، وأرفض السلام الذى يريد عرضه علينا .

تاكسيل : نعم ، إن حمية على هذه الدرجة من العلو والثبات تمهد لك بلا ريب مكاناً متألقاً فى التاريخ . وحتى لو سقطت من جراء هذه الخطة العظيمة كان لسقوطك دوى لدى الناس . إن الملكة قادمة . وداعاً . بالغ لها فى إطراء شجاعتك واكشف لها عن هذه الكبرياء التى تجعلك جديراً بها . أما أنا فقد أعكر صفو هذا الحديث النبيل وقد يحمر قلبا كما خجلا مما فى قلبى من ضعف .

* * *

المشهد الثالث

بوروس – أكسيان

أكسيان : ماذا ! تاكسيل يهرب منى ؟ أى سبب مجهول . . .

بوروس : إنه يحسن صنعاً حين يتوارى عنك خجلا ، وإذا كان لم يعد يجرؤ على تعريض نفسه للأخطار ، فبأى وجه يستطيع أن يتحمل نظراتك ؟ ولكن لنتركه وشأنه يا سيدتى ،

وبما أنه يريد أن يستسلم فليذهب مع أخته ويعبدا الإسكندر لننسحب من معسكر نرى فيه تاكسيل الوفيّ في انتظار سيده العظيم والبخور في يده .

أكسيان : ولكن يا سيدى ، ماذا يقول هو ؟

بوروس : إنه يظهر الكثير . إن هذا العبد قد بلغت به الجرأة فأخذ يمتدح لى سيده . ويريد منى أن أكون فى خدمته . .

أكسيان : آه ! دون أن تغضب ، اسمح لجهودى أن تحاول إيقافه . إنّ تنهداته تؤكد لى ، رغماً منى ، أنه يحبنى إلى حد العبادة . ومهما يكن من أمر فلتسمح لى بأن أتحدث إليه ، وألا نضطره إطلاقاً بهذا الاحتقار القاسى من جانبنا إلى أن يتم خطة كان من الممكن ألا يتخذها .

بوروس : ماذا ! أتشكين فى ذلك ؟ أتثق نفسك فى حبيب خائن وحانث بوعده يريد اليوم أن يسلمك إلى طاغيته ويظن ، وهو يدفع بك إليه ، أنه سوف يحصل عليك منه ؟ حسن ! ساعديه إذن أنت بنفسك على أن يخونك ! إنه يستطيع أن ينتزعك من حبى الكبير ، ولكنه لا يستطيع أن ينتزع منى ، بجهوده الحقودة ، مجد القتال والموت فى سبيلك .

أكسيان : أتظن أنى بعد هذه القحة أوليه يا سيدى صداقتى ،

جزاء له ؟ أتظن أن قلبي سيضع نفسه تحت إمرته وأنني سوف أساهم في المنحة التي سيتلقاها منهم ، وهي أنا ؟ أتستطيع دون أن تحمرّ وجنتاك خجلا أن تتهمني بمثل هذه الجريمة ؟ وهل رأيتني أنا أظهر لهذا الأمير الكثير من التقدير ؟ أو لست أعرف أن تاكسيل هو نفس غير ثابتة ، وأن الحب لا يمسك به إلا حينما يتجاذبه الخوف؟ أو لست أعرف أنه لولاى لخارت شجاعته الضعيفة بعد حين قصير أمام دسائس أخته ؟ إنك تعرف أن الإسكندر قد جعل منها أسيرته ، وأن تلك الأخت قد التفت أخيراً حول أخيها . ولكني عرفت من توّى أنها قد حاولت الإمساك به في الفخ الذى وقع قلبها فيه .

بوروس : وما زلت تستطيعين أن تعيشي معها ؟ لماذا لا تتركين هذه الأخت المجرمة ؟ ولماذا تحاولين بكل هذا الاهتمام الإبقاء على أمير . . .

أكسيان : إنني أريد أن أكسبه من أجلك . وهل تظنني أحتمل أن أراك مثقلاً بأمور بلادنا ، تقاتل بمفردك قاهر كل هذا العدد من الأمراء ؟ إنني أريد أن أمنحك في شخص تاكسيل مدافعاً يحارب الإسكندر برغم أنف أخته . لماذا لا تشعر أنت نحوى بهذه المشاعر الحارة ؟ إن نفسك

لا تتأثر إلا قليلا بهذا الجهد الذى يهمنا جميعاً . كم أتمنى أن يموت هذا القلب الكبير ميتة نبيلة ، أمّا ما يتلو موته فلن يكون ذا بال بالنسبة له . إنك تريد أن تسلمنى دون عون ولا موئل لغضب الإسكندر ولحب تاكسيل الذى لن يلبث أن يعاملنى على أنه فاتح كبير ، ويطلب قلبى ثمناً لموتك . حسن يا سيدى ! اذهب وأشبع رغبتك . حارب وانس الاهتمام بشئون حياتك . انس أن السماء ، وهى تبارك أمانيك ، ربما كانت تعد لك مصيراً لا يخلو من السعادة ، وربما كانت أكسيان وقد فقدت سحرها ... ولكن لا يا سيدى ، سارع إلى جيشك فإن حديثاً طويلا كهذا جدير بأن يجعل السأم يتسرب إليك ، فقد احتجزتك وقتاً طويلا فى هذا المكان .

بوروس : آه يا سيدتى ! قفى وتأكدى من حبى ، تحكمى فى أيامى وتصرفى فى نفسى . إن للمجد تأثيراً كبيراً على تلك النفس وهذا ما لا أستطيع كتمانه . ولكن يالتأثير ذلك السحر القدسى علىّ ! لن أقول لك إن جنودك وجنودى كانت ستحاول المستحيل من أجل هزيمة الإسكندر ، وأن انتصار بوروس بمفرده أمام عينى غريمه كان بالنسبة له سعادة لا مثيل لها . لن أقول لك شيئاً بعد الآن .

تكلمي كملكة فإن قلبي يضع تحت قدميك مجده وكرهه .

اكسيان : لاتخش شيئاً . إن هذا القلب الذى يحلو له أن يطيعنى لم يقع بين يدين تستطيعان خيانته . لا ، أنا لا أزعم احتجاز بطل يجرى إلى المجد غيرة من مجده . حث خطاك ضد هذا العدو المغرور ؛ ولكن لا تنفصل عن حلفائك . يجب أن تسوسهم يا سيدى . وبنفس مطمئنة ، دعنى أمارس تأثيرى على عقل تاكسيل . وأظهر أنت نحوه مشاعر أكثر رقة ، وسوف ترانى ألزمه بالقتال من أجلك .

بوروس : حسن يا سيدتى ، هيا فإنى أوافق على ذلك بسرور ؛ ولنلق أفستيون ما دام علينا أن نلقاه ، ولكن دون أن أفقد الأمل فى متابعته عن كثب . إنى أنتظر أفستيون ، ثم من بعده المعركة .

الفصل الثانى

المشهد الأول

كليوفيل – إفستيون

إفستيون : نعم ، فى هذه اللحظة وملوككم يتشاورون فيما بينهم وكل شيء يعد للمجلس الذى على وشك الاجتماع ، اسمحى لى يا سيدتى أن أحدثك أيضاً عن الأسباب الخفية التى قادتنى إلى هنا . لما كنت كاتم السر الأمين لغرام سيدى ؛ اسمحى لى أن أفسر ذلك الحب أمام هاتين العينين اللتين ولدتاه ؛ وأن أطلب منك لهذا البطل راحة النفس التى يرغب فى منحها لملوككم . وبعد كل هذه التأوهات ماذا فى وسعه أن يأمل ؟ هل تواصلين الانتظار بعد اعتراف أخيك بهذا الحب ؟ أتريدين لقلبه ، وهو غارق فى اضطرابه وحيرته ، ألا يسلم نفسه أبداً دون أن يخشى الرفض ؟ أتريدينه أن يضع تحت قدميك بقية العالم ؟ أن يمنحكم السلام ؟ أن يشن الحرب ؟ قررى : فإن الإسكندر على استعداد للتقدم إما لكى يكون أهلاً لك أو ليستولى عليك .

كليوفيل : هل لى أن أعتقد أن أميراً كهذا فى أوج مجده ما زال

يحتفظ بذكرى سحرى المتواضع ، وأنه وهو يجر وراءه النصر والرعب ، ينحدر إلى درجة التنهد من أجلى ؟ إن هناك أسرى حب مثله ما لبثوا أن حطموا أغلالهم ، ودفعهم المجد إلى خطط أسمى . أما الحب الذى كان قد استقر فى قلوبهم ، فقد قامت العراقيل فى طريقه وأصابه الاضطراب وسقط تحت ثقل أكاليل الغار . وإذا كان هذا البطل يطوينى تحت أمره فقد استطعت أن أمس قلبه مساً خفيفاً . وأظن يا سيدى أنى إذا كنت قد حطمت قيودى ، فإن الإسكندر لن يلبث بدوره أن يحطم قيوده .

إفستيون : آه ! لو كنت قد رأيته وهو يتحرق من القلق بعد الأيام الحزينة التى انقضت فى هذا الغياب الطويل ، لعرفت أن الحب هو الذى يزجه قدميه ، وأنه لم يكن يسعى إلا إليك وهو يعدو إلى المعارك . من أجلك شاهدناه يقهر كل هؤلاء الأمراء ويخترق بلادك مندفعاً بقوة وعنف ، ويحطم لدى عبوره ، تحت قوة ضرباته ، كل ما كان يعترض طريقه للوصول إليك . وها نحن الآن نرى فى نفس الأرض أعلامك بجوار أعلامنا ، ومن مواقعه الدفاعية يستطيع المرء أن يكتشف مواقعك . إلا أن هذا الفاتح الخجول يخشى ، بعد كل هذه الانتصارات ، أن يكون ما زال بعيداً عن

قلبك : ماذا يفيده الجرى من بلد إلى آخر إذا كان محتوماً أن تغلق فى وجهه السبيل إلى قلبك ؟ وإذا كنت تحاولين كل يوم الشك فى حبه حتى لا تستجيبى لتمنياته الصادقة ، وإذا كان عقلك وقد تسلح بآلاف الشكوك . . .

كليوفيل : واأسفاه ! إن مثل هذه الشكوك ليست إلا دفاعاً ضعيفاً . وإن قلوبنا ، إذ تخلق لنفسها آلافاً من المشاكل التى لا أهمية لها ، تشك دائماً فى السعادة التى تتمناها أكثر من أى شىء آخر . نعم ، إذا كان هذا البطل يريد منى أن أفتح قلبى فإنى سأنصت بسرور إلى قصة حبه . لقد كنت أخشى أن يكون الزمن قد أوقف سير ذلك الحب . كم أتمنى أن يحبنى وأن يظل مقيماً دائماً على حبى ، بل أقول أكثر من ذلك : لما اخترقت ذراعه حدودنا واقتادتنى أسيرة وراء جدران أومفيس ، كان قلبى يراه وهو ينظر إلى سيد العالم يعزى نفسه منذ ذلك الحين بالعذاب الطويل فى أغلاله . وأعترف أنى بدلاً من أن أنبس بالشكوى من هذا المصير القاسى فقد جعلت منه عادة لطيفة . ولقد كان هذا القلب الذى فقد حريته ، يخشى وهو يطلبها أن يناها . لك أن تحكم إذن إلى أى حد تغمرنى عودته بالفرح . ولكن هل يرغب فى أن أراه وهو لا يزال ملطخاً بالدم ؟ وهل هو

يتقدم منى فى ثياب عدو ؟ وهل هو لا يسعى إلىّ إلا ليعذبنى ؟

إفستيون : لا يا سيدتى : إنه وقد هزمه سلطان سحرك قد أوقف اليوم الرعب الذى يسببه سلاحه . إنه يعرض السلام على ملوك أصابهم العمى ويسحب اليد التى كان فى إمكانها أن تحطمهم . وهو يخشى أن ينتهى النصر الذى يستجيب لأمانيه فى سهولة ويسر بتوجيه ضرباته إلى قلب تاكسيل . ولا تريد شجاعته فى حساسيتها أمام آلامك الحقة ، أن يستحوذ على أكاليل غار تسقيها دموعك . كونى إذن حليفة ذلك الاهتمام الذى يدفعه إليه حبه . ووفرى على شجاعته كسباً حزيناً مثل هذا ، وأعدى نفوس الملوك الذين يرحمهم غضبه لقبول هذا الخير الذى لا يدينون به إلا لك وحدك .

كليوفيل : ينبغى ألا يساورك فى ذلك أى شك يا سيدى : إن نفسى وقد أقلقها ذلك الخوف الحق ما تزال مضطربة . إننى أرتعد من أجل أخى وأخشى أن يلطخ موته ذراع العدو العزيز بالدم . وليس فى مقدورى أن أعترض سبيل الحمية التى تلهبه ، فإن أكسيان وبوروس يسلمان نفسيهما لطغيان عذابهما ، وإنى لا أكاد أشرع فى الكلام حتى يحول بينى وبينه سحر تلك الملكة والحرص على احتذاء مثال هذا

الملك . فكيف أستطيع الاطمئنان وسط هذا الاضطراب الذى لا نهاية له ؟ إننى أخاف عليه بل أخاف حتى على الإسكندر نفسه ؛ مع أنى أعلم أن مائة ملك قد فنوا وهم يحاولون مهاجمته ، وأعرف جميع انتصاراته ؛ ولكنى أعرف أيضاً بوروس . إن شعوبنا التى رأيناها تعدو منتصرة خلفه ، وتصد الفرس وقوم يأجوج ومأجوج وتزهو بالمجد الذى قادها إليه سوف تنتصر مثله أو تموت أخذاً بالثأر . وأخشى . . .

إفستيون : آه ! دعى هذا الخوف الذى لا طائل وراءه ، دعى بوروس يجر إلى حيث يجرّه شقاؤه ، ولتسلح الهند كل دولها من أجله ؛ وليبتعد تاكسيل وحده ! ولكن ها هم أولاء قادمون .

كليوفيل : أتمم عملك يا سيدى ، وبدد هذه العاصفة بنصائحك الحكيمة . وإذا كان لابد للعاصفة أن تهب فتذكر على الأقل ، أن تدعها تسقط على آخرين غيرنا .

* * *

المشهد الثانى

بوروس – تاكسيل – إفستيون

إفستيون : قبل أن تنتهى المعركة التى تهدد رءوسكم إلى وضع بلادكم فى قائمة فتوحنا يود الإسكندر أن يؤجل انتصاراته اعتزازاً بالأمل الذى يحدوكم ، أن فى قدرتها صد قاهر الفرات . ولكن ها هوذا « نهر جيلان » برغم كل كتائبكم المنتشرة يشهد أخيراً على ضفتيه أعلامنا ترفرف حتى على خنادقكم . وكان من الممكن أن تروا حقولكم مغطاة بالدم والموتى لو لم يعمد هذا البطل ، الذى تغطيه أكاليل غار أخرى كثيرة ، إلى أن يوقف هو نفسه حمية محاربينا . إنه لم يأت إلى هنا ملوثاً بدماء الأمراء ليثير الرعب فى بلادكم بنصر بربرى ، ولا لكى يشيد عظمته على قبور الملوك سعياً منه نحو بريق حزين . ولكن عليكم أنتم ، وقد خدعكم أمل كاذب فى النصر ، أن تجتهدوا فى ألا تثيروا فيه حب النصر الكامن بين ساعديه . وإذا كان غضبه قد ظل معلقاً ، فلتكتفوا أيها الأمراء بأن كنتم فى انتظاره . لا تؤجلوا مطلقاً تقديم الولاء إليه ، ذلك الولاء الذى تقدمه قلوبكم بالرغم منكم لشجاعته . وإنكم إذ تقبلون السند الذى يمنحه لكم

ساعده ، فإنكم تشرفون بلادكم بمثل هذا المدافع العظيم .
ذلك ما أراد هذا الملك الكبير أن يدلى به إليكم ، وهو على استعداد لإلقاء السلاح أو حمله من جديد . هذه هى خطته : ولكم أن تختاروا اليوم فإما أن تخسروا كل شيء أو تحصلوا منه على كل شيء .

تاكسيل : لا تظن قط يا سيدى أن الغرور الوحشى يجعلنا ننكر هذه الشجاعة النادرة ، أو أن شعوبنا الغارقة فى غرورها تدعى ، أن تكون عدواً لكم بالرغم منكم . إننا نقدر الأمثلة الرائعة حق قدرها . وإنكم لتعبدون أصناماً تدين لنا بمعابدها . أما أولئك الأبطال الذين كنتم تعدونهم أناساً عاديين ، فقد أقمنا لهم المذابح[1] فى الهياكل . ولكن من العبث أن يرى المرء فى شعوب على هذه الدرجة من الشجاعة خلق العبيد لا خلق العابدين . وصدقنى أنه مهما يكن البريق الذى قد يتأثرون به فإنهم يرفضون البخور الذى يراد انتزاعه منهم. إن بلاداً أخرى مما أصبحت من فتوحاتكم قد شاهدت رءوس ملوكها تنحنى تحت نيركم. وبعد كل هذه الدول التى أخضعها الإسكندر ، ألم يحن الوقت ، يا سيدى،

(١) إشارة إلى أسطورة سفر باخوس إله النبيذ إلى الهند .

ليبحث له عن أصدقاء ؟ إن هذا الشعب الأسير كله ، الذى يرتعد لدى ذكر اسم السيد ، لا يمكن الاعتماد على إخلاصه فى رعاية هذا السلطان الوليد . إن عيون ذلك الشعب مفتوحة دائماً نحو التحرر ، وأصبحت إمبراطوريتكم تموج بالأعداء . إنهم فى السر يبكون ملوكهم وقد أصبحوا بلا تيجان . إن أغلالكم التى طال امتدادها ، تتراخى الآن من تلقاء نفسها . أما يأجوج ومأجوج الذين امتلأت قلوبهم غلاً ، فسوف يفلتون من القيود التى تعدونها لها . جربوا وأنتم تتخذون من صداقتنا ضماناً : ماذا يستطيع أن يفعله عهد ، لم يعضده قسم ، قطعناه على أنفسنا . اتركوا على الأقل هذا الشعب الذى قد يصفق أحياناً بمحض اختياره لأخبار انتصاراتكم . إننى بهذا الثمن أقبل صداقة الإسكندر وأنتظره منذ الآن كما ينبغى أن ينتظر ملك بطل يرافق النصر خطواته ، ملك يستطيع سلطانه أن يستولى على قلبى ، وليس على بلادى .

بوروس : كنت أعتقد أن نهر جيلان وقد جمع مقاطعاته وجعل أمراءها يطيرون لنجدة ضفته لم يبعث إلىّ لتنفيذ تلك الخطط الكبيرة إلا ملوكاً أعداء للطغاة . ولكن لما كان هناك ملك يتملق اليد التى تمتد لتهديده ، ويحتلّ مكاناً

غير كريم بين حلفائه ، فإن عليّ أن أستجيب لأمانى بلادى وأن أتكلم من أجل هؤلاء الذين خانهم تاكسيل . عم يبحث هنا الملك الذى أرسلك ؟ وما هى هذه الحماية الكبيرة التى يمنحها لنا ساعده ؟ وبأى وجه يجرؤ على أن يأخذ تحت حمايته شعوباً ليس لها من عدو غيره ؟ قبل أن يجتاح غضبه المسعور العالم بأسره ، كانت الهند تنعم بسلام عميق . وإذا كان بعض جيرانها يعكرون متعة السلام ، فقد كان من أبنائها مدافعون لا بأس بهم . لماذا يهاجمنا ؟ وبأى عمل وحشى أثرنا غضب سيدك ؟ وهل شاهد أحد شعوبنا تذهب إليه لتلحق الأذى ببلد مجهول لنا ؟ وهل لابدّ من أن تصبح كل هذه البلاد والصحارى والأنهار حواجز عاجزة للحيلولة بيننا وبينه ؟ ألا نستطيع الحياة فى أقصى الأرض دون أن نعرف اسمه أو نشعر بثقل أغلاله؟ وأية شجاعة غريبة تلك التى لا تسعى إلا إلى الأذى وتحرق كل شىء بمجرد أن يمسه بريقها ، شجاعة ليس لها من قاعدة ولا مبرر إلا غرورها ، شجاعة لا تريد من العالم إلا أن يتحول إلى سجن ولا تتطلب من صاحبها ، وقد أصبح سيد العالم ، إلا أن يكون عدد عبيده فى مثل عدد الناس جميعاً ! لم يعد ثمة دول ولا ملوك : إن يديه الدنستين

تضعان الناس جميعاً تحت نير واحد . إنى أعلم أنه يفترسنا فى غروره الجشع : إننا وحدنا الذين ما زلنا نحكم من بين كثير من الملوك . ولكن ماذا أقول ! نحن وحدنا ؟ ولم يبق إلا شخصى الذى ما زلت تجد منه آثار ملك . ولكن تلك فرصة عظيمة أمام شجاعتى . إننى أرى بعين راضية العالم كله يرتعد ، وقد هببت وحدى لنجدة بنى البشر : حتى إذا قدر للعالم أن يظلّ حرًّا كان الفضل فى حريته ليد بوروس وحتى يردد الناس فى كل مكان وسط السلام العميق : « إن الإسكندر الفاتح كان سيقهر العالم بأسره لولا أن ملكاً كان ينتظره فى أقصى الأرض فحطم الأغلال التى كبل بها العالم كله » .

إفستيون : إن مشروعك يدلنا ، على الأقل ، على شجاعة كبيرة ، ولكن لقد فات يا سيدى وقت مجابهة العاصفة . وإذا كان العالم المنهار لم يعد له سوى هذا السند فإنى أرثى له ، وأرثى لك أيضاً بقدر ما أرثى له . إننى لا أستبقيك أكثر من ذلك : تقدم ضد سيدى ، ولكنى كنت أود فقط لو أن أحداً كان قد عرّفك به . ولو كانت الشهرة ، قد منحتك ولو بدافع العطف ، نصف ما حصل عليه من انتصارات.. وسوف ترى .

بوروس : ماذا تظن أنى سأرى ، وماذا يمكننى أن أعرف من شخص يضعنى فى مكان أدنى من مكان الإسكندر ؟ هل قهر الفرس دون جهد ؟ وهل لم تتعب سواعدكم مرات عديدة من القتل ؟ أى مجد تجدونه فى قهر ملك ضعيف كان ضعفه قد سبق هزيمته ، وفى قهر شعب بلا قوة ، بل يكاد يكون بلا روح ، كان يئن تحت الذهب الذى كان مسلحاً به ، وبدلاً من أن يدافع عن نفسه سقط جماعات ولم يعترض شجاعة الإسكندر العظيمة إلا بالأموات؟ أما الآخرون فقد بهرت أبصارهم أقل انتصاراته شأناً ، فركعوا على ركبهم ، ووضعوا أنفسهم تحت إمرته. وقد استمعوا فى خوفهم إلى نبوءات لست أدرى كنهها ولم يصدقوا أن أى كائن ، ولو كان إلهاً ، قد يجد العوائق فى طريقه .أما نحن فنحكم على الفاتحين بعين أخرى ، ونعرف أن الآلهة ليست طغاة . ومهما أطلق على ابن جوبيتر من أسماء فإننا نحن نعتبره هنا إنساناً . إننا لن نفرش طريقه بالزهور بل سوف يجدنا فى كل مكان شاهرى السلاح فى وجهه . وسوف يشهد غزواته تتوقف فى كل خطوة ، وأن صخرة واحدة هنا ستكلفه من الرءوس ، ومن الجهد ، ومن الحصار ، ومن الوقت أكثر مما كلفته إمبراطورية الفرس . إننا أعداء للدعة التى

كانت السبب فى ضياع هؤلاء الجبناء ، وإن الذهب الذى يوجد تحت أقدامنا لا يفسد قط نفوسنا . إن المجد هو الخير الوحيد الذى يمكن أن يغرينا وهو الخير الوحيد الذى يسعى قلبي إلى انتزاعه منه . إنه هو . . .

افستيون (ناهضاً) : وهذا هو أيضاً ما يسعى إليه الإسكندر ، ولا يمكن أن ينحدر قلبه إلى ما هو أقل من ذلك . إنه هو الذى انتزعه من قلب بلاده وقاد قدميه إلى عرش «قورش» وهو الذى جعله يهاجم ويغزو ويقدم التيجان وهو يهز أعمدة أقوى إمبراطورية. وإذا كانت كبرياؤك تجرؤ على أن تنتزع منه عظمة العفو الذى يعرضه عليكم ، فإن عينيك اللتين ستكونان منذ اليوم شاهدتين على انتصاره ستريانه بأى حمية يحارب من أجل المجد ،ولن تلبثا أن ترياه يسير وفى يده السلام .

بوروس : هيا إذن : إننى فى انتظار قدومه أو سأسعى أنا إليه .

* * *

المشهد الثالث

بوروس – تاكسيل

تاكسيل : ماذا ! أتريد بما جبلت عليه من قلة الصبر . . .

بوروس : لا ، إنى لا أزعم إطلاقاً الاعتراض على تحالفك معه .

إن إفستيون ، وقد انتفض غضباً ضدى أنا وحدى ، سوف
يخبر سيده بخضوعك . أما قوّات أكسيان فقد اتفقت
على أن تتبعنى وها هى ذى تنتظر المعركة تحت رايتى
إننى سأحمى إشعاع عرشى وعرشها وستكون أنت
يا سيدى ، حكم المعركة ، إلا إذا انضم قلبك وقد ألهبته
حمية جميلة إلى صفوف أصدقائك الجدد .

* * *

المشهد الرابع

أكسيان – بوروس – تاكسيل

أكسيان (لتاكسيل) : آه ! ماذا يقولون عنك يا سيدى ؟ إن أعداءنا
يزعمون أن تاكسيل قد خضع لهم نصف خضوع ، وأنه لن
يحارب أبداً ضد ملك يحترمه .

تاكسيل : إن ثقة العدو يجب أن تكون محل شبهة بعض الشىء
يا سيدتى ، وسوف تتوثق معرفتهم بى مع مرور الزمن

أكسيان : كذب إذن يا سيدى تلك الإشاعة المهينة وأخجل قحة
من نشروها ، واذهب مثل بوروس وأجبرهم على الصمت
وأشعرهم بفضل غضبك العادل ، بأن ليس لهم من عدو
أشد منك بأساً .

تاكسيل : سأذهب لأعد جيشي يا سيدتي ، ولا تصغي إلى هذه الإشاعة التي ارتاعت لها نفسك . إن بوروس يؤدي واجبه وسوف أؤدي أنا أيضاً واجبي .

* * *

المشهد الخامس

أكسيان – بوروس

أكسيان : إن هذا البرود الكئيب لا يعني مع ذلك شيئاً بالنسبة لي أيها الجبان . ولن يستطيع إقناعي بأن هذا هو موقف ملك يسعى إلى المجد . لم يعد ثمة مجال للشك في أنه قد خاننا ، وأنه يقتل مجده وبلده في سبيل أخته . وأن كراهيته لك يا سيدي التي تسعى إلى تحطيمك تنتظر ذهابنا إلى المعركة لكي تستشري .

بوروس : إنني يا سيدتي لن أفقد بفقده إلا سنداً ضعيفاً . إن معرفتي الوثيقة به تجعلني لا أثق فيه ، إن عيني قد شاهدتا عدم ثباته دون أدنى اضطراب ، وقد كنت أخشى مقاومته الضعيفة أكثر مما بدا منه . إن الخائن ، إذ يتركنا إرضاء لأخته يضعفنا أقل بكثير من أن يبقى معنا مدافعاً جباناً .

أكسيان : ومع ذلك يا سيدي ماذا تنوي عمله ؟ إنك تسير دون أن تحسب حساباً لقوة الإسكندر ، وحينما تتقدم بمفردك

لمواجهة ضربات أعدائك فإنك ستواجه كل هؤلاء الأعداء وحدك .

بوروس : ماذا ! أتريدين أن أحذو حذو هذا الخائن ، وأن يتآمر عليّ خوفى فأمنحك سيداً ؟ وهل تريدين أن يرفض بوروس ، وهو فى معسكره ، خوض المعركة التى فرغ توًّا من طلبها ؟ لا ، لا ! إننى لا أصدق ذلك ، إننى أعرف خيراً من ذلك يا سيدتى تلك النار الجميلة التى يشعلها المجد فى نفسك . وقد كنت أنت ، على ما أذكر ، تحثين كل ملوكنا ، ويدفعهم سحرك القوى إلى خوض المعارك . لن ترضى كبرياؤك بالاستسلام ولن يسعدك إلا حبيب يقهر الإسكندر . يجب أن ننتصر ، وهاأنذا أعدو إلى ذلك عدواً ، لا لأتجنب لقب الأسير بل لأستحقه . نعم ، يا سيدتى ، فى وسط هذه الحمية التى تقودنى ، وسواء أبت بالنصر أو وافتنى منيّى ، فسوف أستحق القيد الذى تقيديننى به . ولما كانت آهاتى لا تعبر إلا عبثاً عما فى نفسى لهذا القلب الذى لا يشغله سوى المجد ، فإنى ذاهب لأربط بين شخصى وبين المجد برباط وثيق من ذلك البريق الذى يضفيه النصر علينا . وربما تمكنت من أن أحول قلبك من حب النصر إلى حب المنتصر .

أكسيان : حسن يا سيدى ! اذهب . ربما كان لدى تاكسيل في معسكره من الرعايا من هم أشجع من سيدهم . ولسوف أثيرهم بمجهود أخير ، وبعد ذلك سوف أترقب فى معسكرك ما يئول إليه مصيرك . لا تستفسر مطلقاً عن حالتى النفسية ، انتصر وعش .

بوروس : ماذا تنتظرين يا سيدتى ؟ ولماذا لا أستطيع أن أعرف الآن ما إذا كانت تنهداتى الحزينة قد لقيت استجابة فى نفسك ؟ أتريدين ، يا معبودتى أكسيان ، وأنا تحت رحمة القدر الذى ربما يحكم علىّ بعدم رؤيتك بعد ذلك ، أن يجهل أمير تعس ، وهو يموت ، إلى أى مجد كانت تعده الأقدار ؟ تكلمى .

أكسيان : ماذا أقول ؟

بوروس : آه ! أى أميرتى المقدسة ، إذا كنت تشعرين نحوى بشىء من ذلك الضعف الجميل فإن هذا القلب الذى يمنينى اليوم بقدر من التقدير قد يستطيع أن يعدنى ببعض الحب . أيستطيع أن يظل قلبك دائماً مغلقاً دون كل هذه التنهدات ؟ ربما . . .

أكسيان : اذهب ، يا سيدى ، وتقدم نحو الإسكندر ؛ والنصر لك إذا لم يصدك هذا الفاتح الشهير بقوة أشد من قوة قلبى .

الفصل الثالث

المشهد الأول

أكسيان وكليوفيل

أكسيان : ماذا ! أيمسكونني سجينة فى هذا المكان يا سيدتى ؟ ألا أستطيع مشاهدة جيشي وهو سائر إلى المعركة ؟ وهل يبدأ تاكسيل خيانته السوداء بأن يجعل من معسكره سجناً لى ؟ أهذا هو إذن الحب الذى كان يبديه لى ؟ إن هذا العابد الذليل قد أعلن نفسه سيداً لى ، وراح حبه الذى أضنته قسوتى يأسر شخصى بدلاً من قلبي .

كليوفيل : بل حاولى خيراً من ذلك أن تفسرى الاهتمام والحذر الحق من جانب ملك لا يعرف له من قاهر سوى سحرك ، وانظرى يا سيدتى بمزيد من الطيبة تلك الحمية التى تجعله يهتم بسلامتك . فبينما يحيط بنا جيشان قويان تدفعهما إلى المعركة الحرارة نفسها وينشران فى كل مكان شرر غضبهما ، ترى فى أى مكان آخر تستطيعين أن تقودى خطواتك ؟ أين يمكنك تجنب العاصفة فى غير هذا المكان ؟ إن الهدوء

المستتب هنا يضمن سلامة رأسك ، فكل شيء هادئ ...

أكسيان : وهذا الهدوء هو الذى لا أستطيع قبول ما يقدمه لى من ضمان غير كريم . ماذا ! أبينما يموت رعاياى فى السهول وهم يقاتلون خلف بوروس من أجل ملكتهم ، ويعلنون ولاءهم لها بكل دمائهم ، وبينما تكاد تصل صرخات المشرفين منهم على الموت إلى مسامعى ، أرى من يحدثنى عن السلام ، وألمح معسكر تاكسيل وقد احتفظ وسط هذا الاضطراب بمظاهر هدوئه ، وأسمع من يتملق آلامى بهدوء مهين ويوجه أنظارى نحو أشياء مبهجة ؟

كليوفيل : أتريدين يا سيدتى من حب أخى أن يعرض للأخطار رأساً عزيزاً لديه إلى هذه الدرجة ؟ إنه يعرف جيداً المصادفات . . .

أكسيان : ولكى يبعدنى عنها ، رأى هذا الحبيب الكريم أن يحتفظ بى سجينة ! وبينما غريمه يعرض نفسه للأخطار من أجلى فإن شجاعته الهادئة تقوم لى هنا بدور الحارس !

كليوفيل : ما أسعد بوروس ! إن أقل لحظة من البعد عنه تعذب صبرك النافد عذاباً قاسياً . وإذا صدقنا ما تبدينه نحوه ، اعتقدنا أن الشعلة التى تعتمل فى نفسك سوف تدفعك إلى البحث عنه حتى فى ساحة القتال .

أكسيان : بل أفعل أكثر من ذلك يا سيدتى ، فإن تصرفاً على هذه الدرجة من الروعة يجعلنى أبحث عنه حتى فى القبر ، وأفقد كل ممالكى ، وأرى بعين راضية الإسكندر وهو يدفعها ثمناً لقلب كليوفيل .

كليوفيل : إذا كنت تبحثين عن بوروس فلماذا تتركيننى ؟ لعل الإسكندر يقوده إلى هذا المكان . وفى مقابل سهرنا على سلامة رأسك ، اسمحى لنا بأن نحتفظ لهذا العاشق السعيد بغنيمته .

أكسيان : إنك منتصرة يا سيدتى ، وقد طار قلبك فعلا نحو الإسكندر وسمّاه المنتصر . ولكن لعل ثقتك فى هذا الحب الذى يملؤك زهواً وخيلاء تتحطم ، وتتحطم معها هذه الكبرياء الكبيرة قبل الأوان . إنك تسرفين فى دفع أمانيك المندفعة إلى الأمام وتعتقدين قبل الأوان فى تحقق ما تتمنينه . نعم ، نعم...

كليوفيل : ها هوذا أخى قادم وسوف تعلمين يا سيدتى من منا المخطئة .

أكسيان : آه ! إننى لم أعد أشك بعد فى الأمر ، فإن هذا الجبين الذى يلوح عليه الرضا يقول لعينى بوضوح كاف بأن بوروس قد هزم .

* * *

المشهد الثانى

تاكسيل – أكسيان – كليوفيل

تاكسيل : سيدتى ، لو أن بوروس لم يغضب كل هذا الغضب لدى سماعه نصائح صداقتى الخالصة لوفّر علىّ فى الواقع مشقة المجىء بنفسى لأعلن لك سوء طالعه .

أكسيان : ماذا ! بوروس . . . .

تاكسيل : لقد قضى الأمر . واصطدمت شجاعته التى خاب فألها بالمتاعب التى توقعتها . ولم يقتصر الأمر (إذ أن قلبى الذى يحترم شجاعته لا يجور مطلقاً على غريم مهزوم) ، لم يقتصر الأمر على أن لطخ ذراعه ، وهى تحاول انتزاع النصر بدم انتصار الأعداء أو قصر ضرباته الرائعة بينه وبين الإسكندر ، ولكن ثائرته اندفعت فى نهاية الأمر ضدى بحرارة أكثر مما ينبغى لها . وقد رأيت كتائبه ممزقة منبطحة وجنودك فى حالة فوضى ، وجنوده فى حالة تشتيت ، ورأيته هو نفسه أخيراً ، وقد جره هربهم إلى أن يتجنب متابعة المنتصر رغماً منه ، رأيته بغضبه الذى أصبح لا جدوى منه ،

وقد انكشف عنه الخداع بعد فوات الوقت ، يتمنى النجدة التي سبق أن رفضها .

أكسيان : التي سبق أن رفضها ؟ ماذا إذن ! هل تنتظر شجاعتك غير الكريمة أن نتوسل إلى معونتها من أجل وطنك ؟ وهل يجب أن نجرك رغماً عنك إلى المعارك ، وأن نضطرك أنت نفسك إلى إنقاذ بلادك ؟ قل لي ، ألا يعتبر المثل الذى ضربه بوروس ، ما دام يجب أن نذكرك به ، صوتاً فيه من القوة ما يكفي ؟ ألم يكن فى وسع هذا البطل المعرض للخطر ، ولا فى وسع حبيبتك التي تحيط بها الأخطار ، ولا البلاد بأسرها أن تشحذ همتك ؟ إنك والله لتجيد خدمة السيد الذى وهبتك أختك له . هيا ، اجعل مني ما تأمرك به كراهيته . يجب أن تكون معاملتك للمهزومين واحدة ، كبل حبيبتك بالأغلال فى الوقت الذى تسلم فيه غريمك . لقد قضى الأمر ، فإن هزيمته وجريمتك قد أحلا هذا البطل المغوار فى قلبي ، إنني أعبده ! وأريد قبل انتهاء هذا اليوم إعلان حبي وكرهي فى وقت واحد : أن أعده أمام عينيك بصداقة خالصة وأقسم لك أمام عينيه على كره أبدى دائم . وداعاً ، إنك تعرفني : أحببني إذا أردت .

تاكسيل : آه ! لا تنتظرى مني إلا الأماني الخالصة يا سيدتي ،

ولا تتوقعي تهديدات أو أغلالاً . إن الإسكندر يعرف خيراً مني ماذا ينبغي فعله نحو الملكات . اسمحي لكرمه أن يحملك على الاحتفاظ بتاج كان ينبغي على بوروس أن يكون أحرص إنسان على عدم تعريضه للأخطار ، وربما شاهدني الناس أنا نفسي أضرب كالأعمى اليد الدنسة التي تريد إسقاطه .

أكسيان : ماذا ! هل يصبح صولجاني في يدي ، منحة من عدوي ، بعد أن حاول أحدكما تعزيزه ! وهل يراني الناس جالسة على عرشي بفضل الطاغية نفسه الذي أراد أن يطردني منه ؟

تاكسيل : كم من ملكات وملوك هزمتهم شجاعتهم قد تركوا يده تخفف آلامهم . انظري إلى زوجة دارا وأمه ، إن إحداهما تعامله كابن والأخرى كأخت .

أكسيان : لا ، لا ، إنني لا أعرف مطلقاً أن أبيع صداقتي وأربت على يد طاغية وأستمر في الحكم لأنه قد أخذته الشفقة بي . أتظن أنني أحاكي فارسية ضعيفة ، وأنهم يستطيعون إبقاء أكسيان في بلاط الإسكندر ، وأن أجوب العالم مع قاهري ، وأطرى ليونة أغلاله في كل مكان ؟ إذا كان الإسكندر يمنح الممالك ، فليمنحك ممالكنا . وليزينك ، إذا أراد ، ببقايا ممالك الآخرين . احكم فلن نغار منك ،

لا أنا ولا بوروس ، وستكون مع ذلك أكثر منا عبودية ، وآمل أن يعمد الإسكندر وهو وسط حبه لمجده وخوفه من أن تلوث جريمتك نصره ، إلى أن تغسل عنه تلك الجريمة بموتك بعد قليل . إن الخونة مثلك غالباً ما يكونون جاحدين ، ومهما أعشت عينيك أفضاله وجب عليك أن تذكر دائماً تعذيب بسوس[1] . وداعاً .

* * *

المشهد الثالث

كليوفيل – تاكسيل

كليوفيل : اخضع يا أخى لهذه المشاعر الفائرة . إن الإسكندر والزمن سيجعلان منك الجانب الأقوى . وهذا الغضب الحاد لن يصمم على رفض إمبراطورية مهما قالت عنه . إنك سيد مصيرها وقلبها . ولكن قل لى ، هل رأت عيناك الفاتح ؟ وأى معاملة يا أخى يجب أن نتوقعها منه ؟ ماذا قال ؟

تاكسيل : نعم يا أختاه ، لقد رأيت الإسكندر . ولقد بدا لى فى أول الأمر أن البريق الشاب الذى يتألق به محياه يكذب

---

(١) أمر الإسكندر بضرب بسوس بقضبان الحديد أولا ، ثم بربطه من أطرافه الأربعة فى خيول تسير فى اتجاهات مختلفة فتمزقه إرباً ، وذلك لقتله دارا .

عدد غزاوته . إن قلبى ، وقد امتلأ باسمه ، لم يكن يجرؤ ، وأعترف بذلك ، على أن يقرن كل هذا المجد بهذا الشباب . ولكن الكبرياء البطولية التى تعلو هذا الجبين نفسه والنار التى تنبعث من نظراته وعظمته العالية ، كل ذلك قد عرفنى بالإسكندر . لا شك أن وجهه يحمل الدليل القاطع على عظمته . وحينما يهل بتلك العظمة – التى تؤيد مشروعاته – نرى عينيه وذراعيه تجعل له فى كل مكان رعايا جدداً . لقد كان خارجاً من المعركة . ولقد راعتنى عظمته فكنت أخال رؤية النصر تلمع فى عينيه ، ومع ذلك لما رآنى نسى كبرياءه ، وغمرنى بعطفه . إن مشاعره الفياضة لم تخف عنى أبداً مودته . لقد قال لى : «عد إلى الأميرة وأعد عينيها الجميلتين لرؤية منتصر سيضع نصره وقلبه تحت قدميها» . إنه فى إثرى ، وليس لدى ما أقوله لك يا أختاه . إنى أترك لك حرية التصرف فى مصيرك ، بل أمنحك حق تسيير مصيرى .

كليوفيل : إنك سوف تقدر على ما لا أقدر عليه . سوف يطيعك الجميع إذا استمع إلى الفاتح .

تاكسيل : إننى ذاهب . . . ولكنى أرى شخصاً قادماً إلى هنا . . إنه هو بلا شك .

* * *

المشهد الرابع

الإسكندر – تاكسيل – كليوفيل – إفستيون – أتباع الإسكندر

الإسكندر : اذهب يا إفستيون وادع إلى بوروس ، ولتبق على حياته وتحقن دماء المنهزمين .

* * *

المشهد الخامس

الإسكندر – تاكسيل – كليوفيل

الإسكندر (لتاكسيل) : أصحيح يا سيدى أن الملكة العشواء تفضل عليك شجاعة ملك منهار؟ ولكن لا تخشه مطلقاً فالإمبراطورية لك ، ولتهن غضب الجاحدة عن ذلك . إنك سيد مملكتك وولى على ممالكها هى نفسها . فاذهب مع أمانيك وأعرض عليها ثلاثة تيجان .

تاكسيل : آه ! هذا كثير ، لا تسرف فى الكرم . . .

الإسكندر : إن أمامك متسعاً من الوقت لتعرف مقدار اهتمامى بك . لا تبطئ واذهب حيث يدعوك الحب وتوج نار حبك بغصن نخيل على هذا القدر من الجمال .

* * *

المشهد السادس

الإسكندر – كليوفيل

الإسكندر : إننى أعد بمساندتى لحبه . ألا أستطيع شيئاً لنفسى ، وأنا أستطيع كل شىء له ؟ وإذا كنت كريماً إلى هذا الحد نحوه بثمرات النصر ، أفلا يكون لى أنا نفسى إلا مجد عقيم ؟ إن الصوبلجانات التى ترينها أمامك تُرد أو تمنح ، وأكاليلى التى أتوج بها أصدقائى ، والأموال التى كسبتها بحق الفتح والتى أنثرها على رءوسهم ، كل هذا يدل على أننى أتحرق شوقاً لغزو آخر . كنت قد وعدتك بأن يقربنى ساعدى بعد قليل من سحرك المقدس ، ولكن أتذكرين ، يا سيدتى ، أنك فى ذلك الوقت نفسه وعدتنى ببعض المكانة فى قلبك ؟ ها أنذا قد أتيت ؛ لقد حارب الحب من أجلى كما حافظ النصر نفسه على عهدى ! إن كل شىء حولى خاضع لى ولم يبق إلا أنت . لقد وعدنى قلبك بذلك فهل تراه يريد أن يدافع عن نفسه ؟ وهل يستطيع هو وحده الحرب اليوم أمام شجاعة منتصر لا يسعى إلا إليه ؟

كليوفيل : لا ، إننى لا أزعم أن هذا القلب الذى لا ينثنى سوف

يحتفظ هو وحده أمامك بلقب من لا يقهر . إنى أقدم ما يجب علىّ تقديمه لبريق الشجاعة التى تجعل مائة شعب مقهور يجثون تحت قدميك . إن الهنود المقهورين أقلّ ما لانتصاراتك من شأن . إنك توحى بالوجل لأكثر الشجعان ثباتاً . وإذا أردت ، أوحت أفضالك بدورها بالحب لأشد القلوب قسوة . ولكن هذا البريق ، ياسيدى ، وهذه الانتصارات ، وهذا السحر تنذرنى بحق وتشيع الاضطراب فى نفسى . إننى أخشى أن تكتفى بانتصارك على قلبى ثم لا تلبث أن تهجره وتتركه لآلامه الحزينة الطويلة ، وألا تتأثر بالنار التى أشعلتها فتحتقر نفسك هذا الغزو اليسير . إن المرء لينتظر قليلا من الحب من بطل مثلك . لقد كان المجد دائماً أحب مشاعرك المتأججة ؛ وربما كان مجداً لانتصار علىّ هو كل ما يريده فى الوقت الذى يتنهد فيه قلبى من أجلك .

الإسكندر : كم تخطئين فهم الرغبة العنيفة من محب يحمل إليك كل تأوهاته ! أعترف أنه فى الماضى لم يكن قلبى يتأوه وسط جيشى إلا للشهرة . لقد كانت الشعوب والملوك وحدها هى موضع تمنياتى بعد أن تصبح من رعاياى . وحينما قدمت لى أجمل نساء الفرس ، بدا جمالهن لعينى باهتاً كملوكهن فلم يحاول قلبى ، وقد تسلح باحتقار متعال ضد سحرهن ،

أن يحيى جمالهن بأقل تحية . لقد كان قلبي ، وهو في غمرة حبه للمجد وعدم قدرة أحد على قهره ، يرى سعادته في أن يبدو في مأمن من التأثير . ولكن وا أسفاه ! كم كان لعينيك ، الطاغيتين الجميلتين ، من تأثير مختلف على هذا القلب . لم يعد هذا الاسم الكبير ، اسم الفاتح ، كل ما يتمناه ؛ وأتى طائعاً مختاراً ليعلن إليك هزيمته . وكم يسعده لو تأثر قلبك ، فأعلنت له عيناك الجميلتان بدورهما عما لهما عليه من سلطان ! أتريدين إذن أن تظلي دواماً في شك من انتصارهما ، وأن تظلي دائماً تأخذين على مجد انتصاراتي ؟ كما لو كانت الشباك الجميلة التي تمسكينني فيها لا تمسك إلا بالعقول الضعيفة ؛ لسوف أريك بانتصارات جديدة كل ما للحب من تأثير على قلب الإسكندر والآن وقد كرست ساعدي لخدمتك وصار عليه أن يدافع عن اسمي واسمك في وقت واحد فسوف أسبغ الشهرة ، بفضل بريق الحرب ، على شعوب كانت مجهولة لبقية سكان العالم وسوف أقيم لك معابد في أماكن ترفض أيدي أصحابها الهمجية إقامتها فيها للآلهة .

كليوفيل : نعم ، سوف تجر إليها النصر أسيراً . ولكني أشك يا سيدي في أن يتبعك الحب إليها . إن كل هذه البلاد

والبحار التى ستفصلنا لن تلبث ، يا سيدى ، أن تمحونى من ذاكرتك. وحينما يراك المحيط الخضم فوق أمواجه ، وقد أتممت ذات يوم غزو العالم ، وحينما ترى الملوك يجثون تحت قدميك ، والأرض تلوذ بالصمت أمامك وقد اضطربت أوصالها ، فهل ستفكر يومئذ يا سيدى فى أميرة شابة لا تفتأ تأسف عليك فى أعماق بلادها ، وتذكر فى قلبها اللحظات السعيدة التى كان هذا الفاتح الكبير يؤكد فيها حبه لها ؟

الإسكندر : ماذا ؟ أتعتقدين إذن أننى من الوحشية بحيث أتركك فى هذا المكان مثل هذا الجمال النادر ؟ أم تراك تريدين أنت نفسك أن تتخلى عن عرش آسيا الذى أود إجلاسك عليه ؟

كليوفيل : سيدى إنك تعرف أن أمرى فى يد أخى .

الإسكندر : آه ! إذا كان هو وحده الذى يتحكم فى السعادة التى آمل فيها ، فإن إمبراطورية الهند ، كلها وقد آل إليه أمرها لن تلبث أن تذهب لتطلب منه أن يختار .

كليوفيل : إن حبى منزه عن الغرض . كل ما أطلبه هو أن تهدئ من روع ملكة أهينت ، وألا تسمح اليوم لغريمه بأن يكون أكثر منه سعادة لأنه تحداك .

الإسكندر : لقد كان بوروس بلا شك غريماً عظيما . ولم يحدث أبداً لمثل هذه الشجاعة أن اكتسبت تقديرى . لقد رأيته وسط نيران المعركة وتتبعته ، وأستطيع أن أقول الآن إنه لم يكن يتجنبنى قط . لقد كان أحدنا يسعى إلى الآخر وكادت الكبرياء الجميلة أن تنهى المعركة حتى اعترضت أغلبية الجنود فيما بيننا وجعلتنا نسدد ضرباتنا إلى جموعهم .

* * *

المشهد السابع

الإسكندر – كليوفيل – إفستيون

الإسكندر : حسن ! هل أتوا بهذا الأمير المتهور ؟

إفستيون : إنهم يبحثون عنه فى كل مكان ، ولكن مهما يكن من أمر يا سيدى ، فإن ذلك الأسير لا يزال بعيداً عن أعيننا ، سواء أكان ذلك بسبب الهرب أم الموت . ولكن بقية من جنوده كانت قد حوصرت أثناء هربها و يبدو أنهم بمقاومتهم تقدم جنود القائد المنتصر يستعدون لبيعنا حياتهم .

الإسكندر : جردوا المنهزمين من سلاحهم دون أن تخيبوا آمالهم
سيدتى ، هيا بنا لنثنى الأميرة المتعالية عن عزمها حتى يهنأ
تاكسيل بحبى . وإذا كانت راحتى متوقفة على راحته
فلنحقق له سعادته حتى تستقر لى سعادتى .

الفصل الرابع

المشهد الأول

أكسيان بمفردها

أكسيان : ألن نسمع سوى صيحات النصر التى كأنها تؤنبنى على ما حصل عليه أعدائى من مجد ؟ ألا أستطيع على الأقل ، وأنا وسط هذه الأحزان الكبيرة ، أن أتحدث وحدى مع آلامى ؟ إنهم يعملون على أن يربطوا حياتى رغم أنفى بحياة عاشق كريه لا يفتأ يلاحقنى ، إنهم يراقبوننى ويتبعوننى . ولكن لا تعتقد، يا بوروس، أنهم يستطيعون منعى من الجرى فى أعقابك. لا شك أن قلبك لم يستطع العيش بعد ما عانينا من أحزان ، وعبثاً يتسلح كل هؤلاء الجنود للحاق بك . سوف يكتشفونك بما تحدثه جهودك من ضجيج ، وإذا كان لابدّ من البحث عنك فلن يكون ذلك إلا وسط الأموات . وا أسفاه ! حينما غادرتنى كان يبدو أن حميتك المتزايدة تتوقع الآلام التى تثقلنى الآن ، وكذلك كانت الحال حينما سألتنى عيناك ، وقد كشفتا لى عما ينتابك من

ضيق ، عن المكان الذى تحتله أنت فى قلبى . وحينما كان انشغالك بالحب يسبب لك الكثير من القلق دون أن تشك فى مضاء أسلحتك . فلماذا كنت أخفى عنك ، متذرعة بكل هذه المرارة ، سرًّا حاسماً بالنسبة لسعادة حياتك ؟ كم من مرة قد مزقت عيناك فيها سر مقاومتى ، وكان قلبى مستعدًّا لقطع الصمت الذى فرضه على نفسه ، وكم من مرة تأثرت فيها برغباتك الحارة وقد تفلتت منى التنهدات فى حضورك ! ولكنى كنت لا أزال أرغب فى الشك فى انتصارك ، وكنت أفسر تأوهاتى برغبتى فى النصر الذى كنت أعتقد أننى لا أحب سواه . آه ! عفواً أيها الملك العظيم ، إنى أشعر اليوم جيداً بأننى لم أكن أحب سواك ، وأعترف أن المجد كان له على نفسى بعض السلطان ، وهذا ما قلته لك مائة مرة . ولكن كان ينبغى لى أن أقول لك إنك أنت وحدك ، فى الحقيقة الذى تخضعنى لسلطانك ، لقد تعلمت أن أعرف المجد من رؤيتى لانتصاراتك . ومهما يكن من جمال الشعلة التى أشعلتها تلك الانتصارات فى نفسى فإنى لم أكن لأحبها إلى هذا الحد لو كانت فى شخص آخر غير شخصك. ولكن ما فائدة الأنين الذى لا جدوى منه والذى يتبدد فى الفضاء دون أن تسمعه ؟ لقد حان الوقت

لكى تقسم لك روحى بعد نزولها إلى القبر على الصداقة
التى طال انتظارك إياها . وقد حان الوقت لقلبى لكى
يبرهن على حبه ، وأن يريك أنه لم يستطع العيش لحظة
واحدة بعدك . وهل تظن أننى أريد الحياة تحت إمرة
منتصر أسلمنا إليه موتك ؟ إننى أعرف أنه يستعد للمجىء
والتحدث إلىّ ، وأنه يريد مواساتى برد صوبجانى إلىّ .
لعله يظن أن كراهيتى المكبوتة تكون غنيمة للطفه الكاذب !
فليأت وسيجدنى دائماً جديرة بك أموت ملكة كما متّ
أنت ملكاً .

* * *

المشهد الثانى

الإسكندر – أكسيان

أكسيان : حسن يا سيدى حسن ! أتجد بعض السعادة فى مشاهدة
دموع تسيل ، فتسيل لها دموعك ؟ أم تراك تحسدنى رغم
ما أنا فيه الآن من حال ، على الحرية التعسة التى تتيح لى
الحق فى البكاء على آلامى ؟

الإسكندر : إن آلامك حرة بقدر ما هى مشروعة : إنك تأسفين ،
يا سيدتى ، على أمير كريم . لقد كنت عدوًّا له ، ولكنى

لم أكنّ له ذلك النوع من العداوة الذى يجعلنى ألوم الدموع التى تُذرف لموته . وقبل أن ترانى الهند على شواطئها كنت قد عرفته من بريق شجاعته ، ولقد كانت العين ترمقه وسط أكبر الملوك وأعظمها . وكنت أعرف . . .

أكسيان : لماذا إذن أتيت أنت تهاجمه ؟ وما هو القانون الذى حملك على أن تسعى من أقصى الأرض إلى أقصاها لكى تحارب هذه الشجاعة ؟ ألا يمكن للشجاعة أن تبدو أمام بصرك دون أن تحث غرورك على اضطهادها ؟

الإسكندر : نعم لقد سعيت إلى بوروس ، ولكن مهما قيل فى ذلك فإنى لم أكن أسعى إلى تحطيمه . واعترف أننى كنت أتحرق شوقاً لتحريك ذراعى فتركت نفسى أسير خلف ضجيج معاركه ، وأن لا شىء جعل قلبى يحنّ إلى انتصارات جديدة سوى اسم ملك كان حتى الآن لا يقهر . وقد كنت أظن أنى بمعاركى العديدة أعلق أنظار العالم علىّ وحدى حتى رأيت شجاعة هذا المحارب ينتشر صيتها فى كل مكان فأصبحت الشهرة تتأرجح فيما بيننا . ولما رأيت الهلع يتطاير من ساعده فى كل فج ، بدت لى الهند وكأنما تفتح أمامى ساحة جديدة جديرة بى . لقد ابتهجت لسماع

أنباء شجاعته ، بعد أن مللت رؤية ملوك يهزمون دون مقاومة ، وإن عدوًّا على هذا القدر من النبل استطاع أن يحفزنى إلى القتال . لقد أتيت سعياً وراء المجد والأخطار . وإن شجاعته يا سيدتى قد تعدت كل ما كنت أتوقعه ، وأن النصر الذى أصرّ فيما مضى على متابعتى كاد أن يتخلى عنى لكى ينحاز إلى مقاتليك . لقد قاتلنى بوروس حتى من أجل أقل الأكاليل شأناً . وأجرؤ على القول بأن عدوى نفسه كان يشرف على علوّ شأنه ، حتى فى الساعة التى كان يفقد فيها النصر ، وأن سقطته الرائعة ترفع من شأن شجاعته ، وأنه لم يكن قط ليرضى بالقتال بديلا .

أكسيان : وا أسفاه ! كان ينبغى لمثل هذه الرغبة النبيلة أن تجعله يتخلى عن كل ما يهمه فى الحياة ، ولكنه اندفع تحيط به الخيانة والعذاب من كل جانب ، نحو كل هؤلاء الأعداء . ولكن إذا كان صحيحاً أن شجاعته فى القتال قد فتحت أمام شجاعتك مجالا عظيما فلماذا لم تحاربه ، يا سيدى ، حرب الكرام ؟ أكان يجب أن تحتال على شجاعته بالخديعة ، وبدلاً من أن تحصل على نصر كامل تعمل على هزيمته بيد شخص آخر غيرك ؟ لقد انتصر ، ولكن لتعلم أن تاكسيل يقاسمك فى قرارة قلبه ذلك اللقب الجميل ، لقب الفاتح ، لتنتفخ أوداج ذلك الخائن

غروراً ، فإنك فى الحقيقة لم تنتصر إلا بفضل حيلته . وإنه لمنظر يلذّ لآلامى أن تراه ، وهو أنه الآن يقاسمك المجد .

الإسكندر : من العبث أن تتخذى من آلامك سلاحاً ضد مجدى ، فإنه لم يتيسر لأحد أن يرانى أسرق النصر ، وبتلك الوسائل المتسمة بالجبن ، ولن يمكن لأحد أن ينسب إلىّ أنى أخدع أعدائى بدلاً من أن أكبح جماحهم . وإذا كانت كثرة عدد أعدائى قد ضيقت علىّ الخناق كما قد يبدو ، فإنى لم أستطع أن أختار الاختفاء فى الظلام : ولم يتأت لأحد أن يتهم بهزيمته غير ساعدى ، وقد ألقى الحق بضيائه فى كل مكان على معاركى. نعم ، إننى أرثى لحال ممالكك ؛ وقد أردت أن أتجنب هلاك أمرائك ، ولكن لو أنهم أصغوا لنصائحى وأمانى لأنقذتهم أو حاربت منهما كلا الأمرين . نعم ، صدقى . . .

أكسيان : إننى أصدق كل شىء ، وأعتقد أنك لا تقهر . ولكن أيكفى يا سيدى أن يكون كل شىء بالنسبة لك ممكن التحقق ؟ ألا يهمك إلا تكبيل كل هؤلاء الملوك بالأغلال وأن تجعل العالم كله يئن تحت وطأتك دون خوف من عقاب ؟ إنك قد جعلت من كل هذه المدن أسرى لسلطانك . . . وتسببت فى موت كل هؤلاء الذين رآهم نهر « جيلان » يقطنون ضفته ؟ ماذا جنيت ، أنا ، حتى تأتى

أنت إلى هذا المكان لإنزال الأذى ببطل لم تلتفت عيناى إلاّ إليه ؟ هل تراه أغرق حدود بلادك اليونان ؟ هل ترانا أثرنا ضدك أمماً بأسرها وأحنقناها ضد مجدك؟ وا أسفاه ! لقد كنا نعجب بهذا المجد دون أن تنتابنا الغيرة منه . لقد كنا راضين بممالكنا وكنا ننتظر ، بعد أن وقع كل منا تحت سحر صاحبه مصيراً أسعد من مصيرك . لقد كان بوروس يقصر آماله على غزو قلب ربما كان اليوم يسميه قاهره . آه ! ألم يكن أمامك من عمل غير إراقة دم كريم إلى هذا الحد ؟ وهلا تشعر يا سيدى ، حتى ولو لم يلمك أحد إلا على هذه الجريمة وحدها ، هلا تشعر بالتعاسة لأنك قدمت إلى هذا المكان النائى لتقصم ذلك الرباط الجميل ؟ لا ، مهما تباهت نفسك بالرقة فإنك لست ، يا سيدى ، إلا طاغية .

الإسكندر : أرى جيداً يا سيدتى أنك تريدين أن تدفعينى إلى غضب غير كريم فأثور ضدك ثورة مشينة . ولعلك نأملين فى أن تنال من صبرى ورقتى ، فتدفعينى إلى تلويث مجدى الماضى . ولكن فى الوقت الذى لا يتسنى فيه لشجاعتك أن تحفزنى تهاجمين يا سيدتى منتصراً أعزل من السلاح . إن نفسى قد عاهدتنى على العطف عليك ولذا فهى تحترم الألم الذى أغرقت نفسك فيه . وإن هذا الاضطراب القاتل

هو الذى يغشى عينيك حتى لا تريا فىّ إلاّ طاغية كريهاً
لولا هذا الاضطراب لاعترفت أن الدم والدموع لم تلوث
أبداً مجد بسالتى ، ولرأيت . . .

أكسيان : آه يا سيدى ! ليتنى لا أرى تلك البسالة التى يزيد بريقها من يأسى ! أتظن أنى لم أر فى كل مكان هذا النصر يتواضع ويفقدك الغرور ، ذلك الأمر الذى يجعله مروعاً ؟ ألست أرى يأجوج ومأجوج والفرس وقد هزمتهم يستمرئون ، وهم يرزحون تحت نيرك ، أن يطروا فضائلك ويتنافسوا مع رعاياك ، تحت سيطرة رغبة عمياء ، فى المحافظة على حياتك ؟ ولكن ماذا يفيد هذا القلب الذى بالغت فى تعذيبه من رؤية الناس فى الخارج وفى كل مكان يتنافسون فى إطراء حسناتك ؟ أتظن أن كرهى لك سيكون أقل عنفاً حين أرى الناس فى كل مكان يقبلون اليد التى تعذبنى ؟ وهل فى مقدور كل هؤلاء الملوك الذين انتقمت منهم أو أنجدتهم وكل هذه الشعوب الراضية ، أن يردوا إلىّ بوروس ؟ لا يا سيدى . إننى أكرهك بقدر ما يحبونك ، وبقدر ما أعجب بك أنا نفسى ، ولن أحيد عن هذا حتى لو فرض العالم كله علىّ قانونه ، ولم يكن هناك من يكرهك غيرى .

الإسكندر : إننى ألتمس الأعذار لثورة هذا الحب الرقيق ، ولكن

تلك الثورة يا سيدتى تدهشنى بالرغم من كل شىء . فإذا لم أكن مخدوعاً فيما سمعت من الناس جميعاً فإنك لم تميزى بوروس بأية نظرة خاصة . وقد ظل قلبك وهو يتأرجح بينه وبين تاكسيل صامتاً طيلة حياته . واليوم وقد أصبح عاجزاً عن الإنصات إليك بدأت يا سيدتى تنحازين إلى صفه . أتظنين أن رفاته تتأثر بهذه الحرارة الجديدة وتطلب منك الآن أن تحرقى نفسك من أجلها ؟ لا تعذبى نفسك كل هذا العذاب الذى لا مبرر له ، فإن هناك أموراً أكثر أهمية تدعوك اليوم إلى غير ذلك ، ولقد قامت دموعك بتكريم ذكراه بما فيه الكفاية . احكمى ودعمى مجدك أكثر من ذى قبل . وأعيدى الطمأنينة إلى بلادك التى هزها سقوطه بإعادة الهدوء إلى مشاعرك الحزينة . ومن بين الكثير من الملوك العظام اختارى لنفسك سيداً يكون أشدهم حمية ، اختارى تاكسيل . . .

أكسيان : ماذا ! الخائن ؟

الإسكندر : ماذا ! أستحلفك أن تهدئى من روعك فليست هناك خيانة تدنسه فى نظرك . لقد استطاع ، وهو سيد بلاده ، أن يقرر البقاء فى مأمن من الصاعقة ، ولم يكن ثمة قسم أو واجب يلزمه بالجرى إلى الهاوية التى ألقى بوروس بنفسه فيها .

وأخيراً تذكرى أن الإسكندر نفسه يهتم بسعادة هذا الأمير الذى يحبك ، وفكرى فى أنه إذا اجتمع الجيلان ونضد بفضل هذا الاختيار الصائب ، صارا يجريان تحت إمرتك؛ وأن كل شيء سوف يكون سهلا بالنسبة لى من أجل مصالحك حين أراها قد ارتبطت بمصالح تاكسيل . إنه قادم . ولست أريد إحراج تأوهاته ، وسأتركه هو نفسه يشرح رغبته . ولقد كان حضورى شديد القسوة لناظريك ؛ وحديث المحبين يفضل الوحدة ، فلن أضايقكما .

* * *

المشهد الثالث

أكسيان – تاكسيل

أكسيان : اقترب أيها الملك القوىّ ، يا ملك الهند المطلق . كنا نتحدث عنك الآن . إنهم يريدون منى أن أكبت غضبى من أجلك ويقولون إنه لا رغبة لك إلا إرضائى ، وإن قسوتى لا أثر لها إلا أن تزيد فى إشعال حبك . بل يفعلون أكثر من ذلك ، فيريدون أن أحبك أنا الأخرى . ولكن أتدرى ما هى العملية التى يرتبط بها حبك ؟ أتدرى السر الذى يمكن به التأثير على نفسى ؟ هل أنت مستعد . . .

تاكسيل : آه يا سيدتى ! لست أطلب إلا أن تشعرى بما يمنحه مثل هذا الأمل الرائع لقلبى . ماذا ينبغى لى أن أفعل ؟

أكسيان : إذا كان صحيحاً أن ثمة من يحبنى فإنه يجب عليه أن يحب المجد بقدر حبى إياه أنا نفسى ، وألا يشرح لى أمانيه إلا بألف عمل بطولى رائع ، وأن يكره الإسكندر بقدر كرهى أنا إياه . يجب أن يسير دون خوف أو وجل وسط المخاوف ويحارب وينتصر أو يموت تحت السلاح . ألق النظر على بوروس وعلى نفسك ، واحكم أيكما كان أجدر بى من الآخر . نعم يا تاكسيل ، إن قلبى كله لم يكن يشك إلا فى الظاهر ، وكان يبحث الفارق بين عبد وبين ملك . لقد أحببته ، أما الآن فأنا أعبده . وإذا كان القدر الغيور قد أبى عليه التمتع بمثل هذا المشهد اللذيذ ، فإنى أختارك أنت شاهداً على مجده . إن دموعى سوف تحيى دائماً ذكراه وسوف ترانى دائماً ، مهما اعترانى من ضيق ، أجد لذتى فى أن أحدثك عنه .

تاكسيل : وهكذا أجدنى أحترق بلا جدوى من أجل نفس باردة كالثلج ، لا يمكن لظل بوروس أن يزايلها . ولو أنى ذهبت من أجل مرضاتك أتحدى الموت لمت يا سيدتى دون أن أحظى برضاك ! ألا أستطيع إذن . . .

آكسيان : بل إنك تستطيع استعادة تقديرى وتستطيع غسل جريمتك فى دم العدو . وها هى ذى الفرصة تبتسم لك : إن بورو س وهو فى قبره ، يجمع جنوده حول رايته ويكفى ظله لكى يمنعهم اليوم من الفرار . أما جنودك أنت ، جنودك الذين أخجلهم تصرفك ، فإن ندمهم على الجريمة التى أرغمتهم عليها يقرأ اليوم على جباههم الغاضبة فى كل مكان . اذهب وانفخ فى النار التى تأكلهم وانتقم لحريتنا التى ما زالت تتنفس . اجعل من نفسك حامياً لعرشى وعرشك ، هيا ، وكن لبوروس خير خلف لخير سلف . ألا تجيبنى ؟ إنى أرى على وجهك أن مثل هذه الخطة النبيلة تذهل شجاعتك . إننى أعرض عليك عبثاً مثال هذا البطل ، ولكنك تريد أن تكون عبداً . فاذهب وكن عبداً واتركنى فى سلام .

تاكسيل : هذا كثير يا سيدتى ! لعلك نسيت أنك لو اضطررتنى كان فى وسعى أن أتكلم كسيد وألا أتحمل منك هذا الازدراء ، إذ أنك أنت ومما لكك جميعاً ملك يدى ، وأننى بعد كل هذا الاحترام الذى زاد من غرورك . . .

أكسيان : إنى أفهم ما تريد فأنا سجينتك : ولعلك تريد أسر رغباتى أيضاً ، وأن يستجيب قلبى لتنهداتك وهو يرتعد .

حسن ! دع ، إذن هذه الرقة المفتعلة وتذرع بالرعب والهلع . تحدث كطاغية كله استعداد لتعذيبي . إن كرهي لا يستطيع أن يصل إلى أكثر مما وصل إليه وفي محاولة كل شيء . ولكن احذر من أن توجه إلى تهديدات لا جدوى منها .

ها هي ذي أختك قادمة لتوحي إليك بما ينبغي عمله دائماً. وإذا صدقت نصائحها وتمنياتي استطاعت أن تساعدني على اللحاق ببوروس بعد قليل .

تاكسيل : آه ! بل . . .

* * *

المشهد الرابع

تاكسيل وكليوفيل

كليوفيل : آه ! دع هذه الأميرة الجاحدة التي أقسم كل ما في قلبها من كره على ألا يكف عن إشاعة الاضطراب في نفوسنا ، تلك التي تتلذذ من إلحاق اليأس بك . إنس . . .

تاكسيل : لا يا أختاه ، إني أود لو عبدتها . إنني أحبها ، حتى لو لم تثر الأماني التي في نفسي لها إلا بغضها الأبدى ؛ نعم يجب أن أحبها برغم كل ازدرائها لي وبرغم نصائحك

كلها ورغماً عنى أنا نفسى . ومع ذلك فإنى لا أجد فى غضبها ما يدهشنى ، بل لا أوجه اللوم فى ذلك إلا لك ولنفسى . فلولاك ولولا نصائحك التى غررت بى يا أختاه لكان كرهها لى أقل مما هو عليه ، حتى ولو لم تحبنى ، ولولاك لأخجلها اهتمامى بها ولظلت معلقة بينى وبين بوروس . أليس من السعادة القصوى أن اضطرتها يوماً إلى الشك ؟ كلا لم أعد أطيق الحياة مكبلاً بكراهيتها ، يجب علىّ أن أذهب وألقى بنفسى على أقدام تلك التى لا تعرف الرحمة . سأعود إليها وأكرس نفسى لخدمة غضبها حتى ضد الإسكندر ، بل حتى ضدك . إنى أعرف مقدار نار العشق التى تستعر فى قلبيكما أنتما الاثنان ، أحدكما نحو الآخر ، ولكن كفى نسياناً لسعادتى الشخصية من أجل سعادتكما . لن أكترث بنجاح حبكما ، بل يجب أن أكون سعيداً ولو عمّ الفناء .

كليوفيل : اذهب إذن عائداً إلى ساحة المعركة ولا تدع شجاعتك تتململ سأماً بين جوانحك . لماذا تتوقف هنا تلك الشجاعة المتأرجحة ؟ هيا ، إنّ الأيدى تتضارب وبوروس فى انتظارك .

تاكسيل : ماذا ؟ بوروس لم يمت ؟ هل ظهر بوروس ؟

كليوفيل : إنه هو ، وتلك الضربات العظيمة تنبىء عن وجوده ، وقد كان يتوقع ذلك . إن إشاعة موته قد أوقفت ذراع الفاتح سريع التصديق . إنه آت إلى هنا ليأخذ شجاعتهم الآمنة على غرة ، ويهز نصراً لم تثبت أركانه بعد . إنه قادم ، ولا يكونن لديك أيّ شك فى ذلك ، سيأتى كعاشق هزه الغضب لينتزع حبيبته أو يموت أمام عينيها . ماذا أقول ؟ إن معسكرك ، وقد غررت به تلك الجاحدة يزمجر غضباً ، وينتظر مستعداً للسير وراء بوروس . اذهب أنت نفسك ، اذهب كعاشق كريم ، لنجدة غريم يحيط به كل هذا الحب الرقيق . وداعاً .

* * *

المشهد الخامس

تاكسيل بمفرده

تاكسيل : ماذا ! هل يصر القدر على خذلانى فيبعث إلىّ من القبر غريماً مسلحاً لكى يحطمنى ! سيعود هذا العاشق فيرى العينين اللتين بكتاه واللتين فضلتاه علىّ برغم موته . آه ! هذا كثير . لننتظر ماذا يعدّه لى القدر ولمن يبقى هذا الفتح النبيل . لنذهب ، إذ لا ينبغى أن ننتظر ، فى غضب وخنوع ، أن تنتهى دونى هذه المشكلة الكبرى .

الفصل الخامس

المشهد الأول

الإسكندر – كليوفيل

الإسكندر : ماذا ! أتخشين بوروس حتى بعد هزيمته ؟ هل يبدو انتصاري فى عينيك ناقصاً ؟ لا ، لا ، إنه أسير لن يتمكن من الهرب منى ، وقد أحاطت به أوامرى من جميع الجهات . فبدلاً من أن تظلى على الخوف منه ، لا تفكرى إلا فى الرثاء له .

كليوفيل : إن حالته تلك هى التى ينبغى الخوف منها . فمهما كانت شجاعته فإنها لا تقلقنى بقدر ماتقلقنى تعاسته. فطالما كنا نراه وجيشه القوى يسير من خلفه لم تكن قوته وفتوحاته تسبب لى أى قلق . ولكنه الآن يا سيدى أصبح ملكاً تعساً مغلوباً على أمره ، ومنذ تلك اللحظة وأنا أعتبره فى صف أصدقائك .

الإسكندر : تلك مكانة لم يعد لبوروس الحق فى الوصول إليها . لقد سعى طويلا إلى إثارة كره الإسكندر . وهو يعرف جيداً أننى قد وطدت العزم على ذلك آسفاً . فقد أصبحت أكرهه بقدر ما أراد ، بل إننى مدين للعالم بأسره بمثال أقدمه

إليه : يجب أن أنتقم فى شخصه من جميع ما تسببه الحرب من آلام . يجب أن أعذبه على الشقاء الذى كان فى إمكانه تجنبه ولأنه اضطرنى أنا نفسى إلى معاقبته. لقد هزم مرتين واستحق كره أميرتى الجميلة . . .

كليوفيل : إننى لا أكره بوروس مطلقاً يا سيدى ، وأعترف لك بذلك ولو سمح لى اليوم الاستماع لصوت آلامه التى تدفعنى إلى العطف عليه لقلت لك إنه كان أعظم أمرائنا ، وإن ذراعه قد ظلت مدة طويلة سنداً لممالكنا ، وإنه إذ تقدم اليوم لقتالك فربما لم يكن ذلك إلا لأنه يريد أن يراه الناس أهلاً للسقوط تحت ضرباتك ، وأن يجتمع اسما كما فى معركة واحدة فيطير اسمه إلى كل مكان خلف اسمك . ولكنى لو دافعت عنه ، لوقعت على أخى نكبات ثقيلة فحطمت أمانيه فى السعادة فماذا سيحل بأخى لو ظل بوروس على قيد الحياة ؟ فى هذه الحال سيصبح من المؤكد أن مصيره الضياع ، وربما كان ذلك مصيرى أنا أيضاً . نعم ! نعم ! إنه إذا لم ينجح فى حبه ولو بعض الشيء ألقى على تبعة ذلك ، وربما فكر فى عقابى . والآن وقلبك يستعد للانتقال من غزو إلى غزو ، فإننى أتساءل حين يصبح "الكانج" حاجزاً بين أخى وبينك،

من ذا الذى يستطيع يا سيدى ، أن يكبح جماح غضبه العادل ؟ إن نفسى ستطول عليها الوحدة لدى بعدك . وا أسفاه ! ولو حكم على آهاتى بالصمت فماذا يكون مصير هذا القلب التعس ؟ وأين أجد الفاتح الذى أسلمته إياه ؟

الإسكندر : آه ! هذا كثير يا سيدتى . إذا كان هذا القلب قد أسلم نفسه فإنى سأعرف كيف أحافظ عليه مهما كانت أوامر تاكسيل. سأحافظ عليه أكثر مما حافظت على البلاد الكثيرة التى رآنى الناس أغزوها ، والتى لم أحتفظ بها ، إلا لأمنحك إياها . لم يعد أمامى إلا نصر واحد ثم أعود ؛ يا سيدتى ، لأقصر مجدى على أن أكون ملكاً لقلبك ؛ وأطيعك أنا نفسى وأضع بين يديك مصير الإسكندر ومصير البشر جميعاً . إن شعب ملك مالى[1] ينتظرنى وقد استعد لتقديم ولائه لى . ولما كنت جد قريب من المحيط ، فأية فرصة خير من تلك للذهاب من أجل مقابلة هذا الرجل المتعجرف بصفتى قاهر العالم وبصفتى حبيبك ؟ وحينئذ . . .

كليوفيل : ولكن ماذا يا سيدى ؟ أهى الحرب تتلو الحرب دائماً ؟ أتراك تبحث عن رعايا فيما وراء الأرض ؟ أتريد أن تشهد

---

(١) شعب هندى فيما وراء الكانج .

على فتوحاتك الرائعة بلاداً غير معروفة حتى لساكنيها ؟
ماذا تأمل من قتاله فى تلك الأجواء القاسية ؟ إنهم سيوجهون ضدك خلاء فسيحاً وصحارى ترفض السماء إضاءتها ، وفيها تبدو الطبيعة كما لو كانت على وشك الموت . وربما كان القدر الذى لم تستطع رغبته السرية أن توقف سير حياتك الجميلة ينتظرك فى هذه الأماكن بقصد أن يجعل قبرك فيها مسربلاً بالنسيان. أتفكر فى أن تجر إلى تلك الأماكن فلول جيش تجدد عشرين مرة وهلك عشرين مرة ؟ وإن جنودك الذين يثير مرآهم الرثاء قد تركوا نصفهم فى مئات الأماكن ، ويعلو أنينهم حتى يكاد أن يصم آذانك . . .

الإسكندر : إنهم سيسيرون يا سيدتى وما علىّ إلا أن أظهر حتى تدب الحياة من جديد فى تلك القلوب التى خيب آمالها الفراغ فى المعسكر ، فأخذت تعد وهى تتأفف عدد الضربات التى تلقتها . حينئذ ستعود إليها الحياة لتتبعنى وتناشد عينى ، وسط لومها لنفسها على تأففها ، أن أهيئ لها الفرصة لتلقى جراح جديدة . ومع ذلك فلنؤيد غرام تاكسيل : إن غريمه لم يعد يقوى على اعتراض رغباته . لقد قلتها لك يا سيدتى ، وأجرؤ على أن أقول لك مرة أخرى . . .

كليوفيل : سيدى ، ها هى ذى الملكة .

* * *

المشهد الثانى

الإسكندر – أكسيان – كليوفيل

الإسكندر : حسن ! إن بوروس يتنفس ! إن السماء تبدو يا سيدتى كما لو كانت قد استجابت لأمنياتك فردته إليك .

أكسيان : وا أسفاه ! إنها تنتزعه منى إلى الأبد ! لم تعد هناك بقية من أمل تراود ألمى . لقد كان موته مشكوكاً فيه فأصبح الآن مؤكداً . إنه يعدو إليه عدواً . ولعله لم يأت ليجابه الموت،إلا لكى يرانى مرة أخرى وليتقدم لنجدتى . ولكن ماذا يستطيع بمفرده ضد جيش بأسره ؟ لقد حاولت جهوده الكبيرة تحذيره فى أول الأمر ولكن عبثاً ، وعبثاً عمل بعض المحاربين الذين بعث الحماس فيهم قلبه الكبير على أن يثيروا الرعب فى معسكر الظافر . فلابد لنا فى نهاية الأمر أن يسقط وأن تسقط شجاعته فوق كل هؤلاء الموتى الذين يسدون طريقه . آه لو استطعت وأنا أخرج من هذا المكان أن أريه أكسيان وأن أموت أمام عينيه ! ولكن تاكسيل يسجننى . وقد ذهب ذلك الخائن فى هذه اللحظة ليشفى غليله من دم البطل . لقد ذهب ليراه بين ذراعى الموت

إذا استطاع مع ذلك الاقتراب منه .

الإسكندر : لا يا سيدتى لقد شاءت رعايتى أن تؤمن حياته . وعما قليل ستقرين عيناً بعودته . سوف ترينه .

أكسيان : أتمتد رعايتك حتى إليه ؟ وهل تصبح الذراع التى عملت على هدمه سنداً له ؟ أيتأتى لى أن أنتظر السلامة من يد الإسكندر؟ ولكن أية معجزة أخرى لم يعد لى أن أتوقع حدوثها ؟ إننى أذكر ، يا سيدى ، وقد وعدتنى بذلك — أن الإسكندر الفاتح لم يعد له أعداء ، أو على أصح تقدير أن هذا المحارب لم يكن أبداً تحت لوائك . ولقد كنتما صنوين فى المجد . لقد كان يريد أن يجرب نفسه أمام شجاعتك العظيمة وأنت لم تكن تهاجمه إلا لتنقذه .

الإسكندر : لا شك أن ازدراءه المتزايد الذى تحدى غضبى كان يستلزم فاتحاً أشد منى قسوة . وأن كبرياءه ، وهو يسقط ، كانت تبدو أكثر ثباتاً . ولكنى شديد الرغبة فى الكف عن عداوته ، إننى أعفيه يا سيدتى من الكراهية ومن لقب العدو وأجعل تاكسيل شاهداً على غضبى فهو وحده الذى يستطيع لو شاء أن يريق دمه أو يحقنه ، وهو وحده فى نهاية الأمر الذى ينبغى لك أن تكسبيه .

أكسيان : أأجثو أنا ، تحت قدميه لأستجدى منه المأوى ؟ وأنت أتضطرنى إلى أن ألجأ لإحسان تاكسيل ؟ أتريد من بوروس أن يسعى إلى ملجأ وضيع إلى هذا الحد ؟ آه ، يا سيدى ! لقد أقسم كرهه على موته . كلا إنك لم تكن تسعى إليه إلا لتحطمه . ما أسهل خداع النفس الكريمة ! إن قلبي فى سرعة تصديقه قد نسى غضبه وأخذ يعجب بفضائل ليست فيك إطلاقاً. سلح نفسك ياسيدى بالقسوة إلى الأبد ولطخ بالدم نهاية ذلك الشوط الرائع . واعمل ، بعد كل هؤلاء الأعداء الذين رآك الناس تقيلهم من عثراتهم ، على قتل الشخص الذى كان ينبغى لك إنقاذه .

الإسكندر : حسن ! أحبي بوروس دون أن تحاولى إبعاد الموت عنه . وارفضى الفضل الذى قُدِّم إليك. شكى فى عطفى بمشاعرك الغيورة . ولكن لو مات فلا تلومى إلا نفسك . ها هو ذا ، إننى أريد أن أستشيره هو نفسه وليكن بوروس هو المتحكم الأول فى مصيره .

* * *

المشهد الثالث

بوروس – الإسكندر – أكسيان – كليوفيل – إفستيون – حرس الإسكندر

الإسكندر : حسن ! هذه هي ثمرة غرورك يا بوروس ! أين هو هذا النجاح الرائع الذى غدر بك ؟ إن تلك الكبرياء المتعالية قد طأطأت الرأس فى نهاية الأمر . وأنا مدين بضحية لمجدى المهان . ولا شيء يستطيع إنقاذك . ومع ذلك، فإننى أرغب فى منحك عفواً رفضته من قبل عدة مرات . إن هذه الملكة. وهى الوحيدة المتمردة على فضلى، تريد أن تظل مخلصة لك على حساب حياتك وتصمم على أن تموتا معاً دون أى تردد حتى تحمل أنت إلى القبر لقب حبيبها . فلا تشتر مجداً عديم الجدوى بهذا الثمن الفادح : عش ! ولكن اخضع لسعادة تاكسيل .

بوروس : تاكسيل ؟

الإسكندر : نعم .

بوروس : إنك تحسن صنعاً وأنا أؤيد منك هذه المساعى . إن الذى فعله من أجلك لا يستحق أقل من ذلك . إنه هو الذى انتزع بيديه المجد منى . وقد منحك أخته وباعك

مجده وأسلم لك بوروس . فماذا لا ينبغى لك فعله لكى ترد إليه فضلا واحداً من أفضاله ؟ ولكنى عرفت كيف أعترض الرغبة التى تعتمل فى نفسك . اذهب وشاهده يمت فى ساحة المعركة .

الإسكندر : ماذا ! تاكسيل ؟

كليوفيل : ماذا أسمع ؟

إفستيون : نعم يا سيدى ، لقد مات . لقد استسلم هو نفسه لمصيره القاسى . كان بوروس منهزماً ، ولكنه بدلا من أن يستسلم كان يهاجم دون أن يدافع عن نفسه . كان جنوده ممددين تحت قدميه يحمونه — وهم على وشك الموت — بأجسادهم التى تلفظ أنفاسها الأخيرة . وهناك ، كما لو كان فى حصن ، كانت شجاعته الحبيسة تبدو صامدة ضد جيش بأسره . واستطاع ، بذراع تحمل الرعب والموت ، أن يحول بينه وبين أشجع المحاربين وحرصت على أن أحافظ على حياته . لأن قوته التى تسلل إليها الوهن كانت كفيلة بأن تسلم لى حياته لقمة سائغة . وحينئذ نزل تاكسيل إلى تلك الساحة المروعة وقال : « توقف إن هذا الأسير من حقى ؛ لقد قضى الأمر ، وأصبح موتك محققاً يا بوروس . فيجب أن

تموت أو أن تترك لى المملكة » . ولكن هذا الصوت أثار غضب بوروس من جديد فرفع ذراعه التى أضنتها الضربات وقال وهو يسعى إلى غريمه ، وينظر بعين متعالية هادئة : « ألست أسمع الخائن تاكسيل الذى خان وطنه وسيدته وخاننى ؟ » ثم تابع كلامه قائلاً : « تقدم أيها الجبان إن أكسيان لك ، وإنى على استعداد لترك تلك الغنيمة العظيمة لك ، ولكن بعد أن تنتصر ذراعك على رأسى . اقترب » . وعلى إثر هذا الحديث انقض الغريمان الثائران كل منهما على الآخر فاعترضنا جميعاً سورة غضبهما . ولكن بوروس سارع وشق لنفسه طريقاً من بيننا ولحق بتاكسيل وضربه. ولما نفذ سلاحه إلى قلبه أقبل راضياً يسلم نفسه للمنتصر .

كليوفيل : أصبح علىّ إذن أن أذرف الدموع غزيرة يا سيدى ؛ فعلى كاهلى سقطت أسلحتك بكامل ثقلها . لقد طلب أخى تعضيدك ، ولكن عبثاً ، فوا أسفاه ! لم يسئ مجدك إلا إليه . وماذا يمكن لصداقة الإسكندر أن تجديه ، وهو فى القبر ؟ أتنظر إليه ، يا سيدى ، وهو يوارى فى القبر دون الانتقام له ؟ أتسمح بعد أن أثخنوه بالضربات أن ينتصروا عليه مرة أخرى أمام عينى أخته وعينيك ؟

أكسيان : نعم يا سيدى استجب لدموع كليوفيل . إننى أرثى لها . وإن لها الحق فى الأسف على تاكسيل بعد أن حاولت عبثاً أن تحافظ عليه بكل جهدها . لقد جعلت منه جباناً ولم تستطع إنقاذه. ليست الحقيقة أن بوروس هاجم أخاها ، بل لقد تقدم هو بنفسه إلى غضبه العادل . إلام كان يسعى وسط المعركة ؟ أكان قد أتى لينتزعه من غضب الفاتح ؟ بل لقد أتى متشفياً من آلام ملك كان النصر نفسه يحيطه بإجلاله . ولكن لماذا تنكر عليك حجة لها مثل هذه الروعة ؟ ماذا تريدين أكثر من ذلك؟ إن تاكسيل فى القبر فقدم يا سيدى هذا القربان العظيم ؛ انتقم له . ولكن لا تنس أن لى نصيباً فى الجريمة . نعم ، نعم ، يا بوروس إن قلبى لا يحب نصف حب ؛ والإسكندر نفسه يعرف ذلك ، وقد تألم تاكسيل من هذا الأمر . أنت وحدك كنت تجهل هذه الحقيقة ولكنى ،جد سعيدة إذ يتاح لى — وأنا أموت — أن أقولها لك أنت نفسك .

بوروس : لقد حان الوقت ، يا إسكندر ؛ لكى تطيب نفساً . ومهما تكن هزيمتى فقد رأيت أنت ماذا صنعت. اخش بوروس واخش أيضاً تلك اليد العزلاء التى تنتقم لهزيمته وسط جيش بأسره . إن اسمى قد يثير أعداء جدداً ويوقظ مائة ملك

يرسفون فى أغلالهم . أختنق فى دمى بذور الحرب واذهب واقهر باطمئنان بقية العالم . ولكن لا تتوقع من قلب مثل قلبى أن يعترف بك قاهراً و يسألك أى شىء . تكلم كيف تستخدم انتصارك . ولكن دون أن يكون لذلك أدنى أمل فى أن أخدش مجدى .

الإسكندر : إن كبرياءك يا بوروس لا يمكن أن تنحنى . إنك تجرؤ على تهديدى حتى وأنت تلفظ النفس الأخير . الواقع أن نصرى يجب أن يأخذ حذره ، فإن اسمك ما زال يستطيع ما لا يستطيعه جيش بأسره ، وعلى أن أحمى نفسى منه . تكلم إذن وقل لى كيف تريد منى أن أعاملك ؟

بوروس : كملك !

الإسكندر : حسن ! إذن سوف أعاملك كملك . لن أترك أبداً نصرى ناقصاً . لقد تمنيت أنت ذلك ولن يكون لديك مجال للشكوى . احتفظ بملكك يا بوروس فإنى أعيد إليك بلادك ، ومع صداقتى تقبل أكسيان : إننى أفرض عليكما أنتما الاثنين هذا الرباط الرقيق . عيشا واحكما معاً ؛ انشرا سلطانكما حتى ضفتى الكانج دون أن يشارككما فى ذلك أى ملك آخر .

(لكليوفيل :) من حق تلك المعاملة يا سيدتى أن تسبب لك الدهشة ، ولكن هكذا ينتقم الإسكندر . إنى أحبك ، وكان قلبى فى تأثره لآلامك يود أن ينتقم لك بألف قتيل . ولكن ربما كنت أنت نفسك تعتبرين موت عدو لم يعد يستطيع الدفاع عن نفسه نوعاً من الإهانة . لقد كان فى مقدوره أن ينتصر ، وكان على وشك أن ينزل القبر منتصراً ، بعد أن تحدى شدة ضرباتى . اسمحى لى إذن أن أؤدى واجبى حتى النهاية ، وأن أقدم كل فضائلى هدية إلى عينيك الجميلتين . اتركى بوروس يحكم بعد أن توجته يداى واملكى أنت نفسك على بقية البشر . اتخذى المشاعر التى توحى إليك بها هذه المكانة واجعلى الناس يعجبون بإمبراطوريتك الوليدة . وحين تنظرين إلى النور الذى ينتشر من حولك ، انسى غضب أخت تاكسيل .

أكسيان : نعم يا سيدتى احكمى . واسمحى لى أنا نفسى أن أبدى إعجابى بالقلب الكبير الذى يحمله حبيبك البطل . أحبى وانعمى بتلك المتعة الرائعة التى تتيح لك رؤية العالم بأسره يعبد حبيبك .

بوروس : لقد كان العالم الوجل يضطرنى حتى هذا اليوم إلى الإعجاب بما يحظى به سلاحك من توفيق . ولكن لم يكن

هناك ما يمنعني وسط ذلك الهلع المشترك من أن أجد فيك من الفضائل أكثر مما لديّ . وها أنذا أستسلم وأترك لك النصر كاملاً : إن فضائلك ، وأعترف بذلك ، لا تقلّ عن شجاعتك . اذهب ، يا سيدى ، وأخضع العالم كله لسلطانك وسوف يرانى الناس أنا نفسى أؤيد انتصاراتك . إننى أتبعك وأعتقد أنه يجب عليّ أن أبذل كل جهد لأقدم للعالم سيداً فى مثل عظمة الإسكندر .

كليوفيل : سيدى ماذا يستطيع أن يقول لك قلب حزين محطم ؟ إننى لا أنطق بحرف واحد يمس شجاعتك . إنك ترد لبوروس الحياة والتاج ، وأريد أن أعتقد أن مجدك هو الذى يأمرك بذلك . ولكن لا تتعجلنى ، فى الحال التى أنا فيها لا أستطيع إلا التزام الصمت والبكاء على أحزانى .

الإسكندر : نعم يا سيدتى لنبك صديقاً كان شديد الإخلاص ، ولنترك الزمام لهمتنا تتألق وسط تنهداتنا ، ولنقم له قبراً رائعاً يخبر الأجيال المقبلة بآلامك وبذكراى .

* * *



أندروماك

(عام ١٦٦٧)

نقلها إلى العربية

الدكتور طه حسين

أشخاص المسرحية

أندروماك	:	أرملة هكتور وأسيرة بيروس	Andromaque
بيروس	:	ابن أخيل وملك إبير	Pyrrhus
أورست	:	ابن أجا ممنون	Oreste
هرميون	:	بنت هيلانة وخطيبة بيروس	Hermione
بيلاد	:	صديق أورست	Pylade
كليون	:	وصيفة هرميون	Cléone
سفيز	:	وصيفة أندروماك	Céphise
فنيكس	:	تابع أخيل ثم أصبح تابعاً لبيروس	Phoenix
		حاشية أورست	Suite d'Oreste

* * *

وتقع أحداث المسرحية فى بيتروت ، مدينة بإبير ، فى بهو من قصر بيروس .

الفصل الأول

المنظر الأول

أورست – بيلاد

أورست : نعم ! الآن وقد لقيت هذا الصديق الوفى فسيلقانى الحظ بوجه جديد . وهاأنذا يخيل إلىّ أن حدته قد أخذت تلين مذ حرص على أن يجمعنا فى هذا المكان. من ذا الذى كان يقدر أن هذا الساحل المهلك لأمانى ، يبدأ فيقدم بيلاد لعينى أورست . وإنى وقد فقدتك منذ أكثر من ستة أشهر أجدك فى قصر بيروس ؟

بيلاد : تبارك الله لقد كان يقفنى بغير انقطاع ، كأنما أخذ علىّ الطريق إلى بلاد اليونان منذ ذلك اليوم المشئوم الذى فرقت فيه ثورة الماء بين سفننا ، وقد كادت تكون بمرأى من ساحل إبير . كم احتملت فى هذا المنفى من خوف ! كم سكبت فيه على آلامك من دمع . لقد كنت أخشى عليك دائماً خطراً جديداً لا تستطيع مودتى الحزينة أن تحمل عنك شطره ! وكان أخوف ما أحذره عليك هذا الحزن الذى رأيتك دهراً طويلا قد واريت نفسك فيه ؟

كنت أخشى أن يمنحك الله معونة قاسية فيهدى إليك الموت الذى طالما سعيت إليه . ولكنى أراك يا مولاى ... ولو استطعت لقلت إن حظاً أسعد من حظك القديم قد جاء بك إلى إبير . فإن هذه المظاهر الفخمة التى تبعث خطاك إلى هذا المكان لا تلائم شقياً يلتمس الحِمام .

أورست : وا حسرتاه ! من ذا الذى يستطيع أن يعرف القدر الذى يقودنى ؟ لقد اضطرنى الحب إلى أن أبحث هنا عن امرأة قاسية. ولكن من يدرى بم يـُقضى فى أمرى ؟ أجئت ألتمس الحياة أم الموت ؟

بيلاد : ماذا ؟ أبلغ من إذعانك للحب أن تعتمد عليه فى تدبير حياتك ؟ أىّ سحر يحملك على أن تعود إلى أغلال الحب ناسياً ما قاسيت من العذاب ؟ أتظن أن هرميون التى لم يكن قلبها يعرف الرحمة فى أسبرطة ستكون أرفق بك فى إبير ؟ لقد كنت تبغضها مستخذياً لكثرة ما عللت به نفسك من أمان كاذبة . بل لم تكن تحدثنى عنها . أكنت تخدعنى يا مولاى ؟

أورست : كنت أخدع نفسى . أيها الصديق ، لا تقس على شقىّ يحبك . أترانى حجبت عنك قط قلبى وأهوائى ؟ لقد شهدت

منشأ لوعتى وأولى زفراتى . ثم لما قضى منيلاس[1] بابنته إلى بيروس ، ذلك الثائر لأسرته ، رأيت يأسى ورأيتنى منذ ذلك اليوم أجرر من بحر إلى بحر أغلالى وآلامى . لقد رأيتك ، وقلبى آسف ، فى تلك الحال المنكرة راضياً أن ترافق فى كلّ مكان ذلك التعس أورست . تهدئ دائماً من ثورة غضبى وتنقذنى من نفسى كل يوم . ولكنى لما ذكرت أن هرميون كانت تمنح بيروس مفاتنها كلها بينما كنت أقاسى الآلام ، امتلأ قلبى بما علمت من غيظ ، وأردت أن أجزى ازدراءها لى بالنسيان . حملت الناس على أن يعتقدوا واعتقدت أنا أيضاً أن انتصارى لا شك فيه . وشبهت علىّ ثورة الحب بثورة البغض . وجعلت — حانقاً على قسوتها ، غاضاًّ من محاسنها — أتحدى عينيها وأزعم أنهما لن تبعثا فى نفسى اضطراباً . انظر كيف استطعت أن أكظم حبى ! وفى هذا الهدوء الخداع وصلتُ إلى بلاد اليونان . فوجدت أول الأمر هؤلاء الملوك مجتمعين كأنّ خطراً عظيماً قد أثار فى نفوسهم القلق . أسرعت إليهم وكنت أظن أن الحرب والمجد سيملآن نفسى بما هو أجلّ من

(١) أراد منيلاس أن يكافئ بيروس لشجاعته حين اشترك معه فى حرب طروادة ، فرغب فى أن يزوجه من ابنته هرميون ، تقديراً لبطولته . (المراجع)

الحب خطراً . وأن مشاعرى ، إذا استردت قوتها الأولى
لم تبق للحب فى قلبى باقياً . ولكن اعجب معى من هذا
القدر الذى يتبعنى فيدفعنى إلى هذا الشرك الذى أتقيه .
أسمع من كل ناحية نذيراً لبيروس ، وكل بلاد اليونان
تعلن سخطها فى همسات مكتومة . يتبرم الناس جميعاً بأنه
يربى فى قصره عدو اليونان وقد نسى دمه ووعده ، يربى
أستيانكس ذلك الصبى الشقى ابن هكتور : بقية أولئك
الملوك المدفونين تحت أنقاض طروادة . لقد علمت أن
أندروماك لتستنقذ ابنها من العذاب ، خدعت الفطن
أوليس فتركته ينتزع من بين ذراعيها ويدفع إلى الموت صبياً
آخر انتحلت له اسم ابنها . ويقال إن بيروس قليل التأثر
بسحر هرميون ، يحول عنها قلبه وتاجه . ومنيلاس محزون
لذلك دون أن يصدقه ، وهو يتبرم بهذا الزواج الذى قد
أهمل زمناً طويلا . وبينما يغمر الغيظ نفسه يشرق فى نفسى
سرور خفى . فأنا أبتهج ، على أنى أزعم قبل كل شىء أن
الانتقام وحده مصدر هذا الابتهاج . ولكن ما أسرع
ما استردت الجاحدة مكانها من قلبى . لقد رأيت فيه
ندوب تلك اللوعة التى لم يكن قد تم هدوؤها . وأحسست
أن بغضى لها يوشك أن ينقضى ، بل أحسست أنى كنت

أحبها دائماً . وكذلك أعرض على اليونان جميعاً سفارتى عنهم : يرسلوننى إلى بيروس فأقدم عليه لأعلم هل من سبيل إلى أن ينتزع من بين ذراعيه هذا الصبي الذى تقلق حياته كل هذه المدن . وإنى لسعيد إذا أتاح لى هذا النشاط الذى يدفعنى إلى العمل أن أختلس منه الأميرة مكان الصبي ! فلا تنتظر آخر الأمر أن هذه النار المضاعفة التى تضطرم فى قلبي تستطيع أن تضعف ، مهما يحط بها من خطر . . لقد بذلت جهوداً لا تحصى . فلم تكن مقاومتى إلا غروراً . فلأستسلم إذاً ولألق بقيادى إلى القضاء . إنى أحب وجئت إلى هذا المكان ألتمس هرميون ، لأعطفها علىّ ولأخطفها أو لأموت أمام عينيها . وأنت الذى تعرف بيروس ، ماذا ترى أنه صانع ؟ حدثنى ماذا يجرى فى قصره ؟ وفى قلبه ؟ أما تزال حبيبتى هرميون مسيطرة عليه ؟ أتراه يردّ إلىّ ، يا بيلاد ، هذه الثروة التى اختلسها منى ؟

بيلاد : أخدعك إن اجترأت على أن أعدك بأنه يا مولاى ، قد يريد أن يسلمها إليك . لا لأنه يظهر سعيداً بفوزه فى الحب ، فإن جذوة غرامه بأرملة هكتور لم تبق خافية . يحبها ، لكن هذه الأرملة القاسية لم تكافئ إلى الآن حبه إلا بالعداء . وإنه ليرى كل يوم يحاول كل شيء إما ليلين

قلب أسيرته أو ليخيفها . يخفى ابنها وينذرها بموته ، فيفسح لها دموعاً غزاراً ، ثم لا يلبث أن يكفكفها . ولقد رأت هرميون نفسها أكثر من مائة مرة هذا العاشق المحنق يعود فيذعن لسلطانها ، مقدماً إليها أمانى مضطربة ومصعداً تحت قدميها زفرات تعرب عن الغيظ أكثر مما تعرب عن الحب . وإذاً فلا تنتظر أن يستطيع أحد اليوم أن يحدثك واثقاً عن قلب لاسلطان له على نفسه . يستطيع ، يا مولاى ، يستطيع فى هذا الاضطراب العظيم أن يقترن بمن يبغض ويعاقب من يحب

أورست : ولكن حدثنى بأى عين تستطيع هرميون أن ترى زواجها يؤجل وسحرها لا سلطان له ؟

بيلاد : هرميون يا مولاى ، فيما يرى على أقل تقدير ، تظهر كأنها تزدرى تقلب عشيقها . وهى تظن أنه سيعود إليها سعيداً كل السعادة ، إن استطاع أن يلين من قسوتها ، ضارعاً إليها فى أن تسترد قلبه . ولكنى رأيتها تسر إلى دموعها . فهى تبكى مستخفية ما تلقاه محاسنها من الازدراء راغبة فى الرحيل دائماً ، مقيمة دائماً ، تدعو أحياناً أورست لمعونتها .

أورست : آه لو وثقت بذلك لأسرعت يا بيلاد لألقى نفسى . . .

بيلاد : أتمم يا مولاى سفارتك ، إنك تنتظر الملك . كلمه وبين له أن اليونان جميعاً يأتمرون بابن هكتور . لن يدفع إليهم ابن حبيبته. ولن يزيد بغضهم لهذا الصبي حبه إلا اضطراما. مهما تحاول أن تفسد بين هذين العاشقين فلن تبلغ إلا التقريب بينهما ، ألحح . اطلب كل شيء لكيلا تظفر بشيء ! ! هو مقبل .

أورست : حسن . اذهب إذن فأعدد القاسية لتلقى عاشقاً لم يأت إلا لها .

* * *

المنظر الثانى

بيروس ، أورست ، فنيكس

أورست : قبل أن يتحدث إليك اليونان جميعاً بصوتى ، إئذن لى فى أن أجرؤ هنا فأفخر بهذه السفارة ، وأن أظهر لك سرورى بأن أرى ابن أخيل وقاهر طروادة . نعم ! وإنا كما نعجب ببلائه نعجب بطعناتك. لقد أودى بهكتور وأوديت بطروادة ، وقد أظهرت ، بشجاعة بارعة ، أن ابن أخيل خليق وحده أن يقوم مقامه . ولكنك تأتى شيئاً لم يكن ليأتيه ، فإن اليونان يرونك تقيل عثرة الدم الطروادى . تركت نفسك

تتأثر بشفقة خطرة ، فعنيت بما أبقت هذه الحرب الطويلة . ألم تعد تذكر يا مولاى ماذا كان هكتور ! إن شعوبنا المرهقة ما زالت تذكره . إن اسمه وحده ليبعث الرعدة فى أراملنا وبناتنا. وما فى بلاد اليونان من أسرة إلا وهى تتقاضى هذا الصبى الشقى ثأراً لأب أو زوج قتله هكتور . ومن يدرى ماذا عسى أن يحاول هذا الصبى يوماً ؟ لعلنا نراه ينزل إلى ثغورنا كما رأينا أباه يحرق سفننا : يتبعها على الماء والجذوة فى يده . أأجرؤ يا مولاى على أن أقول ما أرى ؟ احذر أنت جزاء هذه العناية بهذا الصبى ، وإن هذا الثعبان الذى تربيه فى حجرك سيعاقبك يوماً ما لأنك أبقيت عليه . وبعد، فحقق أمل اليونان جميعاً. آمنهم على انتقامهم وآمن نفسك على حياتك : أهلك عدوًّا مضاعف الخطر لأنه سيجرب قوته بقتالك قبل أن يقاتل اليونان .

بيروس : لشدّ ما يشغل اليونان أنفسهم بى . لقد كنت أحسب أن أمراً أجل خطراً يقلقهم يا سيدى . وكنت أقدر حين عرفت اسم سفيرهم أن لهذه السفارة غاية أجل وأسمى . فمنذا الذى يصدق فى الحق أن غاية كهذه تستحق أن يوكل بها ابن أجا ممنون ، وأن شعباً بأسره أحرز ما أحرز من نصر ، لم يشأ أن يأتمر إلا بموت طفل ، ولكن لمن يريد اليونان

أن أضحى بهذا الصبي ؟ ألا يزال لهم شيء من السلطان على حياته ؟ وهل يحظر عليّ وحدى بين اليونان جميعاً أن أقضى كما أشاء فى أسير أخضعه لى القدر ؟ نعم يا سيدى حين اقتسم المنتصرون ، تخضبهم الدماء ، غنائمهم تحت تلك الأسوار يجللها الدخان ، أسوار طروادة ، قضت لى القرعة التى أذعنوا لحكمها بأندروماك وابنها . لقد استنفدت هيكوب[1] شقاءها عند أوليس وتبعت كسندرا[2] أباك إلى أرجوس . أترانى بسطت يدى عليهم أو على أسراهم ؟ أترانى تحكمت فى ثمرات انتصارهم ؟ يخشى اليونان أن تبعث طروادة مع هكتور يوماً ما وأن يسلبنى ابنه ما أدع له من حياة . إنّ هذا الإسراف فى الحذر يستتبع همًّا ثقيلا ، ولست أحسن التنبؤ بالشر لأمد بعيد كهذا الأمد . إنى لأفكر فيما كانت عليه تلك المدينة ، فخمة الأسوار ، كثيرة الأبطال ، سيدة آسيا . ثم إنى لأرى عاقبتها وما ادخر لها القضاء : فلا أرى إلا بروجاً أخفاها الرماد ، وإلا نهراً[3] صبغه الدم وإلا ريفاً قفراً وصبيًّا فى الأغلال ؛ فلا أستطيع أن أقدر أن طروادة فى هذه الحال تفكر فى الانتقام . آه !

---

(١) امرأة بريام ملك طروادة . (٢) كسندرا : ابنة هيكوب .

(٣) نهر السكندر .

إذا كان موت ابن هكتور أمراً محتوماً، فلم أخرناه حولا كاملا ؟ ألم يكن من اليسير ذبحه فى حجر بريام ؟ لقد كان يجب أن يقتل بين ذلك العدد الضخم من الموتى وأن يسحق تحت أنقاض طروادة . كل شيء كان عدلاً حينئذ ، وكان دفاع الشيخوخة والطفولة بضعفهما عبثاً . لقد كان الليل والنصر أقسى منا ، فكانا يدفعاننا إلى القتل ويخلطان بين ضرباتنا . وكان غضبي على المقهورين شديد العنف . فأما أن تبقى القسوة وقد سكت الغضب ، فأما أن أغمر نفسى راضياً فى دم طفل برغم ما يملكنى من إشفاق ، فلا يا سيدى ! ليلتمس اليونان فريسة أخرى . وليتعقبوا فى غير هذه البلاد ما بقى من طروادة . لقد انقضت عداوتى ، ولتبقين إبير على ما لم تهلك من طروادة .

أورست : مولاى ، إنك لتعلم حق العلم بأى خديعة قدم صبى باسم إستيانكس إلى الموت ، حيث كان يجب أن يقدم ابن هكتور . إن اليونان لا يتعقبون الطرواديين ، إنما يتعقبون هكتور . نعم ! إنهم يضطهدون فى الابن أباه . لقد اشترى سخطهم بكثير من الدم ، ولن يموت هذا السخط إلا فى دمه . وليتبعن هذا السخط دمه فى كل مكان حتى فى إبير . فاسبقهم أنت .

بيروس : كلا ! كلا ! إنى لأقبل هذا فرحاً : فليلتمس اليونان فى إبير طروادة ثانية . فليختلط بغضهم ، فلا يفرقوا بين الدم الذى أتاح لهم النصر وبين دم المغلوب . على أن هذا ليس أول ظلم جزى به اليونان يد أخيل عليهم[1]. لقد انتفع هكتور بهذا الظلم يا سيدى . وربما أتيح لابنه أن ينتفع به يوماً ما .

أورست : إذاً فلا يلقى اليونان منك إلا ابناً ثائراً .

بيروس : أفترانى لم أنتصر إلا لأكون لهم تابعاً ؟

أورست : ستقف هرميون يا مولاى ضرباتك ، وستحول عيناها بين أبيها وبينك .

بيروس : إن هرميون يا سيدى تستطيع أن تظل عزيزة علىّ . وإنى أستطيع أن أحبها دون أن أكون لأبيها عبداً . وربما عرفت يوماً أن أوفق بين ما يجب للمجد وما يجب للحب. ومع ذلك فلك أن ترى ابنة هيلانة . فأنا أعرف ما بينكما

---

(١) إشارة إلى ما وقع بين أخيل وأجا ممنون من نزاع ورد فى الإلياذة ، فقد اختطف أجا ممنون من أخيل أسرته بريزئيس . غضب أخيل إلا أنه لم يشأ أن يذهب لقتال خصمه مما كان سبباً فى تأخير موت هكتور .

من هذه الصلة القوية ، صلة الدم[1] . وبعد ، يا سيدى ، فلست أريد أن أؤخرك هنا فتستطيع أن تعلن اليونان رفضى لما طلبوا إلىّ .

* * *

المنظر الثالث

بيروس ، فنيكس

فنيكس : وكذلك تلقيه على قدمى حبيبته .

بيروس : يقال إن حبه للأميرة طالما أضناه .

فنيكس : فإذا عادت هذه الجذوة يا سيدى إلى الاضطرام ؟ فإذا رد إليها قلبه ؟ فإذا ألهمها حبه ؟

بيروس : آه ! فليتحابا يا فنيكس . أنا راض . لترحل . ليعودا سعيدين إلى أسبرطة ، وقد فتن كلاهما بصاحبه . إن ثغورنا جميعاً لمفتوحة لها وله . إنهما إذاً لينقذانى من الضيق والألم !

فنيكس : مولاى !

بيروس : سأفتح لك صدرى مرة أخرى ؛ هذه أندروماك مقبلة .

* * *

---

(١) أورست ولد أجا ممنون ، وهرميون ابنة مينلاس وهيلانة وهما من أبناء العمومة لأن أجا ممنون ومينلاس كانا أخوين .

المنظر الرابع

بيروس ، أندروماك ، سفيز

بيروس : أتلتمسينني يا سيدتي ! أيؤذن لي بهذا الأمل الحلو ؟

أندروماك : لقد كنت ذاهبة إلى حيث يحفظ ابني ما دمت تأذن بأن أرى مرة في اليوم من بقي لي من هيكتور ومن طروادة. لقد كنت ذاهبة يا مولاي أبكي معه ساعة ، فإني لم أقبله اليوم .

بيروس : آه يا سيدتي ، إن اليونان ليثيرون في نفسك دواعي أخرى للبكاء إن صدقت ما يساورهم من القلق .

أندروماك : وما هذا الخوف الذي يملأ قلوبهم يا مولاي ؟ هل أفلت منك بعض الطرواديين ؟

بيروس : لم يخمد بعد بغضهم لهكتور فهم يخشون ابنه .

أندروماك : ما أجدره أن يخيفهم هذا الصبي الشقي الذي لم يعلم بعد أن بيروس مولاه وأن هكتور أبوه !

بيروس : ومع أنه كذلك فاليونان يطلبون موته ، وقد أقبل ابن أجاممنون يتعجل وفاته .

أندروماك : وأنت تقضى مثل هذا القضاء القاسى ؟ ألتعلقى به يرونه مجرماً ؟ وا حسرتاه ! إنهم لا يخشون أن يثأر لأبيه يوماً ما ، ولكنهم يخشون أن يجفف دموع أمه . لقد كنت أرجو أن يقوم منى مقام الأب والزوج . ولكن يجب أن أفقد كل شىء ، وأن يكون ذلك دائماً بطعنات يدك .

بيروس : سيدتى لقد اتقيت دموعك برفضى . وقد أنذرنى اليونان جميعاً بالحرب . ولكنهم يستطيعون ، وقد عبروا الماء فى ألف سفينة ، أن يطلبوا ابنك إلىّ . ليستتبع ذلك كل ما أريق فى سبيل هيلانة من دم . ولأرَ بعدَ عشر سنين قصرى قد استحال إلى رماد . فلن أتردد : لأطيرنّ إلى معونته ، ولأحمين حياته مضحياً فى سبيلها بحياتى . ولكن بين هذه الأخطار التى أسرع إليها . ابتغاء مرضاتك ، أتأبين علىّ نظرة أقل قسوة ؟ يبغضنى اليونان جميعاً وأهاجم من كل ناحية ، أفيجب أيضاً أن أقاوم قسوتك . إنى لأقدم إليك ذراعى ، فهل آمل أنك ستقبلين قلباً يعبدك ؟ أفيؤذن لى ، وأنا أحارب من أجلك ، ألا أعدّك بين أعدائى ؟

أندروماك : مولاى ، ماذا تصنع؟ وماذا يقول اليونان ؟ أينبغى أن يظهر قلب عظيم كقلبك مثل هذا الضعف ؟ أتريد أن تُفهم

خطة لها هذا القدر من النبل والكرم على أنها غرام قلب محب ؟ إنما أنا أسيرة حزينة دائماً مشئومة على نفسى . أتستطيع أن تتمنى لو تحبك أندروماك ؟ أى سحر تجد فى عينين منكودتين قضيت عليهما بالبكاء الدائم ؟ كلا ! كلا ! إنما رعاية ما لشقاء العدو من حرمة ، وإنقاذ البائسين ورد ولد إلى أمه ، واحتمال العداء من مائة شعب فى سبيله دون أن أبذل قلبي ثمناً لنجدته وحمايته ولو كان ذلك برغمى : هذه يا مولاى هى الخصال التى تليق بابن أخيل .

بيروس : ماذا ؟ ألم يبلغ غضبك أمده بعد ؟ أيستطيع الناس أن يبغضوا دائماً ويعاقبوا دائماً ؟ ربما أشقيت قوماً ورأت فريجيا يدى مخضبة بدمائكم . ولكن ما أشد ما تسلطت عيناك على ؟ وما أغلى ما اشتريت ما ذرفنا من دموع ؟ لأى ندم جعلتانى نهباً ؟ إنى لأقاسى كل ما أحدثت أمام طروادة من ألم ؟ إنى لمقهور . إنى لمغلول . إنى ليضنينى الأسى . إنى لتحرقنى نار أشد هولا من تلك التى كنت أضرمها . كل هذه الهموم ، كل هذه الدموع ، كل هذه الحدة القلقة ، وا حسرتاه ! أكان هذا كله يبلغ قسوتك ؟ وبعد فحسبنا ما تبادلنا من الأذى . إن أعداءك وأعدائى خليقون

أن يؤلفوا بيننا . سيدتى إئذنى لى بالأمل، أردد إليك ابنك وأكنْ له أباً وأعلمه بنفسى كيف يثأر للطرواديين ، وأعاقب اليونان لما لقيت أنت ولقيت أنا من أذى . إن نظرة منك تستطيع أن تبعث فىّ الحياة ، فأحاول كل شىء . وإن طروادتك إذاً لتستطيع أن تخرج من رمادها ، إذاً أستطيع ، فى وقت أقل مما أنفق اليونان فى أخذها ، أن أقيم أسوارها وأتوّج ابنك فيها .

أندروماك : مولاى ، مثل هذه الألوان من العظمة لم تعد تعنينا الآن : لقد كنت أعد بها ابنى فى حياة أبيه . كلا ! إنك لا تأملين أن تريني مرة أخرى ، أيتها الأسوار المقدسة التى عجزت عن حماية هكتور . إنما يطلب الأشقياء حظًّا دون هذا . مولاى ؛ إنما تسألك دموعى النفى : إئذن بأن أذهب إلى مكان بعيد عن اليونان ، بل بعيد عنك ، أخفى فيه ابنى وأبكى فيه زوجى . إن حبك ليشب علينا بغضاً لا قبل لنا به : عد ، عد إلى ابنة هيلانة .

بيروس : وهل أستطيع ذلك يا سيدتى ؟ آه ! إنك لتحرجينى حرجاً شديداً ! كيف أردّ إليها قلباً قد ارتهنته ؟ إنى لأعلم أن قد وعدت بالتسلط على حبى وإنما جاءت هذه البلاد لتتوج عليها ملكة . لقد أراد القضاء أن يأتى بكما معاً

إلى هذه البلاد : أما أنت فلحمل الأغلال ، وأما هى فلإعطائها . ومع ذلك فهل عنيت ، ولو قليلا ، بأن أروقها ؟ أو ليس يخيل لمن رأى سحرك متسلطاً علىّ ، ومحاسنها لا تأثير لها فى نفسى ، أنك أنت الملكة ، وأنها هى الأسيرة العانية . آه إن زفرة من الزفرات التى يرسلها إليك قلبى لو قد تحولت إليها لامتلأت نفسها سروراً وحبوراً !

أندروماك : وما لها ترد زفراتك ؟ أتراها نسيت مآثرك عليها ؟ أترى طروادة وهكتور يثيرانها عليك ، ويصرفانها عنك ؟ أتراها مدينة بالحب لزوج قضى ؟ وأى زوج ! آه ! يا لها من ذكرى قاسية ! إن موته وحده هو الذى خلد ذكرى أبيك . إنما أبوك مدين بمجده كله لدم هكتور ، إنما يعرفك الناس ويعرفونه بما أسكب من دموع .

بيروس : ليكن يا سيدتى ، ليكن ما تريدين . لك الطاعة . يجب أن أنساك ، يجب أن أنساك ، بل يجب أن أبغضك . نعم ، لقد أسرف علىّ الحب إسرافاً لن أستطيع بعده إهمالك . فكرى فى ذلك وأجيدى التفكير ، إن قلبى إن يكن قد أحب فى عنف ، فيجب أن يبغض فى عنف . لن يدعنى غضبى العادل أعفو لك عن شىء ، ليؤدين الابن إلىّ

جزاء ازدراء أمه لى : إن اليونان ليطلبونه ، ولست أرى أن ألتمس المجد دائماً فى حماية الجاحدين .

أندروماك : وا حسرتاه ! إذاً فسيموت . . . ليس له ما يحميه إلا طهارته ودموع أمه . ومن يدرى ؟ لعل موته فى هذه الحال التى أنا فيها يعجل بآخر ما ألقى من الآلام . من أجله أطيل حياتى وشقائى ، ولكنى سأقفو أثره لألقى أباه . وكذلك يا مولاى نجمعنا نحن الثلاثة عنايتك بنا ، فنحن لك . . .

بيروس : اذهبى يا سيدتى ، اذهبى لزيارة ابنك . فلعل حبك له حين ترينه أن يهدأ بعض الشىء ، فلا يتخذ الغضب له مرشداً . وسأزورك لأعلم عاقبة أمرنا . سيدتى إذا قبلته ففكرى فى إنقاذه .

الفصل الثانى

المنظر الأول

هرميون ، كليون

هرميون : لك ما تريدين ، فقد رضيت لقاءه[١] . ولست أكره أن أمنحه هذا السرور . سيقوده بيلاد إلى هذا المكان عما قليل . ولكنى لو أحسنت التفكير لأبيت لقاءه .

كليون : وأى خطر عليك فى رؤيته يا مولاتى ؟ أليس هو دائماً أورست الذى تمنيت مائة مرة لو يعود ، والذى طالما أسفت على حبه ووفائه ؟

هرميون : إن هذا الحب الذى جازيته بالصد هو الذى يجعل محضره علىّ ثقيلا . أى خزى لى وأى انتصار له حين يرى أن شقائى يعدل آلامه ؟ سيقول أهذه هى المتكبرة هرميون ؟ لقد كانت تزدرينى ، فغيرى يهجرها . هذه الجاحدة التى كانت تغالى بحبها ، إنها لتتعلم الآن كيف تحتمل الازدراء . آه يا للآلهة !

(١) لقاء أورست .

كليون : آه ! دعى تلك المخاوف التى لا تليق بك : إن سلطان سحرك عليه لأعظم من هذا . أتظنين أن عاشقاً يلقاك ليسوءك ؟ إنه يحمل إليك قلباً لم يستطع أن يستنقذه منك . ولكنك لا تحدثيننى بم يأمرك أبوك ؟

هرميون : إذا مضى بيروس فى تلكئه ، ولم يقبل موت الطروادى[1] ، فإن أبى ومعه اليونان يأمروننى بالرحيل .

كليون : وإذاً يا سيدتى ، وإذاً فاسمعى لأورست . لقد بدأ[2] بيروس فأتمى أنت ما بدأ . والخير فى أن تنذريه . ألم تنبئينى بأنك تبغضينه ؟

هرميون : نعم ! وأى بغض يا كليون ! إن مكانتى لرهينة بهذا البغض بعد هذا الإحسان الكثير الذى جزاه بالنسيان . هذا الذى كان عزيزاً علىّ فاستطاع خيانتى ! آه ! لقد أسرفت فى حبه فلم أعد أستطيع له الآن إلا البغض .

كليون : ابتعدى عنه إذاً يا مولاتى . وما دام حبك يتيّم غيره ...

هرميون : آه ! دعى غضبى عليه يزدد مع الزمن . دعينى أستوثق من قوتى للنكاية بعدوى يا كليون . إنى لأريد تركه . إنى

---

(١) تعبير ينم عن احتقار هرميون لابن أندروماك ، الطفل أستيانكس .

(٢) لقد بدأ حين رفض تسليم الطفل لليونان .

لأتركه أشد ما أكون نفوراً منه ، وإن الخائن ليدفعني إلى ذلك ما استطاع !

كليون : ماذا تنتظرين ؟ أتريدين أن يلقاك بإهانة أخرى ؟ إنه ليحب أسيرة بمرأى منك . وكل هذا ألا يكفي ليبغضه إليك ؟ ماذا يستطيع أن يعمل بعدما عمل ؟ لقد ساءك لو كان يستطيع إلى الإساءة سبيلا .

هرميون : لم تزيدين أيتها القاسية أن تهيجي أشجاني ؟ إني لأخشى أن أعرف نفسي كما هي . جدي في ألا تصدقي شيئاً من كل ما ترين . اعتقدي أني لم أعد أحب . واثني لي على انتصاري . اعتقدي أن قلبي قد تمكن منه الغيظ حتى جمد . وا حسرتاه ! وإن استطعت فدعيني أؤمن بذلك . أتريدين أن أفر منه ؟ ليكن ذلك . فلن يعوقني شيء . لا نحسد بعد غنيمته الدنيئة . لتبسط أسيرته سلطانها عليه . لنفر . . . ولكن إذا عاد الخائن فأذعن للواجب ! إذا استردت الأمانة بعض المكان في قلبه ، إذا أكب على قدمي يستميحني العفو ، إذا استطعت أيها الحب أن تلزمه طاعتي ! إذا أراد ! . . . ولكن الخائن لا يريد إلا أن يهينني . لنبق مع ذلك ، لننغص سعادتهما ، لنلتمس بعض اللذة في أن نثقل عليهما ، أو لنكرهه على أن يفصم هذه

العروة الوثقى ، لنجعله مجرماً أمام اليونان جميعاً . ها أنذى قد جررت غضبهم على الابن وإنى لأريد أن تطلب إليه الأم أيضاً . فلنحملها من الألم ما حملتنى ، لتفقده أو ليكن سبباً فى هلاكها .

كليون : أتظنين أن عينين مفتوحتين دائماً لسكب الدموع تجدان شيئاً من اللذة فى تنغيص ما لسحرك من سلطان ؟ وأن قلباً ينوء به ما يثقله من السأم قد طمع فى زفرات من يعذبه ؟ انظرى ! أترين أن هذه الزفرات قد خففت من ألمها ؟ وإذاً فما هذا الحزن يغمر نفسها ؟ لم هذه الكبرياء الشديدة على الحبيب المعجب ؟

هرميون : وا شقوتاه ! لقد أسرفت فى الاستماع له . ولم أتكلف الصمت لأخفى عليه أمرى . كنت أظن أنى أستطيع الصدق فى غير خطر . ولم أمنح عينى سلاح الشدة حيناً ، ولم أستشر ، حين كنت أتحدث إليه ، إلا قلبى . ومن هذه التى لم تكن تظهر كما أظهرت خبيئة نفسها بعد هذا القسم العظيم على الحب ؟ أكان يرانى بالعين التى يرانى بها اليوم ؟ إنك لتذكرين ، لقد كان كل شىء يدفعنى إليه : أسرتى وقد ثأر لها ، واليونان مبتهجون ، وسفننا مثقلة بأسلاب طروادة ، وبلاء أبيه قد محاه بلاؤه ، وجذوته التى

كنت أظنها أشد اضطراماً من جذوتى ، وقلبى ، ثم أنت وقد بهرك مجده . قبل أن يخونني هو خنتمونى جميعاً . ولكن هذا كثير يا كليون . ومهما يكن بيروس فإن لهرميون قلباً ولأورست فضلا . هو يعرف كيف يحب على الأقل ، بل دون أن يجزى على حبه . ولعله يعرف كيف يغرس حبه فى قلبى . هلم . ليأت .

كليون : سيدتى ، ها هوذا .

هرميون : آه . لم أكن أقدر أنه قريب من هنا إلى هذا الحد .

* * *

المنظر الثانى

هرميون ، أورست ، كليون

هرميون : أأصدق يا مولاى أن بقية من حنان تحملك على أن تلتمس هنا أميرة محزونة ؟ أم هل أعتقد أن واجب اللياقة وحده هو الذى دفعك حثيثاً إلى التفضل بالرغبة فى لقائى ؟

أورست : كذلك أراد بى هذا الحب الأعمى المشئوم ، إنك لتعلمين ذلك يا سيدتى . وقد قضى القدر على أورست أن يأتى دائماً ليهيم بمحاسنك . وأن يقسم دائماً أن لن يعود أبداً . إنى لأعلم أن نظراتك ستنكأ جراحى ، وأن خطواتى

إليك كلها ضروب من الحنث : إنى لأعلم ذلك ، لأنى لأستحي منه . ولكنى أشهد الآلهة الذين رأوا ثورة وداعى الأخير ، أنى أسرعت إلى كل مكان استيقنت أن الموت المحقق فيه سيحلنى من أيمانى ويضع حدًّا لآلامى. لقد كنت ألتمس الموت عند شعوب قاسية لم تكن تهدئ من غضب آلهتها إلا بدماء الإنسان ، فأغلقوا أمامى معابدهم . وضنت هذه الشعوب الجافية بما كنت أبذل لهم من دمى . ثم هاأنذا أعود إليك ، وأرانى مضطرًّا إلى أن ألتمس من عينيك موتاً يفر منى. ليس بينى وبين اليأس سوى ألاتحفلا بى. وأن تحظرا على بقية من رجاء . ليس لهما إلا أن تقولا لى مرة واحدة ما قالتاه دائماً ، لتقدّما إلىّ الموت الذى ألح فى السعى إليه ، بهذا وحده أعنى منذ سنة . فما عليك يا سيدتى إلا أن تقبلى هذه التضحية التى كاد السيتيون يختلسونها منك .

هرميون : دع يا مولاى ، دع هذا الحديث المشئوم ، فإن اليونان يكلفونك أموراً أحق من هذا بالعناية . ما حديثك عن السيتيين وعن قسوتى ؟ فكّر فى كل هؤلاء الملوك الذين تمثلهم. أينبغى أن يكون الانتقام لهم رهيناً بهيامك؟ أهم يطلبون دم أورست؟ حلّل نفسك من هذه السفارة التى احتملتها .

أورست : إن رفض بيروس قد أحلّني منها يا سيدتي . إنه يردني ، وإن قوة أخرى تحمله على أن يقيم نفسه مدافعاً عن ابن هكتور .

هرميون : يا له من خائن !

أورست : وكذلك أقبلت ، وقد أزف رحيلي عنه ، أستشيرك في مصيري . ولقد يخيل إليّ أني أسمع الجواب الذي يلهمك إياه سرًّا بغضك لي .

هرميون : ماذا ! أجور متصل وشكوى ملحة من عداوتي في أحاديثك المحزونة ؟ ما هذه القسوة التي تأخذني بها كثيراً ؟ إنما جزت إلى إبير حيث نفيت ، بذلك أمر أبي . ولكن من يدري ؟ لعلي شاطرتك آلامك منذ ذلك الوقت سرًّا. أتظن أنك أحسست الخوف وحدك ؟ وأن إبير لم تر دموعي تسيل قط ؟ ثمّ من حدثك بأني ، برغم واجبي ، لم أتمن أحياناً لو أراك ؟

أورست : تمنيت لقائي أيتها الأميرة المعبودة ! ولكن رحماك ! أإليّ يساق هذا الحديث ؟ افتحي عينيك ، فكري في أن أورست ماثل أمامك ، أورست الذي ظلّ دهراً طويلا موضع غضبهما .

هرميون : نعم أنت الذى ولد حبه مع سحر عينى ، فعلّمهما لأول مرة ما للحظهما من سلطان. أنت الذى تضطرنى ألف فضيلة فيه إلى أن أقدره . أنت الذى أرق له ثم أود لو أحبه .

اورست : إنى لأفهمك . كذلك حظى المشئوم : القلب لبيروس والأمانى لأورست .

هرميون : آه ! لا تتمن حظ بيروس ؛ إذاً لأبغضتك إلى غير مدى .

اورست : إذاً يزداد حبك لى . آه ! إذاً ترينى بغير هذه العين ! إنك تريدين أن تحبينى . ولا أستطيع أن أروقك ، يومئذ يتسلط عليك الحب فتهويننى حين تريدين بغضى . يا للآلهة ! كل هذا الإجلال. . . كل هذه المودة الحلوة... ما أقوى حجتى لو تدركين قصدى ! إنما تجادلين اليوم وحدك عن بيروس . وربما كان هذا برغمك ، وربما كان على كره منه . فهو يبغضك آخر الأمر ، وإن نفسه المشغوفة بغيرك لم يبق لها . . .

هرميون : من أنبأك يا مولاى أنه يزدرينى ؟ أأنبأتك بذلك نظراته وأحاديثه ؟ أترى أن طلعتى تبعث على الازدراء وأنها تشبّ فى القلب جذوة قلما تدوم ؟ فلعل أعيناً أخرى أن تكون أحبّ لى وأعطف علىّ .

أورست : امضى فى حديثك . جميل بك أن تهينينى على هذا النحو أيتها القاسية . أأنا الذى يزدريك هنا ؟ ألم تمتحن عيناك بعد وفائى ؟ أأنا الذى يشهد ضعفهما ؟ أأنا الذى ازدريتهما ؟ آه ! ما أحرصهما على أن تريا خصمى يزدرى سلطانهما كما أزدريه !

هرميون : ما يعنينى ، يا مولاى ، من بغضه أو من حبه ؟ اذهب فألب اليونان جميعاً على هذا الثائر . أد إليه ثمن ثورته ، ولتصبح إبير طروادة ثانية . امض ، هل تزعم بعد ذلك أنى أحبه ؟

أورست : سيدتى افعلى أكثر من هذا . تعالى أنت هناك فألبيهم عليه . أتريدين أن تقيمى رهينة فى هذا المكان . تعالى تحدثى بعينك إلى جميع القلوب . لنجعل من بغضنا له هجمة مشتركة .

هرميون : ولكن يا مولاى ، ماذا لو اقترن بأندروماك وقتذاك ؟

أورست : إيه سيدتى !

هرميون : فكر أى خزى لنا إذا أصبح زوجاً لهذه الفريجية ؟

أورست : وتبغضينه ؟ اعترفى يا سيدتى أن الحب ليس هذه النار التى يمكن أن تخبأ فى النفوس . كل شىء ينم به : الصوت

والصمت والعيون . وإنما يشتد اضطرام النار إذا لم يحسن إخفاؤها .

هرميون : مولاى ، إنى لأرى جيداً أن نفسك مهيأة لتنشر على حديثى ما يهلكها من ألم . إنها لتلتمس الالتواء فى كل ما أقول وترى أن البغض جهد فى سبيل الحب . فلأوضح إذاً ما أريد ولتتصرف أنت بعد ذلك إنك لتعلم أن الواجب هو الذى قادنى إلى هذا المكان ، وأن الواجب ليمسكنى فيه . فلا سبيل إلى الرحيل إلا أن يخرجنى منه أبى أو بيروس . فاذهب إليه فنبئه عن أبى أن عدو اليونان لا يستطيع أن يكون له صهراً . خيره بين الطروادى وبينى . فلينظر أى الاثنين يريد أن يسلم وأيهما يريد أن يبقى . وبعد فليخرجنى أو فليسلم الصبى إليك . الوداع ! إنى مستعدة لمرافقتك إن قبل ذلك .

* * *

المنظر الثالث

أورست وحده

نعم . نعم . سترافقيننى ، لا تشكى فى ذلك . وإنى أؤكد لك منذ الآن قبوله . لست أخشى آخر الأمر أن يستبقيها بيروس . فليس أمام عينيه إلا طروادية العزيزة . كل شىء غيرها يؤذيه . ولعله اليوم لا ينتظر إلا تعلّة ليقصى عنه هرميون . فلنتحدث فقد قضى الأمر . يا للبهجة حين تنتزع من ابير هذه الفريسة الرائعة ! أنقذى كل ما بقى من طروادة ومن هكتور . أمسكى عليك ابنه وأرملته وألف امرأة غيرها . أى إبير ! حسبى أن هرميون ، وقد ردّت إلى ، لن ترى أبد الدهر ثغورك ولا أميرك . ولكن قدراً سعيداً يقوده إلى هذا المكان . لنتكلم . أيها الحب ، أغمض عينيه حتى لا يرى كل هذه المحاسن !

* * *

المنظر الرابع

بيروس ، أورست ، فنيكس

بيروس : لقد كنت ألتمسك يا سيدى . إن شيئاً من الحدة اضطرنى إلى أن أقاوم ما كان لحجتك من قوة . إنى لأعترف بذلك ، على أنى منذ تركتك أحسست ما لحجتك من قوة وعرفت ما فيها من عدل . وفكرت مثلك أنى كنت ماضياً فى العداء لليونان ، ولأبى ، ولنفسى ، وأنى كنت أقيم طروادة وأفسد كل ما أبلى أخيل ، وكل ما أبليت أنا . لن أنكر منذ الآن هذا الغضب المشروع . ولتقدمن إليك الآن يا سيدى الضحية التى تبغيها .

أورست : إنك يا مولاى ، بهذا القرار الرشيد الحازم ، تشترى السلم بدم صبى تعس .

بيروس : نعم ! ولكنى أريد يا سيدى أن أزيد فى تثبيت السلم : إن هرميون ضمان للسلم الدائم وسأقترن بها . وقد يظهر أن مشهداً جميلا كهذا المشهد لم يتأخر إلا انتظاراً لشاهد مثلك . وأنت تمثل اليونان جميعاً ، وتمثل أباها منيلاس

الذى يرى فيك صورة أخيه . فاذهب إليها إذاً . اذهب فأنبئها بأن يدك ستقدم إلىّ غداً السلم وقلبها .

أورست : آه يا للآلهة !

* * *

المنظر الخامس

بيروس ، فنيكس

بيروس : إيه فنيكس ، هل الأمر للحب ؟ وهل ما زالت تنكرنى عيونك ؟

فنيكس : آه ! إنى أتعرف عليك من جديد . وأن هذا الغضب الحق ليردك إلى نفسك كما يردك إلى اليونان جميعاً . ما أنت باللعبة فى يد جذوة ذليلة : إنما أنت بيروس بن أخيل وقريعه . أنت الذى عاد فأذعن السلطان المجد الذى ينتصر على طروادة مرة أخرى .

بيروس : بل قل إن انتصارى يبدأ اليوم . وإنى إنما أجد لذة النصر اليوم . وإن قلبى ، يملأه من الكبرياء مثل ما كان يملأه من الخضوع ، يرى أن قد انتصر من الحب على ألف عدو . قدّر يا فنيكس ما أتقى من اضطراب ، وأى

مقدار من الشر يستتبعه الحب ، وبكم من الأصدقاء والواجبات كنت أريد أن أضحي ، فيا لها من أخطار !... لقد كانت نظرة واحدة قادرة على أن تنسيني كل شيء ! لقد كان اليونان جميعاً يأتمرون بالحملة على ثائر . لقد كنت أجد لذة فى أن أهلك نفسى من أجلها .

فنيكس : نعم إنى لأحمد ، يا مولاى ، هذه القسوة السعيدة التى تجعلك . . .

بيروس : لقد رأيت كيف عاملتني . وكنت أقدر حين رأيت حنانها قد أخذه الإشفاق أن ابنها سيدفعها إلىّ مستسلمة . لقد ذهبت لأرى أثر تقبيلها إياه . فلم أر إلا بكاء مزاجه الثورة . إن شقاءها ليفسد طبيعتها . . وإن نفورها الذى يزداد من حين إلى حين قد أنطق فمها مائة مرة باسم هكتور. لقد كان عبثاً ما أكدت من معونتى لابنها . فما كنت أسمع منها إلا أن تقول وهى تعانقه دائماً : « إنما هو هكتور . هاتان عيناه ! هذا فمه ! هذه جرأته مبتدرة ! هو بنفسه . إننى أعانقك أنت أيها الزوج العزيز» . وفيم كانت تفكر؟ أتنتظر منى فى يوم من الأيام أن أترك لها ابنها يغذى حبها ؟

فنيكس : هذا ثمن احتفاظك بهذه الجاحدة دون ريب ، فدعها يا مولاى .

بيروس : إنى لأرى ما يغرها . جمالها يملأها ثقة . ومهما يكن غضبى ، فإن هذه المتكبرة تنتظر أن ترانى جاثياً بين يديها. كلا ! ستجثو هى بين يدى ، وسأراها فى هذه الحال مطمئناً. إنها أرملة هكتور وأنا ابن أخيل: إن بغضاً عظيماً ليحول بين أندروماك وبيروس .

فنيكس : فابدأ إذاً يا مولاى بألاّ تحدثنى عنها . هلم فزر هرميون . واتحملك رغبتك فى أن ترضيها ، على أن تنسى بين يديها كل شيء حتى غضبك . اذهب أنت بنفسك فأعددها لهذا الزواج. أينبغى أن يعتمد فى ذلك على خصم ؟ إن حبه إياها لأقوى من ذلك .

بيروس : أترى إن اقترنت بها أنّ الغيرة لا تداخل أندروماك ؟

فنيكس : ماذا ! أتشغلك أندروماك دائماً ؟ يا للآلهة ! ماذا يعنيك من سرورها أو غيظها ؟ أى سحر يجذبك إليها بالرغم منك ؟

بيروس : لا ! لم أقل لها كل ما يجب أن يقال : ولم يظهر لها من غضبى إلا بعضه . إنها لتجهل إلى أى حد أنا عدوها . لنعد إليها . إنى أريد أن أتحداها بمرأى منها ، وأن أبسط لبغضى عنانه . تعال فانظر إلى محاسنها يا فنيكس وقد أذللتها . هيا بنا .

فنيكس : هلم يا مولاى ، ألق نفسك على قدميها . هلم فأقسم لها أن نفسك تعبدها. وحرضها بذلك على أن تجدد ازدراءك .

بيروس : إنى لأرى ما تعتقد ، إنك تظن أن قلبي وقد هيئ للاعتذار عنها يسرع إليها ويرغب فى أن يهدئ لوعته .

فنيكس : أنت عاشق : هذا يكفى . . .

بيروس : أنا أعشقها ؟ هذه الجاحدة التى تبغضنى بقدر ما يضفى عليها حبى من إعزاز ؟ ليس لها عائل ، ليس لها صديق ، ليس لها أمل إلا فىّ وحدى . وأنا أستطيع أن أهلك ابنها ، وربما وجب ذلك علىّ . غريبة . . . ماذا أقول ؟ أمة فى إبير وأنا أعطيها ابنها وأهبها نفسى وملكى ، ولا أستطيع مع ذلك أن أنزل من قلبها الخائن إلا منزلة المضطهد لها ؟ كلا ! كلا ! لقد أقسمت : ليس من الانتقام بد ، يجب أن يصدق بغضها مرة . سأسلم ابنها . ما أكثر ما ستذرف من الدموع ! بأى اسم سيدعونى ألمها ! أى منظر سيهيأ لها اليوم ! سيميتها ذلك يا فنيكس ؛ وسأكون أنا مصدر موتها . إن ذلك ليعدل إغماد الخنجر فى صدرها .

فنيكس : وفيم تظهر ذلك إذاً ؟ هلا استثرت ضعفك ؟

بيروس : إني لأفهم ما تريد . ولكن أعذر بقية من حنان . أتخشى على غضبى هذا الجهاد اليسير . إنما هو آخر اضطرام لحب يخمد . على أني مذعن لمشورتك يا فنيكس ، أيجب أن أسلم ابنها ؟ أيجب أن أرى هرميون ؟

فنيكس : نعم يجب أن تراها يا مولاى ، وأن تؤكد لها بإظهار الخضوع . . .

بيروس : لننجز كل ما وعدت .

الفصل الثالث

المنظر الأول

أورست ، بيلاد

بيلاد : هدىً إذاً يا مولاى من هذه الثورة الجامحة . فلم أعد أعرفك ولم تعد أنت إياك . إيذن . . .

أورست : كلا ! لم يبق معنى انصائحك ، أى بيلاد ، إنى لمتعب من الاستماع للعقل ، إنما ذلك إطالة لحياتى وعذابى أكثر مما ينبغى . يجب أن أخطفها أو أن أهلك . لقد قررت ذلك وأريد أن أتمه . نعم أريد .

بيلاد : حسن . يجب أن تخطفها : إنى أوافق . ولكن فكر مع ذلك أين أنت . ماذا يظن بك وأنت تفعل ما تفعل ؟ استر أمرك . هدىً هذا الهيام ، مر عينيك أن تحتفظا بالسر . هذا الحرس ، هذا القصر ، هذا الهواء الذى يحيط بك ، كل ذلك يتبع بيروس ويتبع هرميون خاصة . إخف عن عينيها غضبك . يا للآلهة ! لم تبحث عنها وأنت فى هذه الحال ؟

أورست : وهل أدرى ؟ وهل كنت مالك أمرى حينئذ ؟ لقد كان الغضب يملكنى ولعلى إنما جئت منذراً للجاحدة وحبيبها على السواء .

بيلاد : وماذا كانت ثمرة هذه الثورة ؟

أورست : وأى نفس ، حدثنى ، لا تفقد صوابها أمام هذه الصدمة التى اختلط لها عقلى ؟ يقول إنه سيتزوج هرميون غداً . ويريد ، تشريفاً لى ، أن يأخذها من يدى . بل أجدر بهذه اليد أن تسفك دم هذا الطاغى . . .

بيلاد : تتهمه يا مولاى بهذا القضاء المخالف للصواب . ومع ذلك فإن أمانيه تعذبه ، ولعله خايق مثلك بالرثاء .

أورست : كلا ! كلا ! إنى لأعرفه . إنّ يأسى ليملأه عجباً . ولولا أنا ، ولولا حبى لازدرى هذه الجاحدة . لقد عجز سحرها إلى الآن عن أن يؤثر فيه : يا له من قاس ! لا يأخذها إلا رغبة فى أن ينتزعها منى . يا للآلهة ! كان كل شىء قد انقضى ، وكادت هرميون، وقد ربحتها، تبعد عنه أبد الدهر . وكان قلبها المضطرب بين الحب والغيظ لا ينتظر ، ليسلم نفسه إلىّ ، إلا الرفض . لقد كانت عيناها تفتحان يا بيلاد ، لقد كانت تسمع لأورست ،

كانت تكلمه ، وكانت ترنو له . وكلمة واحدة ، لو قيلت ، لأتمت كل شيء .

بيلاد : أتظن ذلك ؟

أورست : ماذا ؟ هذا الغضب المضطرم على رجل جاحد . . .

بيلاد : ما أحبته قط كما أحبته الآن . أترى لو أن بيروس منحك إياها ، ألم يكن لديها من العلل الغريبة ما يؤخر ذلك ؟ أتصدقنى ؟ لقد أتعبتك محاسنها الخادعة ، فلا تخطفها ولكن فر منها آخر الدهر . ماذا ؟ أيريد حبك أن يثقل نفسه بهذه الساخطة الجامحة التى ستبغضك ، والتى ستندب طول حياتك زواجاً كاد يتم ، وستريد . . .

أورست : لهذا أريد أن أخطفها . أكل شىء يضحك لها يا بيلاد ، وأنا لا يكون حظى إلا سخطاً لا غناء فيه ؟ أأبعد عنها جاهداً فى نسيانها؟ كلا ! كلا ! إنما أريد أن أشركها فى الأسى . لقد أسرفت فى الأنين وحدى . ولقد أتعبنى الرثاء لى : وأنا أزعم أن قد آن للطاغية أن يخشانى ، ولعينيها القاسيتين ، وقد قضى عليهما بالبكاء ، أن تردا إلى كل ما أعطيتهما من الأسماء .

بيلاد : وإذاً فهذا هو أثر سفارتك ؟ سيقول الناس أصبح أورست خاطفاً !

أورست : وما يعنيني يا بيلاد ، إذا انتقمت لبلادنا فاستمتعت بثمرات بلائي ؟ أيقل ابتهاج الجاحدة لبكائي ؟ وما ينفعني أن يعجب بي اليونان بينما أكون أحدوثة إبير ؟ ماذا تريد ؟ وإذا كان يجب عليّ ألاّ أخفي عنك شيئاً ، فقد أخذت طهارتي تثقل كاهلي . لست أدري أي قوة جائرة دأبت في كل زمان على أن تمهل الإثم وتتبع البراءة بسخطها . ومهما أجل النظر في أمري فلست أرى إلا شرًّا قضى به الآلهة . فلنستأهل غضبهم ؛ ولنجعل بغضهم عدلاً ، ولتكن ثمرة الجريمة سابقة لعقابها . ولكن أنت بأي خطأ تريد دائماً أن تدير إلى نفسك سخطاً لا يبحث إلا عني ؟ لقد أثقلتك مودتي أكثر مما ينبغي : فاجتنب شقيًّا ، ودع مجرماً . أيها العزيز بيلاد ، صدقني ، إن إشفاقك ليضلك الطريق . دع لي هذه الأخطار التي أنتظر كل نتائجها . احمل إلى اليونان هذا الطفل الذي يسلمه إليّ بيروس . امض .

بيلاد : هلم يا مولاي ، لنخطف هرميون . إنما يظهر القلب الكبير عند اقتحام الأخطار . وأي شيء يعجز المودة التي يقودها الحب ؟ هلم أثر همة أتباعك من اليونان . إن سفننا لقريبة وإن الريح لتدعونا . وإني لأعرف من هذا القصر

كل مسالكه المظلمة ، انظر ، إن البحر ليلطم أسواره .
وفى هذه الليلة ، من غير مشقة ستقود ، فى طريق خفية
فريستك إلى سفينتك .

أورست : إنى لأشط أيها الصديق العزيز على إسرافك فى المودة .
ولكن اعف عن آثام أنت وحدك تشفق علىّ منها . أعذر
شقياً يفقد كل من يحب. يبغضه كل إنسان ويبغض
نفسه . ليتنى أستطيع فى فرصة أسعد من هذه . . .

بيلاد : الكتمان يا مولاى ، هذا كل ما أريد . احذر أن يظهر
تدبيرك قبل إبانه. إنس إلى ذلك الوقت أن هرميون جاحدة.
إنس حبك . إنها مقبلة ، إنى أراها .

أورست : إمض ، استوثق لى منها ، أستوثق لك من نفسى .

* * *

المنظر الثانى

هرميون ، أورست ، كليون

أورست : إذاً فهذه عنايتى بك قد ردت إليك غنيمتك . لقد
رأيت بيروس يا سيدتى . وهذا زواجك تُعد له العدة .

هرميون : يقال ذلك ، وقد أكد لى أنك لا تبحث عنى إلا
لتعدنى لهذا الزواج .

اورست : ألن تمتنع نفسك على هذا الحب ؟

هرميون : من كان يصدق أن بيروس لم يكن خائناً ، وأن جذوته تنتظر كل هذا الوقت لتضطرم ، وأنه سيثوب إلىّ فى الوقت الذى كنت أريد أن أتركه فيه؟ أريد أن أعتقد معك أنه يخاف اليونان ، وأنه يتبع منفعته أكثر مما يتبع حبه ، وأن عينى كانتا على نفسك أشدّ سلطاناً .

اورست : لا يا سيدتى إنه يحبك . ولم أعد أشك فى ذلك . ألا تبلغ عيناك كل ما تريدان ؟ وما أرى أنك أردت دون ريب أن تسوئيه .

هرميون : وماذا أستطيع يا سيدى ؟ لقد وعدوه حبى . ألى أن أختلس منه حقًّا لم أعطه أنا إياه ؟ ليس الحب هو الذى يدبر حياة الأميرات . إنما يترك لنا مجد الطاعة . ومع ذلك فقد هممت بالرحيل . وقد رأيت إلى أىّ حد كنت أقصر فى واجبى من أجلك .

اورست : آه ! لقد كنت تحسنين أيتها القاسية . . . ولكن يا سيدتى لكل امرئ أن يقضى فى أمره بما يريد . لقد كان أمرك إليك . وكنت آمل ، ولكنك ملكته غيرى دون أن تختلسى منى شيئاً . وإنى لأتهمك بقدر ما أتهم القدر .

وفيم أتعبك بشكاة ثقيلة ؟ هذا واجبك ، أعرف ذلك ، وواجبي أن أعفيك من حديث محزن .

* * *

المنظر الثالث

هرميون ، كليون

هرميون : أكنت تنتظرين يا كليون غضباً يسيراً إلى هذا الحد ؟

كليون : إن الألم الصامت أشد الآلام شرًّا . إنى لأرثى له ولاسيما وهو مصدر الألم لنفسه . فإن الضربة التي قضت عليه لم تصدر إلا عنه . فكرى منذ كم من الوقت كان يهيئ لزواجك ؛ لقد تكلم أورست يا سيدتى فأعان بيروس حبه .

هرميون : تظنين أن بيروس يخشى ؟ وماذا يخشى إذن ؟ أيخشى شعوباً ظلت عشر سنين منهزمة أمام هكتور ، وملأ قلبها الرعب مائة مرة لغيبة أخيل ، فآوت إلى سفنها المحترقة تلتمس الملجأ . وكانت خليقة أن تظل إلى الآن تطلب هيلانة إلى الطرواديين لم ينلهم العقاب ؟ كلا يا كليون ليس هو عدوًّا لنفسه ، إنه يريد كل ما يفعل . وإذا أراد أن يتزوجنى فهو يحبنى . ولكن ليتهمنى أورست بآلامه

كما يشاء . أليس لنا موضوع للحديث إلا بكاءه ؟ إن بيروس ليثوب إلينا ، وإذن يا أيتها العزيزة كليون ، أتقدرين ابتهاج السعيدة هيرميون ؟ أتعلمين من بيروس؟ أسمعت عدد المواطن التى أبلى فيها ؟ . . . ولكن من يستطيع أن يحصيها ؟ جرىء ، يتبعه النصر حيثما كان . ساحر ، أمين آخر الأمر ، لا ينقص مجده شيء . فكرى . . .

كليون : الكتمان . إن خصمك باكية تقبل لتطرح آلامها على قدميك .

هرميون : يا للآلهة ! ألا أستطيع أن أستسلم للسرور ؟ لنمض . ماذا أقول لها ؟

* * *

المنظر الرابع

أندروماك ، هرميون ، كليون ، سفيز

أندروماك : أين تذهبين يا سيدتى ؟ أليس منظراً حلواً لعينيك أن ترى أرملة هكتور تبكى على قدميك ؟ لم آت هنا لأحسدك بدموع تبعثها الغيرة على قلب يذعن لسحرك . لقد رأيت يداً قاسية وا حسرتاه ! تخترق صدر الذى كنت أستطيع

أن أوجه إليه وحده نظراتى . لقد أهب هكتور حبى قديماً . ولقد حبس هذا الحب معه فى القبر . ولكن بقى لى ابن ، وستعلمين يوماً يا سيدتى إلى أىّ حد يمضى بنا حب الأبناء، ولكنك لن تعلمى ، وأنا أتمنى لك ذلك على أقل تقدير ، فى أى اضطراب مميت تلقينا العناية به حينما يكون هو الشىء الوحيد الذى يبقّى لنا من أشياء كثيرة كانت ترضينا ثم يراد أن ينتزع منا ؟ وا حسرتاه ! لقد جهد الطرواديون عشرة أعوام من الشقاء ، فأخذهم الغضب واضطرهم إلى أن ينذروا أملك . هنا لك عرفت كيف أكفل لها معونة هكتور . وإنك لتقدرين عند بيروس على مثل ما قدرت عليه عند هكتور . ماذا يخشى من صبى قد أفلت من الموت ؟ دعينى أخبئه فى جزيرة مقفرة . هنالك يمكن أن يعتمد على أمه فى اتقاء شره ، ولن يتعلم معى إلا البكاء .

هرميون : إنى لأقدر آلامك . ولكنّ واجباً صارماً يأمرنى بالصمت إذا تكلم أبى . هو الذى أثار غضب بيروس . فإذ لم يكن بد من استعطاف بيروس فأى الناس أقدر على ذلك منك ؟ لقد تسلطت عيناك على نفسه دهراً طويلا . دعيه ينطق وأنا مذعنة لقراره يا سيدتى .

* * *

المنظر الخامس

أندروماك ، سفيز

أندروماك : أى احتقار تضيف القاسية إلى رفضها !

سفيز : أما أنا فأقبل نصحها وأرى بيروس . إن نظرة لتفحم هرميون واليونان . . . ولكن ها هو ذا نفسه يبحث عنك .

* * *

المنظر السادس

بيروس ، أندروماك ، فنيكس ، سفيز

بيروس (لفنيكس) : أين الأميرة ؟ ألم تقل لى إنها هنا ؟

فنيكس : كنت أظنّ ذلك .

أندروماك (لسفيز) : أترين سلطان عينى ؟

بيروس : ماذا تقول يا فنيكس ؟

أندروماك : وا حسرتاه ! كل شىء يتركنى .

فنيكس : هلم يا مولاى لنتبع خطى هرميون .

سفيز : ماذا تنتظرين؟ إقطعى هذا الصمت الذى ألححت فيه .

أندروماك : لقد وعد بأن يسلم ابنى .

سفيز : ولكنه لم يسلمه .

أندروماك : كلا . كلا . مهما أبلك فقد قضى موته .

بيروس : أتنزل على الأقل عن كبريائها فتنظر إلينا ؟ يا لها من كبرياء !

أندروماك : لا أزيد على أن أحفظه . فلنمض .

بيروس : لنسلم ابن هكتور إلى اليونان .

أندروماك : آه مولاى ، قف ! ماذا تريد أن تصنع ؟ إن أسلمت الابن فأسلم الأم . . . لقد أكدت لى أيمانك منذ حين مودة ثابتة . يا للآلهة ! ألا أستطيع أن أثير فى قلبك الرحمة على أقل تقدير ؟ أقضيت علىّ دون أن تترك لى أملاً فى العفو ؟

بيروس : سينبئك فنيكس بأنى قد وعدت .

أندروماك : أنت الذى تعرّض من أجلى لأخطار كثيرة مختلفة .

بيروس : لقد كنت أعمى حينئذ . فقد رفع عن عينى الغطاء . لقد كان العفو عنه ميسوراً لو أردت ، ولكنك أبيت حتى أن تطلبى هذا العفو . لقد قضى الأمر .

أندروماك : آه مولاى ! إنلك لتدرك معنى زفرات كانت تخاف أن ترد . اعف لهذا الجد الرفيع عما بقى له من كبرياء تخشى أن تكون ثقيلة . إنلك لتعلم أن أندروماك لولاك ما كانت لتجثو بين يدى سيد .

بيروس : كلا ، إنلك تبغضيننى وتخشين فى أعماق نفسلك أن تكونى مدينة بشىء لحبى . هذا الابن نفسه الذى تعنين به هذه العناية لو أنى أنقذته لضعف حبلك له . إن البغض والازدراء ليتألبان على فى نفسلك . وإنلك لتبغضيننى أكثر مما تبغضين اليونان جميعاً . استمتعى على مهل بهذا الغضب الشريف . هلم يا فنيكس .

أندروماك : هلم . فالألحق بزوجى .

سفيز : مولاتى . . .

أندروماك(لسفيز): وماذا تريدين أن أقول له بعد هذا ؟ هو مصدر آلامى . أتظنين أنه يجهلها . (لبيروس) : مولاى انظر إلى الحال التى تضطرنى إليها . لقد رأيت أبى قتيلا وأسوارنا مضطرمة ، ورأيت أيام أسرتى كلها تقطع قطعاً ، ورأيت زوجى دامياً يسحب على التراب ، ورأيت ابنى وحده قد احتفظ به للأغلال . ولكن أى شىء يستطيعه الابن ؟ إنى أتنفس ،

إنى أنفع ، بل إنى أعمل أكثر من هذا . لقد تعزيت أحياناً بأنى قد نفيت إلى هذا المكان دون غيره ، وبأن هذا الطفل ، سلالة هذا العدد الضخم من الملوك ، سعيد فى شقائه لأنه قد وقع فى إسارك أنت . اعتقدت أن سجنه سيصبح مأمناً له . لقد عرف أخيل لبريام حرمته حين أذله القدر له . وكنت أرجو أن يكون ابن أخيل أكرم من أبيه . أعف أيها العزيز هكتور عن سذاجتى . فإنى لم أستطع أن أتهم عدوك بالإجرام . لقد حسبته على كره كريماً . آه ! ليته كان كريماً فتركنا على أقل تقدير فى القبر الذى أقامته عنايتى بما بقى من رفاتك .

بيروس : اذهب فانتظرنى يا فنيكس .

* * *

المنظر السابع

بيروس ، أندروماك ، سفيز

بيروس : (يستمر) أقيمى يا سيدتى . من اليسير أن يرد لك هذا الابن الذى تبكينه . نعم إنى لأشعر آسفاً بأنى حين أستثير دموعك لا أزيد على أن أسلحك على نفسى . لقد كنت أظن أنى أحمل لك من البغض أكثر من هذا . ولكن ،

سيدتى ، أديرى إلىّ طرفك على أقل تقدير . انظرى !
أترين لحظاتى تمثل قاضياً قاسياً أو تمثل عدوًّا حريصاً على
أن يسوءك ؟ لم تكرهيننى أنت على أن أخونك ؟ إنى لأقسم
عليك بابنك أن تزيلى ما بيننا من البغض . وبعد فأنا الذى
يدعوك إلى استنقاذ هذا الصبى . أيجب أن ألتمس زفراتى
إليك حياته ؟ أيجب أن أقبل قدميك إيثاراً لمنفعته ؟ وأخيراً
أنقذيه . أنقذينا . إنى لأعلم بأى يمين أحنث من أجلك
وأى سخط سأثير على نفسى . لأردنّ هرميون ولأكللن
جبينها بالإهانة مكان التاج . لأقودنك إلى المعبد حيث يهيأ
زواجها . لأتوجنك بهذا التاج الذى أعد لرأسها . ولكن
العرض يا سيدتى ليس شيئاً يزدرى . الحق أقول لك :
اختارى الهلك أو الملك . إن هذا القلب الذى أيأسه عام
كامل ملؤه الجحود لا يستطيع منذ الآن أن يحتمل الشك . لقد
طالما خفت وأنذرت وشكوت ... إن فقدك ليميتنى ؛ ولكن
انتظارك يميتنى أيضاً . فكرى فى ذلك . سأدعك وسأعود
لأقودك إلى المعبد حيث ينتظرنى ابنك هنالك . ترينى
مذعناً أو ثائراً . هنالك أتوجك أو أهلكه بين يديك .

* * *

المنظر الثامن

أندروماك ، سفيز

سفيز : لقد أنبأتك بأنك ستظلين ، برغم اليونان ، مسيطرة على القضاء فى أمرك .

أندروماك : وا حسرتاه ! ماذا أحدثت نصائحك من أثر ؟ لم يبق لى إلا أن أقضى على ابنى .

سفيز : مولاتى ، لقد وفيت لزوجك إلى الآن حق الوفاء . وإن الإسراف فى الفضيلة قد ينتهى بك إلى الإجرام ، ولو استطاع هو لحملك على اللين .

أندروماك : ماذا ؟ هل أجعل بيروس له خلفاً ؟

سفيز : كذلك يريد ابنه الذى يغصبه منك اليونان . أتظنين آخر الأمر أن روحه يخجل لذلك ؟ أو أنه يزدرى يا مولاتى ملكاً منتصراً يريد أن يرفعك إلى منزلة أجدادك ويطأ بقدميه من أجلك المنتصرين عليك يملأهم السخط ، ولا يذكر أن أخيل كان له أباً ، يكذب مشاهده فى الحرب ويسلبها قيمتها ؟

أندروماك : أفيجب علىّ أن أنسى هذه المشاهد إن لم يذكرها هو ؟ أيجب أن أنسى هكتور وقد حرم الجنازة وسُحب فى غير شرف حول أسوارنا ؟ أيجب أن أنسى أباه طريحاً على قدمى وقد أدمى المذبح الذى لاذ به ؟ فكرى . فكرى يا سفيز فى تلك الليلة القاسية التى كانت على شعب بأسره ليلة سرمدية . تصورى بيروس يتطاير الشرر من عينيه ، وقد دخل مستضيئاً بقصورنا المضطربة ، يمشى على إخوتى جميعاً صرعى ، قد غمرته الدماء وهو يحرص على القتل . فكرى فى صيحة المنتصرين . فكرى فى صيحة المحتضرين تخنقهم النار أو يقتلهم الحديد . تصورى فى هذه الفظائع أندروماك ذاهلة ، ثم انظرى إلى بيروس ماثلاً أمام عينى . انظرى بأى نوع من المجد قد توج نفسه . ثم انظرى إلى هذا الزوج الذى تقدمين إلىّ . كلا ! لن أشاركه فى هذه الجرائم . ليجعلنا إن أراد آخر ضحاياه . إذن تذعن له كل أحقادى .

سفيز : إذن هلم ننظر إلى ابنك وهو يموت ! فهم لا ينتظرون إلا إياك . . . إنك ترتعدين يا مولاتى !

أندروماك : آه ! بأى ذكرى تصدعين نفسى ! ماذا يا سفيز ، أأذهب لأرى موت هذا الابن الذى يمثل ما بقى لى من

سرور والذى هو صورة هكتور ؟ هذا الابن الذى تركه لى هكتور آية على حبه ! واحسرتاه ! إنى لأذكر ذلك اليوم الذى دفعته شجاعته فيه إلى أن يلتمس أخيل ، بل إلى أن يلتمس الموت . لقد دعا بابنه وحمله بين ذراعيه وقال لى ماسحاً دموعى : « أيتها الزوج العزيزة ، إنى لأجهل ما يدخر لسلاحى من فوز . وإنى لأترك لك ابنى آية حبى لك . فإن يفقدنى فأنا أزعم أنه سيجدنى فيك . وإن تكن ذكرى زواجنا السعيد عزيزة عليك ، فأظهرى للابن إلى أى حد كان الأب عليك عزيزاً » . أفأستطيع أن أرى هذا الدم الغالى يراق ويهلك معه أجداده جميعاً ؟ أيها الملك الوحشى : أيجب أن تحمل جريمتى عليه ؟ أفإن أبغضتك كان مأخوذاً ببغضى إياك ؟ هل لامك على موت أهله جميعاً ؟ أشكا إليك آلاماً لا يحسها ؟ ومع ذلك ، يا بنى ، إنك لميت إن لم أمسك هذا السيف الذى يعلقه القاسى على رأسك ، إنى أستطيع أن أحوله عنك . ومع ذلك فأنا أقدمك إليه ؟ كلا لن تموت . لن أستطيع أن أحتمل ذلك . هلم نلق بيروس . ولكن لا أيتها العزيزة سفيز ، اذهبى فالقيه مكانى .

سفيز : ماذا يجب أن أقول ؟

أندروماك : قولى له إن لحبّ ابنى على نفسى سلطاناً قويّاً . . أتظنين أنه أزمع موته فيما بينه وبين نفسه ؟ أيستطيع الحب أن يسرف فى القسوة إلى هذا الحد ؟

سفيز : كأنك به وقد عاد يملكه الغضب .

أندروماك : إذاً فاذهبي وطمئنيه . . .

سفيز : علام ؟ على حبك ؟

أندروماك : وا حسرتاه ! أأملك هذا الحب، لأستطيع أن أعد به ؟ يا لرماد الزوج! يا للطرواديين ! وا أبتاه ، أى بنى ، إن حياتك لتكلف أمك ثمناً غالياً . هلم . . .

سفيز : إلى أين يا مولاتى ؟ وبم تقضين ؟

أندروماك : هلمّ إلى قبر زوجى لنستشيره .

الفصل الرابع

المنظر الأول

أندروماك ، سفيز

سفيز : آه ! لا أشك فى ذلك ، إنما هو زوجك يا مولاتى . إنما هو هكتور ، قد أحدث فى نفسك هذه المعجزة ! إنه يريد لطروادة أن تستطيع النهوض ، وإنما يكون ذلك بهذا الابن السعيد الذى يحملك على الاحتفاظ به . لقد وعدك به بيروس . ولقد سمعت وعده يا مولاتى فما كان ينتظر منك إلا كلمة ليردّه إليك . صدقى هيامه . إنه ليلقى على قدميك ، وقد أسعده حبك ، كل شىء : أباه ، وصولجانه ، وحلفاءه . إنه ليملكك على نفسه ، وعلى شعبه كافة . أترين أنه ، مع ذلك ، الظافر الخليق بكل هذا البغض . ها هو ذا ، وقد ملأه على اليونان غضب شريف ، يهتم لابنك بمقدار ما تهتمين له . يحتاط لسخطهم فيترك حرسه لحماية الصبى ويعرض نفسه للخطر مبالغة فى وقايته . ولكن كل شىء يهيأ فى المعبد وقد وعدت .

أندروماك : نعم سأذهب إليه . ولكن هلم نر ابنى .

سفيز : مولاتى ، ما يعجلك ؟ حسبك أن رؤيته لن تحظر على عينيك منذ الآن . ستستطعين عما قليل أن توسعيه رعاية وعناية . ولن يحصى ما تمنحينه من قبلات . أى سعادة تبعثها فى النفس تربية صبى نراه ينمو شيئاً فشيئاً ، لا كما ينمو العبد ينشأ لمولاه ، ولكن لتحيا به سلالة أولئك الملوك .

أندروماك : سفيز هلم نره لآخر مرة .

سفيز : ماذا تقولين ؟ يا للآلهة !

أندروماك : آه أيتها العزيزة سفيز ! لست أنت التى يحتجب عليها قلبى . لقد عرفت وفاءك لى أثناء شقائى . ولكنى ظننت أنك تعرفيننى خيراً من هذا . ماذا ؟ أظننت أن قد بلغ الجحود بأندروماك أن تخون زوجاً يؤمن بأنه يحيا فيها ؟ وإنى أحرص على راحتى فأزعج أولئك الموتى الذين لا يحصون وأوقظ آلامهم ؟ أهذا مبلغ ما وعدت به رماد هكتور من الحرص على الوفاء له ؟ كلا ، لقد كان ابنه يتعرض للموت فحقت على حمايته . إن بيروس ليعلن القيام دونه حين يتزوجنى . وهذا يكفى ، ولى أن أعتمد عليه . إنى لأعلم

من بيروس أنه عنيف ولكنه مخلص . أى سفيز ، سيعمل أكثر مما وعد ، وإنى لأعتمد أيضاً على غضب اليونان : فإن بغضهم سيمنح ابن هكتور أباً . وإذاً فسأضمن لبيروس ما بقى من حياتى إذا لم يبق لى بد من أن أضحى بنفسى سأتلقى منه اليمين على مائدة الآلهة فأصل بينه وبين ابنى عروة لاانفصام لها . ثم ماهى إلاأن تختزل يدى المشئومة علىّ وحدى حياة خائنة . هنالك تنقذ شرفى وتؤدى ما أنا مدينة به إلى بيروس ، وإلى ابنى ، وإلى زوجى ، وإلىّ أنا. هذا ما انتهى إليه حبى من الكيد البرىء . هذا ما أمرنى به زوجى نفسه . سأذهب وحدى للقاء هكتور ولقاء أجدادى ، وإليك أنت يا سفيز إغماض عينى .

سفيز : آه ! ألاتزعمى أنى أستطيع الحياة بعدك . . .

أندروماك : كلا ! كلا ! إنى لأحظر عليك يا سفيز أن تتبعينى . إنى أستودع عنايتك كنزى الوحيد . لقد كنت تحيين من أجلى وحدى فعيشى لابن هكتور . ستكونين وحدك الأمينة على آمال الطرواديين ، ففكرى لكم من الملوك ستكون حياتك لازمة. إسهرى إلى جانب بيروس. ذكريه قسمه. ولست أرى بأساً ، إذا لم يكن من ذلك بد ، أن تذكرينى له . ذكريه حرمة الزواج الذى قبلته ، وقولى له إنى اقترنت

به قبل موتى وإن حقده علىّ يجب أن يمحى . وإن من إكبارى له أنى تركت له ابنى . عرّفى ابنى أبطال أمته ، وسيرى به على آثارهم ما استطعت إلى ذلك سبيلا . عرّفيه بأى بلاء حسن شهرت أسماؤهم ، وليكن حديثك عما عملوا أكثر من حديثك عما كانوا . حدثيه فى كل يوم عن مكارم أبيه وحدثيه بعض الأحيان عن أمه . ولكن لا يفكر يا سفيز فى أن يثأر لنا . إنا نترك له سيداً ، فليحسن الوفاء له . ليحتفظ لآبائه بذكرى متواضعة . إنه من دم هكتور ولكنه بقية هذا الدم . وفى سبيل هذه البقية ضحيت أنا فى يوم واحد بدمى ، وحبى ، وبغضى .

سفير : وا حسرتاه !

أندروماك : لا تتبعينى إذا كان قلبك الوجل يرى أنه لا يستطيع أن يقهر دموعك . أرى من يقبل . أخفى دموعك يا سفيز واذكرى أن مصير أندروماك موكول إلى وفائك . هذه هرميون . هلم لنفر من سخطها .

* * *

المنظر الثانى

هرميون ، كليون

كليون : لا ، لا ينقضى عجبى من هذا الصمت. أنت صامتة ، يا مولاتى . ولم يحدث هذا الازدراء القاسى فى نفسك أى اضطراب ؟ تثبتين هادئة لهذه الهجمة العنيفة ، وقد كنت ترتعدين غيظاً لاسم أندروماك ؟ وقد كنت لا تستطيعين أن ترى ، فى غير يأس وألم ، أن يشرفها بيروس بنظرة من نظراته ؟ إنه ليتزوجها ، إنه ليقدم إليها مع التاج ذلك القسم الذى قدمه إليك أنت. وهذا فمك لا يزال مغلقاً أمام كل هذا النكر ، ولم ينزل إلى أن تفتحه الشكوى ؟ آه ! ما أشد خوفى يا مولاتى من هذا الهدوء الخطر ، وإن خيراً منه . . .

هرميون : هل تدعين أورست؟

كليون : إنه آت يا مولاتى ، إنه آت ، وتستطيعين أن ترى أنه لن يلبث أن يجثو إلى قدميك . إنه لمستعد دائماً للخدمة ، لا يرجو أجراً . وإن عينيك لتثقان أعظم الثقة بقدرتهما على إعجابه . ولكنه يدخل .

* * *

المنظر الثالث

أورست ، هرميون ، كليون

أورست : آه ، سيدتى ! أمن الحق أن أورست إنما يقبل مرة مطيعاً لأمرك ؟ ألم أخدع بأمل كاذب ؟ أحق أنك رغبت فى لقائى ؟ أأصدق أن عينيك ، وقد ألقتا السلاح آخر الأمر ، تريدان . . .

هرميون : أريد أن أعلم يا سيدى ، أتحبنى ؟

أورست : أأحبك ؟ يا للآلهة ! إيمانى ، حنثى ، فرارى ، عودتى ، إكبارى لك . إهانتى إياك ، يأسى ، عيناى تغرقهما الدموع دائماً ، أى شاهد تقبلين إذا لم تقبلى هذا كله ؟

هرميون : انتقم لى أصدق كل شىء .

أورست : إذن هلم يا سيدتى لنضرم بلاد اليونان مرة أخرى . هلم نشد بذراعى واسمك ، اتخذى مكان هيلانة ولأتخذ مكان أجا ممنون . ولنوقظ فى هذا البلد شقاء طروادة ، وليتحدث الناس عنا كما يتحدثون عن آبائنا . لنرحل ، إنى على أهبة .

هرميون : كلا يا سيدى ، لنقم ؛ فلست أريد أن أحمل الإهانة إلى مكان بعيد . ماذا ؟ أتوج وقاحة أعدائى فأذهب إلى حيث أنتظر انتقاماً بطيئاً وأكل ذلك إلى مصادفات الحرب ؟ أريد أن تبكى إبير كلها عند سفرى . فإن كنت منتقماً لى فليكن ذلك فى ساعة . وكل تأخر منك رفض عندى ، أسرع إلى المعبد . يجب أن تنحر . . .

أورست : من ؟

هرميون : بيروس .

أورست : بيروس يا سيدتى ؟ !

هرميون : ماذا ؟ بغضك يضعف ؟ آه ! أسرع واحذر أن أدعوك ، ولا تعتذر بحقوق أريد أن أنساها . وليس لك أنت أن تعتذر عنه .

أورست : أنا أعتذر عنه ؟ آه ! إن عطفك يا سيدتى قد نقش جرائمه فى نفسى . لننتقم لأنفسنا . إنى لأقبل ذلك ولكن من طريق أخرى . لنكن أعداءه لا مغتاليه . ليكن تدمير ملكه فتحاً عدلاً . ماذا ؟ أأحمل رأسه جواباً لليونان ؟ أو لم أنهض بواجب الدولة إلا لأقضى حقها بالاغتيال ؟ إئذنى بحق الآلهة أن يتفاهم اليونان ، وأن يموت مثقلا بالبغض

العام . اذكرى أنه يملك وأن رأساً متوجاً . . .

هرميون : أليس يكفيك أنى قضيت عليه ؟ أليس يكفيك أن مجدى ، وقد أهين ، يطلب ضحية تقدم إلىّ وحدى ؟ وأن هرميون هى الثمن لطاغية مظلوم ؟ وأنى أبغضه ؟ ثم إنى يا سيدى كنت أحبه ، لست أخفى ذلك ، فقد عرف الجاحد كيف يعجبنى . يعجبنى سواء كان ذلك إذعاناً للحب أو لأمر أبى . ليس لذلك خطر ، ولكن ثق بأنى أحببته . احذر ، يا سيدى ، إنى رغم حبى الخائب المستخذى ، ورغم السخط العدل التى تبعثه جريمته فى نفسى ، معرضة للعفو عنه إذا عاش . أشك ، ما دام حياً ، فى غضب غير محقق ؛ فإذا لم يمت اليوم فقد أحبه غداً .

اورست : إذاً يجب أن يهلك وأن نسبق سحره عليك . يجب . . . ولكن حتى ذلك الحين ، ماذا يجب أن أفعل ؟ كيف أستطيع أن أنفذ أمر غضبك فى هذه السرعة ، وأى طريق تستطيع أن توصل إليه ضرباتى ؟ لم أكد أصل إلى إبير ، وأنت تريدين أن تدمرى بيدى دولة بأسرها . تريدين أن يموت ملك ولا تؤقتين لموته إلا يوماً ، إلا ساعة ، إلا لحظة ! يجب أن أقتله بمرأى من شعبه كله ! دعينى أقد ضحيتى إلى المذبح ، لست أمتنع ، ولست أريد إلا أن أعرف

حيث يجب أن أنحره . هذه الليلة أنفذ أمرك ، هذه الليلة أهجم عليه .

هرميون ولكنه اليوم يتزوج أندروماك ، وقد أقيم العرش في المعبد ، لقد ثبت خزيي وتمت جريمته . وبعد فماذا تنتظر ؟ إنه يقدم إليك رأسه ، إنه ليسعى إلى عرسه في غير حرس ولا احتياط . لقد جمع حرسه كله حول ابن هكتور ، وترك نفسه إلى الذراع التي تريد أن تثأر لي . أتريد أن تحميه رغم أنفه ؟ سلح مع أصحابك كل من تبعني . أثر أصدقاءك ؛ فكل أتباعي خاضعون لك . إنه يخونني ويخدعك ويزدرينا جميعاً . ولكن ماذا ؟ إن سخطهم ليعدل سخطي ! إنهم ليبقون كارهين على زوج طروادية . تكلم ! لن يستطيع عدوي أن يفلت منك ، بل لا يجب إلا أن تخلي بينه وبين ضاربيه . قد ، أو اتبع ، غضباً له هذا الحظ من الجمال ، وعد مضرجاً بدم العدو . هلم وثق حينئذ بأن لك قلبي .

أورست : ولكن يا سيدتي فكري . . .

هرميون : آه ! لقد أسرفت يا مولاي ، كل هذا الجدل يهين غضبي . لقد أردت أن أمنحك الوسيلة لإعجابي . لقد أردت أن أرضي أورست ولكني أرى آخر الأمر ، أنه

يريد أن يشكو دائماً دون أن يستحق شيئاً . اذهب : إمض إلى غير هذا المكان فتمدح بثباتك ، ودع لى هنا العناية بالانتقام لنفسى . إن قلبى يستخذى من هذا العطف المهين ، ولقد احتملت كثيراً هذا الرفض فى يوم واحد . لأذهبن وحدى إلى المعبد حيث يهيأ زواجهما ، وحيث لا تجرؤ أن تذهب لتظفر بالحظوة عندى . هنالك أعرف كيف أدنو من عدوى . وهنالك اخترق ذلك القلب الذى لم أستطع أن ألمسه ، ثم تتحول يداى الداميتان إلى أنا ، فما هى إلا أن تضمانى إليه رغم أنفه . ومهما يكن من جحوده ، فسيكون أحبّ إلىّ أن أموت معه من أن أعيش معك .

أورست : كلا ! لأحرمنك هذه السعادة الخطرة ، سيدتى ، لن يموت إلا من يد أورست . لينحرن أعداؤك بيدى ، وحينئذ تعرفين لى بلائى إن أردت .

هرميون : هلم ، دع لى تدبير أمرك ، ولتكن سفنك مستعدة لهربنا .

* * *

المنظر الرابع

هرميون ، كليون

كليون : إنك لتهلكين نفسك يا سيدتى ، وإن حقـًّا عليك أن تفكرى . . .

هرميون : لأهلك نفسى أو لا أهلكها ، فلست أفكر إلا فى الانتقام . بل ما زلت أجهل ، رغم وعوده ، إلى أن أعتمد على غيرى ؟ فليس بيروس مجرماً عنده كما هو مجرم عندى . وإنى لأمضى ضربة منه . ما أسعدنى حين أنتقم بنفسى لنفسى ، وحين أنزع يدى مضرجة بدم هذا الخائن ، وحين أضاعف آلامه وسعادتى ؛ فأحجب حبيبته عن عينيه وهما تموتان. آه! لو أن أورست على الأقل ، وهو يعاقبه على جريمته، يدع له الأسف لأنه يموت ضحية لى! اذهبى ، فمرى أورست بأن ينبئ الجاحد بأنه ينحره لبغضى لا للدولة . أيتها العزيزة كليون ، أسرعى . إن ثأرى لضائع إن جهل ، وهو يموت ، أنى أنا قاتلته .

كليون : لأطيعنك . . ولكن ، ماذا أرى ؟ يا للآلهة ، مولاتى إنه الملك .

هرميون : آه ! أسرعي إلى أورست وقولي له ، أينها العزيزة كليون ، ألا يقدم على شيء حتى يراني .

* * *

المنظر الخامس

بيروس ، هرميون ، فنيكس

بيروس : لم تكوني تنتظرينني يا سيدتي ، وأنا أرى أن مقدمي يقلق حديثكما . لم آت مسلحاً بهذا التصنع الدنيء أخفي ظلمي بنقاب من الإنصاف ، حسبي أن يقضي على قلبي سراً . وما أنا بمحسن الدفاع عما لا أعتقد . سأتزوج طروادية . نعم يا سيدتي ، أعترف بذلك وبأني قد كنت وعدتك هذا القسم الذي أقدمه إليها . لو أن غيري قام مقامي الآن لزعم لك أن أبوينا قد استبدا بالأمر دوننا في ميدان طروادة ؛ لم يتبينا رأيك ولا رأيي ، بل عقدت لنا الخطبة في غير حب . ولكني لا أجحد شيئاً أذعنت له ، وقد أرسلت السفراء فعرضوا عليك قلبي ولم أفكر قط في أن أجحد هذا الأمر ، بل أردت إمضاءه ورأيتك مقبلة مع السفراء إلى إبير . ومع أن عيناً أخرى كانت قد ظفرت بي وحصنتني من عينيك ، فلم أقف عند هذا الهيام الجديد ، بل كنت

أريد المضي فى الوفاء لك . فتلقيتك ملكة وظننت إلى اليوم، أن قسمى سيقوم منى مقام الحب . ولكن هذا الحب ينتصر، وهذه أندروماك تنتزع منى ، بضربة خطرة ، قلبى الذى تبغضينه . ها نحن أولاء إذن يجذب كل منا صاحبه مسرعين إلى المعبد، ليقسم كل منا راغماً لصاحبه حباً خالداً . لك بعد هذا يا سيدتى أن تثورى على خائن يقدم على الخيانة متألماً ، وهو مع ذلك حريص عليها . أما أنا فبعيد من أن أقاوم هذه الثورة العادلة ، وربما رفهت علىّ كما ترفه عليك . سمينى بكل أسماء الخونة الحانثين ، فإنى أخشى صمتك عنى أكثر مما أخشى إهانتك لى . وإن قلبى وقد أثار علىّ ألف شاهد خفى ليكثر من تأنيبى بمقدار ما تقلين .

هرميون : مولاى ، يحلو لى أن أرى فى هذا الاعتراف البرىء من كل تصنع ، أنك تنصف نفسك على الأقل ، وأنك وقد أردت أن تفصم هذه العروة الوثقى ، تسترسل فى الجريمة عامداً إليها . وبعد فهل من العدل أن ينزل الرجل الظافر إلى الخضوع لهذا القانون المبتذل ، قانون الوفاء بالوعد ؟ كلا كلا ، إن فى الخيانة لما يغريك ، وما أرى أنك التمستنى إلا لتفخر بذلك . ماذا ؟ لا يلزمك موثق ، ولا يقيدك

واجب ، تبحث عن يونانية وأنت عاشق لطروادية ! تدعني ثم تعود إليّ ! ثم تضطرب من ابنة هيلانة إلى أرملة هكتور ! تتوج الأمة مرة والأميرة أخرى ! تضحي بطروادة في سبيل اليونان ، وباليونان في سبيل ابن هكتور . كل ذلك يصدر عن قلب مالك لأمره ، عن بطل ليس عبداً لقسمه . ولعلك ، لتعجب زوجاتك ، مضطر إلى أن تسرف في وصف نفسك بالحنث والخيانة . لقد أقبلت ترى شحوب جبهتي لتضحك بعد ذلك من آلمي بين ذراعيها . تريد أن يراني الناس أبكي خلف عجلتها . ولكن ، سيدي ، هذا كثير من الفرح على يوم واحد . أليس ما خلدت من مآثر تغنيك عن أن تبحث عن مآثر أخرى مستعارة ؟ هذا الشيخ الفاني أبو هكتور قد خمدت همته ملقى على أقدام أسرته ، تجود بنفسها على مرأى منه . وقد أغمدت ذراعك في صدره تبحث عن بقية من الدم قد جمدتها السن . وهذه طروادة مضطرمة تغمرها أنهار من الدم . وهذه بولكسين[1] تنحرها بيدك أمام اليونان جميعاً ، ساخطين عليك ؛ فأي شيء يمكن أن يؤبى على صاحب هذا البلاء الكريم[2] ؟

---

(١) ابنة بريام وهيكوب .

(٢) أسلوب ينطوي على السخرية والتهكم .

بيروس : سيدتى ، إنى لأعلم حق العلم إلى أى إسراف فى الثورة اضطر قلبي إلى الانتقام لهيلانة . وقد أستطيع أن أشكو أمامك كثرة ما أرقت من دم ، على أنى مستعد لنسيان ما مضى . وأنى لأحمد الآلهة لأن عدم اكتراثك بى ينبئنى بأن زفراتى الحلوة قد كانت بريئة . إنى لأرى أن قلبي قد أسرع إلى التحرج أكثر مما ينبغى ، وقد كان حقاً عليه أن يعرفك وأن يبلو نفسه . ولقد كان ما أحس من الندم يهينك إهانة قاسية ، فإنما يتهم الإنسان نفسه بالخيانة حين يعرف أنه محبوب . لقد كنت أخشى أن أخونك ، ولعلى إنما كنت أحسن إليك . فلم يخلق قلبانا للألفة إنما كنت أتبع واجبي وكنت تذعنين لواجبك . ولم يكن شيء يدعوك إلى حبي .

هرميون : ألم أحبك أيها القاسى ؟ فماذا فعلت إذن ؟ لقد ازدريت من أجلك حب أمرائنا جميعاً . لقد سعيت إليك بنفسى فى أعماق بلادك . وما زلت فى بلادك رغم خياناتك ورغم كل أتباعى — أتباعى من اليونان الذين يخزيهم ما أظهر من لين ودعة . لقد أمرتهم أن يكتموا ما قدم إلىّ من إهانة . لقد كنت أنتظر سرًّا أن يعود إلىّ الخائن . لقد ظننت أنك سترد إلىّ عاجلاً أو آجلاً ، وقد أذعنت

للواجب ، قلباً أنا صاحبته . لقد كنت أحبك على تقلبك ، فماذا عسى كنت أصنع لو أنك وفىّ ؟ بل الآن ، وإن فمك القاسى ليحمل إلىّ فى هدوء نبأ الموت ، أشك أيها الجاحد ، فى أنى ما زلت أحبك . ولكن يا سيدى إذا لم يكن بد ، إذا كان سخط السماء قد قضى لأعين أخرى بأن تروقك فأتم زواجك ، فقد رضيت ذلك . ولكن لا تكره عينى على الأقل على أن تشهداه ، لعلى إنما أحدثك لآخر مرة . أجّل هذا الزواج يوماً ، فسيكون لك الأمر كله غداً . . . أراك لا تجيب أيها الغادر ! إنك لتعد اللحظات التى تنفقها معى . وإن قلبك ليتحدث إليها ، إن عينيك لتمسانها ! ما أنت بقادر على نفسك . هلم انج من هذا المكان ! هلم قدم إليها ما قدمت إلىّ من عهد ! هلم أهن جلال الآلهة المقدس ! فإن هؤلاء الآلهة ، هؤلاء الآلهة الذين يحبون العدل ، لن ينسوا أن هذه العهود نفسها قد وصلت بينك وبينى . ضع أمام الأنصاب هذا القلب الذى يتركنى ، هلم أسرع ولكن احذر أن تلقى هناك هرميون .

* * *

المنظر السادس

بيروس ، فنيكس

فنيكس : مولاى أسمعت ؟ حذار أن تهمل عاشقة ثائرة تريد الانتقام . وما أرى إلا أنها قوية كثيرة العون فى هذا المكان ، وأن خصومة اليونان متصلة بخصومتها ، وأن أورست ما زال يحبها ولعله بهذا الثمن . . .

بيروس : أندروماك تنتظرنى . أى فنيكس ، احرص على ابنها .

الفصل الخامس

المنظر الأول

هرميون وحدها

أين أنا ؟ ماذا عملت ؟ ماذا يجب أن أعمل أيضاً ؟ أى ثورة تملكنى ؟ أى حزن يلتهمنى ؟ إنى لأسرع فى هذا القصر هائمة لا رأى لى . آه ! ألا أستطيع أن أعرف أأحب أنا أم أبغض ؟ يا له من قاس ! بأى لحظ أذن لى بالانصراف ؟ لم يحس إشفاقاً ، لم يحس ألماً ، لم يتكلف منهما شيئاً ، لم أر منه اضطراباً ، لم أسمع منه شكوى ، لم أستطع أن أستخلص منه أنة واحدة . لقد كان أخرس أمام زفراتى ، جامداً أمام اضطرابى ، لا يظهر عليه أنه يتأثر بدموعى . وما زلت مع ذلك أرثى له ويضاعف ألمى أن قلبى ، هذا القلب الجبان ، ما زال يعنى به . إنى لأضطرب عندما أفكر فى الضربة التى يتعرض لها . أعتزم الانتقام منه ، وإنى على ذلك لأعفو عنه . كلا ! لا ننقض ما أبرمه غضبى ، يجب أن يهلك لأنه لا يحيا منذ الآن . إنه يظن أن ستنحل هذه الزوبعة إلى دموع . إنه يظن أنى ضعيفة

دائماً ، مضطربة القلب ، آسو بيد ضربة اليد الأخرى . إنه ليحكم عليّ بما كنت أوليه من العطف قديماً . كلا ! بل هو يفكر فى غير هذا ، إنه لينتصر فى المعبد فلا يعنيه أن يعلم أتمنى له الحياة أم الموت ؟ يترك لى الجاحد هذا الاضطراب المشئوم . لا ، لا ! بل ضربة أخرى ؛ لندع أورست يتم عمله . ليمت . ليس من شك فى أنه قدر هذا ، وهو الذى اضطرنى إلى أن أريده . ماذا ! إذن أنا التى تأمر به وسيكون موته نتيجة لحب هرميون . هذا الملك الذى كان قلبى يستعيد فى لذة أخبار بلائه ومآثره ؛ بل الذى كنت وهبت له نفسى سراً قبل أن يبرم هذا الزواج المنكود . وإذن فلم أعبر ما عبرت من البحار والأقطار إلا لأهيئ له الموت ، لأقتله ! لأفقده ! آه قبل أن يقضى . . . . .

* * *

المنظر الثانى

هرميون ، كليون

هرميون : آه ! ماذا صنعت ، أى كليون ؟ وماذا أقبلت تقولين لى ؟ ما شأن بيروس ؟

كليون : إنه لنى أقصى آماله ، أسعد الناس حظًّا ، أشدّهم حبًّا . فقد رأيته يقود إلى المعبد – حيث يهيأ زواجه وكأنه الفاتح الظافر – عشيقته الجديدة ، يلمح فى عينيه الابتهاج والأمل . وقد أسكرته البهجة لرؤيتها . وتحمل أندروماك بين ألف صيحة يبعثها الفرح ذكرى طروادة إلى مائدة المعبد ، عاجزة دائماً عن الحب والبغض ، فهى تسعى فى غير فرح وفى غير مقاومة كأنما تذعن للأمر .

هرميون : ومضى الجاحد فى الإهانة إلى أقصى أمدها . ولكن أأحسنت يا كليون ملاحظة وجهه ؟ أكان يذوق اللذة الهادئة الكاملة ؟ ألم يحول طرفه إلى القصر ؟ حدثينى ألم تمثلى أمام عينيه ؟ وهل خجل الجاحد حين رآك ؟ أكان اضطرابه يعلن خيانته ؟ هل احتفظ بكبريائه إلى آخر الأمر ؟

كليون : مولاتى ، إنه لا يرى شيئاً ، وكأنما انتزع من ذاكرته معلك سلامته ومجده . لايفكر فيمن يتبعه أصديق أم عدو ؟ وإنما يمضى فى تحقيق خطته الغرامية . لقد صف حرسه حول ابن هكتور وهو يظن أن هذا الصبي وحده يتعرض للخطر وقد ضمن حمايته فنيكس نفسه ، قاده إلى قلعة بعيدة عن القصر وعن المعبد . هذا كل ما أبقاه له الهيام من عناية .

هرميون : يا له من خائن ! سيموت ! ولكن ماذا قال لك أورست ؟

كليون : لقد دخل أورست المعبد مع أتباعه من اليونان .

هرميون : أليس قد تهيأ للانتقام لى ؟

كليون : لا أدرى .

هرميون : لا تدرين ؟ ماذا ؟ إذن أورست أيضاً ، أورست يخوننى ؟

كليون : أورست يعبدك . ولكن نفسه نهب ألف ضرب من الندم . فهو يؤمن لحبه مرة ولمروءته مرة أخرى . إنه يكبر فى بيروس جلال التاج ، إنه يكبر فيه أخيل ويكبر بيروس نفسه . هو يخاف اليونان ، وهو يخاف غضب الناس جميعاً . ولكنه فيما يقول يخاف نفسه أكثر من كل الناس .

يود لو أقبل منتصراً يحمل إليك رأسه ، ولكن وصف المغتال يملأه ذعراً ويقفه عن الإقدام . إنه قد دخل وهو يجهل فيما بينه وبين نفسه أيخرج مجرماً أم مشاهداً ؟

هرميون : كلا ! كلا ! سيراهما منتصرين فى غير مشقة . وسيأبى كل الإباء أن يشوه هذا المنظر . إنى لأعلم مقدار الندم الذى أصاب شجاعته . يا له من جبان ! إنه يخاف الموت ، لا يخاف شيئاً غيره . ماذا ؟ لقد استطاعت أمى أن تسلح اليونان جميعاً من أجلها دون أن تطلب منهم شيئاً . لقد رأت عيناها عشرين ملكاً لا تعرفهم يقتلون فى هذه الخصومة أثناء حرب دامت عشر سنين . أما أنا فلا أبغى إلا أن يموت حانث فى قسمه . وأكلف عاشقاً غسل هذه الإهانة على أن يكون حبى ثمناً لهذا البلاء . أعرض نفسى ولا أظفر بالانتقام ! هلم . علىّ وحدى أن أنتقم لنفسى . فلتتردد صيحات الألم فى المعبد . لننغص زواجهما المشئوم ، وليكن اقترانهما لحظة قصيرة . لن أختار فى هذا الاضطراب الذى أنا فيه ، كل شىء عندى بيروس ، حتى أورست نفسه ، لأموتن ولكن موتى سينتقم لى على الأقل . لن أموت وحدى ، ليتبعنى بعض الناس .

* * *

المنظر الثالث

أورست ، هرميون ، كليون

أورست : سيدتى ، لقد تم كل شيء . لقد نفذ أمرك . إن بيروس ليجود فى المعبد بحياته الخائنة .

هرميون : أقد مات ؟ !

أورست : هو يحتضر . وقد غسل اليونان الساخطون خيانته بدمه . لقد كنت وعدتك بذلك . ومع أن شجاعتى قد تمثلت هذه المؤامرة فى صورة مشئومة . وقد أسرعت إلى المعبد حيث انثال أتباعنا ، متفرقين فى الناس إلى المذبح . هنالك عرفنى بيروس . ولكن ، مع أن وجهه لم يتغير ، ظهر لى أن محضرى قد زاد فى جرأته ، وأنه ، وقد أهان اليونان جميعاً فى سفيرهم ، بشركهم ويضطرهم إلى الاحتفال بزواجه . ثم أخذ تاجه فى هيام ، فوضعه بنفسه على جبين أندروماك قائلاً : « إنى أعطيتك تاجى وحبى ، أى أندروماك . فاملكى على إبير وعلىّ ، إنى أمنح ابنك مودة الأب . أشهد على ذلك الآلهة وأقسم على ذلك للأم ، أعلن أن عدوه عدوى . وأعترف به ملكاً على الطرواديين » . على هذه الألفاظ

التى كانت تثير رضى الشعب لم يجب أتباعنا من اليونان إلا بصيحة غضب . ورأى الخائن نفسه وقد أحيط به من كل مكان. ولم أستطع أن أجد موضعاً أضرب فيه. فقد كان كل امرئ يبتغى لنفسه مجد قتله . ثم هوى آخر الأمر إلى المذبح. ثم اقتحمت جماعات الشعب المذعور لأبلغ هذا المكان أستنقذ أميرتى لنبلغ الثغر حيث يلحق بنا أصحابنا عما قليل : يخضبهم الدم الذى وعدتك به .

هرميون : ماذا صنعوا ؟

أورست : أعفى عن تعجلهم ، إنى لأرى أنهم خانوا انتقامك . فقد كنت تريدين أن تحمل يدى الضربة الأولى ، وأن يحس وهو يموت أنه يموت من أجلك . ولكنى أنا الذى كان لهم قدوة فى الحدة ، وقادهم من أجلك إلى المعبد . وإنك يا سيدتى لتستطيعين أن تفخرى بموت لم تزد أذرعتهم على أن نفذته . أنت وحدك دفعت الضربة .

هرميون : اسكت أيها الخائن ، ولا تتهم بهذه الجريمة الدنيئة ، جريمة القتل ، إلا نفسك . هلم فاحمل اليونان على أن يعجبوا بغضبك . امض ، إنى لأنكر هذا الغضب ، وإنى لأمقتك أشد المقت أيها المتوحش. ماذا صنعت وبأى جنون قضيت على حياة مجيدة كهذه ؟ استطعت ، أيها

القاسى ، أن تنحره اليوم دون أن يثور من أجله دمك كله؟ ولكن تكلم ! من الذى حكمك فيه ؟ لم اغتلته ؟ ماذا صنع ؟ من ذا الذى أمرك بذلك ؟

أورست : يا للآلهة ! ماذا ؟ ألم تأمرينى أنت هنا بموته منذ حين ؟

هرميون : آه أكان يجب أن تصدق فى ذلك عاشقة قد فقدت الرشد ؟ ألم يكن حقًّا عليك أن تقرأ ما فى قرارة نفسى؟ ألم تكن ترى أثناء ثورتى أن قلبى كان يكذب فمى فى كل لحظة ؟ وهبنى أردت قتله ، أكان يجب أن تطيعنى ؟ ألم يكن حقًّا عليك أن تستعيد هذا الأمر مائة مرة ؟ وأن تأتى فتستشيرنى قبل الإقدام عليه وأن تأتى مرة أخرى ، بل أن تجتنبنى ؟ هلا تركت لى العناية بالانتقام لنفسى ؟ من جاء بك فى هذا المكان الذى يكره فيه لقاؤك ؟ هذه هى الثمرة البغيضة لحبك . لقد حملت إلىّ أيها القاسى ما يتبعك من الشقاء ؛ إنما هى سفارتك المشئومة علينا قد حملته على أن يميل إلى منافستى ، ولولاها لقد كان متردداً بينها وبينى . لعله كان يحبنى أو لعله كان يتكلف حبى . وداعاً ، تستطيع أن تمضى ، أما أنا فسأبقى فى إبير . إنى أرفض اليونان ، وأسبرطة ، وملكها . وأرفض أسرتى كلها . وحسبى أيها الخائن أنها أثمرت وحشاً مثلك .

* * *

المنظر الرابع

أورست وحده

ماذا أرى! أهذه هى هرميون ؟ وماذا أسمع ؟ لمن يسيل الدم الذى هرقته؟ أنا إن صدقتها خائن مغتال. أبيروس الذى يموت؟ ألأنا أورست؟ ماذا ؟ أطيع قلبى وأعصى عقلى الذى يهدينى . أغتال ، كارهاً ، ملكاً أجله ؟ أنتهك فى يوم واحد حرمة الملوك وحرمة السفراء وحرمة الإنسان ، بل حرمة المذابح التى يحاصرها غضبى . أصبح قاتلا مغتالا منتهكاً حرم الدين من أجل جاحدة ، وعدتها بهذا وهى على ذلك إن لم يمت فلن ترانى أبداً : أعتنق غضبها حتى إذا قضيت ما تريد طالبتنى بدمه وحياته . إنها لتحبه وإنى لوحش هائم ! إنى لأراها تبتعد عن عينى آخر الدهر وتدع لى الجاحدة ، وقد تركتنى ، جزاء على ما فعلت ، كل الأسماء المنكرة التى تسميت بها لأرضيها .

* * *

المنظر الخامس

أورست ، بيلاد ، جنود أورست

بيلاد : يجب أن نرحل يا مولاى . لنغادر هذا القصر . أو لنوطن أنفسنا على ألا نخرج منه أبداً . إن أتباعنا من اليونان يحمون بابه الآن ، وإن الشعب كله ليتبعنا مسلحاً . كل شىء هنا خاضع لأمر أندروماك . إن الشعب ليراها ملكة ، ويرانا عدواً . إن أندروماك نفسها ، تلك التى كانت تغلو فى عصيان بيروس ، لتؤدى إليه كل الواجبات التى تؤديها أيم وفية . إنها تأمر بالثأر له . ولعلها إنما تريد مع ذلك أن تثأر منا لطروادة ولزوجها . هلم ، لا ننتظر حتى يحاط بنا . سيلحق بنا أتباعنا . وبينما تمسك هرميون الشعب من حولها نستطيع أن نخرج آمنين من هذه الطريق .

أورست : كلا ، كلا ! إنما أريد أيها الصديق أن أتبع هرميون . فلن أستطيع أن أحيا بعد قرارها الأخير . اذهبوا ، لقد اقترفت الإثم وأريد أن أكفر عنه .

بيلاد : هرميون يا مولاى يجب أن تنساها . ماذا ! أتظل دائماً لغضبها أداة وغرضاً ؟ أتلتمس عند الموتى إهانة جديدة ؟ ألأنها تموت يجب أن تموت أنت ؟

أورست : هي تموت ؟ يا للآلهة ، ماذا أسمع !

بيلاد : ماذا ؟ أكنت تجهل ذلك . لقد لقيناها ونحن ندخل هذا القصر تسرع نحو المعبد قلقة ، هائمة ، حتى إذا رأت بيروس يحمله الجند ويثيرها دمه على أن تثأر له ، ولعل هذا المنظر قد ضاعف ثورتها ، رأيناها من أعلى الباب ، وفي يدها خنجر ، تنحني على بيروس ، ترفع عينيها إلى السماء ، وتضرب نفسها ثم تسقط .

أورست : الحمد للآلهة . إن شقائي ليفوق آمالي . نعم إني لأحمد لك أيها القضاء إلحاحك دون أناة في أن تعاقبني حتى بلغت بي إلى أقصى الألم . لقد كان بغضك لي يجد اللذة في تكوين شقائي . لقد ولدت لأكون مثلا لغضبك لأجل أن أكون صورة كاملة للشقاء . أموت الآن راضياً وقد استوفيت حظي . أين هذان العاشقان ؟ لأغرقن نفسي في دمهما وفي دمي لتتم بهجتي وسروري . أريد أن أراهما وأنا أموت لنجمع قلوباً ثلاثة لم تستطع أن تأتلف . ولكن ما هذا الليل الصفيق الذي يحيط بي ؟ من أي وجه أخرج ؟ مالي أرتعد ؟ أي خوف يملكني ؟ رحمة يا للسماء ! إني لأرى . . . يا للآلهة ، إنها أنهار من الدم تسيل من حولي !

بيلاد : آه مولاى ؟

أورست : ماذا ؟ بيروس أراك أيضاً ! أقدّر لى أن ألقى فى كل مكان خصما أبغضه ؟ كيف نجوت وقد اخترقتك كل تلك الضربات؟ دونك ! دونك ، هذه هى الطعنات التى ادخرتها لك ! ولكن ماذا أرى ؟ هرميون تقبله بمرأى منى ؟ لقد أقبلت تستنقذه من الخطر الذى يهدده . يا للآلهة ! أى لحظات منكرة تلقى علىّ؟ أى شياطين ! أى أفاع تقود من ورائها ؟ إذا يا بنات جهنم أهيئت أيديكن ؟ لمن هذه الأفاعى تصفر فوق رؤوسكن ؟ لمن أعددتن كل هذا الموكب الذى يتبعكن ؟ أأقبلتن تخطفننى إلى الليل الأبدى ؟ أقبلن ، إن أورست ليستسلم لغضبكن . ولكن كلا ! ارجعن ، دعن هرميون تنتقم . إن الجاحدة لأقدر منكن على تمزيقى ، ثم إنى لأقدم إليها قلبى لتلتهمه .

بيلاد : إنه يغشى عليه . أيها الأصدقاء ، إنا عجلون . لننتهز هذه الغشية لننقذه، فقد تضيع جهودنا عبثاً إذا عاد إليه الغضب بعد أن يسترد الشعور .

مسرحيات راسين

المجلد الثاني

١ – المتقاضون
٢ – بريتانيكيس
٣ – برينيس

جان راسين

١ - المتقاضون

« ملهاة »

(١٦٦٩)

ترجمة : أحمد عبد الله

مراجعة وتقديم : عبد الحميد الدواخلي فحص : محمد عبد الغني أيوب

٢ - بريتانيكيس

(١٦٧٠)

ترجمة : الدكتور لطفي فام

مراجعة : يحيى حقي تقديم وفحص : عبد الحميد الدواخلي

٣ - برينيس

(١٦٧١)

ترجمة : الدكتور أنور لوقا مراجعة وتقديم : حسن نديم

الدكتور أحمد عبد الحميد يوسف فحص : عبد الحميد الدواخلي



١
المتقاضون

LES PLAIDEURS

(Comédie : 1669)

« ملهاة »

(١٦٦٩)

ترجمة

أحمد عبد الله

مراجعة وتقديم

عبد الحميد الدواخلى

فحص

محمد عبد النبى أيوب

تقديم

المتقاضون هى الملهاة الوحيدة التى ألفها راسين ، حين اقتنع بأن من حقه أن يتسلى ويسلى معه كرام الناس فى أسلوب مهذب ، بخلاف ما يفعله كثير من المؤلفين الذين يسيئون إلى التمثيلية الهزلية بما يدخلون فيها من كلام ينبو عن الأدب والاحتشام . وقد استبعد الكثيرون من النقاد أن راسين كان يعنى بكلامه هذا نقد موليير ومسرحه .

والمتقاضون ملهاة شعرية فى ثلاثة فصول ، مثلت للمرة الأولى على مسرح (أوتيل دى بورجونى) فى بداية شهر نوفمبر عام ١٦٦٨ ونشرت فى شهر ديسمبر من العام نفسه . وللإلمام بأصل هذه الملهاة، نرى راسين يقرر فى مقدمته بأنه كان قد شغف بمسرحية « الزنابير » لأريستوفان التى يدور موضوعها حول شخصية « فيلوكليون » المولع بحب المحاكمة إلى درجة الهوس، ويعمل ابنه « بديليكيون » جاهداً بمساعدة العبد « اكزانتياس » على أن يحول بينه وبين نزوته الشديدة فلا يستطيع إلى ذلك سبيلا . وحين تضيق الحيل بالابن ، يقدم لأبيه الكلب « لابيس » ليحاكمه بتهمة سرقة قطعة من الجبن .

ومن خلال مداعبات وفكاهات تجانب الذوق الفرنسي ، يتصدى « أريستوفان » بالهجو اللاذع والقدح العنيف ، للعادات المرذولة والتقاليد السيئة في أوساط رجال القضاء والسياسة في عصره .

وقد رأى راسين في هذا الموضوع من السخرية والنقد والتهريج ما يصلح أن يكون مادة غزيرة للمهاة مسلية . أراد في البداية أن يخص بها المسرح الإيطالي وعلى رأسه «سكاراموش» الممثل الذائع الصيت وقتذاك . وفي سبيل تجسيد ملهاته ، اقتبس راسين من المسرحيات الإيطالية نواة مسرحية أخرى تدور حول شاب يتنكر في زى شرطي ليتمكن من مغازلة فتاة . ويحتال على والدها فيجعله يوقع على عقد زواج صحيح دون أن يدرى.

بيد أن رحيل « سكاراموش » وضع حداً لمشروع راسين . ولكن « بوالو » و « فورتيير » ألحا على راسين في أن يؤلف من هذه الفكاهات مسرحية حقيقية . ونزل راسين على رغبة الصديقين فكتب مسرحية « المتقاضين » التي نرى فيها القاضي « دندان » يولع بالمحاكمة ولعاً شديداً حتى « بح صوته » وكثرت لديه القضايا كثرة كبيرة ، وازدحم الناس حوله ازدحاماً لا حد له . وقد اضطر ابنه لياندر إلى أن يقوم بمساعدة « جان الصغير » بمداومة الحراسة حول أبيه . ويعترف لياندر « للنتيميه » بأن له أمنية عزيزة على نفسه يود تحقيقها ، ألا وهي زواجه بإيزابلا ابنة « شيكانو » أحد المولعين بالقضايا والتضحية بالمال والجهد والوقت في سبيل الانتصار على خصومهم .

ويحدث أن تقع خصومة بين شيكانو والكونتس دى بمبيش إحدى المتخاصمات المضحكات . وهنا تتاح الفرصة لانتيميه ليتخفى فى زى محضر ، بينما يتنكر لياندر فى ثياب شرطى ، ويذهبان إلى بيت شيكانو. وهناك يقومان بعمل استجواب وتحرير محضر يوقع عليه شيكانو دون أن يعلم أنه وقع على عقد زواج قد « استوفى الشروط القانونية » . ولم يبق سوى موافقة القاضى داندان على العقد .

واحتال لياندر ليبقى أباه بالمنزل . وليشبع رغبته الجنونية فى محاكمة الناس والفصل فى القضايا ، تقدم إليه لياندر طالباً منه أن يحاكم كلباً يدعى «سترون » لأنه متهم بسرقة ديك . وبعد الجلسة التى تمت فيها جميع الطقوس التى تستلزمها العدالة ، طلب لياندر إلى أبيه أن يحكم أيضاً فى قضية زواج ، قائلا : « العاشق يرغب فيه والفتاة تريده ، والوالد يوافق عليه» . ويصدر دندان حكمه قائلا : « إنى أعقد الزواج بأسرع ما يمكن» . فيتقدم لياندر إلى إيزابيلا قائلا : « آنستى ، تفضلى بتحية حميك ». ولم يكن دندان فى حل من أن يسحب حكماً أصدره ، كما أن شيكانو كان قد وقع على عقد الزواج معتقداً أنه يوقع على محضر الاستجواب . وبمناسبة هذا الزواج ، أصدر دندان عفوه عن الكلب سترون .

ومسرحية المتقاضين تعد بدورها نقداً لاذعاً وسخرية شديدة لأوساط القضاة والمحامين وإجراءات التقاضى وانتشار الرشوة . ولعل لراسين بعض التجارب الشخصية ، فقد سبق أن رأى عمه « سكونان » فى بلدة « أوزيس»

يتورط تورطاً شديداً فى مشكلات قضائية . كما أن راسين نفسه قد تورط فى قضية لم يفهم فيها شيئاً لا هو ولا محاموه ولا قضاته ضد دير مقاطعة « أسبينيه » .

ويروى أن « بوالو » هو الذى أمده بالمشهد المضحك الذى يجمع بين « شيكانو » وبين « الكونتيس دى بمبيش » التى هى فى الواقع « الكونتيس دى كريسيه » التى بددت كل ثروتها فى المحاكم والقضايا . وكان فورتيير قد ابتكر فى مؤلفه : « القصة البرجوازية » عام ١٦٦٦ شخصية من هذا الطراز نفسه هى « كولانتين » . والمرجح أن راسين كان يعرض على بوالو ولافونتين وفورتيير أعماله وآراءه واقتراحاته ساعة كان يلقاهم فى حانة « الخروف الأبيض » . ولم يغفل راسين فى مقدمته الإشادة بمعاونة أصدقائه له فى هذه المسرحية .

ومن هنا كانت المشاهد المضحكة التى يقوم فيها داندان بمحاكمة الكلب سترون ، والتى نسمع فيها بلاغة جان الصغير وفصاحة لنتيميه .

لقد سخر راسين من أعدائه الذين لا يرضون أن يضحكوا إلا إذا كانوا على ثقة من أنهم يضحكون وفقاً « للقواعد المألوفة » !

ولم تصادف هذه الملهاة أى نجاح حين مثلت للمرة الأولى على مسرح « أوتيل دى بورجونى » ، ولكنها حين مثلت على مسرح القصر أضحكت الملك فرضى عنها الجمهور ، ثم تبناها بعد ذلك .

عبد الحميد الدواخلى

أشخاص المسرحية

داندان	قاض
لياندر	ابن داندان
شيكانو	بورجوازى
إيزابيل	بنت داندان
الكونتيسة	
بيتى جان (جان الصغير)	البواب
لنتيميه	السكرتير

تدور أحداث المسرحية فى إحدى مدن مقاطعة « نورماندیا » السفلى

الفصل الأول

المشهد الأول

بيتي جان يجر كيساً كبيراً مليئاً بالقضايا

بيتي جان : لعمري، إنه لمجنون حقاً هذا الذي يعتمد على ما يأتي به الغد، فإن من يضحكه يوم الجمعة قد يبكيه يوم الأحد. في العام الماضي، ألحقني قاض بخدمته، وأتى بي من بلدي «أميان» ليتخذني حاجبه وحارس بابه. وحاول جميع النورمانديين الذين أعايشهم أن يتسلوا بي، لكن مخالطة الذئاب، كما يقال، تعلم العواء: فقد أصبحت فيهم ذا مكر وخداع، وإن كنت بيكاردي الأصل. وتعلمت كيف أتعالى وأتعاظم كما يفعل كبار السادة، وصاروا لا يخاطبونني إلا وهم حاسرو الرأس، وبكل تبجيل وتعظيم يدعونني: «يا سيد بيتي جان» بيد أن التبجيل دون مال علة وسقم. لعمري! لقد تشبهت ببواب مسرح الكوميديا[1]، وتركت

(١) كان بواب مسرح «الكوميديا» يتسلم أجر الدخول من جمهور النظارة. ولعله كان يتساهل مع من ينقده شيئاً من المال.

الناس يدقون بابى دون جدوى ، ويرفعون القبعات بلا فائدة ، فلا أسمح لأحد بالدخول عندنا ما لم يستعمل البواب بالعطايا والهبات ، لا مال ، لا بواب والباب موصد . والواقع أنى أؤدى لسيدى عملا : فنحن نتحاسب أحيانًا ، وقد تعهدت بتموين البيت بالشموع والأعلاف . بيد أنى لم أتكبد أية خسارة من جراء ذلك ، بل زدت عليه — كيفما اتفق — تموين القش ، فضلا عن ذلك ، بالقدر الكافى . ومما يستوجب الأسف أنه كان يوجه همه ، كل همه ، إلى شئون مهنته . إنه أول من يصل إلى مجلس القضاء ، فى كل يوم ، وآخر من يغادره . وكثيرًا ما يبقى فيه وحده . ولو أطعناه لاتخذ من المجلس مخدعًا ينام فيه أيضًا دون طعام أو شراب ، كنت أقول له أحيانًا : « سيدى پيران داندان ، أصارحك أنك تبكر فى الاستيقاظ كل يوم . ومن يرد أن يطيل السفر فعليه ألا يرهق المطية . فكل واشرب ، ونم وأطل أيام حياتك . »

لكنه لم يحفل بنصيحتى ، بل تمادى فى السهر وأفرط فى العمل حتى اختلط عقله ، فيما يقال . إنه يريد أن يحاكمنا جميعًا الواحد تلو الآخر ، ثم هو يتمتم دائمًا بكلام لا أعى منه شيئًا ، ويأبى طوعًا أو كرهًا إلا أن ينام فى

كسوة القاضى وعلى رأسه قلنسوته المربعة . وقد اشتد غضبه فأمر بقطع رأس ديكه بحجة أنه تأخر فى إيقاظه عن الوقت المعتاد ، زاعماً أن أحد المتخاصمين من أرباب القضايا الخاسرة قد أغرى هذا الحيوان المسكين بالرشوة . ومنذ أن صدر حكمه هذا ، والرجل لا يفتأ يهذى حتى إن ابنه أصبح لا يطيق أن يحدثه أحد فى الشئون القضائية ، ووضعه تحت حراستنا الشديدة ليل نهار خشية أن يفلت ويذهب إلى المجلس . إنه ، علم الله ، جد نشيط حين يحاول الهرب منا .

أما أنا فلم يعد لى سبيل إلى النوم ، لذا نحل جسمى وأصبح منظرى يثير الشفقة . إنى أتهيأ للنوم ولا أستطيع سوى التثاؤب . ولكن ليسهر من يشاء كما يشاء لأنى سأنام هذه الليلة ملء جفونى . وتلك وسادتى[1] . والنوم فى العراء لا يضير أحداً .

فلننم . (ويرقد على الأرض)

* * *

(١) كيس القضايا .

المشهد الثانى

لتيميه ، بيتى جان

لتيميه : أى بيتى جان ! بيتى جان !

بيتى جان : لتيميه ! (همسا) إنه يشفق على أن يصيبنى الزكام .

لتيميه : يا للشيطان ! ماذا تفعل فى الطريق فى الصباح الباكر ؟

بيتى جان : وهل كتب على أن أظل واقفاً على قدمى ، أقوم دائماً على حراسة إنسان وأسمع صياحه ؟ فياله من وجه كريه ! إنى أعتقد أنه ساحر .

لتيميه : حسن !

بيتى جان : وإذن فقد قلت له وأنا أحك رأسى ، إنى أريد أن أنام ، فقال لى ، فى وقار : « قدم لى طلباً يتضمن رغبتك فى النوم . » فأنا الآن نائم ، لكنى أقص عليك القصص . طاب مساؤك .

لتيميه : طاب مساؤك كيف ؟ إنى لا أصدق أن . . . ولكنى أسمع صوتاً فى أعلى الباب .

* * *

المشهد الثالث

داندان ، لنتيميه ، بيتى جان

داندان (فى النافذة) : أى بيتى جان ! أى لنتيميه !

لنتيميه (مخاطباً بيتى جان) : سلاماً !

داندان : أنا هنا وحدى . إن الحارسين متغيبان . حمداً لله ! وإذا أتحت لهما الوقت ، فقد يمثلان أمام المحكمة . هيا نتعجل إطلاق سراحنا .
لنقفز من النافذة .
ها قد أصبحت حرًّا !

لنتيميه : ما أقدره على القفز !

بيتى جان : آه ! سيدى ، إنى أقبض عليك .

داندان : اللص ! اللص !

بيتى جان : ماذا تقول ؟ لقد قبضنا عليك .

لنتيميه : إنك تصرخ بلا جدوى .

داندان : النجدة ! النجدة ! إنهم يقتلوننى !

* * *

المشهد الرابع

لياندر ، داندان ، لتيميه ، بيتى جان

لياندر : إلىّ بمشعل وأسرعوا ! فإنى أسمع صوت أبى فى الشارع . أبى ! من أخرجك فى تلك الساعة المبكرة من المنزل ؟ إلى أين تجرى فى ظلمات الليل ؟

داندان : أريد أن أذهب لأقضى فى أمور الناس .

لياندر : لتقضى فى أمور مَن والكل نيام ؟

بيتى جان : لعمرى ، إننى لم أنم .

لياندر : ما أكثر تلك الملفات ! إنها تبلغ ساقيْه .

داندان : لا أريد العودة إلى الدار قبل ثلاثة أشهر . وعندى من الملفات والقضايا ذخيرة كافية .

لياندر : ومن الذى يقدم لك الطعام ؟

داندان : صاحب المقصف بالمحكمة فيما أظن .

لياندر : وأين تنام ، يا أبتاه ؟

داندان : فى الجلسة .

لياندر : كلا يا أبت . خير لك ألا تخرج . نم فى بيتك ، وتناول جميع وجباتك فى منزلك . وأرجو أن تثوب إلى رشدك ،

ومراعاة لصحتك . . .

داندان : أريد أن أمرض .

لياندر : ما أنت إلا مريض قد اشتد عليه المرض . فأرح نفسك وإلا فلن يبقى لك إلا عظام تكسو جلداً .

داندان : الراحة ؟ آه ! أتريد أن تنظم حياة أبيك على غرار حياتك ؟ أتظن أنه لا هم للقاضي إلا تناول الطعام الجيد، والتسكع في الطرقات على منوال تلك الفئة من الباحثين عن الملذات ، وارتياد المراقص ليلا ونوادي الميسر نهاراً ؟ إن المال لا ينهال علينا بالسرعة التي يتصورها البعض . إن كل شريط من ملابسك يكلفني قيمة حكم أصدره . إن ثوب القضاء يخجلك : ابن قاض ! آه ! تباً لك ! تريد أن تتشبه بالرجل النبيل . يا سليل داندان ، أي صديقي ، قلب النظر في محتويات غرفتي ، وفتش صوان ملابسي تر صور آل داندان : لقد ارتدوا جميعاً ثوب القضاء ، وهذا هو السبيل الأقوم . قارن تماماً بين هدايا القاضي وبين هدايا « الماركيز » : انتظر حتى نهاية شهر ديسمبر[1] .

---

(١) في القرن السابع عشر ، كان العرف يقضي بتقديم الهدايا للقاضي قبل النظر في الدعوى . ثم أصبحت هذه الهدايا ، فيما بعد ، جزءاً من مرتبه .

ثم ، من هو النبيل ؟ إنه عمود فى حجرة الانتظار[1] . كم رأيت أنت الكثيرين من بين أوسعهم ثراء ، وأرفعهم شأناً ، منصرفين إلى النفخ فى أصابعهم ، طلباً للدفء ، واقفين فى فناء دارى وأيديهم فى جيوبهم ، يتدثرون بالمعاطف حتى أنوفهم ، وينتهى بهم طالب الدفء إلى سفود الشواء[2] ! هكذا أعمالهم . آه منك أى بنى المسكين ! أهذا هو الدرس الذى تلقيته من المرحومة أمك ؟ رحمك الله يا « بابونيت » ! واأسفاه عليك ! كلما تذكرت أنها لم تتخلف قط عن مشاهدة أية جلسة ! ولم تفارقنى قط ! وعلم الله كم حملت عقب كل جلسة ! كم أخذت مناشف من صاحب المقصف حتى لا تعود إلى الدار صفر اليدين . وهكذا يكون تدبير البيوت الطيبة . انصرف ، فلن تكون إلا صاحب غفلة .

لياندر : إنك ستصاب بالبرد هنا يا أبتاه . أى بنى جان ، عد بسيدك ، إلى الدار ، أرقده فى سريره وأغلق الباب والنافذة ، وغلق كل شىء حتى يزداد دفئاً .

---

(١) يبدى داندان مقدار سروره لأنه يترك الأشراف الذين يحضرون لمقابلته ينتظرونه طويلا .

(٢) يفخر داندان بأن هؤلاء الأشراف يسمح لهم بدخول مطبخه طلباً للدفء رحمة بهم .

بيتى جان : إذن أقم الحواجز فى الطابق العلوى على الأقل .

داندان : كيف ؟ أيراد بى أن آوى إلى مضجعى على هذه الصورة ؟ لا بد من اتخاذ قرار يبين كيف يجب على أن أنام .

لياندر : هيا يا أبتاه واضطجع مؤقتاً إلى أن تتم الإجراءات .

داندان : سأذهب ، ولكنى سأغيظكم جميعاً ، إننى لن أنام .

لياندر : حسن ! خيراً تفعل . (مخاطباً بتى جان) لا تفارقه . أما أنت يا لنتيميه فابق هنا .

* * *

المشهد الخامس

لياندر ، لنتيميه

لياندر : أريد أن أتحدث إليك برهة على انفراد .

لنتيميه : ماذا ؟ أتريد أن أحرسك ؟

لياندر : قد أكون فى حاجة ماسة لذلك ، فلى جنونى واحسرتاه ، مثل أبى تماماً .

لنتيميه : عجباً ! هل تريد أن تحكم بين الناس ؟

لياندر : لنترك السر هنالك . هل تعرف هذا المسكن ؟

لنتيميه : أخيراً فهمتك : يا للشيطان ؟ إن الحب يستحوذ على قلبك فى الصباح الباكر . تريد أن تحدثنى ، بلا شك ،

عن« إيزابيل » : قلت لك ، مائة مرة ، إنها عاقلة ، وهى جميلة ، لكن عليك أن تفكر أن السيد « شيكانو » ينفق جلّ ثروته فى القضايا . ومن ذا الذى سلم من خصوماته ؟ فى ظنى أنه — إذا أمهله الموت — قد يرسل إلى المحكمة بكل سكان فرنسا . وقد جاء ليسكن بجوار القاضى : يريد أحدهما أن يقاضى الناس على الدوام ويريد الثانى أن يقضى فى المنازعات دون انقطاع .

وقد تكون مصادفة كبيرة لو بتّ فى أمرك دون أن يخاصم القس والصّهر وموثق العقود .

لياندر : إنى لعلى علم مثلك بما قلت . بيد أنى على الرغم من هذا كله ، أحب « إيزابيل » وأستمرئ الموت فى سبيلها .

لتيميه : حسناً ، تزوجها . وما عليك إلا أن تتكلم ، وإنها لقضية معقدة .

لياندر : هيا ! إن المسألة لا تنتهى بالسرعة التى تخطر ببالك ، فأبوها ينفر من الناس ، ويخاف منى . وليست رؤية ابنته بالأمر المستطاع ما لم يكن الرائى محضراً أو موظفاً قضائيًّا أو وكيلا للدعاوى ، و « إيزبيل » المسكينة متوارية عن العيان ، تعيش محزونة ، حبيسة الدار ، يعروها الندم ، إذ ترى شبابها يذبل وحبى لها يستحيل هباء ، وثروتها تتبدد فى

القضايا . إن أباها سيقضي عليها بالخراب إذا ترك وشأنه . فهلا عرفتني بمزور ، قدير يخدم أصدقاءه مقابل أجر طبعاً ، واحد من أولئك المحضرين المخلصين ؟

لنتيميه : الأمر سهل ! وكثير ما هم !

لياندر : ثم ماذا ؟

لنتيميه : آه ! سيدى ، لو كان المرحوم والدى حيًّا لكان الضالة المنشودة لمسألتك .

لقد كان يكسب فى اليوم الواحد ما يكسبه غيره فى ستة شهور ، وكان عدد ما أعلن من عرائض الدعاوى مرسوماً فى تجاعيد جبينه . كان فى مقدوره أن يوقف مركبة أمير ، بل كان قادراً على أن يقبض على الأمير نفسه . وإذا كان الضرب فى بلاد الأقاليم محدوداً بعشرين جلدة ، فإن أبى كان قادراً على تحمل تسع عشرة جلدة من سوط صنع من عصب ثور . ولكن ما هو المطلوب ؟ أو لست أنا من صلب ذلك المعلم ؟ إنى فى خدمتك .

لياندر : أنت ؟

لنتيميه : وربما كنت خيراً من محضر .

لياندر : أتستطيع أن تحمل إلى الأب إعلان دعوى زائفة ؟

لنتيميه : عجباً ! عجباً !

لياندر : وهل تسلم رسالة إلى ابنته ؟

لتيميه : ولم لا ؟ إنى لقدير على القيام بهذه وتلك .

لياندر : تعال ، فإنى أسمع صياحه . هيا بنا نتدبر هذه الخطة فى فى مكان آخر .

* * *

المشهد السادس

شيكانو ، بيتى جان

شيكانو (يروح ويجىء) : — أيها البرياوى [1] ، احرسوا الدار ، سأعود عما قريب . حذار أن تسمحوا لكائن من كان بالصعود . كلف من يحمل هذه الرسالة إلى بريد « مين » . وخذ من جحر الأرانب ثلاثاً وابعث بها ، هذا الصباح ، إلى وكيلى فى الدعوى ، وإذا حضر كاتبه إلى هنا فدعه يتذوق طعم نبيذى . آه ! وأعطه هذا الكيس المعلق فى نافذتى . أهذا هو كل شىء؟ ربما جاء فى طلبى رجل طويل القامة ، نحيف البدن ، هو شاهدى ، إنه سيدلى باليمين فى صالحى ،

(١) عربنا هكذا النسبة إلى « Brie » البلد الذى ينتمى إليه خادم « شيكانو » وكان المألوف فى القرن السابع عشر أن يدعى الخادم باسم موطنه الأصلى .

عند الحاجة . فلينتظرنى .

أخشى ألا يخرج القاضى ، فالساعة قاربت الرابعة، لنطرق بابه .

بيتى جان (يوارب الباب) : من القادم ؟

شيكانو : أيسمح لى برؤية السيد ؟

بيتى جان (يغلق الباب ثانية) : لا .

شيكانو : هل أستطيع أن أقول كلمة للسيد سكرتيره ؟

بيتى جان : لا .

شيكانو : والسيد بوابه ؟

بيتى جان : إنى أنا البواب .

شيكانو : تفضل واشرب نخب صحتى .

بيتى جان (يأخذ النقود) : — زدت خيراً ! ولكن عد غداً .

شيكانو : ياهذا، رد إلىّ النقود إذن . حقاً لقد فسدت الدنيا. شهدت الوقت الذى كانت القضايا فيه لا تتعب صاحبها ، يوم كانت الدراهم تربح مثلها عدداً ، أما الآن فإن مالى كله أصبح لا يكفى لاستمالة بواب . لكنى أرى « مدام الكونتيسة دى بامبيش » آتية . لقد جاءت بشأن قضية عاجلة .

* * *

المشهد السابع

شيكانو ، الكونتيسة

شيكانو : سيدتى ، الدخول ممنوع .

الكونتيسة : إذن ! ألم أقل ذلك؟ فى الحق أن خدمى يفقدوننى الصواب . وعبثاً أحاول التقريع والتعنيف لإيقاظهم ، وعلىّ أنا ، فى كل يوم ، أن أوقظ الجميع .

شيكانو : لا بد له من أن يمنع دخول بيته .

الكونتيسة : منذ يومين وأنا أحاول ، دون جدوى ، التكلم معه .

شيكانو : إن خصمى فى الدعوى لقوى ، ولدىّ ما يحمل على الخوف من كل شىء .

الكونتيسة : لم يعد هناك مجال للشكوى بعد الذى فعلوه معى .

شيكانو : ومع ذلك فإن الحق فى جانبى .

الكونتيسة : آه ! يا سيدى ، يا له من حكم !

شيكانو : إنى أحتكم إليك . استمعى من فضلك .

الكونتيسة : يجب أن تعلم يا سيدى أن الخيانة .

شيكانو : لا شىء فى واقع الأمر .

الكونتيسة : سيدى ، يجب أن أ رل لك . . .

شيكانو : إليك الوقائع : منذ خمس عشرة سنة أو عشرين سنة اخترق جحش مرجاً أملكه ، وتمرغ فيه ملحقاً به خسارة كبيرة . رفعت بذلك شكوى إلى قاضى القرية ، ووقعت الحجز على الجحش. وعيّن خبير ، فقدر الخسارة بحزمتين من التبن . وبعد انقضاء عام ، انتهى الأمر بصدور حكم مؤداه، تخلى المحكمة عن نظر الدعوى .

واستأنفت الحكم . وفى أثناء نظر الاستئناف — تنبهى لهذا سيدتى من فضلك — استطاع صديقنا « دروليشون » وكيلى فى الدعوى — وهو ليس بالغبى — استطاع ، مقابل بعض المال ، أن يستصدر لى حكماً من دائرة المطالب . وكسبت القضية . فماذا فعلوا إثر ذلك ؟ عارض خصمى فى التنفيذ ، ومن ثم أثيرت مسألة فرعية أخرى، بينما كانت القضية تنظر ، أطلق خصمى دواجنه فى مرجى ، وقُدم للمحكمة تقرير بالحادث، قُدر فيه ما يمكن أن تلتقطه دجاجة من العشب فى اليوم الواحد . وضُم هذا كله إلى ملف الدعوى ، مع جميع الأشياء التى بقيت على حالها . وأحضر الشهود وقدمت المستندات ، وتأجلت الدعوى إلى الخامس أو السادس من شهر أبريل سنة ست وخمسين . ثم عاودت الكرة بمصروفات جديدة : فقدمت الأدلة والشهود وأبرزت المستندات المؤيدة

للدعوى ، وأدحضت حجج الخصوم ، وعملت محاضر بأقوال الشهود ، وكانت أوامر الاطلاع ، وتقارير خبراء ، وتنقلاتهم للمعاينة ، وثلاثة أوامر تحقيق ، وظلامات ، ووقائع جديدة ، وعقود إيجار ومحاضر . وحصلت على رسائل من الديوان الملكى ، وطعنت بالتزوير . أربع عشرة مصالحة وثلاثون إعلاناً ، وست دعاوى ، ومائة وعشرون مستنداً ، وعشرون قراراً بعدم التنفيذ ، وأخيراً صدر الحكم . خسرت قضيتى ، وحكم على بالمصاريف التى قدرت بخمسة آلاف أو ستة آلاف فرنك تقريباً . فهل هذا هو إحقاق الحق ؟ وهل هذه هى طريقة المحاكمة ؟ بعد خمس عشرة أو عشرين سنة ! بقى أمامى ملجأ واحد، ذاك هو التماس إعادة النظر لأنى لا أستسلم . ولكن أنت ، هل أنت طرف فى خصومة كما يبدو لى ؟

الكونتيسة : أسأل الله التوفيق !

شيكانو : سأضحى بكل ما أملك فى الدعاوى .

الكونتيسة : أنا . . .

شيكانو : حزمتا تبن بخمسة إلى ستة آلاف جنيه !

الكونتيسة : سيدى ، كانت قضاياى كلها فى الطريق إلى نهايتها ، ولم يكن يبقى منها سوى أربع أو خمس قضايا صغيرة ،

واحدة ضد زوجي ، وأخرى ضد أبي ، وضد أولادي . آه ! يا سيدي ، يا للبؤس! لست أدري أية طريق ملتوية تصوروا ، ولا أعرف ماذا صنعوا ، لكنهم حصلوا على حكم يخول لهم — ما داموا يضمنون لى الغذاء والكساء — حق منعي من إقامة الدعاوى مدى الحياة .

شيكانو : من إقامة الدعاوى !

الكونتيسة : من إقامة الدعاوى .

شيكانو : حقاً إن الشرط محزن وإني لدهش به .

الكونتيسة : سيدى ، لقد بلغ بي الأمر مبلغ اليأس .

شيكانو : كيف ! يغلون أيدى أناس من طرازك ! لكن هل قيمة النفقة المقررة كبيرة يا سيدتى ؟

الكونتيسة : بقدر ما تيسر لى العيش الكريم ، سيدى . ولكن هل يرضى أحد بالحياة دون إقامة الدعاوى ؟

شيكانو : سيأتى المتنازعون ويأكلون أموالنا ولا نستطيع لهم رداً . لكن ، من فضلك سيدتى ، متى بدأت تقيمين الدعاوى ؟

الكونتيسة : لا أتذكر ذلك ، منذ ثلاثين عاماً ، على الأكثر .

شيكانو : هذا ليس بكثير .

الكونتيسة : ويااللاسف !

شيكانو : وما سنك ؟ إنك جميلة المنظر .

الكونتيسة : ما يقرب من الستين عاماً .

شيكانو : كيف ! هذه هى خير سن لإقامة الدعاوى .

الكونتيسة : دعهم فهم لم يصلوا بعد إلى النهاية .
سأسير فى الدعوى ولو أدت بى الحال إلى أن أبيع قميصى .
ولن أطالب بشىء أو أطالب بكل شىء .

شيكانو : سيدتى ، استمعى إلىّ . إليك ما لابد من فعله .

الكونتيسة : نعم يا سيدى ، إننى أصدق ما تقول كما أصدق مقال أبى.

شيكانو : أذهب لمقابلة القاضى .

الكونتيسة : نعم يا سيدتى ، سأذهب .

شيكانو : وأجثو عند قدميه .

الكونتيسة : نعم ، سأجثو عند قدميه : لقد قررت ذلك .

شيكانو : تكرمى إذن بالإنصات إلىّ .

الكونتيسة : نعم ، إنك تنظر إلى الأمور النظرة الصائبة .

شيكانو : هل انتهيت سيدتى من قول ما لديك ؟

الكونتيسة : نعم .

شيكانو : سأذهب ، دون كلفة ، لمقابلة القاضى .

الكونتيسة : آه ! ما أطيب هذا السيد ؟

شيكانو : إذا تماديت فى الكلام فما علىّ إلا السكوت .

الكونتيسة : آه ! كم أنا مدينة لك ! لم أكن أشعر بالراحة .

شيكانو : سأذهب لمقابلة القاضى ، وأقول له . . .

الكونتيسة : نعم .

شيكانو : واها ! وأقول له : سيدى . . .

الكونتيسة : نعم يا سيدى .

شيكانو : قيدنى . . .

الكونتيسة : سيدى ، لا أريد أن أكون مقيدة .

شيكانو : إلى الآخر !

الكونتيسة : سوف لا أكونها .

شيكانو : ما أغرب مزاجك !

الكونتيسة : لا .

شيكانو : لكنك لا تعرفين سيدتى ماذا أقصد .

الكونتيسة : سأقيم الدعاوى ، سيدى ، أو لا أقيمها .

شيكانو : لكن . . .

الكونتيسة : لا أريد ، يا سيدى أن يقيدنى أحد .

شيكانو : عند ما ينتهى أمر المرأة بفساد العقل والجنون . . .

الكونتيسة : بل أنت المجنون .

شيكانو : سيدتى !

الكونتيسة : ولماذا أقيد ؟

شيكانو : سيدتى . . .

الكونتيسة : أرأيتم ما كان منه ؟ إنه يريد رفع الكلفة بيننا .

شيكانو : ولكن ، سيدتى . . .

الكونتيسة : بخيل بغيض ، لا يملك سوى المنازعات ويريد أن يسدى النصائح !

شيكانو : سيدتى !

الكونتيسة : بحماره !

شيكانو : إنك تثيرينى .

الكونتيسة : ألا فاذهب يا هذا واحرس تبنك .

شيكانو : إنك تغضبيننى .

الكونتيسة : أيها الأحمق !

شيكانو : آه ، لو كان معى شهود ؟

* * *

المشهد الثامن

بيتى جان ، الكونتيسة ، شيكانو

بيتى جان : أرأيتم الضوضاء الشديدة التى يثيرانها أمام بابنا ؟ انصرفوا ، يا سادة ، وأرعدوا رعدكم بعيداً عنا .

شيكانو : سيدى ، كن شاهداً ! . . .

الكونتيسة : على أن السيد أحمق .

شيكانو : سيدى ، أتسمعها ؟ تذكر جيداً هذه الكلمة .

بيتى جان : آه ! ما كان ينبغى لك أن تطلق هذه الكلمة .

الكونتيسة : حقاً ، وجميل منه أن يرمينى بالجنون !

بيتى جان : بالجنون ! إنك مخطئ . لماذا تسبها ؟

شيكانو : إنى أنصحها .

بيتى جان : آه !

الكونتيسة : نعم بأن أقيد .

بيتى جان : ه ! يا سيدى !

شيكانو : لماذا لم تستمع إلى حتى النهاية .

بيتى جان : آه ! سيدتى !

الكونتيسة : من ، أنا ، وهل أطيق أن ينازعنى أحد ؟

شيكانو : صياحة !

بيتى جان : صه ! السكون !

الكونتيسة : مشاكس !

بيتى جان : كفى !

شيكانو : إنها عاجزة عن أن ترفع الدعاوى .

الكونتيسة : فيم يعنيك هذا ؟ وماذا يعود عليك منه أيها المزور ، المشاغب اللص !

شيكانو : طيب ، طيب ، يا للنحس ! من لى بمحضر !

من لى بمحضر !

الكونتيسة : هل من محضر ؟ هل من محضر ؟

بيتى جان : الواقع أن القاضى والمتقاضين يستحقون جميعاً أن يوضعوا فى الأغلال .

* * *

الفصل الثانى

المشهد الأول

ليآندر ، لتيميه

لتيميه : سيدى ، أكرر مرة ثانية أنى لا أستطيع أن أعمل كل شيء ، وبما أنى أمثل المحضر فمثل أنت ضابط الشرطة. وعليك أن ترتدى البذلة وتتبع خطاى. وستتهيأ لك كل السبل للتحدث إلى « إيزابيل » . أبدل شعرك المستعار الأشقر بآخر أسود. وهل يفكر هؤلاء المتقاضون أنك موجود فى الدنيا ؟ هيا ! إنهم حينما يتوجهون إلى دار أبيك ليقدموا له التحية ، يكون الصبح لم ينبلج بعد ، ولكن ألا تعجب بهذه « الكونتيسة » الطيبة التى يسوقها إلىّ حسن الحظ ؟ إنها حين ترانى ، وتخدع بمنظرى ، ستطلب إلىّ أن أوجه إعلاناً ، عن يد محضر ، إلى السيد « شيكانو » لتكليفه بالحضور أمام المحكمة حيث إنه وجه إليها بعض الألفاظ وقال إنه يعتبرها مجنونة : أعنى مجنونة تستحق أن تقيد ، كما أنه اعتدى

عليها بالقذف والسب وما إلى ذلك من عبارات تنميق الدعاوى . ولكنك لم تقل لى شيئاً عن زيى التنكرى؛ فهل ترانى أشبه المحضر فى هيئته وشكله ؟

لياندر : آه ! عظيم جداً .

لتيميه : لست أدرى ، ولكنى أحس أن حياتى أقوى نمواً ، وأن عودى أشد صلابة[1] مما كان عليه فى هذا الصباح . ومهما يكن من أمر ، فهذا هو الإعلان ، وهذه هى الرسالة : وستتسلمها « إيزابيل » ، أعدك بذلك . غير أن التوصل إلى توقيع هذا العقد يقتضى منك أن تتبعنى وتسير فى خطاى ، وتجىء معى إلى هنا ، فتتظاهر بالإدلاء ببيانات خاصة بالقضية كلها ، وسيتسنى لك أن تغازل البنت فى حضرة أبيها .

لياندر : ولكن تنبه كيلا تسلم الإعلان بدلا من الخطاب .

لتيميه : سيتسلم الأب الإعلان ، وسيصل الخطاب إلى الابنة ، عد إلى الدار .

---

(١) أشد صلابة – يعنى أنه مستعد لتلقى الضربات ، وفيه إشارة للعرف المتبع فى ذلك العصر ، بين المتخاصمين ، إذ كان المألوف عادة ضرب المحضر المكلف بتوجيه الإعلان .

المشهد الثانى

لنتيميه ، إيزابيل

إيزابيل : من بالباب ؟

لنتيميه : صديق . إنه صوت « إيزابيل » .

إيزابيل : هل جئت فى طلب أحد يا سيدى ؟

لنتيميه : آنستى ، إنه إعلان صغير ، أستبيح توجيه الرجاء إليك لتوليني شرف تسليمه لك .

إيزابيل : معذرة سيدى ، فإنى لا أقدر على فهم شىء من هذه الأمور ، عند ما يعود أبى يستطيع التفاهم معك بشأنه .

لنتيميه : إذن فهو ليس بالدار يا آنستى ؟

إيزابيل : لا .

لنتيميه : الإعلان يا آنستى معلن باسمك أنت .

إيزابيل : سيدى ، لعلك تقصد أحداً غيرى بلا شك. إننى أعرف مقدار ما تتكلف القضايا من جهد ومال ، وأنا لم أكن قط طرفاً فى خصومة . وإذا كان فى الدنيا من يكره التقاضى أكثر منى فمن الخير لأمثالك أن يبحثوا لهم عن وظيفة أخرى . وداعاً .

لتيميه : أتسمحين لى . . .

إيزابيل : لا أريد أن أسمح بشىء .

لتيميه : أنا لا أحمل إعلاناً .

إيزابيل : إذن حديث تافه .

لتيميه : بل رسالة .

إيزابيل : أكثر تفاهة .

لتيميه : اقرئيها .

إيزابيل : إنك لن تستبقينى هنا .

لتيميه : إنها من السيد . . .

إيزابيل : وداعا .

لتيميه : لياندر .

إيزابيل : اخفض صوتك ، إنها من السيد . . . ؟

لتيميه : يا للشيطان ! من العسير أن يحملونى على الاستماع إليهم . لقد أرهقت نفسى لإسماعك صوتى . وها أنذا ألهث .

إيزابيل : آه ! إنك لتيميه . اغفر لى ، لقد عمى على أمرك . هات .

لتيميه : لقد أغلقت الباب فى وجهى .

إيزابيل : وهل كان فى مستطاع أحد التعرف عليك فى تنكرك هذا ؟ ولكن هات .

لتيميه : وهل يفتح بابك لذوى الفضل من الناس ؟

إيزابيل : هيا ! هات إذن .

لتيميه : تبًّا لك . . .

إيزابيل : آه ! لا تعطنى شيئاً وعد أدراجك برسالتك .

لتيميه : خذى . ولا تعودى لمثل هذه الحدة .

* * *

المشهد الثالث

شيكانو ، إيزابيل ، لتيميه

شيكانو : نعم ، إذن فأنا أحمق ولص فى رأيها ؟ لقد تكفل أحد المحضرين بتقديم الشكر لها . وسأحاول من جانبى أن أكيد لها بأسلوبى الخاص . إذ يغضبنى جدًّا أن أعاود الكرة أو تسبقنى هى بالإعلان . لكنى أرى رجلا هناك يتكلم مع ابنتى ! كيف ؟ إنها تقرأ رسالة ؟ آه ! لعلها من أحد العشاق . فلنقترب .

إيزابيل : خيراً ، وهل سيدك صادق فيما يقول ؟ هل لى أن أصدقه ؟

لتيميه : لقد استعصى عليه النوم شأنه فى ذلك شأن أبيك (يلمح شيكانو) إنه يتعذب ، إنه . . . سيظهر لك اليوم أن أحدًا لا يكسبه بالمقاضاة .

إيزابيل : هذا أبى ! عليك أن تبلغهم أنهم إذا قاضونا فسنعرف كيف ندافع عن أنفسنا ، وهذا ما نفعله بإعلاناتك.
(تمزق الرسالة) .

شيكانو : كيف ! إن ابنتى تقرأ إعلان دعوى ! آه ! ستكونين يوماً مفخرة أسرتك ..
إنك تدافعين عن مالك . تعالى يا مهجتى ، أقبلى يا ابنتى .
لا عليك سأزودك بكتاب « الفقيه الفرنسى » ، ولكن يا للشيطان ! لا ينبغى لك تمزيق الإعلانات .

إيزابيل : قل لهم ، على الأقل ، إنى لا أخشاهم . بل أنا أسر بعملهم هذا وأتحداهم ، وسأمعن فى الإضرار بهم .

شيكانو : هيا ! ولا تغضبى .

إيزابيل : وداعاً يا سيدى .

* * *

المشهد الرابع

شيكانو ، لنتيميه

لنتيميه : إنها لكبيرة ، فلنحرر المحضر[1] (يتهيأ للكتابة) .

شيكانو : سيدى ، تمهل واصفح عنها ، فهى ليست على علم

---

(١) أى يحرر المحضر لإثبات ما فعلته « إيزابيل » من تمزيق الإعلان .

بالإجراءات. ثم إذا شئت فها هي ذي قطع الورق أضمها بعضها لبعض.

لنتيميه : كلا.

شيكانو : سأستطيع قراءته بسهولة.

لنتيميه : أنا لست بالرجل الشرير، ومعي صورة منه.

شيكانو : آه! إن الخط واضح. ولكن لست أدرى لماذا، يصعب على تذكر وجهك كلما نظرت إليك، مع أنى أعرف الكثيرين من المحضرين.

لنتيميه : لك أن تسأل عني. إني أؤدى وظيفتي المتواضعة على وجه مرضٍ.

شيكانو : حسن! بناء على طلب من أتيت؟

لنتيميه : بناء على طلب سيدة نبيلة تكنّ لك الاحترام من كل قلبها وترجو منك أن توافق على ما جاء في الإنذار وتتقدم إليها بالتعويض.

شيكانو : بالتعويض؟ إني لم أهن أحداً.

لنتيميه : أصدق ذلك؛ فنفسك، سيدى، تفيض إخلاصاً وطيبة.

شيكانو : فماذا تطلب إذن؟

لنتيميه : إنها ترجو، يا سيدى، أن تشرفها بالاعتراف صراحة،

أمام الشهود ، بأنها رزينة وليست بحمقاء .

شيكانو : أى والله إنها الكونتيسة !

لتيميه : إنها لا تحفل بك .

شيكانو : وأنا لا آبه لها .

لتيميه : إنك لطيف يا سيدى .

شيكانو : نعم ، لك أن تؤكد لها بأنى سأبعث إليها عن يد محضر ، بكل طلباتها . لكن ما هذا إذن ؟ حقاً إن المظلومين هم الذين يدفعون الغرامة ! لننظر ماذا تقول . أف . . . « فى السادس من شهر يناير ، إذ قال زوراً وبهتاناً إنه كان ينبغى الوضع فى القيد ، مدفوعاً فى هذا بعامل الكيد والخصومة ضد السيدة العظيمة الفاضلة " يولاندكودان " ، " كونتيسة دى بامبيش " " أو ربيش " ، إلخ . . . ، وكلفناه بأن ينتقل ، من فوره ، إلى محل إقامة هذه السيدة حيث يعلن المذكور ، بصوت جلى ، أمام أربعة شهود ، وبحضور موثق العقود ، (كلا إن ذلك لن يكون) ، ويعترف أنه يعتبرها عاقلة حصيفة » .

الكريم . الكريم هو إذن اسم سيادتكم ؟

لتيميه : فى خدمتكم . لا بد من دفع ثمن القحة .

شيكانو : الكريم ! لم يوقع قط إعلان دعوى باسم الكريم .

يا سيد كريم !

لتيميه : سيدى .

شيكانو : أنت نصاب وخبيث .

لتيميه : عفواً ، سيدى إنى رجل شريف .

شيكانو : بل أنت أكبر نصاب ظهر فى محيطنا ، من بلدنا هذا « كائن » حتى روما .

لتيميه : سيدى ، لا لوم عليك. ولكن تفضل بدفع ثمن هذا السب[1] .

شيكانو : أنا ، أدفع ؟ بالصفعات .

لتيميه : إنك رجل شريف ، وستدفع لى ثمن هذه الإهانة .

شيكانو : آه ! إنك تزعجنى . خذ هذه دفعتك .

لتيميه : صفعة ! فلنكتب : « وهيروم المذكور هذا ، بعد أن أظهر الكثير من العناد والتمرد ، قد اعتدى على ، أنا المحضر ، بالضرب ، ولطم وجهى لطمة أسقطت قبعتى فى الطين » .

شيكانو : أضف هذه .

لتيميه : طيب : هذا هو الدفع نقداً ، كنت فى حاجة داعية إليه :

---

(١) كانت السبة الموجهة للضابط القضائى تستوجب دفع الغرامة .

« ولم يكتف بهذا ، بل زاد عليه بأن ركلنى غيرة مرة . (لنتشجع) فضلا عن أن المذكور جاء ومزق هذا المحضر غيظاً » .

هيا ، سيدى العزيز ، إن الأمور تسير على ما يرام . لا تتوقف .

شيكانو : صعلوك !

لنتيميه : من فضلك، اضربنى ضربات بالعصا حتى تتوفر لى الراحة والرخاء .

شيكانو : نعم حقاًّ ، وسيتضح لى إذا كان محضراً .

لنتيميه (يجلس جلسة الكاتب) : عجل بالضرب إذن فإنى أعول أربعة أولاد .

شيكانو : آه ! عفواً ! سيدى . لم يكن فى استطاعتى أن أعتبرك محضراً . وقد يعرض أذكى الناس للوقوع فى الخطأ . بيد أنى سأعرف كيف أعوضك عن هذا الشك المهين . نعم أنت محضر يا سيدى ، محضر جداًّ ، صافحنى فأنت وجميع من هم فى مركزك أناس أفاضل أدين لهم بالاحترام . وقد ربانى المرحوم والدى ونشأنى دائماً ، يا سيدى ، على خشية الله واحترام المحضرين .

لنتيميه : كلا ، لا يجوز أن يعتدى على الناس بالضرب مقابل هذا

الثمن البخس .

شيكانو : سيدى ، إن الأمر لا يستوجب عمل محضر .

لتيميه : بعد إذنك . تمرد وعصيان وضرب بالعصا وصفع وركل . آه !

شيكانو : مهلا ، ردّها لى . أولى لك أن تردها لى .

لتيميه : يكفى أنها تُلقّيت ، وحاشاى أن أردها ولو فى مقابل مئات الجنيهات .

* * *

المشهد الخامس

لياندر ، شيكانو ، لتيميه

لتيميه : ها هوذا السيد ضابط الشرطة يحضر فى الوقت المناسب . سيدى ، إن وجودك هنا ضرورى ، إن هذا السيد الماثل أمامك ، قد أتحفنى ، كما ترى ، بصفعة قوية .

لياندر : أنت ، يا سيدى ؟

لتيميه : أنا ، مخاطباً مع شخصى ، وقد ركلنى أيضاً بالإضافة إلى الشتائم التى وجهها لى .

لياندر : هل عندك شهود ؟

لتيميه : سيدى ، الأولى أن تجس وتلمس فإن أثر الصفعة لا يزال

باديًا على خدى .

ليااندر : يقبض عليه فى حالة تلبس. وهذه قضية جنائية[١] .

شيكانو : يا ويلى !

لتيميه : ذلك فضلا عن أن ابنته أو من يظن أنها ابنته ، قد قطعت مستنداً كان بيدى ، ومزقته إرباً ، بحجة أن ذلك مدعاة لسرورها ، ثم واجهتنا ، راضية ، بالتشكك والتحدى .

لياندر : استدعوا الابنة . إن روح التمرد تسكن فى هذه الدار.

شيكانو : إنى واقع ، حتماً ، تحت سحر ساحر . زهقت روحى إذا كنت أعرف واحداً منهما .

لياندر : كيف ؟ يعتدى بالضرب على المحضر ! ولكن ها هى ذى المتمردة .

(١) يعتبر صفع المحضر عملا جنائياً يحاكم فاعله أمام « الجنايات » ويعرضه للعقوبة البدنية .

المشهد السادس

لياندر ، إيزابيل ، شيكانو ، لنتيميه

لنتيميه (مخاطباً إيزابيل) : هل تعرفت عليه ؟

لياندر : هل أنت التى كنت ، من قليل ، تتحدين مندوبنا ، وتتجرئين فى قوة على التشكاك فى أمرنا ؟ ما اسمك ؟

إيزابيل : إيزابيل .

لياندر (مخاطباً لنتيميه) : اكتب . وما سنك ؟

إيزابيل : ثمانية عشر عاماً .

شيكانو : جاوزتها بقليل ، ولكن هذا لا يهم .

لياندر : هل أنت فى حوزة زوج ؟

إيزابيل : لا يا سيدى .

لياندر : أتضحكين ؟ سجل أنها ضحكت .

شيكانو : سيدى ، لنمسك عن الكلام فى شئون الأزواج أمام الفتيات ؛ فهذه مسائل من أسرار العائلات .

لياندر : سجل أنه يقاطع .

شيكانو : هيا ! لم أتنبه . تنبهى أنت يا ابنتى إلى ما تقولين .

لياندر : لا تضطربى وأجيبى كما تريدين ؛ فنحن لا نريد أن نأتى ،

هنا ، أمراً لا يرضيك . ألم تتسلمى ، منذ برهة ، من هذا المحضر الموجود هنا ، ورقة ما ؟

إيزابيل : بلى يا سيدى .

شيكانو : حسن .

لياندر : هل مزقت هذه الورقة دون قراءتها ؟

إيزابيل : لقد قرأتها ، يا سيدى .

شيكانو : حسن .

لياندر : استمر فى الكتابة . ولماذا مزقتها ؟

إيزابيل : خشيت أن يهتم أبى بالقضية أكثر مما ينبغى فيحتد ويغضب عند قراءتها .

شيكانو : أتهربين من القضايا ؟ هذا هو الضرر بعينه .

لياندر : إذن لم تمزقيها امتعاضاً وازدراء لمن كتبوها ؟

إيزابيل : سيدى ، إنى لا أضمر لهم ازدراء ولا حقداً .

لياندر : اكتب .

شيكانو : قلت لك إنها تشابه أباها ، وإنها تجيب الإجابة السديدة .

لياندر : ومع ذلك فأنت تظهرين حيال جميع رجال القضاء امتهاناً واضحاً .

إيزابيل : كان منظر الثوب دواماً لا يروقنى ، لكن هذا النفور بدأ يتناقص الآن .

شيكانو : يا للبنية؟ لا عليك ، سأزوجك عند ما أستطيع سبيلا إلى ذلك ، وإذا لم يكلفنى الأمر شيئاً .

لياندر : هل تريدين إذن إرضاء العدالة ؟

إيزابيل : سيدى ، سأعمل كل ما فى وسعى كيلا أغضبك .

لتيميه : سيدى ، أطلب التوقيع على المحضر .

لياندر : وبالمناسبة ، هل تؤيدين أقوالك ، على الأقل ؟

إيزابيل : ثق يا سيدى أن « إيزابيل » ثابتة .

لياندر : حسن ، وقعى هذا والعدالة راضية . والآن هلا وقعت يا سيدى ؟

شيكانو : إى والله . إنى أوقع ، بسرور ، ومغمض العينين ، على كل ما قالت [1] .

لياندر (مخاطباً إيزابيل) : كل شىء على ما يرام ، فقد جاءت النتيجة وفق رغباتى إذ وقع على عقد صحيح الصياغة ، وعما قريب سيحكم عليه بناء على اعترافه كتابة .

شيكانو : ماذا يقول لها ؟ لعله مفتون بنجابتها وفطنتها .

لياندر : وداعاً . كونى رزينة ، على الدوام ، بقدر ما أنت جميلة ، سيأتى كل شىء وفق المراد . أيها المحضر عد بها إلى دارها .

---

(١) شيكانو يوقع لفرط سروره بما قالت ابنته دون أن يفكر فى قراءة فحوى المحضر .

وأنت يا سيدى ، سر .

شيكانو : إلى أين ، سيدى ؟

لياندر : اتبعنى .

شيكانو : إلى أين إذن ؟

لياندر : ستعرف إلى أين . سر بأمر الملك .

شيكانو : كيف ؟

* * *

المشهد السابع

بيتى جان ، لياندر ، شيكانو

بيتى جان : يا هؤلاء ، ألم ير أحد سيدى؟ وأى طريق سلك ؟ من الباب أو الشباك ؟

لياندر : سل عن هذا غيرنا !

بيتى جان : لا أدرى ماذا حدث لابنه ولا ما صار إليه، أما الأب فهو حيث أراد له الشيطان أن يكون . كان لاينفك عن مطالبتى بإحضار هداياه[1] ، فهرعت، بكل سذاجة ، إلى حيث

---

(١) اخترنا لفظ « الهدايا » ترجمة لكلمة « épices » فى النص الفرنسى باعتبار مدلولها الأول . فقد جاء فى التعليق الوارد فى طبعة « لاروس » Larousse – وفى معجم « كايرو » Cayrcru أيضاً – أن الكلمة مشتقة من اللاتينية « Species » ، وأنها كانت تعى–

تحفظ أوانى المائدة لأحضر علبة الفلفل ، وفى تلك الأثناء كان قد اختفى .

* * *

المشهد الثامن

داندان ، لياندر ، شيكانو ، لتيميه ، بيتى جان

داندان (يظهر من كوة فى سقف الدار) : هدوءاً ! هدوءاً ! فليسكت الجميع .

لياندر : يا إلهى !

بيتى جان : ها هو ذا فى السطح حقاً .

داندان : من أنتم وما هى قضاياكم؟ من هؤلاء الناس فى زى هيئة القضاء؟ هل أنتم محامون ؟ هيا تكلموا .

بيتى جان : سترون أنه سيحاكم القطط .

داندان : هل اتصلتم بكاتم سرى ؟ اذهبوا واسألوه عما إذا كان قد أطلعنى على قضيتكم .

= أولا ، شتى أنواع المربيات والحلوى التى كانت تقدم هدايا للقضاة بعد انتهائهم من نظر الدعوى والفصل فيها . ولم تلبث هذه الهدايا أن صارت أجراً جبرياً يدفع نقداً قبل صدور الحكم فى القضية .

وقد ظل هذا التقليد جارياً حتى عهد الثورة الفرنسية بالرغم من استنكار الأدباء الأخلاقيين مثل « لابروبير » و « روسو » لهذا الوضع المشين لرجال القضاء .

لياندر : لا بد لى من أن أنتزعه من هذا المكان .
وأنت أيها المحضر عليك أن تحرس سجينك .

بيتى جان : كيف لا ! سيدى ! كيف لا !

لياندر : صه وإلا انتزعت عينيك واتبعنى .

* * *

المشهد التاسع

داندان ، شيكانو ، الكونتيسة ، لنتيميه

داندان : عجلوا وقدموا طلباتكم .

شيكانو : سيدى ، لقد قبضوا علىّ بغير موافقة منكم .

الكونتيسة : يا إلهى ! أرى سيدى فى سطح داره . ماذا يفعل هناك ؟

لنتيميه : إنه يعقد جلسة . والمجال مفتوح أمامك .

شيكانو : سيدى ، لقد عاملونى بالعسف ، وأهانونى ، فجئت هنا أقدم لك شكواى .

الكونتيسة : سيدى ، وجئت أشكو أنا أيضاً .

شيكانو والكونتيسة معاً : وها هو ذا خصمى أمامك .

لنتيميه : إى والله ! سأدخل أنا الآخر طرفاً فى الخصومة .

شيكانو والكونتيسة ولنتيميه : سيدى ، جئت هنا من أجل إعلان صغير .

شيكانو : هيا يا سادة ! ليشرح كل منا بدوره حقه وماله .

الكونتيسة : حقه ؟ إن كل ما يقوله خداع وكذب .

داندان : ماذا عملوا معك ؟

شيكانو والكونتيسة ولتيميه : شتمونى وسبونى .

لتيميه (يتابع) : عدا صفعة تلقيتها ، يا سيدى

شيكانو : سيدى ، أنا ابن عم أحد أحفادك .

الكونتيسة : سيدى ، إن الأب « كوردون » سيحدثك عن قضيتى .

لتيميه : سيدى ، أنا نغل صيدلياك[1] .

داندان : ما هى صفة كل منكم ؟

الكونتيسة : أنا كونتيسة .

لينتيميه : محضر .

شيكانو : بورجوازى ، أيها السادة .

داندان : استمروا فى الكلام ، إنى أستمع لثلاثتكم .

شيكانو : سيدى . . .

لتيميه : هذا كثير ! ها هو ذا ينسحب دون استئذان .

الكونتيسة : ويا للأسف !

شيكانو : ماذا ! هل رفعت الجلسة الآن ؟ ولم أتمكن بعد من أن أقول كلمتين .

---

(١) نغل أو نتيل = ولد السفاح ، ابن الحرام .

المشهد العاشر

لياندر ، شيكانو ، الكونتيسة ، لنتيميه

لياندر : هلا أرحتمونا ؟

شيكانو : سيدى ، هل يسمح بالدخول ؟

لياندر : لا يا سيدى ، ولا عشت إذا حدث غير هذا .

شيكانو : لماذا ؟ كان يكيفنى من الوقت سويعة أو ساعتان على الأكثر لإنهاء ما لدىّ .

لياندر : الدخول ممنوع يا سيدى .

الكونتيسة : جزاء وفاق قفل الباب دون هذا الصائح. ولكن أنا . . .

لياندر : الدخول ممنوع ، سيدتى ، أقسم لك .

الكونتيسة : عجباً ، سيدى ، سأدخل .

لياندر : ربما .

الكونتيسة : أنا واثقة .

لياندر : أمن النافذة إذن ؟

الكونتيسة : بل من الباب .

لياندر : هذا أمر فيه نظر .

شيكانو : سأنتظر حتى ولو قضى أن أبقى هنا حتى المساء .

* * *

المشهد الحادى عشر

بيتى جان ، لياندر ، شيكانو ، الكونتيسة ، لتيميه

بيتى جان : (مخاطباً لياندر) مهما يفعل فلن يسمع صوته . ولا عجب فقد ألقيت به فى القبو .

لياندر : غير مسموح لأحد بمقابلة أبى لا فى قليل ولا فى كثير .

شيكانو : إذن ! لا بد لى ، مع ذلك ، من أن أراه فى شأن هذه القضية .

(يظهر داندان من النافذة) ولكن من أرى ؟ آه إنه هو بعثت به السماء إلينا !

لياندر : ماذا ؟ من الكوة !

بيتى جان : إنه يحتدم غضباً .

شيكانو : سيدى . . .

داندان : إنه مزعج فى الإلحاح ! ولولا وجوده هنا ، لكنت طليقاً خارج الدار .

شيكانو : سيدى . . .

داندان : انسحب يا بهيمة .

شيكانو : سيدى ، هل تسمح . . .

داندان : إنك تزعجنى .

شيكانو : سيدى ، لقد أوصيت . . .

داندان : اسكت ، قيل لك اسكت .

شيكانو : بأن يرسل إلى بيتك . . .

داندان : زجوا به فى السجن .

شيكانو : برميل نبيذ .

داندان : هيا ! لا حاجة بى إليه .

شيكانو : إنه من أجود الأنبذة المسكيّة .

داندان : أعد بيان قضيتك .

لياندر (مخاطباً لتيميه) : لا بد أن نحيط بهما ، هنا ، من كل الجهات .

الكونتيسة : سيدى ، إن ما سيدلى به كله زور وبهتان .

شيكانو : إنما أقول الصدق يا سيدى .

داندان : يا إلهى دعها تتحدث !

الكونتيسة : سيدى ، استمع إلىّ .

داندان : اسمحى لى بأن أتنفس .

شيكانو : سيدى . . .

داندان : إنك تخنقنى .

الكونتيسة : وجه ناظريك إلىّ .

داندان : إنها تخنقني .

شيكانو : في الحق إنك تجرني . حذار أن تطرحني أرضاً .

بيتي جان : أقسم أن قد ارتطم كلاهما بالقبو .

لياندر : أسرعوا وهبوا لنجدتهما . أريد — على الأقل — ألا يخرج السيد شيكانو من هنا ، طول اليوم (بما أنه في الداخل) تنبه لهذا يا لتيميه .

لتيميه : احرس النافذة .

لياندر : اسرع ، سأحرسها .

* * *

المشهد الثاني عشر

الكونتيسة ، لياندر

الكونتيسة : أيها التعس ! إنه سيدلس عليه .

• (تتجه نحو النافذة) ، سيدى ، لا تصدق شيئاً مما يقوله لك ، فليس عنده شهود . إنه كذاب .

لياندر : سيدى ، ماذا تقولين لهما ؟ قد يكونان الآن في النزع .

الكونتيسة : وقد يحمله على تصديق كل ما يريد . دعني أدخل .

لياندر : لا ! لن يدخل أحد .

الكونتيسة : يبدو لي أن النبيذ بدأ يحدث أثره سواء على الابن أو على عقل الأب .

صبراً وسأحتج رسمياً ، ضد سيادة القاضى وضد البرميل .

لياندر : إليك عنا ولا تزعجينا . يا للمجانين! إنى لم أعتد قط رؤية مثل هذه الأمور .

* * *

المشهد الثالث عشر

داندان ، لنتيميه ، لياندر

لنتيميه : سيدى ، إلى أين ؟ إنك تعرض نفسك للخطر ، وبك عرج ظاهر .

داندان : أريد الذهاب لأتولى المحاكمة .

لياندر : كيف يا أبت ؟ هيا واسمح بأن تضمد جراحك ، أسرعوا واستدعوا الجراح .

داندان : ليحضر فى الجلسة .

لياندر : هيا ! يا أبتاه وقف . . .

داندان : هيا ، إنى أدرك مرامك ، تزعم أنه فى مستطاعك أن تفعل بى ما يحلو لك . أنت لاتكن لى احتراماً ولا مجاملة ، إنى لا أستطيع أن أنطق بحكم واحد ، ألا فأتمم ما تريد وخذ هذا الكيس . خذه سريعاً .

لياندر : هيا ! تمهل ، يا أبتاه. لا بد من إيجاد تسوية . إذا كانت

الحياة دون محاكمة ، تبدو لك ضرباً من العذاب ، وإذا كنت تتعجل إقامة العدالة وممارسة القضاء ، فإن الأمر لا يستدعى خروجك من دارك . مارس مهارتك واعقد الجلسة هنا .

داندان : لا ينبغى لنا أن نسخر هنا من شئون القضاء . هلا تدبرت الأمر ؟ فإنى أرفض أن أكون قاضياً صورة لا حقيقة .

لياندر : على العكس ، ستكون قاضياً لا رادّ لحكمك ، قاضياً يتولى المحاكمة فى الدوائر المدنية والجنائية على السواء . تستطيع أن تعقد فى كل يوم جلستين .
سيكون كل شىء فى دارك موضوعاً لحكم تصدره . فإذا أهمل الخادم نظافة الكوب فاحكم عليه بالغرامة ، وإذا كسره فاحكم عليه بالجلد .

داندان : هذا شىء لا بأس به . وإلى هنا والأمور لا تجانب التعقل ، وقيمة أتعابى من يدفعها لى ؟ لا أحد ؟

لياندر : ستكون أجورهم لديك بمثابة رهن الحيازة .

داندان : إنه يتكلم عن علم فيما يبدو لى .

لياندر : ضد واحد من جيرانك . . .

* * *

المشهد الرابع عشر

داندان ، ليآندر ، لنتيميه ، بيتي جان

بيتي جان : امسك ! امسك ! الحق !

ليآندر : آه ! إنه سجيني يحاول الهرب بلا شك .

لنتيميه : لا ، لا ، لا تخشوا شيئاً .

بيتي جان : ضاع كل شيء . . . « سيترون » . . . كلبك التهم دجاجة هناك . لا مأمن لشيء يصادفه . إنه يخطف كل ما يعثر عليه .

ليآندر : حسن ! هذه قضية لأبي . النجدة . طاردوه . اركضوا جميعاً .

داندان : لا تحدثوا حراكاً ، وتمهلوا . يكفي أمر إحضار بغير فضيحة .

ليآندر : هيا وبسرعة يا أبي ، ينبغي أن نعطي المثل الرادع بإصدار حكم قاس على هذا الخادم الخائن .

داندان : ولكني أريد أن أثير ضجة على الأقل ، ولا بد من محام لكلا الطرفين . وليس أمامنا محام واحد .

ليآندر : إذن ! لا بد من إيجاد المحامي . هذا بواب دارك وهذا كاتم

سرك ، تتخذ منهما ، فى رأيى ، محاميين ممتازين فكلاهما ، على جانب كبير من الجهل .

لنتيميه : كلا يا سيدى ، كلا ، لأنى أستطيع أن أنيم سيدى كأى شخص آخر .

بيتى جان : أما أنا فلا أعرف شيئاً ، ولا تنتظروا منى شيئاً .

لياندر : إنها قضيتك الأولى ، وسنواليها نحن نيابة عنك .

بيتى جان : ولكنى لا أعرف القراءة .

لياندر : إذن سنلقنك .

داندان : هيا لنستعد ولنسرع يا سادة فلا سعاية ولا وشاية ! لنغمض العين عن الهدايا ، ولنصم الأذن عن الاستعطاف . أنت يا أستاذ « بيتى جان » ستكون المدعى ، وأنت يا أستاذ « لنتيميه » كن محامى المدعى عليه .

* * *

الفصل الثالث

المشهد الأول

شيكانو ، لياندر ، الملقن

شيكانو : نعم ياسيدى ، هكذا ساروا فى الدعوى . فالمحضر وضابط الشرطة كلاهما مجهول لى . وما أنا بكاذب .

لياندر : نعم أصدق كل ذلك ، وإذا أخذت برأيى فعليك أن تتركهما عند هذا الحد . فعبثاً تحاول مقاضاتهما لأنك بهذا ستتعب نفسك أكثر مما تتعبهما .

لقد أنفقت ، من قبل ، جل ثروتك فى تضخيم الملفات ، وتكديس الدعاوى يضر بصالحك أنت . . . .

شيكانو : حقاً إنك تسدى إلى النصيحة خالصة ، وعما قليل سأتبعها ، لكنى أرجو أن تسعى فى الأمر على الأقل .

وبما أن السيد « داندان » سيعقد الجلسة فسأسارع فى طلب ابنتى . ومن الجائز أن تستجوب . فحسن النية متوفر لديها . بل هى تستطيع الإجابة خيراً منى .

لياندر : اذهب وعد : سيؤخذ لك بحقك .

الملقن : يا له من رجل !

* * *

المشهد الثانى

ليآندر ، الملقن

ليآندر : إنى أستخدم وسيلة غريبة، ولكن أبى رجل لا يرجى منه أمل ، وينبغى أن نلوح له بقضية . فضلا عن أنى قد رسمت خطتى ، وأريده أن يحكم على هذا المعتوه الذى يحيل أدنى الأشياء إلى مستوى الخصومة والقضاء .
ها هم أولاء الزملاء جميعاً فى أثرنا .

* * *

المشهد الثالث

داندان ، ليآندر ، لنتيميه ، بيتى جان ، الملقن

داندان : هيا أسرعوا ، من أنتم هنا ؟

ليآندر : إنهم المحامون .

داندان (للملقن) : وأنت ؟

الملقن : جئت لنجدة الذاكرة المضطربة .

داندان : فهمتك . وأنت ؟

ليآندر : أنا ؟ أنا الجمهور .

داندان : إذن ابتدئوا .

الملقن : سادتى . . .

بيتى جان : عجباً ! اخفض صوتك : إذا لقنت بمثل هذا الصوت المرتفع فلن يسمعنى أحد . سادتى . . .

داندان : غط رأسك[١] .

بيتى جان آه ! ساد . . .

داندان : قلت لك غط رأسك .

بيتى جان : آه ! سيدى ، إنى أعرف جيداً مقتضيات الاحترام[٢] .

داندان : إذن لا تغط رأسك .

بيتى جان (يغطى رأسه) : سادتى . . . (مخاطباً الملقن) ، وأنت تمهل ، إن كل ما أجدت حفظه هو البداية . سادتى ، عند ما أدقق النظر فى العالم وتقلبه ، عندما لا أرى بين الكثير من مختلف الرجال ، نجماً واحداً ثابتاً ، وأرى الكثير من الكواكب السيارة ، عندما أرى القياصرة ، عندما أرى مصايرهم ، عند ما أرى الشمس وأرى القمر ، وعندما أرى دول البابليين تنتقل من الفرس إلى المقدونيين ، عندما أرى الرومانيين من أتباع الدولة المستبدة ينتقلون إلى الديمقراطيين ، ثم إلى الملكيين ، وعند ما أرى اليابان . . .

---

(١) كان المتبع أن يحتفظ المحامى بغطاء رأسه أثناء المرافعة .

(٢) لم ينس « بيتى جان » فى دوره الجديد واجب الاحترام نحو سيده .

لتيميه : متى يفرغ من رؤية كل شيء ؟

بيتي جان : لماذا تقاطعني يا هذا ؟ سأدع الحديث .

داندان : أيها المحامي المزعج ، لماذا لا تدعه ينهي كلامه ؟ لقد سال عرقي غزيراً حتى أعرف إذا كان سيصل سالماً من اليابان ليتكلم في موضوع الديك ، وها أنت ذا تقاطعه بكلام تافه .

تكلم إذن أيها المحامي .

بيتي جان : لقد ضاع مني الكلم .

لياندر : أكمل « يا بيتي جان » . لقد أحسنت البداية .

لكن ماذا تفعل بذراعيك المدلاتين إلى جانبيك ؟ إنك على قدميك منتصب كالتمثال ، تحرك وانشط . تشجع ! هيا تحرك .

بيتي جان (يحرك ذراعيه) : عند ما أرى . . . عند ما أرى . . .

لياندر : قل إذن ماذا ترى .

بيتي جان : عجباً ! عملان في وقت واحد .

الملقن : ورد في . . .

بيتي جان : و رد في . . .

الملقن : في الـ . . .

بيتي جان : في الـ . . .

الملقن : التطور .

بيتى جان : كيف ؟ ماذا ؟

الملقن : أن التقمه . . .

بيتى جان : أن التقمه . . .

الملقن : قمص . . .

بيتى جان : قمص . . .

الملقن : أيها الحصان !

بيتى جان : الحصان . . .

الملقن : ثانى !

بيتى جان : ثانى . . .

الملقن : الكلب .

بيتى جان : الكلب . . .

الملقن : والقاق[1] .

بيتى جان : القاق . . .

الملقن : أف للمحامى !

بيتى جان : أف لك أنت ! أرأيتموه بوجهه الشاحب ! اذهب إلى الجحيم !

داندان : وأنت تكلم فى الموضوع . كلمة فى الموضوع .

---

(١) القاق طائر مائى طويل العنق .

بيتى جان : ماذا ! هل لا بد لنا فى الكلام من اللف والدوران؟ إنهم يريدوننى أن أقول كلمات طول كل منها ست اقدام ، كلمات قد تمتد من هنا إلى « بونتواز[١] » . أما أنا فلا أعرف صيغاً وأساليب مختلفة لأقرر أن كلباً من كلاب الصيد خطف ديكاً . ومهما يكن من أمر الخطف فإن الكلب قد أكل هذا « المينى »[٢] السمين فى المطبخ ، ولئن وجدته هناك ثانية ، فمصيره معلوم ، وسأقتله .

لياندر : خاتمة طيبة جديرة بالمقدمة .

بيتى جان : إنها تفهم جيداً ، على كل حال ، ومن يريد النقد فلينتقد . . .

داندان : نادوا الشهود .

لياندر : هذا كلام طيب ، لو استطاع ، فالشهود يكلفون غالياً وهم ليسوا تحت الطلب .

بيتى جان : ومع ذلك فعندنا منهم من لا تنقض شهادته .

داندان : أحضرهم إذن .

بيتى جان : إنهم فى جيبى . ها هم أولاء : ها هو ذا رأس الديك ورجلاه . عاينها ثم احكم .

---

(١) Pontoise = بلدة صغيرة بالقرب من باريس .

(٢) نسبة إلى مقاطعة « Maine » (مين) .

لنتيميه : إني أرد شهادتها .

داندان : حسن ! ولماذا تردها ؟

لنتيميه : سيدى ، لأنها من مقاطعة « مين »[١]

داندان : صحيح إنهم يفدون إلينا بالعشرات من « مانس »[٢]

لنتيميه : سادتى . . .

داندان : قل لى أيها المحامى ، هل ستسهب وتستفيض ؟

لنتيميه : لا أعد بشيء .

داندان : إنه أهل للثقة .

لنتيميه : (فى نبرة تنتهى بالحدة) سادتى ، إنّ كل ما يمكن أن يصعق الإثم ، وإن أخوف ما يخافه الناس قد أحاطنا ، فيما يبدو ، بالمخاطر والأهوال ، أعنى بذلك : البراعة والبلاغة . فبينما تفزع نفسى من جهة ، لما كان للمتوفى من اعتبار ، أرانى ، من جهة أخرى ، وقد بهرنى الأستاذ « بيتى جان » ببيانه وفصاحة عبارته .

داندان : أيها المحامى ، خفف من روعة نغماتك .

لنتيميه : (فى نغمة جميلة) إن لى عديداً من النغمات . . .
ومهما يكن من أمر التشكك فى ذاك الاعتبار ، والارتياب

---

(١) اشتهر أهل هذه المقاطعة باحتراف شهادة الزور .

(٢) Mans عاصمة الإقليم السالف ذكره وقد اشتهرت بتربية الدواجن .

فى تلك الفصاحة ، فإن مرساة[١] مكارمكم ، سادتى ، لا تلبث أن تدخل الطمأنينة فى القلوب ، ولا يسع البراءة إلا أن تتشجع فى حضرة « داندان » العظيم ، وأمام حكمة « كاتون »[٢] نورمانديا السفلى ، نصير العدالة الذى لا يخشى فى الحق لومة لائم ، وشمس الإنصاف التى لم تحتجب قط : « إن قضية الغالب تساندها الآلهة ، لكن قضية المغلوب يؤيدها كاتون » .

داندان : فى الحق ، إنه يحسن المرافعة .

لنتيميه : بعيداً عن خشية أى شىء ، أستهل مرافعتى إذن ، وآتى إلى قضيتى . يقول « أرسطو » فى الفصل الأول من كتابه عن السياسة[٣] . . .

داندان : أيها المحامى ، إن المسألة تتعلق بديك ولا دخل فيها « لأرسطو » وسياسته .

---

(١) تعمد « راسين » استعمال هذا الخلط فى الكلام على لسان شخصية « لنتيميه » إمعاناً فى السخرية من المحامى وهيئة المحكمة .

(٢) Caton = رومانى مشهور عاش فى الفترة بين (٢٣٢ – ١٤٧) قبل الميلاد ، عرف بالصرامة والتمسك بالمبادئ القاسية . يذكر اسمه للإشادة بمواقف الحكمة أو التظاهر بها .

(٣) فى هذه الأبيات كتب « راسين » خليطاً من الكلمات اللاتينية واليونانية بقصد السخرية .

لتيميه : نعم ولكن صاحب فلسفة إلقاء الدرس أثناء التنزه — وهو حجة — يدلل على أن الخير والشر . . .

داندان : وأنا أقرر أن « أرسطو » لا سلطة له هنا . انتقل إلى الموضوع .

لتيميه : وأن « بوزانياس »[١] فى رحلاته . . .

داندان : ادخل فى الموضوع .

لتيميه : و « ريبيف »[٢] . . .

داندان : قلت لك ادخل فى الموضوع .

لتيميه : و « جاك » العظيم[٣] . . .

داندان : فى الموضوع ، فى الموضوع ، فى الموضوع .

لتيميه : و « أرمينوبول » فى موجز[٤] . . .

داندان عجباً ! سأحاكمك .

لتيميه : عجباً ! ما أسرع غضبك[٥] !

---

(١) Pausanias = مؤلف كتاب : رحلة فى بلاد اليونان .

(٢) Rebuffe = فقيه فرنسى عاش فى القرن السادس عشر (١٤٨٧ — ١٥٥٧) .

(٣) Jacques Cujas = فقيه آخر عاش فى القرن السادس عشر (١٥٢٠—١٥٩٠) .

(٤) Armeno Paul أو Constantin Harménopoules فقيه يونانى عاش فى القرن الرابع عشر . وضع كتاباً فى التشريع المدنى ترجم إلى اللاتينية ، بالاسم المنوه به على لسان « لتيميه » والذى قطع عليه القاضى تكملة الكلمة التى تفيد معنى « الموجز » .

(٥) يسرع « لتيميه » فى إلقاء هذا الكلام .

إليكم الوقائع : دخل كلب فى مطبخ ، فوجد فيه ديكاً جميل المنظر . ولما كان الذى أتكلم عنه جائعاً ، وكان الذى أتكلم ضده منزوع الريش ، فقد أخفى الذى أتكلم عنه من الذى أتكلم ضده . فصدر أمر إحضار ، وقبض عليه . وعين محام لكل من الطرفين . وحدد يوم للجلسة . فوجب على الكلام . وهأنذا أتكلم ، وقد تكلمت .

داندان : ما هذا كله ! هكذا يتم التحقيق فى القضايا ! يقول فى تؤدة ما لا يضر ولا ينفع ، ويطوى بسرعة جوهر الموضوع .

لنتيميه : أما البداية يا سيدى، فقد انصبت على الكلام الجميل .

داندان : بل الكلام القبيح . فهل سمعت من قبل مرافعات بمثل هذا الأسلوب ؟ ولكن ما رأى الجمهور ؟

لياندر : هذا هو الأسلوب المستحدث .

لنتيميه (محتداً) : ماذا حدث يا سادة ؟ لقـــد حضرنا . فكيف يكون الحضور ؟ أقيمت الدعوى ضد موكلى . اقتحم بيت. وأى بيت ؟ بيت القاضى الذى يتولى محاكمتنا . وحطم القبو الذى اتخذناه مأوى لنا ! ثم اتهمنا بالسرقة وقطع الطريق ! وساقونا ، وسلمونا إلى من ادعوا علينا ، إلى الأستاذ « بيتى

جان » يا سادة . إنى أستشهد بكم . سادتى ، من ذا الذى يجهل أن القانون الذى ينص على أنه «إذا عمد كلب[١] . . .» إنما يناقض صراحة هذا الخطأ ؟

وحتى لو فرضنا جدلا صحة ما نسب إلى موكلى « سيترون » من أنه قد أكل ، سادتى ، كل أو بعض الديك المذكور ، أفلا ينبغى أن نعوض عن هذا بما سبق أن قمنا به من أفعال ، هل سبق أن كان موكلى يوماً موضع عنف أو تبكيت؟ من الذى كان يحرس بيتك ؟ ومتى تهاونا فى النباح على اللص ؟

وشهودنا على ذلك ثلاثة نواب مزق « سيترون » ثياب أحدهم. ومن الممكن الاطلاع على القطع الممزقة . فهل يراد منا إبراز مستندات أكثر من هذه لتبرير موقفنا ؟

بيتى جان : يا أستاذ آدم[٢] . . .

لتيميه : دعنا .

---

(١) يستشهد « لتيميه » هنا بنص « خيالى » فى مجموعة قوانين « جوستينيان » فى باب عنوانه : « العنف » فقرة « الدواجن » يبدأ بكلمة : « إذا عمد كلب . . . » .

(٢) لعل هذا هو الاسم الأول « للتيميه » أو لعل « بيتى جان » يستنجد بالأستاذ آدم الشاعر الشعبى الذى ذاع صيته فى القرن السابع عشر . فكأنه يقول : إلينا يا أستاذ آدم فإن « لتيميه » قد بح صوته .

بيتي جان : لنتيميه . . .

لنتيميه : دعنا .

بيتي جان : بح صوته .

لنتيميه : ما هذا ! دعنا ، قلنا لك دعنا .

داندان : استرح وبين طلباتك .

لنتيميه (فى تثاقل) : حيث إنه قد سمح لنا بأن نلتقط الأنفاس ، وحرم علينا الاستفاضة والإسهاب ، فأقول ، بلا نسيان وبلا خروج عن الموضوع ، سأقول وأشرح فى إيجاز أمامكم ، الفكرة العامة عن قضيتى وما تشتمل عليه من وقائع .

داندان كان الأولى أن يقول ما عنده عشرين مرة بدلا من أن يوجزه فى مرة واحدة . يا رجل ، أو لتكن من تكون ، يا للشيطان ! اختم مرافعتك أو لتسحقك السماء !

لنتيميه : لقد انتهيت .

داندان : آه !

لنتيميه : قبل أن يوجد العالم . . .

داندان : (يتثاءب) أيها المحامى ، آه ! فلننتقل إلى الطوفان .

لنتيميه : إذن قبل أن يوجد العالم ، وقبل أن توجد الخليقة ، كان

الكون والطبيعة بأسرها ، وكل شيء ، دفيناً في أعماق المادة . وكانت العناصر والنار والهواء والأرض والمياه . كانت كلها مغروسة مكدسة تكون كومة واحدة ، خليطاً غامضاً من أشياء كثيرة ، كتلة ليست لها صورة محددة ، فضاء وازدحاماً هائلا : كانت الطبيعة تبدو في سائر أنحاء الكون، في مظهر واحد متشابه الشكل بلا ترتيب ولا نظام .

(داندان يغلبه النعاس فيسقط من مقعده)

لياندر : يا لها من سقطة يا أبي !

بيتي جان : سيدي ، إنه يغط في النوم !

لياندر : أبي ، استيقظ .

بيتي جان : سيدي ، هل فارقت الحياة ؟

لياندر : أبي

داندان : ماذا ، ما هذا ، ؟ ما هذا ؟ آه ! آه ، يا للرجل ! في الواقع أني لم أتذوق طعم النوم ، كما نمت الآن .

لياندر : يا أبي ينبغي لك أن تصدر حكمك .

داندان : بالأشغال الشاقة .

لياندر : على كلب بالأشغال الشاقة ؟

داندان : في الحق أني لم أعد أدرك شيئاً من هذه الدعوى ، العالم والفضاء ، إني أشعر باضطراب في رأسي . عجباً !

الطلبات .

لنتيميه (يقدم إليه جراء) : تعالى أيتها الأسرة البائسة ، يا من يراد بها اليتم ، تقدمى ودعى أرواحك البريئة تتكلم نيابة عنك . نعم ، سادتى ، إنكم تشاهدون هنا شقوتنا ، فنحن يتامى ، ردوا إلينا أبانا ، أبانا الذى أنجبنا ، أبانا الذى . . .

داندان : امش ، امش ، امش .

لنتيميه : أبانا ، سادتى . . .

داندان : امش إذن ، يا للضوضاء ! لقد بالت فى كل مكان .

لنتيميه : سيدى ، ارحم دموعنا .

داندان : أف ! لقد أحسست بالعطف عليها والرأفة بها . وهذا هو ما يحدث عند ما يثار فى القلب حنانه ورقته . وهأنذا فى حيرة من الأمر . الحقيقة تقضى علىّ بإصدار الحكم ، والجريمة قائمة تعلن عن نفسها . فإذا ما صدر الحكم ضده ، (أى الكلب ستيرون) فالمحظور سيظل قائماً وستقع هذه الصغار فى أحضان الفقر والعوز .

(وهنا يرى داندان شيكانو يدخل)

ولكنى فى شغل ولا أريد رؤية أحد .

* * *

المشهد الرابع

شيكانو ، إيزابيل ، داندان ، لياندر ، بيتى جان ، لتيميه

شيكانو : سيدى . . .

داندان : (مخاطباً لتيميه وبيتى جان) نعم الجلسة مفتوحة من أجلكما وحدكما .

(موجهاً الخطاب لشيكانو) مع السلامة . ولكن من تكون هذه البنية من فضلك ؟

شيكانو : إنها ابنتى يا سيدى .

داندان : هيا وعجل باستدعائها .

إيزابيل : إنك فى شغل .

داندان : أنا ! ليس أمامى قضايا . (مخاطباً شيكانو) ولم لم تقل لى إنك والدها ؟

شيكانو : سيدى . . .

داندان : إنها تعرف قضيتك أحسن منك (مخاطباً إيزابيل) قولى . . . ما أملحها ! وما أحلى عينيها !

ليس هذا كل شيء يا بنيتى ، فلا بد من حسن السلوك ، وإنى لجد مسرور برؤية هذا الشباب ، أتعرفين أنى كنت

« ابن حظ » فى ماضى أيامى ؟ وأنى كنت مثار الحديث .

إيزابيل : آه ! يا سيدى إنى أصدقك .

داندان : قولى لنا : تريدين الخسارة لقضية من ؟

إيزابيل : لا أريد الخسارة لقضية أحد .

داندان : من أجلك أنت أحقق كل شىء . تكلمى إذن .

إيزابيل : لكم علىّ إحسان كثير ومنن .

داندان : ألم تشهدى قط تعذيب أحد ؟

إيزابيل : لا . وأعتقد أنى سوف لا أشهد ذلك ما حييت .

داندان : تعالى وسأريك ما لم تشهدى .

إيزابيل : هيا ! يا سيدى ، وهل يستطيع الإنسان أن يشهد تعذيب البؤساء ؟

داندان : حسن ! هذا يساعد دائماً على قضاء ساعة أو ساعتين .

شيكانو : جئت هنا لأقول لك . . .

لياندر : أبى ، سأشرح لك القضية كلها فى كلمتين :
إن المسألة تتعلق بعقد قران . وستعلم ، قبل كل شىء ، أن الأمر فيه أصبح مرهوناً بك والجميع موافقون . البنت راضية ، والحبيب مشتاق يتمنى . وما تريده البنت يريده الأب كذلك . والحكم فى يدك .

داندان : (يجلس) فليعقد الزواج بأسرع ما يمكن ، من الغد إذا

أريد ، بل اليوم إذا لزم الأمر .

لياندر : آنستى ، هيا ، ها هوذا حموك فحييه ؟

شيكانو : كيف ؟

داندان : ما هذا اللغز إذن ؟

لياندر : إن ما قلته يتحقق نقطة نقطة .

داندان : و بما أنى قد أصدرت حكمى فيه فلن أسحبه .

شيكانو ولكن الأب لا يستطيع أن يزوج ابنته دون رضاها .

لياندر : بغير شك ، وأنا أصدق « إيزابيل » الفاتنة .

شيكانو : هل بكمت ؟ هيا ، الكلمة لك . تكلمى .

إيزابيل : لا أجرؤ على الاستئناف يا أبتاه .

شيكانو : بيد أنى أستأنف .

لياندر : (يبرز ورقة) — انظر إلى هذا المستند . وما إخالك تستأنف ما سبق لك أن وقعت عليه وأقررته ؟

شيكانو : ماذا من فضلك ؟

داندان : إن هذا عقد صحيح قد استوفى الشروط .

شيكانو : أرى أنى قد خدعت ، ولكنى سآخذ بحقى . وسيتفرع عن هذه القضية أكثر من عشرين قضية أخرى ، تستحوزون على البنت ، فليكن ، ولكنكم لن تحصلوا على الصرة .

لياندر : هيا ! سيدى . من قال لك إننا نطالبك بشىء ؟ اترك لنا

ابنتك واحتفظ بمالك .

شيكانو : آه !

لياندر : أبى ، هل أنت مسرور بالخاتمة ؟

داندان : حقًّا ، نعم ولترد القضايا بوفرة ، وأنا أقضى معك بقية أيامى . ولكن على المحامين أن يلتزموا الإيجاز . وأين الجانى ؟

لياندر : لنقصر كلامنا على التعبير عن الفرحة . على رسلك ، على رسلك يا أبى !

داندان : إذن براءة : وذلك مرضاة لك يا زوجة ابنى .
هيا نسرى عن أنفسنا بالنظر فى القضايا الأخرى .

* * *



٢

بريتانيكيس

(١٦٧٠)

ترجمة
الدكتور لطفي فام

مراجعة
يحيى حقي

تقديم وفحص
عبد الحميد الدواخلي

مقدمة

تعتبر حوليات تاسيت (١٢ ، ١٣) المصدر الرئيسى الذى اقتبس منه راسين موضوع مسرحيته . وتطالعنا المسرحية بأن نيرون تلميذ مطيع لأستاذين كبيرين هما سنيكا وبيروس . ولكنه سرعان ما ينقاد لأهوائه وغرائزه فيختطف جونى حبيبة أخيه بريتانيكيس الذى يثور ثورة عارمة لهذا العمل الوحشى الذى لا يبرره أى مبرر . وسواء أراد نيرون أن يطعن أخاه أم يطعن أمه أجريبين التى تشجع هذا الحب وتسعى جاهدة إلى أن يتم زواج بريتانيكيس بجونى ، فإن بيروس يزعم أن هذا الاختطاف يرجع إلى أسباب سياسية . فجونى حفيدة أوغسطس مؤسس الأسرة ، وبريتانيكيس ، من جهة أخرى ، هو الوريث الشرعى للإمبراطورية . ومن ثم كان هذا الزواج دافعاً لزلزلة سلطان نيرون .

لقد عملت أجريبين كل ما فى وسعها لدفع نيرون إلى العرش ، مؤملة أن يظل سلطان الحكم بين يديها ، إلا أن نيرون قد حال بينها وبين تنفيذ رغباتها وإن ظل دائماً يبدى لها احتراماً ظاهرياً وتبجلة زائفة .

على أن نيرون لم يكد يرى أسيرته جونى حتى وقع فى غرامها وافتتن بها

افتتاناً شديداً . وأخذ يتقرب إليها ويسخر وحشيته الفطرية لاستمالتها دون جدوى ، لأن الشابين متحابان حباً عنيفاً قد استولى على نفسيهما منذ طفولتهما . ويسيطر الحنق على نيرون لفشل مسعاه ، فيقبض على بريتانيكيس على مرأى من أجربين ويريد أن يقتله . ولكنه يحجم فترة إزاء مجهودات أجربين وتضرعات بيروس . غير أن طبيعته الشريرة الغادرة وإغراء مستشاره البغيض نارسيس يدفعانه إلى ارتكاب الجريمة ، فيدس السم لبريتانيكيس فى الشراب خلال المأدبة التى أقيمت للاحتفال بصلحهما . غير أن نيرون لا يظفر بجونى التى فرت من القصر لتدخل الدير وتصبح راهبة .

ألّف راسين هذه المسرحية ليرد بها على أتباع كورنى الذين كانوا يعترفون لراسين بالموهبة الضرورية لكتابة مأساة تدور حول الحب ، ولكنهم كانوا ينكرون قدرته على كتابة المأساة السياسية . وعندما شاهدوا تمثيل هذه المسرحية ، استمروا ينقدون . فأحنق هذا النقد راسين ورد عليهم بمقدمة عنيفة نراه فيها يقارن نفسه بتيرانس الذى اضطر إلى الدفاع عن نفسه ضد « شاعر هرم ، سيئ النية » .

غير أن هذه المقدمة العنيفة لم تلق قبولاً حسناً لدى صديقه الحبيب بوالو ، فكتب مقدمة أخرى خلت من العنف والشدة والهجوم .

وتقع هذه المسرحية فى خمسة فصول ، مثلت ، لأول مرة فى « أوتيل دى بورجونى » فى الثالث عشر من ديسمبر سنة ١٦٦٩ ونشرت عام ١٦٧٠ . ولم تلق المسرحية أول الأمر نجاحاً ، إما لأن

موضوعها لا يهم جمهور رواد المسرح كما يزعم سان إيفرمون، أو أن المسرح قد خلا من النظارة يوم أن مثلت بسبب تنفيذ حكم الإعدام فى المركيز دى كوربوازييه بميدان جريف . ولكن الملك أعجب بالمسرحية ، فأقبل عليها الجمهور ولقيت وقتئذ نجاحاً كبيراً وأصبح العارفون من النقاد يعدونها خير مسرحيات راسين .

لقد وجد راسين فى حوليات تاسيت ثروة سيكولوجية تضم أسماء رنانة، مثل : نيرون وأجربين وبيروس ونارسيس . وقد أتاح موت بريتانيكيس الفرصة لراسين ليقص علينا السنوات الأولى لحكم نيرون، هذا الشاب المتردد الذى انقلب وحشاً ضارياً ، وكيف انتزع السلطان من أجربين؛ ثم كيف انتصر نارسيس على بيروس، وغير ذلك من العوامل التى تمثل ثورة فى القصر وتوجيهاً لحكم دموى . إنها صورة تاريخية تضارع خير ما كتب كورنى ، ولكن راسين يكتب التاريخ لا على منوال المؤرخ ولكن على مثال العالم النفسانى . فهو يرى الناس من خلال الأحداث ويرى الأهواء تكمن وراء الأعمال؛ ثم نراه يغفل التفصيلات التى لا تنطوى على قيمة أخلاقية ، ويعدل الأحداث لتكون قريبة من الحقيقة البشرية . إنه يعنى بالإنسان الخالد خيراً من عنايته بالحقائق التاريخية . . . ليصل إلى حقيقة أعلى وأعز وأكبر قيمة من التاريخ . لقد غير تأريخ الحوادث فيما يتعلق بالشقاق الذى قام بين نيرون وأجربين وجعل بريتانيكيس يعيش سنوات أكثر مما هو معروف تاريخياً ، وكلف نارسيس بدس السم لبريتانيكيس ،

وخلق شخصية جونى خلقاً يكاد يكون تامًّا وأدخلها دير فستا لتكون راهبة بمعبد هذه الآلهة الوثنية ، مما يبعد تماماً عن الحقيقة . على أن هذا كله يعدّ فى نظر راسين قليل الأهمية ، ما دام هدفه ينحصر فى أن يشعرنا بأننا فى روما ، وفى بلاط نيرون وأننا نواجه شخصيات بشرية حقيقية .

لقد أضفى عليهم جميعاً طابعاً سيكولوجيًّا حيًّا رفيعاً : فهو يقدم لنا أجربين فى الوقت الذى فقدت فيه سلطانها على ابنها وسقطت من يديها مقاليد الحكم ، ولم يعد لها تأثير فى أمور الإمبراطورية بعد أن كانت عزيزة الجانب ، مسموعة الكلمة تأمر فتطاع دائماً ، وتدير دفة الأمور فى سهولة ويسر فى جميع أنحاء الإمبراطورية . تحاول جاهدة أن تحتفظ بسلطانها ولكن محاولاتها تذهب هباء ويتحطم طموحها على صخرة عناد ابنها الذى كان عجولا ليرفع عن كاهله نير سطوتها .

نجح راسين نجاحاً كبيراً فى تصوير طموح هذه الأم ، ذلك الطموح الدائب الذى عاشت مكافحة من أجله ثم رزئت فيه حين رأت آمالها تنهار انهياراً كبيراً . فراسين إذن ليس مجرد فنان يحسن تصوير النساء الجميلات المحبات المغرمات ، ليس شاعر الحب والغرام فحسب على حد قول كورنى وتلاميذه ! وكم كان موفقاً حين جعل نيرون يتحدى أمه ويختطف جونى نكاية فى أخيه بريتانيكيس ، ولا يستمع إلى النصائح الحكيمة التى يذكره بها مستشاره بيروس وينقاد لشيطانه نارسيس الذى يضله ضلالا

مبيناً ، حين جعل ما يتصف به نيرون من فضائل يتحول إلى رذائل ووحشية وجرائم .

أما النقد القاسى الذى وجه إلى بريتانيكيس من كورنى وأنصاره وتلاميذه ، فقد كان نقداً مغرضاً متخبطاً : فنيرون عند بعضهم شديد القسوة وعند البعض الآخر شديد الطيبة ، وأجربين متكبرة دون داع للتعالى ، ونارسيس شرير دون قصد وبيروس رجل فاضل بالمصادفة .

عبد الحميد الدواخلى

أشخاص المسرحية

نيرون : الإمبراطور — ابن أجربين .

بريتانيكيس : ابن الإمبراطور كلوديوس والإمبراطورة ميساالين (١٥ عاماً)

أجربين : أرملة دويتيوس أنوباربوس والد نيرون ،

ثم أصبحت أرملة الإمبراطور كلوديوس بعد زيجة ثانية .

جونى : حبيبة نيرون .

بيروس : مربى نيرون ومستشاره .

نارسيس : مربى بريتانيكيس ومستشاره .

ألبين : وصيفة أجربين .

حرس

* * *

المكان : روما .

المنظر : حجرة فى قصر نيرون .

العصر : القرن الأول (سنة ٥٦ م)

* * *

الفصل الأول

المشهد الأول

أجربين – ألبين

ألبين : عجبي لما تفعلين ! نيرون مستغرق فى نومه ، ففيم قدومك لانتظار يقظته ؟ أيجمل بأم القيصر أن تجوب القصر دون حاشية أو حرس لتقف ساهمة عند باب ابنها ؟ مولاتى ! أناشدك أن تعودى إلى جناحك .

أجربين : كلا يا ألبين . لا ينبغي لى أن أبتعد لحظة واحدة . أريد أن أنتظره هنا فى هذا المكان . فإن الآلام التى يبعثها فى نفسى كفيلة بأن تشغل ذهنى طيلة الوقت الذى يقضيه هو هانئاً فى نومه . إن كل ما تنبأت به قد تحقق بالفعل . فلقد أعلن نيرون غضبه على بريتانيكيس ونفد صبره وفقد زمامه ، فهو يريد الآن أن يرهبه الجميع بعد أن ملَّ العمل على كسب حبهم . إن بريتانيكيس قد أصبح له مصدر ضيق ، كما أننى يا ألبين قد أخذ إحساسى يزداد يوماً بعد يوم بأننى بدورى أسبب له الضيق .

ألبين : عجبي لما تقولين ! أنت التى يدين لك نيرون بنسيم الحياة

الذى يستنشقه ؟ أنت التى خلقت منه إمبراطوراً متخطية بذلك من هو أجدر منه بهذا اللقب ؟ أنت التى حرمت ابن كلوديوس[١] من أن يرث العرش لتجعلى من دومتيوس[٢] المحظوظ قيصراً ؟ إن كل شىء يا مولاتى ناطق له بفضل أجربين ، فحبه لك فريضة عليه .

أجربين : أجل ، إنه فريضة عليه . ولكن ما من سبب يكسبنى محبته إن كان نبيل النفس ، إلا أكسبنى عداءه إن كان جحوداً .

ألبين : وكيف يكون جاحداً يا مولاتى ؟ آه ! إن سلوكه كله يشفّ عن روح زكية وحرص على القيام بالواجب . فما من قول فاه به ، وما من عمل أتاه فى تلك السنوات الثلاث ، إلا ويحمل البشرى لروما بأنه أفضل إمبراطور . وإن روما تشعر ، منذ أن تولى مقاليد الحكم ، بأنها قد عادت إلى سابق عهدها أيام حكم القناصل . إنه يرعى روما رعاية الوالد . وقصارى القول ، إن نيرون فى حداثة حكمه يتحلى

(١) أى بريتانيكيس .

(٢) أى نيرون . فقبل أن يتبناه الإمبراطور كلوديوس ، كان نيرون يحمل اسم أبيه دوميتيوس أنوباربوس .

بالفضائل كلها التى امتاز بها أغسطس[١] فى نضوج شيخوخته .

أجربين : كلا ! كلا ! إن حرصى على تحقيق مصلحتى لا يجنبنى الصواب . صحيح أن نيرون بدأ من حيث انتهى أغسطس ، ولكنى أخشى أن يأتى المستقبل فيحطم الماضى كله ، وعندئذ ينتهى من حيث بدأ أغسطس ، من العبث أن يحاول إخفاء حقيقته ، فأنا أقرأ فى وجهه — وجه آل دومتيوس الجبابرة[٢] — تلك النزعة الشرسة المقبضة . إن كبرياءهم تسرى فى دمائه ممزوجة بغطرسة آل نيرون[٣] التى أشرب بها وهو فى أحشائى .

إن الطغيان يبدأ دائماً ببشائر طيبة ، أفلا تذكرين أخى كايوس[٤] ؟ لقد كانت روما مبتهجة به تتوسم فيه الخير ، ولكن عهدها به لم يطل ، فسرعان ما تحولت طيبته

---

(١) اشتهر أغسطس بحبه للعدل وبالصفح عن الأعداء . انظر « سنا » تأليف : كورنى ترجمة خليل مطران ، دار الطباعة الأهلية ، القاهرة سنة ١٩٣٣ ص : ٢٠ — ٢٢ ، ٦٢ — ٦٦ ، ٧٩ — ٨١ .

(٢) عرف دومتيوس أبو نيرون بالقسوة والوحشية .

(٣) كان لقب « نيرون » يطلق على أفراد أسرة أجربين .

(٤) واسمه الحقيقى كاليجولا ، وهو ابن الإمبراطور جرمانيكوس ، وشقيق أجربين .

المصطنعة إلى سخط بشع، وانقلبت هذه البهجة فزعاً ورعباً. ومهما يكن من أمر، فماذا يعود عليّ لو ظل نيرون وفياً لشهامته ومروءته طيلة حياته؟ وصار تمسكه بالفضائل إلى هذا الأمد الطويل مضرب الأمثال؟

فهل تراني وضعت مقاليد الدولة بين يديه ليدير دفتها كما يحلو للشعب ومجلس الشيوخ؟ فليكن للوطن راعياً وأباً إن شاء، ولكن ليذكر أكثر مما يفعل أن أجريبين هى أمه. وإلا فيم نسمى هذا العدوان الذى انكشف أمره كوضح النهار؟ إنه يعلم جيداً أن « بريتانيكيس » يهيم بحب جونى، إذ لم يعد ذلك الحب خافياً على أحد، ومع ذلك فإن هذا الذى تزعمين أن المروءة أساس مسلكه، يأمر أعوانه بخطف جونى فى جنح الظلام. تُرى ما غرضه؟ هل فعلته هذه بدافع من الحب أو بدافع من البغض؟ أو لرغبة فى التلذذ بإيذائهما؟ أو هو على الأصح الخبث الذى دفعه إلى أن يقتص منى بعقابهما لمساندتى لهما.

ألبين : أفأنت يا مولاتى عون وسند لهما؟

أجريبين : كفى يا عزيزتى ألبين. فأنا أعلم أننى وحدى المسئولة عما أصابهما من أذى. فأنا التى أقصيت بريتانيكيس عن العرش

الذى كان هو وريثه الشرعى . أما سيلانوس[1] شقيق جونى وسليل أغسطس ، فقد كان فى نية كلود أن يورثه العرش ، ولكنه فقد حياته بسبب خطتى وتدبيرى ؛ والآن ينعم نيرون بكل شيء ، دون أن أجنى من وراء ذلك كله إلا المتاعب فى سبيل إقامة الميزان بين نيرون والآخرين إلى أن يأتى اليوم الذى يقيم فيه بريتانيكيس الميزان ذاته بينى وبين ابنى وتلك هى سنة الحياة !

ألبين : يا لها من خطة عجيبة !

أجربين : أود أن أضمن لنفسى ملاذاً آمناً إذا ما هبت العاصفة . فإن نيرون سوف يفلت منى إذا لم تنجح هذه الخطة فى كبح جماحه :

ألبين : يا لك من أم تفرط فى الاحتراس من ابنها !

أجربين : إنه إذا لم يخش اليوم بأسى ، فلا مفر لى من أن أخشى بأسه غداً .

ألبين : لعل الذى يزعج مولاتى فزع لا مبرر له . وإن كان

---

(١) كان سيلانوس يزمع الزواج من أوكتاف ابنة الإمبراطور كلود . ولكن أجربين بعد أن أوقعت هذا الإمبراطور فى حبالها وجعلته يتزوج بها ، أقنعته بأن يتبنى نيرون — ابنها من زوجها الأول دوميتوس — ثم بأن يزوجه ابنته أوكتاف . وعلى أثر ذلك انتحر سيلانوس ، شقيق جونى وحفيد أغسطس .

نيرون قد تغير ولم يعد يعاملك كما ينبغي لك ، فنحن على الأقل لم نلحظ عليه أى تبدل . وربما كانت هذه الأمور أسراراً بينك وبين القيصر . فعهدنا بنيرون أنه إذا ما خلعت روما عليه ألقاباً جديدة ، لا يلبث أن يضفيها على أمه ، لأنه كريم فى وده فلا يستأثر بشىء منها لنفسه .

إن اسمك فى جميع أرجاء روما موضع التبجيل والتقديس ، كاسمه تماماً . أما زوجته البائسة أوكتاڤى[1] فلا يكاد يتحدث عنها أحد . ثم إن جدك الأكبر أغسطس لم يكرم زوجته ليڤى بقدر ما كرمك نيرون . فهو أول من سمح بأن تتقدم شارات النصر المتوجة بأكاليل الغار موكب أمه[2]. فأى تعبيرتريدين أبلغ من هذا عن الاعتراف بالفضل ؟

أجريبين : أريد تبجيلا أقل وثقة أوفر . فهذه المنح وتلك المكرمات يا ألبين تؤجج غيظى ، إذ أرانى أزداد تكريماً وأنقص كرامة ونفوذاً .

كلا ! كلا ! لقد انتهى العهد الذى كان فيه نيرون لا يزال فتى يافعاً ينوط بى تحقيق الآمال التى تعقدها عليه فى

---

(١) أوكتاڤى زوجة نيرون ، هى شقيقة بريتانيكيس وابنة الإمبراطور السابق كلوديوس .

(٢) كان هذا التقليد مقصوراً على أبطال الحرب عند عودتهم منتصرين .

إعزاز حاشية بلاطه ، وحين كان لا يعتمد فى شئون الحكم كلّه إلا علىّ . انتهى العهد الذى كان فيه أعضاء مجلس الشيوخ يجتمعون فى القصر بأمرى ، فقد كنت أنا مصدر الحياة وصاحبة السلطان الأسنى فى هذا المجلس العظيم ، أصرف جميع أموره من وراء حجاب ، دون أن يرانى أحد . ولم يكن نيرون حينئذ مطمئناً إلى نزعات شعب روما وإرادته ، ولم تكن نشوة العظمة قد أسكرته بعد . إلى أن جاء ذلك اليوم ، ذلك اليوم المشئوم ، إنه ما زال يُفزع ذاكرتى ويقض مضجعى . ذلك اليوم الذى انفتحت فيه عينا نيرون فبهره مجده ، حين رأى سفراء ملوك الأرض قاطبة يحجون إليه ليعترفوا به إمبراطوراً وسيداً للعالم . كيف تم له تدبير تلك الخطة التى مهدت لإذلالى ؟! ولكن مهما يكن من أمرها ، فإن نيرون لم يكد يلمحنى من بعيد حتى أربدّ وجهه غيظاً . ولم يفت قلبى أن يحس بالنذر فانقبض تشاؤماً . ثم نهض هذا الجحود واقفاً ليوارى ما بيّت لى من إهانة ، وراء احترام مزيف ، فتقدم مسرعاً ليقبلنى ، ثم نحانى عن العرش الذى كنت فى طريقى إليه .

ومنذ تلك الطعنة القاتلة ، أخذ سلطان أجربين يهبط إلى الحضيض يوماً بعد يوم فى خطى سريعة . ولم يبق لى منه

سوى مجرد الظل . ولم يعد الناس يبتهلون إلا باسم سنيكا[١] ولا يلتمسون العون إلا من بيروس[٢] .

ألبين : ويلاه ! إن كانت هذه الهواجس قد ملكت عليك نفسك ، فلم إذن تحتضنين الأفعى التي تفتك بك ؟ ولم لا ترضين بالتحدث إلى القيصر لتتبين لك جلية الأمر ؟

أجربين : إن القيصر يا ألبين لم يعد يستقبلني إلا فى حضرة شهود ، ولا يأذن لى بالدخول إلا علانية وفى الموعد الذى يضربه لى؛ ثم إنه يلقّن سلفاً كيف يجيب ، بل متى يصمت. فهناك رقيبان[٣] هما سيداه وسيداى ، لا بد أن يرأس أحدهما دائماً جلساتنا . ولكنني سأظل ألاحقه طالما أراه يتحاشانى ، إذ يجب يا ألبين أن أنتهز فرصة قلقه واضطراب نفسه . إننى أسمع صوتاً بالداخل . إن الباب ينفتح . فلنذهب توًّا لنسأله عن السبب الذى يبرر به اختطاف جونى ، ونفاجئه لنكشف خبايا نفسه ما أمكن ذلك . ولكن ماذا أرى ؟ بيروس يخرج من غرفته فى هذه الساعة المبكرة ؟

* * *

---

(١) فيلسوف مشهور ، أشرف على تربية نيرون وكان مستشاراً له .

(٢) أحد قواد الجيش الرومانى ، كان هو أيضاً مربياً ومستشاراً لنيرون . ولقد حرص المؤلف على إبراز شخصيته فى القصة لأنها أقوى وأوضح من شخصية الفيلسوف سنيكا .

(٣) تقصد سنيكا وبيروس .

المشهد الثانى

أجربين وبيروس وألبين

بيروس : مولاتى ، باسم الإمبراطور جئت لأخبرك بأمر ربما أزعجك فى البداية ، غير أنه لم يكن إلا نتيجة مسلك حكيم أراد القيصر أن تكونى على علم به .

أجربين : ما دامت هذه إرادته فلندخل إليه ، ليزيدنى إيضاحاً

بيروس : إن القيصر قد احتجب إلى حين عن أنظارنا جميعاً . فلقد سبقناك نحن مستشاريه إلى مخدعه ، عن طريق باب خفى لا يكاد يعلمه أحد من الشعب ، فلم نجده هناك ، وإن شئت يا مولاتى فاسمحى أن أدخل من جديد إلى مخدعه . . .

أجربين : كلا ! كلا ! ليس لى أن أعكر عليه صفو خلواته السنية ! غير أننى أود أن أسألك إن كنت مستعداً لنتحدث معاً ، ولو مرة واحدة ، دون تصنع منا أو تحفظ .

بيروس : إن بيروس يمقت الكذب دائماً مقتاً شديداً .

أجربين : إذن فهل تنوى أن تحجب عنى الإمبراطور مدة طويلة ؟ ألن يتاح لى أن أراه إلا وأنا أشعر بأننى عبء ثقيل

يزعجه ويقلقه ؟

وهل رفعتك إلى هذا المنصب السامى لتضع حاجزاً بينى وبين ابنى ؟ ألا تجرؤ على أن تدعه لحظة واحدة يركن فيها إلى نفسه ؟ وهل تظل أنت وسنيكا تتنافسان على شرف السبق إلى محو اسمى من ذاكرته ؟ وهل أودعتكما ابنى لتجعلا منه جحوداً كافراً بالنعمة ؟ وتتسترا وراء اسمه وتصبحا السيدين الآمرين فى الدولة ؟

حقاً ! كلما أمعنت التفكير فى الأمر خشيت أن تجرؤ فتحسبنى إحدى صنائعك ممن يدينون لك بالفضل . لقد كان فى وسعى أن أترك طموحك يذبل جرياً وراء رتب وأوسمة مقبورة فى إحدى كتائب الجيش ، فتكون نكرة من النكرات . أما أنا فقد اقتفيت خُطى أجدادى إلى العرش فإننى بنت أباطرتكم وزوجتهم وشقيقتهم وأمهم[1] . فأى زعم باطل يساورك ؟ أوتظن أننى ناديت بنيرون إمبراطوراً لأفرض على نفسى ثلاثة أباطرة ؟

إن نيرون لم يعد صبياً .أفلم يحن الوقت ليحكم بنفسه؟ إلى متى تريدان أن يخشا كما الإمبراطور ؟ ألا يستطيع أن ينظر

---

(١) كانت أجربين ابنة للإمبراطور جرمانيكوس وزوجة للإمبراطور كلود وأختاً للإمبراطور كاليجولا وأماً للإمبراطور نيرون .

في أى أمر إلا بعيونكما ؟ ألا يكفيه أن يكون له من أجداده العظام قدوة له فى سلوكه ؟ لزام عليه أن يختار – لو شاء – طريق أغسطس أو تيبير[١] ، وليحذ إذن – لو استطاع – حذو جرمانيكوس أبى . أما أنا فلا أجرؤ على أن أضع نفسى بين هؤلاء الأبطال . غير أن هناك فضائل لا يستطيع أحد غيرى أن يلقنه إياها . ففى وسعى أن أعلمه على الأقل أن الثقة التى يضعها فى أحد أفراد رعيته ، يجب ألا تبيح له إزالة الفوارق فيما بينهما .

بيروس : لم يكلفنى القيصر فى هذه المناسبة إلا إيضاح عمل واحد قام به . إننى لا أقصد تبرير تصرفاته ، ولكن بما أنك تجعليننى يا مولاتى مسئولا عن بقية أيام حياته ، فسأجيب عن أسئلتك فى صراحة الجندى الذى لا يعرف كيف يزين الحقيقة ويجملها . لقد أودعت بين يدى شباب القيصر ، وإننى لأعترف بذلك ، ويجب ألا يغيب هذا عن بالى أبداً . ولكن هل سبق لى أن قطعت لك عهداً أن أخونه ؟ أو أجعل منه إمبراطوراً لا يقدر على شىء إلا أن

---

(١) عندما تزوجت ليفى بالإمبراطور أغسطس جعلته يتبنى ابنها تيبير (أو طيباريوس) الذى أصبح إمبراطوراً بعد أغسطس .

يطيع الآخرين ؟ كلا ! إننى لم أعد مسئولا عنه أمامك أنت . فإنه لم يعد ابنك أنت. إنه الآن سيد العالم . وإننى يا مولاتى مسئول عنه أمام الإمبراطورية الرومانية التى وضعت بين يديه مصيرها سلامة أو ضياعاً .

فإن كان القصد تنشئة القيصر غارقاً فى ظلام الجهل ، فلم أقصيتِم المتملقين عن القيام على تربيته ؟ أولم يكن لديكم مستشارون آخرون غيرى وغير سنيكا يحيدون به عن الطريق المستقيم ؟ وهل كان استدعاؤنا من المنفى[1] لأننا من أنصار الفساد وأعوان الانحلال ؟ إن بلاط كلوديوس زاخر بالعبيد[2] الأنجاس ، فإذا ما سألته اثنين قدم لك ألفاً مستعدين للتآمر على نيل شرف الهبوط بالقيصر إلى الخسة والفساد ، عاملين على أن يكبر ويشيخ فى طفولة وغرارة لاينتهى لهما مدى .

ولكن مم تشكو مولاتى ؟ إنك موضع الإكبار والإجلال . فالجميع يقسم بحياتك كما يقسم بحياة القيصر . صحيح أن الإمبراطور لم يعد يأتى كل صباح ليضع الإمبراطورية

---

(١) كانت ميسالين – الزوجة الرابعة للإمبراطور كلود ، وأم بريتانيكيس – قد نفت سنيكا إلى جزيرة كورسيكا ، ثم استدعته أجربين من المنفى ليقوم على تربية نيرون .

(٢) إن كثرة عدد العبيد المعتوقين كانت نكبة على نظام الحكم فى ذلك العهد .

تحت قدميك ، وليحشد من حولك أفواجاً متزايدة من رجال البلاط . ولكن أيجب عليه يا مولاتى أن يفعل ذلك حقاً ؟ وهل اعترافه لك بالفضل لا يتجلى إلا فى خضوعه لك ؟ أيجب أن يظل نيرون دائماً خانعاً ، دائماً خجولا ، لا يجرؤ على أن يكون أغسطس وقيصراً إلا بالاسم فحسب ؟

وقصارى القول ، أتودين معرفة الحقيقة ؟ إن روما تقرّه على ما يفعل . فبعد أن ظلت روما فترة طويلة مستعبدة لثلاثة من الطغاة[١] الذين أعتقهم كلوديوس ، أخذت تتخلص من ذلك النير الذى رزحت تحته طويلا ، ثم بدأت تتنسم هواء الحرية فى عهد نيرون . بل ماذا عساى أن أقول ؟ إن روح الشهامة والشجاعة والكفاح أخذت تدب فى الشعب من جديد . لم تعد الإمبراطورية بأسرها غنيمة ينهبها سيد مستبد ، بل أصبح الشعب يجتمع فى الساحة الكبرى ، « ساحة مارس » ليختار قضاته وحكامه[٢]

---

(١) هم بالاس (الذى اتخذته أجربين مستشاراً لها ثم أثار سخط نيرون) ونارسيس (واتخذه بريتانيكيس مستشاراً له) وكاليست .

(٢) فى الواقع كان الإمبراطور هو الذى يختارهم ثم يجتمع الشعب فى « ساحة مارس » ليناديى بهم قضاة عليه .

وأصبح القيصر يعين الرؤساء والقواد استجابة لرغبة الجند ، وما زال ترازياس[١] من شيوخ مجلس الندوة ، وكوربيلون[٢] من قواد الجيش ، بعيدين عن أذى القيصر وبطشه ، دون أن يتبرم بما لهما من شهرة ذائعة وصيت بعيد . أما الأماكن النائية[٣] المعدة للنفى ، فكانت قديماً آهلة بأعضاء مجلس الشيوخ المعتقلين ، والآن لم يعد بها سوى أولئك الذين يشون بهؤلاء الأعضاء الأبرياء .

إننا لا يعنينا أن يظل القيصر على ثقته فينا وتصديقه لنصائحنا . طالما أن هذه النصائح لا تهدف إلا لمجده وإعلاء شأنه ، وطالما أن روما تظل حرة دائماً والقيصر مطلق السلطان طوال هذا العهد الزاهر . على أن نيرون يا مولاتى كفيل بأن يُصرّف أموره بنفسه . إننى أطيع أوامره دون أن أزعم لنفسى شرف توجيهه أو إرشاده . فما عليه سوى الاقتداء بأجداده . ويا حبذا لو اتخذ من نفسه قدوة لنفسه . وهنيئاً له ما يتحلّى به من السجايا والفضائل ، التى إذا

---

(١) فيلسوف متقشف ، مستقل الرأى ، سيقع فريسة لبطش نيرون فيقتله .

(٢) والى آسيا ومن قواد الجيش الرومانى البارزين ، اشتهر بنبل الخلق وسيبطش به نيرون أيضاً .

(٣) كانت جزيرتا كورسيكا وسردينيا هما المنفى لأعداء القيصر .

ما تلاحقت الواحدة تلو الأخرى ، فإنها تجدد لنا سنوات حكمه الأولى على مرّ الأيام .

أجربين : أراك لا تجرؤ على الاطمئنان إلى المستقبل ، معتقداً أن نيرون بدونك سوف يضل الطريق . ولما كنت الآن فخوراً بما صنعت إلى الحد الذى جعلك تشيد بفضائله وتعدد مآثره ، فإنى أطلب إليك أن تبين لنا كيف أصبح نيرون مغتصباً يختطف أخت سيلانوس . ألا يقصد أن يلوث بهذا العار الشنيع دماء أجدادى التى تتألق نقية فى عروق جونى ؟ أى جرم ينسبه إليها ؟ وأى اعتداء صدر منها حتى تصبح بين عشية وضحاها مجرمة تهدد سلامة الدولة ؟ تلك التى نشأت بعيدة عن العجرفة والغطرسة ، وما كانت لترى نيرون مطلقاً لو لم يختطفها ، بل كان لها أن تذكر من بين مآثره عليها هناءها المطلق فى عدم رؤيته البتة .

بيروس : أنا أعلم أنه لا تحوم حولها أدنى شبهة أو اتهام ، ولكن القيصر ، يا مولاتى ، لم يصدر ضدها أى حكم حتى الآن . ولا شىء هنا يؤذى ناظريها إطلاقاً . إنها تحيا فى قصر عامر بذكرى أجدادها . غير أنك تعلمين أن أصلها الذى تنحدر منه ، يخول لها حقوقاً فى تولى العرش[1] ، مما

(١) هذه فكرة حديثة ، إذ لم يكن لجونى فى الواقع أى حق فى العرش ، لأن اعتلاء=

يجعل من زوجها أميراً متمرداً عليه. كما أن من يجرى فى عروقه دم القيصر يجب ألاّ يصاهر إلا من يريد القيصر أن يخلط دمه بدمه. وأنت نفسك تسلمين بأنه لا يليق أن نبتّ فى زاوج سليلة أغسطس دون رأى نيرون.

اجربين : إننى أفهم جيداً ما تعنى بذلك. فنيرون يخبرنى على لسانك إذن بأنه من العبث أن يطمئن بريتانيكيس إلى الاختيار الذى أقره أنا، وانه لعبث أيضاً أن أمنّى حبه بزواج طالما هفا إليه قلبه، لكى أصرفه عن البؤس الذى يحيا فيه.

إن نيرون يقصد بهذا أن يخجلنى ويُظهر عجزى، ولذلك فهو يريد أن يعلن على الملأ أن أجربين تَعِد بما لا طاقة لها به. ولما كان يعلم أن روما تؤمن كل الإيمان بما لى من مكانة ونفوذ، فقد أراد من وراء هذه الإهانة أن يردها عن إيمانها هذا، وأن يلقن العالم أجمع درساً قاسياً فى ألا يخلط فيما بعد بين نيرون الابن ونيرون الإمبراطور. وإنه على ذلك لقدير.

ولكن ما زال فى وسعى أن أقول له إن عليه أن يوطد أركان إمبراطوريته أولا قبل أن يوجه إلىّ هذه الطعنة، إذ أنه حين

— العرش الرومانى فى ذلك العهد لم يكن عن طريق الوراثة.

يضيق على الخناق يضطرنى إلى أن أختبر سلطانى الضعيف وأن أحشد أعوانى لمقاومته ، وعندئذ يعرض سلطانه للمخاطر . وربما رجحت كفتى ولمع اسمى إلى حد لم يكن يتوقعه .

بيروس : ما هذا يا مولاتى ؟ أراك تشكين دائماً فى احترامه لك ! ألا يستطيع أن يخطو خطوة دون أن تثور فى نفسك الشبهات؟ هل يعلم الإمبراطور أنك تناصرين جونى وأنك قد تحالفت مع بريتانيكيس ؟ ماذا ؟ هل تتخذين من عونك لأعدائك ذريعة للشكوى من القيصر ؟

هل أنت على أهبة دائماً لإحداث الشقاق وإثارة الفتنة فى الإمبراطورية لأتفه الوشايات ؟ أو أنك تخشين دائماً أن تتغلب عليك عاطفة الأمومة نحو نيرون ، فسرعان ما يتحول عناق اللقاء إلى سيل من الأسئلة والاستجوابات ؟ ألا فاعدلى عن هذه المهمة البغيضة ، مهمة الرقيب[1] وأظهرى تسامح الأم الحريصة على توطيد التفاهم والوئام ، وتحملى بعض الجفاء الذى تلحظينه دون أن تتحدثى به علانية ، لئلا يتنبه رجال البلاط إلى أمرك فينفضوا من

---

(١) قاض رومانى كانت تقتصر مهمته على مراقبة الأخلاق والآداب العامة .

حولك(١)

أجربين : ومن ذا الذى سيحرص على أن يحظى بحماية أجربين ،
ما دام نيرون نفسه يعلن على الملأ انهيار سلطانى ؟
وما دام يُظهر لهم أنه يقصينى عن حضرته ؟ وما دام بيروس
يجرؤ على أن يوصد باب القيصر فى وجهى ؟

بيروس : مولاتى : أرى أنه قد حان الوقت كى ألوذ بالصمت.
فإن حرية الكلام التى لجأت إليها أخذت تؤذى شعورك .
إن الألم ظالم فى أحكامه ، وجميع الحجج التى لا تجدى
فى التلطيف من حدته ، إنما تثير الشكوك والوساوس إثارة
مريرة .
ها هو ذا بريتانيكيس . إننى أترك له مكانى ، وأدعك
تنصتين إلى قصة بؤسه وترثين لها . وأخشى أن يحملك ذلك
على اتهام من يتفانون فى خدمة الإمبراطور ، الذين قلما
يستشيرهم فى مثل هذه الأمور .

* * *

(١) وهذا ما حدث فعلا (راجع تاسيت : الحوليات ، ١٤ ، ١٨ ، ١٩) .

المشهد الثالث

أجربين – بريتانيكيس – نارسيس – ألبين

أجربين : ويلاه ، أيها الأمير! إلى أين تسرع الخطى ؟ أية حماسة ثائرة قد ألقت بك معصوب العينين بين أيدى أعدائك ؟ عم جئت تبحث هنا ؟

بريتانيكيس : عم أبحث ؟ أيتها الآلهة ! إن من فقدت يا مولاتى هنا فى هذا المكان ! لقد حاصر جونى آلاف من أشرس الجنود ، فألفت نفسها تساق فى مهانة وإذلال إلى هذا القصر . واحسرتاه على ما أصابها من رعب وفزع حين فوجئت أحاسيسها الرقيقة بهذا المنظر الشاذ ! ولا أطيل عليك ، لقد اختطفوها منى .

إن القلبين اللذين جمع بينهما البؤس ، سيفرق بينهما حكم جائر صارم . لا شك فى أنه لم يرق لهم أن يشارك كل منا صاحبه فى آلامه ، لنتعاون معاً على احتمال ما ابتلينا به من تعاسة وشقاء .

أجربين : كفى ! إننى أشعر مثلك تماماً بجميع الإهانات التى لحقت بك . وإن شكواى المدوية قد سبقت أنينك المكبوت .

لكننى لا أزعم أن هذا الغضب الذى لا حول له ولا قوة
يكفى ليحلنى من وعدى لك وليبرئ ذمتى تجاهك .
إن كلامى هذا يحتاج إلى تفسير ، فإن كنت تود أن تفهم
نواياى، فالحق بى عند بالاس تجدلنى فى انتظارك .

* * *

المشهد الرابع

بريتانيكيس – نارسيس

بريتانيكيس : هل أصدقها يا نارسيس ؟ وهل أثق بكلمتها فأتخذها حكماً بينى وبين ابنها ؟ ما رأيك فى ذلك ؟ أليست هى أجربين بعينها التى تزوجت أبى قديماً لتقضى علىّ بالضياع والدمار ؟ أليست هى التى – على حد قولك – قد عجلت بوفاة أبى حين رأت أن أيامه الأخيرة تمر بطيئة فلا تتيح لها تحقيق خططها[1] ؟

نارسيس : دعنا من ذلك . إنها تشعر بأنها قد أهينت مثلك تماماً ، فلقد تعهدت بأن تزوجك من جونى ، إذن فليربط السخط المشترك بينكما ولتجمعكما المصالح الموحدة . عبثاً

---

(١) لقد دبرت أن يدس له سم بطىء فى الطعام ، ثم أجهزت عليه بسم أسرع أثراً بمعونة أحد الأطباء . (تاسيت ١٢ ، ٦٦ – ٦٧) .

ترددان صيحات الأسف بين أرجاء هذا القصر .
فطالما لا يُسمع لكما هنا سوى الشكوى والأنين بصوت المتوسل الخانع ، بدلا من إثارة الرعب والفزع . وطالما تضيعان سخطكما هباء وسط الألفاظ والأقوال ، فكونا على ثقة من أنكما لن تكفا عن الشكوى والأنين طول الحياة . يجب ألا تشكّ فى ذلك إطلاقاً .

بريتانيكيس : آه يا نارسيس ! هل تظن أن فى نيّتى حقّاً أن أستطيب طويلا حياة العبودية؟ وهل تظن أنى – وإن زلزل إقصائى عن الحكم كيانى – قد عدلت نهائيّاً عن عرش الإمبراطورية الذى ولدت من أجله ؟
ولكننى ما زلت وحيداً . فأصدقاء أبى كلهم يتنكرون لى ، وإذا رأوا بؤسى أسقط فى أيديهم ؛ هذا إلى أن حداثتى تقصى عنى جميع الذين يكتبون لى فى قلوبهم الإخلاص والولاء ، كما أننى قد اكتسبت منذ العام الماضى[1] بعض الخبرة والتجربة التى كشفت لى عن بؤس مصيرى .
فلا أرى من حولى سوى نفر من الأصدقاء الذين باعوا أنفسهم لنيرون ، يتخذ منهم عيوناً ساهرة تعدّ علىّ حركاتى

---

(١) أى منذ اعتلى نيرون عرش الإمبراطورية . أما الإشارات السابقة إلى أن نيرون حكم ثلاث سنوات قبل أن تجرى أحداث هذه القصة فهى من قبيل المغالاة وتعتبر خطأ تاريخياً .

وسكناتى ، ولقد اختار هؤلاء العملاء الأدنياء ليبيعوا له مكنون سرى وما تضمره نفسى . وقصارى القول ، يا نارسيس ، إنهم يخونوننى كل يوم . فما من قول أفوه به إلا سمعه ، وما من خطة أرسمها إلا علم بها قبل تنفيذها . إنه يعلم ، قدر ما تعلمه أنت تماماً ، إنه يعرف كل ما يجرى فى نفسى . فما رأيك فى هذا كله يا نارسيس ؟

نارسيس : يا لضعة نفوسهم ! ولكن عليك يا مولاى أن تصطفى الأعوان الثقاة ، الذين يكتمون السر ويحفظون العهد ، وأن تضن بالإفضاء بأسرارك .

بريتانيكيس : لقد أصبت القول يا نارسيس . ولكن الحذر والتحفظ فن لا يجيده أبداً ذو القلب الكبير ، فيظل نهباً للخداع إلى أمد طويل . لذا فإننى أطمئن إلى كلامك وأثق بك ، بل أعاهد نفسى على ألا أثق بأحد سواك . فما زلت أذكر أن أبى كثيراً ما أكد لى ولاءك ووفاءك . فأنت الوحيد ، من بين الذين أعتقهم أبى ، الذى ظل لى وفيًّا مخلصاً . فإن عينك الساهرة على جميع تصرفاتى قد جنبتنى حتى الآن الوقوع آلاف المرات فى كل شرك نصبوه أو عقبة خفية اعترضت طريقى .

فاذهب الآن لترى إن كانت هذه العاصفة التى تهددنا

اليوم قد أثارت حمية أصدقائنا . افحص نظراتهم وتمعن في أقوالهم ، وتحقق مما إذا كنت أستطيع أن أنتظر منهم عوناً جدياً أطمئن إليه . وعليك، وأنت فى هذا القصر، أن تكشف فى حذق ولباقة مدي الشدة التى فرضها نيرون على حراسة الأميرة . وتبين إن كان قد ذهب عن عينيها الجميلتين خطر الرعب الذى استولى عليهما ، وإن كان لقاؤها ما زال ميسوراً .

أما أنا فسأذهب للقاء أم نيرون عند بالاس ، الذى حرره أبى من العتق كما حررك ، سأذهب إليها لأثير حفيظتها ، وأسير وراءها . وإذا دعا الأمر فسأنضوى تحت لوائها ، متفانياً فى الكفاح معها إلى مدى أبعد مما تريده .

* * *

الفصل الثانى

المشهد الأول

نيرون – بيروس – نارسيس – وحرس

نيرون : يجب أن تفهم جيداً يابيروس أنها أمى قبل كل شىء ، وبالرغم من أحكامها الظالمة ، فإننى على استعداد لأن أتغاضى عن جميع نزواتها . ولكننى لا أعتزم أن أتغاضى أو أصبر بعد اليوم على مستشارها الوقح الذى يشجعها على التمادى فى غيها إن بالاس ينفث السموم فى أمى بنصائحه ، ويضلل أخى بريتانيكيس كل يوم . إنهما يختليان به دائماً ليستمعا إلى إرشاداته . ولو تتبع أحد خطاهما الآن فربما وجدهما مجتمعين عند بالاس . لقد طفح الكيل ويجب أن أقصيه بعيداً عنهما . وإنى أقول للمرة الأخيرة : أبعدوه ، ليرحل عن البلاد . هذه هى مشيئتى ، بل هذا هو أمرى ، لا أريد أن تغرب شمس اليوم وهو ما زال مقيماً فى روما أو فى بلاطى . هيا ؛ إنى أصدر هذا الأمر حرصاً على سلامة الإمبراطورية .

اقترب منى يانارسيس . (مخاطباً الحرس) أما أنتم فانصرفوا .

* * *

المشهد الثانى

نيرون – نارسيس

نارسيس : شكراً للآلهة يا مولاى ! إن جونى أصبحت اليوم فى قبضتك ، وبهذا لم يعد فى الرومان اليوم من لا يدين لك بالخضوع والولاء . إن أعداءك بعد أن انهار أملهم التماثل ، ذهبوا إلى بالاس يبكون عجزهم .

عجباً ! ماذا أرى ؟ أراك يا مولاى قلقاً ذاهلا ، إنك تبدو أكثر فزعاً من بريتانيكيس ! ماذا تقرأ عيناى فى هذه الكآبة التى تخيم على وجهك ؟ بم تنبئ هذه النظرات المعتمة الشاردة ؟ إن الدنيا تضحك لك والحظ طوع أمانيك .

نيرون : لقد قُضى الأمر يا نارسيس . إن نيرون عاشق .

نارسيس : أنت ؟

نيرون : كان ذلك منذ قليل ، وسيدوم ما حييت . إننى أحب ، كيف أقول أحب ؟ إننى أعبد جونى .

نارسيس : أنت تحبها ؟

نيرون : أحسست برغبة عجيبة تدفعنى إلى رؤيتها ! فشاهدتها ليلة

أمس قادمة إلى هذا المكان ، مكتئبة ، ترفع إلى السماء عينين قد بللهما الدمع ، تتألقان على ضوء المشاعل ونصال السيوف . وجدتها جميلة فتانة ، ذات حسن غير مجلوب ، فلم تأخذ من زينتها إلا ما يتيسر للغادة الهيفاء عند ما تنتزع قسراً من مخدعها .

ماذا تريدنى أن أقول ؟ لعل هذا المظهر الذى لا تكلف فيه ، والظلال والمشاعل ، والصراخ والصمت ، ومنظر مغتصبيها العتاة البشع ، قد أبرز ذلك كله ما فى عينيها من فتنة الحياء والخجل . مهما يكن من أمر ، فلقد سلبنى عقلى هذا الجمال الرائع . ولما أردت أن أتحدث إليها ، ضلت الألفاظ طريقها إلى لسانى ، واعترتنى دهشة بالغة فظللت فى مكانى صعقاً . ثم أذنت لها بالذهاب إلى جناحها وقصدت أنا جناحى .

وفى وحشة الوحدة ، حاولت عبثاً أن أدفع صورتها عن خيالى ، ولكنها كانت تتجسم أمام عينى ، فظننت أننى أتحدث إليها ، فأحببت فيها كل شىء ، حتى الدموع التى استدررتها من عينيها . وأحياناً كنت ألتمس منها الصفح ولكن بعد فوات الأوان ، فلجأت إلى الاستعطاف والتنهد ، بل إلى الوعيد والتهديد . . . وهكذا شغلنى هذا الحب الجديد ، فلم

يغمض لى جفن ، وباتت عيناى ترقبان طلوع الشمس .
ولكن لعلّى أكون مغالياً فيما أتصور ، ولعلها تكون قد بدت لى أجمل بكثير مما هى عليه . ما رأيك فى هذا كله يا نارسيس .

نارسيس : كيف هذا يا مولاى ! أيعقل أحد أنها ظلت طوال هذه المدة مختبئة عن ناظرى نيرون ؟

نيرون : أنت تعلم ذلك يا نارسيس . وسواء أكان السبب فى ذلك هو أنها فى سخطها الحانق تنسب إلىّ المصيبة التى انتزعت منها أخاها[1] ، أم أن قلبها ، فى حرصه على أن يصون كبرياءها الشموس ، قد حجب عن عيوننا جمالها الناشئ ، فظلت وفية لا لامها ، محتجبة عن الأضواء ، تتوارى من كل شىء حتى شهرتها . ويزيد نار حبى لهيباً تمسكها بهذه الفضيلة التى لم يعهدها البلاط من قبل .
أخبرنى يا نارسيس ، لا توجد امرأة رومانية إلا رأت فى حبى لها شرفاً رفيعاً ، يزيدها غروراً وزهواً . وما إن تطمئن إحداهن إلى وقع نظراتها حتى تبادر إلى تجربة سحرها

(١) كان أخوها سيلانوس يحب أوكتافى التى تزوجها نيرون بتدبير من أجريبين ، مما حمل سيلانوس على الانتحار .

على قلب القيصر، إلا جونى الوديعة، فإنها تعيش منعزلة فى قصرها، وتعتبر هذا الذى يشرف هؤلاء الرومانيات عاراً قبيحاً، فتنأى بنفسها عنه، ثم هى لا تتنازل فتسأل عما إذا كان القيصر لطيفاً أو خبيراً بحب النساء.

خبرنى، هل بريتانيكيس يحبها ؟

نارسيس : أتسأل يا مولاى عن حبه لها ؟

نيرون : إنه ما زال شاباً حدثاً، فأنى له أن يفهم نفسه! وهيهات أن يدرك قوة السم الكامن فى اللحظ الساحر الفتان!

نارسيس : مولاى! إن الحب لا ينتظر اكتمال الرشد دائماً. إنه يحبها ويجب ألا يساورك أدنى شك فى ذلك. فإن هذا السحر الفتان قد علم عينيه الحب، ودربهما على سكب الدموع، فهو يعرف كيف يستجيب لأقل إشارة منها، بل لعله أجاد الآن فن الاستمالة والإغراء.

نيرون : ماذا تقول؟ أيعقل أن يكون له أدنى سلطان على قلبها ؟

نارسيس : لست أدرى. ولكن الذى أستطيع أن أجزم لك به يا مولاى هو أننى رأيته أكثر من مرة يغادر هذا المكان، وقد ملك قلبه غضب شديد كان يخفيه عن ناظريك، وغلب عليه البكاء من الجحود الذى يلمسه فى رجال البلاط حين يتحاشون لقاءه، وقد مل التطلع إلى عظمتك وسئم حياة العبودية :

فتثيره الرغبة في التحرر ويقعده الخوف من العقاب . . .
ثم إنه بعد ذلك كله يذهب إلى لقاء جونى . . . ويعود هانئاً طيب الخاطر . . .

نيرون : لقد حق عليه الشقاء طالما عرف كيف يغزو قلبها يا نارسيس. عليه الآن أن يتمنى سخطها. إن نيرون إذا ما استبدت به الغيرة ، فلا بد أن ينزل العقاب .

نارسيس : أنت؟ وماذا يقلقك يا مولاى؟ كل ما فى الأمر أن جونى رثت لحاله؛ فشاركته آلامه : إنها لم تر دموعاً تسكب سوى دموعه . أما اليوم فقد تفتحت عيناها يا مولاى لتشهد عن كثب هذا المجد الذى تتألق فيه ، ولترى فى حضرتك الملوك دون تاج أو صولجان ، لا يميزهم من عامة الناس شىء ، وبينهم حبيبها نفسه ، إنهم جميعاً من حولك تتعلق عيونهم بك ، ليحظوا بشرف نظرة عابرة غير مقصودة ، وإنها ستؤخذ بسحرك حينما تراك قادماً إليها من علياء هذا المجد ، هائماً ولهاً ، معترفاً بانتصارها على قلبك ، وسرعان ما تصبح — دون أدنى شك — سيد قلبها الأسير . وعندئذ فأمر بأن تحب ينقد إليك الحب .

نيرون : أى قدر من الأسى يجب أن أعد نفسى لتحمله ! وما أكثر ما ينتظرنى من عذاب وضنى !

نارسيس : ماذا تقول ؟ وأى عائق يقف أمامك يا مولاى ؟

نيرون : كل شىء : زوجتى أوكتافى ، أجربين ، بيروس ، سنيكا ، روما بأسرها وثلاث سنوات من الحكم الصالح . ليس معنى هذا أننى ما زلت أكن لأوكتافى بقية من العاطفة تُبقى على رابطة الزواج ، أو أننى أرثى لشبابها . فمنذ أمد بعيد قد ملّت عيناى حرصها على إسعادى ورعايتها الغرامية لى ، إلى حد يندر معه أن تجودا بنظرة على دموعها . وإننى لأعدّ نفسى سعيداً لو واتانى الطلاق على عجل ليخلصنى من هذا النير الذى فرض علىّ احتماله كرهاً ! بل يبدو أن السماء نفسها تلعنها سرًّا ، فهى تزعج السماء فى لجاجة بتوسلاتها منذ أربع سنوات متتالية ، غير أنه يبدو أن الآلهة لا تقيم وزناً لفضائلها ، ولا تريد يانارسيس أن تكرم مضجعها بأى مولود . هذا إلى أن الإمبراطورية تلح عبثاً فى طلب وريث للعرش .

نارسيس : لم إذن تتوانى يا مولاى فى تطليقها ؟ فالإمبراطورية وقلبك وكل شىء يحكم بإدانة أوكتافى . إن جدك الأكبر أغسطس كان يهيم حبًّا بليڤى ، فلجأ كلاهما إلى الطلاق[1] ليربط

---

(١) طلق أغسطس زوجته سكريبونيا وطلقت ليڤى من زوجها كلوديوس نيرو بعد أن أنجبت منه ابنها الأول تيبير . وكانت على وشك إنجاب الابن الثانى دروزوس أبو جرمانيكوس وجد أجربين .

بينهما زواج جديد . وإنك مدين بعرش الإمبراطورية لهذا الطلاق السعيد . كما أن تيبير الذى ضمه هذا الزواج إلى أسرة جدك ، لم يخش أن يطلق ابنة أغسطس فى مواجهته[١] . فلمَ تظل دون هؤلاء جميعاً تقاوم رغباتك حتى الآن ولا تجرؤ على طلاق يضمن لك تحقيق ملذاتك[٢] ؟

نيرون : أوَلا تعلم أن مراجل أجريبين لا يهدأ غليانها ؟ إن حبى القلق يجعلنى أتخيلها الآن وهى تأتينى بأوكتافى ثم تقذفنى بنظراتها المتأججة لتستشهد بقدسية الزواج الذى ربطتنا هى به . ثم لا تلبث أن تطعن قلبى طعنات أقسى وأعنف فتسرد لى قائمة طويلة بأمثلة من جحودى . بأى وجه أتحمل هذا اللقاء المفزع ؟

نارسيس : ألست يا مولاى سيد نفسك بل سيدها ؟ إلى متى نراك ترتجف تحت وصايتها ؟ ألا عش لنفسك واحكم لها . ويكفيك ما مضى من سنوات طويلة كنت تحكم فيها من أجل أمك . هل تخشى ؟ . . . . ولكنك يا مولاى لا تخشاها . فمنذ لحظات أمرت بنفى بالاس المتعجرف ، بالاس هذا الذى تعلم جيداً أنها تناصر جرأته وتساند جسارته .

---

(١) كان تيبير ، الذى تبناه أغسطس على أثر زواجه من ليفى ، قد تزوج من جوليا ابنة أغسطس من زوجته الأولى سكريبونيا ، ثم طلقها .

(٢) سوف يجرؤ أخيراً على الطلاق ويتزوج من بوبيه .

نيرون : ما دمت بعيداً عن عينيها فإننى آمر وأتهدد وأتوعد ، وأصغى لنصائحك ولا أتردد فى قبولها واستحسانها ، بل أثور على أمى وأحاول أن أتحداها . وهنا أكشف لك عن حقيقة نفسى لتراها عارية فإذا رمتنى الأرزاء فوقع نظرها علىّ ، أصبحت لا أجرؤ على مقاومة سلطان عينيها اللتين طالما قرأت فيهما واجبى ، أو ذكرنى الوفاء بأياديها على ، فأرد إليها فى صمت كل ما نالنى منها من خير وأفضال . وقصارى القول ، أن جهودى كلها تضيع هباء ، كأن إلٓهى الذى يحمينى يرتعد فى ذهول أمام إلٓهها الذى يحميها . ولكى أتحرر من هذا الخضوع ، فإننى أتجنب لقاءها فى أى مكان ، بل أعمل على إهانة شعورها وإثارة حنقها من حين إلى آخر ، على أمل أن تتحاشانى هى أيضاً كما أتحاشاها .

لقد احتجزتك طويلا . فانصرف أنت يا نارسيس لئلا يشك فيك برتيانيكيس ويتهمك بالخداع والنفاق .

نارسيس : كلا ! كلا ! إن برتياتيكيس يثق فى إخلاصى له ثقة مطلقة . فهو يعتقد يا مولاى أننى أحضر للقائك بناء على أوامره ، وأننى أجمع هنا المعلومات التى تعنيه . بل إنه يود أن أنقل إليه بلسانى كل أسرارك ونياتك ، لا سيما أنه ينتظر بقلق بالغ أن تسعفه خدماتى المخلصة بتدبير لقاء له مع حبيبته .

نيرون : إننى أوافق على ذلك . فانقل إليه هذه البشرى السعيدة بأنه سيلقاها .

نارسيس : بل أقصه بعيداً عنها يا مولاى .

نيرون : لدى أسباب تجهلها يا نارسيس. ولكن تستطيع أن تعلم أننى أبيعه غالياً لذة هذا اللقاء ، وحتى يحين ذلك ، اذهب وبالغ له ما شئت من وصف خطتك الموفقة ونجاح تدبيرك المحكم.

قل له إنك خدعتنى لتحقق له رغباته وأنه سيلتقى بها دون إذن منى .

إن الباب ينفتح . ها هى ذى قادمة . اذهب للقاء سيدك وأت به إلى هنا .

* * *

المشهد الثالث

نيرون — جونى

نيرون : أراك تضطربين يا سيدتى وأرى وجهك يمتقع . فهل تقرئين فى عينى ما ينذر بسوء الطالع ؟

جونى : مولاى ! لا أستطيع أن أخفيك خطئى. فلقد كنت ذاهبة لرؤية أوكتافى لا لرؤية الإمبراطور .

نيرون : أعلم ذلك جيداً يا سيدتى . كما أننى لا أستطيع أن أخفى

حسدى وغيرتى كلما علمت أنك تشملين أوكتافى المحظوظة برقتك وعطفك .

جونى : أنت يا مولاى !

نيرون : أوتظنين يا سيدتى أن ليس فى هذا القصر من له عينان تتوقان لرؤيتك سوى أوكتافى ؟

جونى : وأى شخص آخر تريدنى أن أراه وأستعطفه يا مولاى ؟ ممن أستفسر عن جريمتى التى أجهلها ؟ أنت يا من تعاقبنى على هذه الجريمة ، لا يمكن أن تجهلها رحماك يا مولاى ! أتوسل إليك أن تخبرنى بالذنب الذى اقترفته .

نيرون : ماذا يا سيدتى ! أتعتبرين إهانة هينة أن أخفيت شخصك عن بصرى طيلة هذه المدة ؟ فهل وهبت لك السماء هذه الكنوز والنعم التى شاءت أن تزينك بها ، لتدفنيها بعيداً عن الأنظار ؟ وهل يظل بريتانيكيس المحظوظ ينعم فى أمان برؤية حبه وسحر جمالك يشبان بعيداً عن عيوننا ؟ لم إذن حرمتنى حتى اليوم هذا البهاء ، وأقصيتنى فى غير رحمة وتركتنى وحيداً بين جدران هذا البلاط ؟
بل قيل لى أكثر من ذلك ، إنك تسمحين له — دون أن يؤذى هذا شعورك — بأن يجرؤ يا سيدتى على أن يكشف لك

عن خلجات نفسه ، غير أنى لا أصدق أبداً أن جونى الملتزمة قد قبلت أن تمنيه بما يروم دون أن تستشيرنى ، أو رضيت أن تبادله الحب دون أن أحاط علماً بذلك اللهم إلا من أقوال الناس .

جونى : لا أنكر عليك يا مولاى أن خفقات قلبه كانت تستعطفنى بالاستماع إلى رغباته وآماله. ولم يغض الطرف أبداً عن فتاة هى آخر ما تبقى من معالم أسرة مجيدة عريقة ، ولعله يذكر — حين كانت الأيام تبتسم لنا — أن أباه قد اختارنى لأكون معقد أمانيه . إنه يحبنى ، فضلا عما ينطوى عليه هذا الحب من طاعة لوالده الإمبراطور ، وأستطيع أن أقول إن فيه طاعة لك ولوالدتك ، فرغباتك دائماً توافق رغباتها . . .

نيرون : لأمى خططها يا سيدتى ولى أيضاً خططى . دعينا الآن من الحديث عن كلود وعن أجربين ، فحين أعزم على أمر لا أخضع قط لما يختارون . فأنا وحدى يا سيدتى المسئول عنك ، لذلك أريد أن أختار لك زوجاً بنفسى .

جونى : آه يا مولاى ! هلا ذكرت أن أى نسب آخر غير هذا يشين القياصرة أجدادى !

نيرون : كلا يا سيدتى ، إن الزوج الذى أحدثك عنه ، يستطيع دون جلب للعار أن يجمع بين أجدادك وأجداده ، ويمكنك

من أن تستجيبي لجذوة حبه دون أن تعلو وجنتيك حمرة الخجل .

جونى : إذن فمن عساه يكون هذا الزوج يا مولاى ؟

نيرون : أنا يا سيدتى .

جونى : أنت ؟

نيرون : كنت أود يا سيدتى أن أذكر لك شخصاً آخر يكون أعلى من نيرون شأناً . أجل ! إننى ، كى أختار من يتسنى لك قبوله ، جلت بناظرى بين أرجاء البلاط وفى أنحاء روما والإمبراطورية بأسرها . وكلما بحثت يا سيدتى وأطلت البحث عن اليدين اللتين أودعهما هذا الكنز الثمين ، ازددت إيماناً بأن القيصر هو وحده الجدير بنيل رضاك ، وهو وحده الذى يجب أن يسعد بصون هذه الوديعة ، فلا يمكنه أن يسلمك فى عزة وكرامة إلا إلى اليدين اللتين أسلمتهما روما مقاليد الإمبراطورية وسيادة البشر .

وأنت نفسك ، ارجعى إلى سنواتك الأولى وتأمليها جيداً ، تجدى أن كلوديوس قد اختصك بابنه حين كان يعتقد أن سيأتى اليوم الذى ينادى فيه بابنه وريثاً للإمبراطورية بأسرها . لقد قالت الآلهة كلمتها . فلا تحاولى معارضتها ، بل عليك أن تتقلى إلى الجانب الذى انتقلت إليه الإمبراطورية.

إنه من العبث أن تحبونى الآلهة بهذه الهبة ، إذا عاش قلبك بمعزل عن الإمبراطورية ، وما دامت مشاغلى العديدة لا يخفف من متاعبها سحر جمالك ، وما دمت لا أستطيع ، بعد ليل أقضيه فى قلق السهر وكفاح الخطر ، ونهار جدير بالرثاء برغم حسد الحاسدين ، أن أذهب بين وقت وآخر لأنشد الراحة عند قدميك .

يجب ألاّ تعكر أوكتافى صفو تفكيرك على الإطلاق ، فإن روما تبايعك معى وتنادى بطلاق أوكتافى ، وتحلنى من رباط زواج لا تريد السماء أن تقره أو تباركه .

إذن فكرى فى هذا كله يا سيدتى ، وتأملى فيما بينك وبين نفسك قدر هذا الاختيار الجدير برعاية أمير يحبك ، والجدير بعينيك الجميلتين اللتين طال عليهما الانقياد للغير ، والجدير بالوسط الذى تنتمين إليه .

: مولاى ! لا تثريب علىّ إن استبد بى الذهول ، إذ أرانى بين عشية وضحاها أساق مجرمة إلى هذا المكان ، وما إن أبدو فزعة أمام ناظريك ، وأنا لا أكاد أطمئن إلى براءتى ، حتى أراك تفاجئنى بأن أحتل مكان أوكتافى . ومع ذلك فأنا أجرؤ على القول بأننى لا أستحق هذا الفيض من الشرف ولا ذلك الإذلال الشنيع .

إن فتاة رأت ، وهى لا تزال فى المهد صبية ، أسرتها تضمحل وتفنى ، فعاشت فى عزلة ترعى آلامها وتحنو عليها ، واعتنقت من الفضائل ما يتفق وبؤسها ، هل يمكن يا مولاى أن تنتظر منها أن تنتقل فجأة من هذا الليل الحالك إلى مكانة تكون فيها قبلة أنظار العالم أجمع ؟ تلك المكانة التى لم أقو وأنا بعيدة عنها على تحمل بهائها وسناها ! هذا إلى أن هناك سيدة أخرى تتألق فيها لهذه المكانة من أبهة وجلال !

نيرون : لقد قلت لك إنى سأطلقها . فخففى من فزعك أو أقلى من تواضعك . وإياك الآن أن ترمى اختيارى بعدم التبصر ، فأنا واثق من جدارتك ، وما عليك إلا أن توافقى ، ثم تذكرى الدم الذى يسرى فى عروقك . إن القيصر يعتزم أن يضفى عليك شرفاً وفخاراً . فلا تؤثرى على هذا المجد الراسخ ، مجد الرفض الذى يجلب عليك الندم .

جونى : إن السماء يا مولاى تعلم ما فى قرارة ضميرى! وحاشاى أن أخدع نفسى فأزهو بمجد لا يقره عقل . إننى أقدر مدى ما لهباتك وعروضك من عظمة وجلال . وإن هذه المكانة لتغمرنى بالخجل بقدر ما تضفيه على من رواء وسناء ، كما أنها تشهر بجريمتى حين أجرد أوكتافى من حقها الشرعى .

نيرون : إنك ترعين مصالحها رعاية فائقة يا سيدتى ! ولا يمكن
لعاطفة الصداقة وحدها أن تذهب إلى هذا المدى البعيد ،
فعلينا ألا نخدع أنفسنا ، ولنطرح جانباً هذا الحرص كله .
والآن أرى أن أمر أوكتافى لا يشغلك قدر ما يشغلك أمر
أخيها . فلأجل بريتانيكيس . . .

جونى : لقد عرف يا مولاى كيف يكسب قلبى ، ولم أزعم قط
إنكار ذلك ، وربما كانت صراحتى هذه يعوزها شىء من
الكتمان والحذر . ولكن لسانى يفصح دائماً عما فى قلبى .
لقد نشأت بعيداً عن البلاط يا مولاى ، فلم أر ما يوجب
تدريبى على فنون الخداع والنفاق . إننى أحب بريتانيكيس
ولقد كان القدر يدخرنى له حين كانت الإمبراطورية
مقدرة له بعد زواجنا . ولكن النكبات التى تسببت فى إقصائه
عن العرش ، وأمجاده المسلوبة ، وقصره المهجور ، وتخلى
حاشيته التى أقصاها عنه أفول نجمه ، هذه كلها روابط
تربط إليه جونى .
إن كل من تراهم حولك يدبرون معاً فى الخفاء كل ما يحقق
لك أهواءك ، لتكون أيامك كلها صفاء ، تنساب فيها
المتع واللذات ، ولك منها فى الإمبراطورية معين لا ينضب.
ولو حدث أن اعترض مجراها ما يكدر صفوك لهب الكون

كله يتعهدها ويرعاها ، ولبادر الناس سراعاً إلى إزالة كل ما علق بذاكرتك من هم وكدر .

أما بريتانيكيس فهو وحيد . وحينما يطبق عليه العذاب ، لا يجد من يعنى بمصيره سواى ، وليست له ملذات ، يا مولاى ، سوى قطرات الدموع التى تنسبه أحياناً آلامه وبلواه .

نيرون : إن هذه الدموع وذلك اللون من الملذات هو ما أحسده عليه ونهفو له نفسى . وما كنت لأرضى من أى شخص آخر أن يكفر عنها إلا بقتله . لكننى أختص هذا الأمير بمعاملة أرق وألطف مما يستحق .

اعلمى يا سيدتى أنه بعد لحظات سوف يمثل أمامك .

جونى آه يا مولاى! إن مروءتك وفضائلك دائماً تبعث الاطمئنان إلى نفسى .

نيرون : كان فى مقدورى أن أحرم عليه دخول هذا المكان ، ولكننى يا سيدتى أود أن أتحاشى الخطر الذى قد يدفعه إليه شدة إحساسه بالألم . لا أريد أبداً أن أفقده ، ومن الأفضل أن يسمع بنفسه الحكم عليه من الفم الذى يحبه . فإن كانت حياته غالية عليك ، فأبعديه عنك ، دون أن يخامر نفسه أدنى شعور بأننى أغار منه . وانسبى إلى نفسك كل

ما تلحقينه به من إذلال النفى وهوان الإقصاء .وعليك أن تقنعيه ، إما بالكلام وإما بالصمت ، وإما بالفتور على الأقل ، بأنه يجب عليه أن يرحل بآماله وأمانيه إلى مقصد آخر .

جونى : أنا ! أنا التى أصدر ضده حكماً صارماً كهذا ! إن فمى قد أقسم له ألف قسم على غير ذلك . ولو سلمنا أن فى مقدورى أن أخون نفسى فلا أؤدى لها حقها علىّ ، فإن عينى يا مولاى ستمنعانه من تصديقى أو إطاعة أمرى .

نيرون : سأختبئ بالقرب من هذا المكان الذى يمكننى من رؤيتك يا سيدتى . فعليك أن تطوى حبك فى أعماق نفسك . فلن تغيب عنى أية وسيلة خفية تلجئين إليها للتعبير عن عواطفك . فسأسمع النظرات التى تظنينها خرساء صامتة . وإن مصرعه سيكون الجزاء المحتوم الذى تدفعينه ثمن لفتة أو زفرة تبدر منك لإرضائه ونيل إعجابه .

جونى : واحسرتاه ! يا مولاى ، لو أذنت لى بالجرأة على التعبير عن أمنية أخرى ، فاسمح لى بألاّ أراه أبداً !

* * *

المشهد الرابع

نيرون – جونى – نارسيس

نارسيس : بريتانيكيس يا مولاى يطلب لقاء الأميرة . إنه يقترب .

نيرون : فليأت .

جونى : آه يا مولاى !

نيرون : إننى أتركك الآن ، واذكرى أن مصيره يتوقف عليك أكثر مما يتوقف علىّ . وحين تنظرين إليه يا سيدتى ، تذكرى أن نيرون ينظر إليك أيضاً .

* * *

المشهد الخامس

جونى – نارسيس

جونى : آه أيها العزيز نارسيس ، ألا فأسرع لتدرك سيدك وتقول له . . .

واضيعتاه ! إننى أراه قادماً !

* * *

المشهد السادس

جونى – بريتانيكيس – نارسيس

بريتانيكيس : سيدتى، يا لها من سعادة تلك التى تجمعنى إليك! ماذا؟ أصحيح إذن أننى أنعم بهذا اللقاء الهنىء؟ ولكن ما أقسى العذاب الذى يفتك بى برغم سرورى! واحسرتاه! هل يمكننى أن أمنى نفسى برؤيتك مرة أخرى؟ أو يجب الآن أن ألجأ إلى آلاف الحيل لأختلس لحظات من السعادة كانت تجود بها علىّ عيناك كل يوم؟

يا لها من ليلة تعسة! ويا لها من يقظة مفزعة! ألم يتجرد أولئك القساة من عنتهم وقحتهم حين رأوا دموعك ولاح لهم محياك؟ أين كان حبيبك؟ وأى شيطان حقود ذلك الذى حرمنى شرف الموت على مرأى منك؟ واأسفاه! هل كنت ساعة الفزع الذى أصابك تناجيننى سرًّا بالشكوى والأنين؟ يا أميرتى! هل تعطفت فتمنيت وجودى بجانبك؟ هل فكرت فى الآلام التى أقاسيها من أجلك؟

لم لا تتكلمين؟ أى لقاء هذا! وأى جمود! أهكذا تواسى عيناك ما نزل بى من فشل وبؤس؟ تكلمى. إننا هنا وحدنا.

لقد اختلسنا الخلوة من عدونا فهاهوذا ، وأنا أناجيك ، منهمك فى مشاغله بعيداً عنا[1] ، فلننعم ملء قلبينا . لكل لحظة من لحظات هذا الغياب الذى واتانا به حسن الحظ .

جونى : إنك فى مكان عامر بسلطانه ، وإن هذه الجدران يا سيدى قد تكون لها عيون تبصر ، فالإمبراطور لا يغيب أبداً عن هذا المكان .

بريتانيكيس : متى بدأت يا سيدتى تعرفين الخوف إلى هذا الحد ؟ عجبى لك ! أو يرضى حبك عن حياة الأسر بمثل هذه السرعة ؟ ماذا آل إليه أمر ذلك القلب الذى طالما أقسم لى أنه سيجعل نيرون نفسه يحسد حبنا ويغار منه ؟ ألا فاطرحى عنك يا سيدتى ، هذا الخوف الذى لا مبرر له ولا طائل تحته . إن روح الولاء لى لم تخب بعد فى قلوب الكثيرين من أعوانى . ويبدو فى عيونهم أنهم جميعاً يقرون سورة غضبى . كما أعلنت أمّ نيرون انضمامها إلينا ، وكذا روما وهى ساخطة على مسلك الإمبراطور . . .

جونى : ولكن يا سيدى أنت تتكلم بغير ما تؤمن به . أنت نفسك

---

(١) هكذا أوهمه نارسيس .

اعترفت لى ألف مرة بأن روما تجمع على تبجيله ، وكنت أحياناً تظهر الاحترام والتقدير لشجاعته ، فلا شك أن الألم هو الذى يملى عليك ما تقوله الآن .

بريتانيكيس : حديثك هذا يذهلنى يا سيدتى ، ويجب أن نعترف بذلك. فلم أسع إليك لأسمع منك مديحاً له وتبجيلا ، فإنى قد اختلست بشق الأنفس لحظة مواتية كى أبثك آلامى التى تستبد بى ، أفيليق أن تنقضى هذه اللحظة الغالية فى تمجيد العدو الذى يسيمنى الظلم والهوان ؟ ما الذى جعلك بين عشية وضحاها تختلفين كل الاختلاف عما كنت عليه من قبل ؟ عجباً ! حتى نظراتك قد تعلمت الصمت ؟ ماذا أرى ؟ أتخشين لقاء عينى ؟ ليت شعرى أنال نيرون إعجابك ؟ هل أصبحت بغيضاً إلى عينيك ؟ آه لو صح ذلك ! . . . أستحلفك بالآلهة يا سيدتى أن تبددى الحيرة التى تلقين بروحى فى بيدائها. تكلمى. ألم أعد حيًّا فى ذاكرتك؟

جونى : انصرف يا سيدى ، فالإمبراطور سيأتى بعد لحظة.

بريتانيكيس : بعد هذه الطعنة النجلاء يا نارسيس ، فيمن إذن أستطيع أن أضع ثقتى ؟

* * *

المشهد السابع

نيرون — جونى — نارسيس

نيرون : سيدتى . . .

جونى : كلا يا مولاى ، لا أقوى على سماع شىء . هأنذا قد أطعتك ، أفلا أقل من أن تدعنى أذرف دموعاً لا تراها عيناه .

* * *

المشهد الثامن

نيرون — نارسيس

نيرون : إنك ترى الآن يا نارسيس اشتعال حبهما . فلقد تجلى فى كل شىء حتى فى صمتها . إنها تحب غريتى ، وهذا أمر لا يمكن أن أتجاهله ، ولكن سيطيب لى أن أخيب آماله . إننى أرسم فى مخيلتى صورة خلابة لألمه وعذابه . لقد رأيته يشك فى قلب حبيبته ، فسأذهب للحاق بها ، أما غريتى فإنه ينتظرك لكى ينفجر غيظاً . هيا فأسرع إليه لتعذبه وتضنيه بشكوك أخرى جديدة ، اجعله يدفع ثمناً

غالياً لما يحظى به من سعادة يجهلها الآن ، بينما هى تتعبد بحبه وتذرف الدمع عليه أمامى .

نارسيس : (لنفسه) إن الحظ يناديك مرة أخرى،[١] يا نارسيس ، فهل تريد أن تقاوم نداءه ؟ فلنطع حتى النهاية أوامره التى تبشر بالخير ، إذ لا بد أن نهلك التعساء لكى نحقق السعادة لأنفسنا .

* * *

(١) كان نارسيس يتمتع بسلطان واسع فى عهد كلوديوس . فهو الذى دبر مقتل ميسالين زوجة الإمبراطور كلوديوس ثم أغراه على الزواج بأجربين .

الفصل الثالث

المشهد الأول

نيرون — بيروس

بيروس : إن بالاس سينفذ أمرك يا مولاى .

نيرون : بأى عين رأت أمى كبرياءها تتردى فى حضيض الفشل والعجز ؟

بيروس : لا تشك يا مولاى فى أن هذه الطعنة قد أصابت منها مقتلا ، وسرعان ما يفيض ألمها فينصبّ عليك لوماً وتقريعاً . فمنذ وقت طويل توشك ثورتها الكامنة أن تنفجر ، فهل تظن أن هذا الفوران الجارف لن يعدو مجرد صيحات تذهب هباء ؟

نيرون : ماذا ! أتظنها قادرة على تدبير خطة ما ؟

بيروس : إن أجربين يامولاى مرهوبة الجانب دائماً . فروما وجنودك جميعاً يبجلون أجدادها ، وما زالت أمجاد أبيها جرمانيكس ماثلة أمام عيونهم . إنها تعرف مدى سلطانها ،وأنت تعلم مدى ما لها من همة وعزيمة . وإنه لمما يزيدنى خوفاً منها ورهبة أنك تؤجج غضبها ، بل تعطيها السلاح الذى

تحاربك به .

نيرون : أنا يا بيروس ؟

بيروس : إن هذا الحب يا مولاى الذى ملك عليك . . .

نيرون : إننى أفهم ما تعنى يا بيروس ولكنه داء بلا دواء . ولن تستطيع أن تؤنبنى بأكثر مما أنبنى به ضميرى . إننى أحس بحاجة ملحة تدفعنى إلى أن أحب رغم كل شىء .

بيروس : إنما تخال ذلك يا مولاى ، فإنك بعد أن قنعتَ بما أبديتَ من دفاع هين ، ما زلت تخشى داء ما زال فى المهد صبياً . ولو صح عزمك على القيام بواجبك ، لما تحالف مع الحب ، عدوه اللدود .

آه لو تأملت المجد الذى حققته طيلة سنوات حكمك الأولى ، ولو تفضلت يا مولاى فاسترجعت فضائل أوكتافى وسجاياها الجديرة بتقدير أكرم من هذا الثمن البخس ، ولو ذكرت أيضاً حبها الطاهر الذى صمد لتحقيرك وانتصر على ازدرائك . . .

ويا حبذا لو حكمت على عينيك بالاحتجاب عن جونى بضعة أيام لا تراها فيها ، صدقنى مهما يخيل إليك أن هناك حباً قد سحر لبك ، فهذا غير صحيح لأن الإنسان لا يحب يا مولاى إلا إذا صمم على أن يحب .

نيرون : إننى أصدقك يا بيروس وأثق فى مشورتك عند ما تلم بنا الخطوب التى تحتم علينا أن نعمل على توطيد مجد جيوشنا ، أو حين أجلس وأنا أهدأ بالاً بين أعضاء مجلس الشيوخ نقرر مصير الدولة ، فى هذا كله أطمئن إلى تجربتك وأعتمد على خبرتك . ولكن صدقنى أنت ، أن الحب فن آخر يا بيروس ، ولهذا فإننى أتحرج من أن أقلل من حدة صلابتك وتزمتك إلى هذا الحد .
إلى الملتقى ، فإن بعدى عن جونى يؤلمنى أشد الألم .

* * *

المشهد الثانى

بيروس لنفسه

بيروس : وأخيراً يا بيروس ، لقد كشف نيرون عن شيطانه ، فتلك الوحشية التى ظننت أنك قد ألنت جانبها وكبحت جماحها ، توشك أن تنطلق من قيودك الواهية . ترى أية نزوة سيقدم عليها الآن بتهور ليرخى العنان فى نطاقها لوحشيته ؟ يا للآلهة ! أى قرار اتخذ فى هذه البلوى ؟ فزميلى سنيكا الذى كان يهون على الأمر بفضل رعايته واهتمامه ، يجهل هذا الخطر لأنه منهمك فى مهمته بعيداً عن روما [1] .

(١) هذا يفسر عدم قيام سنيكا بأى دور فى هذه المسرحية .

ولكن كيف ؟ لو استطعت بفضل إثارة عاطفة الحنان فى قلب أجريين . . . ها هى ذى قادمة . إن حسن حظى بعث إلى بها .

* * *

المشهد الثالث

أجريبين – بيروس – ألبين

أجريبين : والآن ! أما زلت تعتقد يا بيروس أننى كنت مخطئة فى ظنونى ؟ والأدهى أنك تباهى وتفاخر بما تعطيه من دروس رائعة ونصائح براقة !

لقد صدر الأمر بنفى بالاس ، ولعل جريمته أنه رفع سيلك إلى عرش الإمبراطورية ! وأنت خير من يعلم ذلك ، فلولا مشورته لما قبل كلوديوس – وقد كان خاضعاً له – أن يتبنى نيرون ابنى .

ماذا أقول أيضاً ؟ إنكم تقدمون غريمة لزوجته وتيسرون لنيرون التحلل من مواثيق الزواج وعهوده .

يا لها من أعمال جديرة بمستشار لا يبالى بملق المنافقين ، فقد اصطفيناه ليكبح نزوات نيرون ، فإذا هو نفسه

يشجعها ويطريها ، بل يغرس فى قلبه احتقار أمه ويزين له هجر زوجته !

بيروس : مولاتى ، أنت الآن تتعجلين اتهامى . فالإمبراطور لم يأت فعلة لا تغتفر ، ولا تنسى إلا إلى بالاس هذا النفى الذى لم يكن منه مفر ، فمنذ أمد بعيد كانت غطرسته تستوجب هذا العقاب .

ولم يفعل الإمبراطور سوى أن حقق آسفاً رغبة كانت تجيش سراً فى نفوس رجال البلاط جميعاً .

أما غير ذلك من أمور أخرى[1] ، فإنها ليست بأرزاء يستعصى حلها : فدموع أوكتافى يمكن أن نجفف معينها وعليك أن تهدئى من ثورة انفعالك ، كى تستطيعى أن تردى إليها زوجها أسرع من ذلك بطريقة أرق وألطف . وأما صيحات الوعيد والتهديد فستجعله أشد ضراوة وعناداً .

أجربين : آه ! عبثاً تحاولون أن أغلق فمى ، فإننى أرى أن صمتى يثير احتقاركم . إنه لكثير على أن أبجل صنيعة يدى . إن نفى بالاس لا يذهب بكل أعوان أجربين ، فلقد أبقت لى

---

(١) هذه إشارة متحرجة إلى اختطاف جونى وهيام نيرون بها .

السماء منهم ما يكفي لأن أثأر لما حلّ بي من ضياع . كما أن ابن كلوديوس بدأ يعاني من وقع الجرائم التي لم أجن منها سوى الشعور بالندم . فكن على يقين من أنني سأذهب به إلى رجال الجيش ليقفوا على حقيقة أمره ، وأرثي على مرأى منهم لطفولته المظلومة المهيضة ، ولأجعلهم يكفرون عن خطئهم مثلما فعلت .

وهكذا سيرون ابن إمبراطور يطالبهم بعهد الولاء الذى أقسموا به لأسرته ، وسيستمعون لابنة جرمانيكس ، هذا فى جانب ، أما فى الجانب الآخر فسيرون ابن أنوباريوس[1] يناصره سنيكا والمستشار بيروس ، اللذان استدعيتهما من المنفى ، واللذان يقتسمان على مرأى منى السلطة العليا فى البلاد . أريد أن يعلم الجميع بجرائمنا المشتركة . فسأفضح الطرق الملتوية التى أوصلته بها إلى العرش ، لكى أجعل سلطانه وسلطانكما أمراً بغيضاً ممقوتاً ، سأبوح بسر الشائعات المشينة ، سأعترف بكل شيء : بالنفى ، بالقتل ، حتى بالسم . . .

بيروس : مولاتى ! لن يصدقوا دعواك . وسيتضح لهم بطلان الخطة الظالمة التى رسمها شاهد حانق ، يمعن فى اتهام نفسه بنفسه .

---

(١) أى نيرون .

أما أنا ، وقد كنت أول من أيد خطتك وجعل الجيش يقسم يمين الولاء بين يديه ، فإنني لا أندم قط على هذه الغيرة المخلصة . مولاتي ، إنه ابن يخلف أباه . فكلوديوس حين تبنى نيرون ، سوّى بينه وبين ابنه في جميع الحقوق راضياً مختاراً . وبذلك تسنى لروما أن تختاره . وقد سبق لها ، دون ظلم أو تجن ، أن اختارت تيبير الذي تبناه أغسطس ، أما الفتى أجريبا[1] ، وهو من سلالة أغسطس ، فقد ألفى نفسه مقصياً عن المكانة التي ظل يطمح إليها دون جدوى . ولما كان سلطان نيرون قد قام على هذه الأسس المتينة ، فلا يمكن لهذا السلطان أن يتزعزع اليوم بسببك أنت . ولو أصغى إليّ مرة أخرى يا مولاتي ، فسرعان ما تثنيك طيبته عن غرضك .

لقد بدأت في هذه الخطة ، وسأعمل على إتمامها .

---

(١) هو حفيد أغسطس ، وعند ما تزوج أغسطس من ليڤي تبنى ابنها تيبير واستجاب لإلحاحها ، فنفى حفيده أجريبا إلى جزيرة نائية حيث تم مصرعه بأمر تيبير .

المشهد الرابع

أجربين – ألبين

ألبين : يا لها من ثورة نفسية يدفعك إليها الألم يا مولاتي ! أتظنين أن الإمبراطور سيجهل هذا كله ؟

أجربين : عجباً ! أوَيجسر هو على المثول أمامي ؟

ألبين : مولاتي ! أستحلفك بحق الآلهة أن تخفي غضبك ، لم هذا كله ؟ أيجب أن تضحي بصفاء أيامك خدمة لمصالح الأخت أو الأخ ؟ أتسيطرين على القيصر حتى في غرامه ؟

أجربين : عجبي لك ؟ ألا ت‍ ين إذن إلى أي حد ينتقصون من قدري يا ألبين؟ إن هذه الغريمة إنما جاءوا بها لي أنا . فإذا لم أفسخ هذه الرابطة المشئومة فسرعان ما أخذت هي مكاني وأصبحت أنا لا شيء على الإطلاق . فحتى اليوم كانت أوكتافي تُكرم بلقب صوري لا أثر له بين رجال البلاط الذين لا يعرفون عنها شيئاً . وكانت الهبات والمنح والرتب والألقاب تفيض من بين يديّ وحدي ، فتسوق إلى تضرعات الطامحين من بني البشر [1] ، والآن برزت امرأة أخرى تستولي فجأة

(١) كانت أجربين تتحدث أحياناً وكأنها إحدى الآلهات بالقياس إلى بقية الناس .

على عواطف القيصر ، وسيكون لها سلطان الزوجة وسلطان حبيبة القلب معاً . أما عن ثمرة رعايتى للقيصر وتعهدى إياه ، وأما عن جلال القياصرة وأبهتهم ، فستجنى هى كل هذا ثمناً لنظرة واحدة منها .

ماذا أقول أيضاً ؟ إن الجميع يتحاشون لقائى ، وإنى أشعر منذ الآن أن لم يعد أحد يكترث بى . . . آه يا ألبين ! لا أستطيع أن أطيق مجرد التفكير فى ذلك . حتى لو اضطررت إلى أن أحث السماء على التعجيل بقضائها المحتوم[١]. فإن نيرون ، نيرون الظالم الجحود . . . ولكن ها هو ذا غريمه قادم .

المشهد الخامس

بريتانيكيس – أجريبين – نارسيس – ألبين

بريتانيكيس : إن عدونا المشترك ليس بمنأى عن الهزيمة يا مولاتى ، فإن بلوانا تجد لها صدى فى القلوب الحساسة . وبينما نحن نضيع

---

(١) لقد طلبت أجريبين من بعض المنجمين الكلدانيين أن يخبروها بمصير نيرون ومستقبله ، فأنبئوها بأنه سيقتلها ، فأجابتهم : « فليقتلنى ، طالما أنه سيظل متربعاً على العرش » (انظر : تاسيت : « الحوليات » الفصل الرابع عشر ، ص ٩) .

الوقت فى الأسف والحسرة التى لا تنجلى ، إذ بأصدقائك وأصدقائى ، الذين ظلوا حتى الآن فى تحفظ وعزلة ، تلهبهم نار الغيظ التى يشعلها الظلم والطغيان . وقد جاءوا منذ لحظة يسرون ألمهم وسخطهم لنارسيس . فلا يحسبن نيرون نفسه قد ملك واطمأن ، أو أننا سندعه يهنأ بتلك الخائنة التى يحبها ، محتقراً بذلك أختى . فإن كنت ما زلت تتألمين من الإهانة التى لحقت بها ، ففى وسعنا أن نرد هذا الخائن بعهده إلى الصواب والوفاء بواجبه . إن نصف أعضاء مجلس الشيوخ يهتمون بقضيتنا ويعطفون عليها ؛ ومنهم سيللا وبيزون وبلوتوس[1] . . .

أجربين : ماذا تقول أيها الأمير ؟ سيللا وبيزون وبلوتوس ، زعماء الأشراف ؟

بريتانيكيس : مولاتى ، أرى حقًّا أن هذا الحديث يؤذى شعورك ، وأن

---

(١) سيللا هو زوج ابنة كلوديوس ، واتهمه نيرون بتدبير مؤامرة بمعاونة بيروس وبالاس لاعتلاء عرش الإمبراطورية ، فأمر نيرون بنفيه إلى مرسيليا ثم بقتله . وبيزون كان يتزعم مؤامرة أخرى كشف أمرها واتهم معه سنيكا وليوكان . — أما بلوتوس فقد كان الإمبراطور أغسطس أباً لجده ، لذا خشى نيرون بعد موت بريتانيكيس أن تقدم أجربين على الزواج من بلوتوس لتوصله إلى العرش . فأرسل به إلى المنفى ثم أمر بقتله . (انظر تاسيت : « الحوليات » فصل ١٣ ص ١٩ ، ٢٣ ، ٤٧ ثم فصل ١٤ ص ٢٢ ، ٥٧ ، ٥٩)

غضبك الذى يرتجف فى تردد وحيرة يخشى منذ الآن أن ينال كل ما أراد وتمنى. ألا فاطمئنى ! لقد أحكمت تدبير فشلى وكبلتنى بأغلال الخزى والعار. لا تخشى جرأة أى صديق لى، فلم يبق بجانبى منهم أحد، إذ أن تدابيرك التى تتسم بالحذر والحيطة جعلتهم، منذ أمد بعيد، ينفضون من حولى أو يحيدون عنى.

أجريبين : سيدى، لا تثق ولا تستسلم لشكوكك إلى هذا الحد، إن نجاتنا تتوقف على تفاهمنا وتضامننا. لقد وعدت وهذا يكفى. فبالرغم من بأس أعدائك، فأنا لا أتراجع عن شىء مما وعدت، عبثاً يفرّ نيرون المذنب من غضبى. إنه سيتحتم عليه أن ينصت لأمه إن عاجلا أو آجلا. سأجرب معه الشدة تارة واللين تارة أخرى، وإلا فسأذهب أنا نفسى، مصطحبة معى أختك، لأبذر فى كل مكان مخاوفى المزعجة، وهواجس أختك، وبحبات دموعها أجمع حولها كل القلوب. وداعاً ! سأحاصر نيرون من كل ناحية. أما أنت — إن شئت أن تصدقنى — فتحاشى لقاءه.

* * *

المشهد السادس

بريتانيكيس – نارسيس

بريتانيكيس : إياك أن تكون قد منيتني بأمل زائف ! أيمكن يا نارسيس أن أطمئن بعض الاطمئنان إلى حديثك ؟

نارسيس : أجل يا مولاى ، ولكن يجب فى هذا المكان ألاّ أكشف لك عن هذا السر . فلنخرج إذن . ماذا تنتظر ؟

بريتانيكيس : ماذا أنتظر يا نارسيس ؟ واحسرتاه !

نارسيس : إذن أفصح .

بريتانيكيس : لوكنت أستطيع بفضل لباقتك ، لقاء . . .

نارسيس : من ؟

بريتانيكيس : أشعر بالخجل من ذلك . ولكنني بعد هذا كله سأنتظر مصيرى بقلب بدأ اضطرابه يقل عن ذى قبل .

نارسيس : أما زلت تعتقد أنها وفية بعد كل ما قلته لك ؟

بريتانيكيس : كلا يا نارسيس . إننى أعتقد أنها خائنة مجرمة ، بل خليقة بغضبى وسخطى ، غير أنى أشعر على الرغم منى بأننى لا أعتقد فى خيانتها بقدر ما يجب على . إن قلبي العنيد يصرّ فى شروده وحيرته على أن يتلمس لها عذراً فيصفح

عنها ويهيم بها ، ولكنني أخيراً أود أن أتغلب على شكوكي .
أود أن أمقتها ولكن في غير ما تجنٍ . . . فمن يصدق أن فتاً
كبيراً في مظهره ، يشعر بالعداء منذ الطفولة لبلاط غدار .
يتنكر لعهد الوفاء وأمجاده ويدبر منذ أول يوم في ذلك
البلاط ، خيانة لا توصف ؟

نارسيس : ومن يدري؟ لعل هذه الخائنة كانت تدبر طيلة احتجابها خطة لإيقاع الإمبراطور في حبائلها . فهي واثقة تمام الثقة بأن سحر عينيها لا يمكن أن يظل خافياً . ولعلها كانت تفر منه وتحتجب عنه لتدفعه إلى أن يسعى في البحث عنها ، ولتثير رغبته في التغلب على الكبرياء النافرة التي لم يقهرها أحد حتى الآن ، فيظن أنه قد حظي بمجد عسير المنال .

بريتانيكيس : إذن لن يتسنى لي أن أراها ؟

نارسيس : مولاي ، إنها الآن تتلقى من حبيبها الجديد حديث المنى والأمل .

بريتانيكيس : هيا بنا يا نارسيس . ولكن ماذا أرى ؟ إنها هي .

نارسيس : (مخاطباً نفسه) : يا للآلهة ! فلنسرع بنقل هذا النبأ إلى الإمبراطور .

* * *

المشهد السابع

بريتانيكيس – جونى

جونى : انصرف يا سيدى هرباً من الغضب الذى يؤجج من سورته وفائى لك . إن نيرون ساخط أشد السخط ، لقد أفلتُّ منه تاركة أمه توقفه عن ملاحقتى . إلى اللقاء ! أبق على نفسك، دون أن تجرح حبى أو تسىء الظن به ، حتى نلتقى يوماً أبرر لك فيه موقفى . إن صورتك ماثلة فى قلبى على الدوام ولن يقوى على انتزاعها منى شىء فى الوجود .

بريتانيكيس : إنى أفهم ما تقصدين يا سيدتى . إنك تريدين أن يضمن لك هروبى تحقيق رغباتك ، وأن أفسح الطريق لحبك الجديد . فلا شك أنك حين تريننى تشعرين بخجل خفى لا تذوقين معه سوى لذة يعكر القلق بهجتها ، لذا يجب أن أرحل .

جونى : ولكن يا سيدى ، دون أن تنسب إلىّ . . .

بريتانيكيس : آه ! لم يبق لك إلا أن تطيلى النقاش وتسوقى الحجج . فأنا لا أتذمر إطلاقاً حين أرى حبـًّا رخيصاً ينتقل إلى الجانب الذى يبتسم له الحظ ويدلله الثراء ، وحين أرى أن يريق

مجد الإمبراطورية قد بهر عينيك ، وأنك تريدين الاستمتاع به على أنقاض سعادة شقيقي . ولكنني أحتج وأسخط حين أراك مأخوذة بمظاهر العظمة والأبهة ، كأية امرأة أخرى ، بعد أن أظهرت لى دائماً أنك قد زهدت فيها منذ أمد طويل .

لا لا ! إننى أعترف مرة أخرى بأن قلبى اليائس كان مهيأ لكل البلايا إلا لمثل هذه الصدمة . فلقد رأيت الظلم يعلو ويترعرع فوق حطامى ، بل رأيت السماء تتواطأ مع خصومى على اضطهادى . هذه الفظائع كلها لم تستنفد السخط من قلبى اليائس يا سيدتى ، كأن لم يكن ينقصنى منك إلا الخيانة والنسيان .

جونى : حين تسنح الظروف المواتية ، سيحق لصبرى أن ينفجر فيجعلك تندم على ارتيابك وعدم ثقتك . أما الآن فنيرون يهدد حياتك ، وأمام هذا الخطر الماثل يا سيدى ، تتعجلنى مشاغل أخرى غير الرغبة فى إيلامك وتعذيبك كما تدعى . هيا اذهب الآن مطمئن البال ، وكف عن الشكوى ، إن نيرون كان يسترق السمع وكان قد أمرنى بتصنع الجفاء .

بريتانيكيس : ماذا ! ذلك القاسى . . .

جونى : كان حاضراً يشهد اجتماعنا ويرقب ما يرتسم على ملامحى بوجه متجهم قاس ، متأهباً لأن يصب عليك ثورة انتقامه لو بدرت منى إيماءة خفية تنم على ما بيننا من تفاهم أو وفاق .

بريتانيكيس : كان نيرون يسترق السمع يا سيدتى ! . . . واأسفاه ! كان يمكن لعينيك أن تتصنعا الجفاء دون أن تخدعانى ، كان يمكنهما أن تدلانى على مدبر هذه الإهانة الشنعاء . هل الحب أبكم أخرس اللسان ؟ ألا يعرف التعبير إلا بلغة واحدة ؟ إن نظرة منك كانت تكفى لتجنبنى هذه الحيرة وهذا الألم العنيف . كان ينبغى . . .

جونى : كان ينبغى لى أن أصمت وأن أنقذ حياتك — وما دمت تريد أن أوضح لك ذلك — فكم من مرة واحسرتاه ! حاول قلبى أن يفصح لك عن اضطرابه وجزعه ، وكم من مرة قطعت السبيل على تنهدات قلبى ، متحاشية لقاء عينيك اللتين أنشد دائماً التطلع إليهما . يا له من عذاب يضنى القلب حين يُرغم الإنسان على الصمت أمام من يحب ! وحين يسمعه يئن ويتوجع فيذيقه العذاب والألم المرير ، وهو يعلم أن نظرة واحدة تكفى لمواساته وتبديد ألمه ! ولكن يالها من دموع كانت ستذرف ثمناً لتلك النظرة ! . . . ويلاه ! كلما تذكرت تهديدات نيرون ، استبدت بى الحيرة والفزع . . .

ولم أشعر بأنني استطعت أن أخفي ما في نفسي إخفاء تاماً ؛
فكنت أخشى أن يكشف أمري شحوب وجهي المضطرب ،
وأحس بنظراتي تفيض ألماً وأسى .
كان يخيل إلى في كل لحظة أن نيرون سيأتي في سورة غضبه
ليؤنبني على حرصي الشديد على كسب رضاك ، كنت أخشى
حبي وأنا أحاول عبثاً أن أكتمه . وقصارى القول ، أنني
تمنيت لو لم أعرف الحب قط . واحسرتاه ! لعل من حسن
حظنا وحظه أنه يعلم الآن علم اليقين ما يكنه قلبي وقلبك !
انصرف الآن ، تحمل هذه الصدمة أيضاً . اختبئ بعيداً
عن عينيه . سوف يقضي لك قلبي بمعلومات أوضح حين
يتسع أمامه المجال لذلك . سوف أدلي لك بمزيد من الأسرار .

بريتانيكيس : ولكن هذا شيء كثير ! كثير علي يا سيدتي أن أسمع ، في
آن واحد ، ما يسعد قلبي ، ويشعرني بالتجني الآثم عليك ،
ويغمرني بعطفك الرقيق .
أوتدركين قيمة كل ما تضحين به من أجلي ؟ (يجثو عند
قدمي جوني) . متى إذن أستطيع أن أجثو عند قدميك هكذا
لأكفر عما اقترفت ؟

جوني : ماذا تفعل ؟ . . . واحسرتاه ! إن غريمك قادم .

* * *

المشهد الثامن

نيرون – بريتانيكيس – جونى

نيرون : ألا فاستمر أيها الأمير فى تعبيرك الساحر عن عواطفك المتقدة ! إننى يا سيدتى أدرك من آيات شكره لك مدى عطفك عليه ، فقد فاجأته الآن جاثياً عند قدميك . ولكن يجدر به أن يشكرنى أنا أيضاً ويعترف لى ببعض الفضل : لأننى احتجزتك فى هذا المكان الذى يروقه وييسر له مثل هذا اللقاء العذب !

بريتانيكيس : إننى على استعداد أن أسكب عند قدميها ما يفيض به قلبى من ألم أو سرور ، فى أى مكان يأذن كرمها بأن ألقاها فيه . أما عن هذه الأماكن التى تحتجزها فيها ، فلا أرى بها ما يشعرنى بأنى غريب أو دخيل[1] .

نيرون : وهل ترى فيها شيئاً لا ينبئك بضرورة احترامى وطاعتى ؟

بريتانيكيس : إن هذه الأماكن التى عاصرت نشأتنا لم تُعِدنا لأقوم أنا بفروض الطاعة وأنت بأساليب التحدى . ولم تتوقع هذه

(١) يشير بريتانيكيس إلى أنه صاحب الحق الأول فى هذا القصر الذى ولد فيه ، ومن ثم فنيرون هو الغريب الدخيل على هذا القصر .

الأماكن ، عندما شهدت مولدنا ، أنه سيأتى يوم يتحدث فيه دومتيوس[1] إلىّ بصوت السيد الآمر .

نيرون : هكذا تدخل القدر وقلب أمانينا ، ففى الماضى كنت أنا الخاضع المطيع ، أما الآن فأنت الذى تخضع وتطيع . فإن كنت لم تتعلم بعد كيف تسلس القياد ، فأنت ما زلت صبيًّا ومن الممكن تلقينك بعض الدروس .

بريتانيكيس : ومن ذا الذى سيلقننى هذه الدروس ؟

نيرون : روما ، بل الإمبراطورية بأسرها .

بريتانيكيس : وهل تبيح لك روما ضمن حقوقك ما يتسم به الظلم والاستبداد من وحشية وقسوة ، وتخول لك النهب ودس السم وتدبير الطلاق ؟

نيرون : إن روما لا تتطفل فتدس أنفها فيما أخفيه عنها من أسرار ، فخذ لك من احترامها مثلا .

بريتانيكيس : ولكن الجميع يعلمون رأى روما فى هذا كله .

نيرون : إن روما على الأقل تصمت ، فخذ لك من صمتها مثلا .

---

(١) كان نيرون يسمى « دومتيوس » قبل أن يتبناه كلوديوس . ويروى المؤرخ تاسيت (فى « الحوليات » ، باب ١٢ ص ٤١) أنه فى ذات يوم التقى الشقيقان فحيا نيرون شقيقه بريتانيكيس منادياً إياه باسمه ، فرد عليه بريتانيكيس التحية مسمياً إياه باسمه القديم « دومتيوس » .

بريتانيكيس : وهكذا بدأ نيرون يعدل عن كبح جماح نفسه .

نيرون : بل بدأ نيرون يضيق صدره بحديثك .

بريتانيكيس : إذن فعلى من يريد أن يتكلم ، أن يشيد بعدل نيرون ويتغنى بحكمه الصالح .

نيرون : سواء أكان حكمى صالحاً أم طالحاً ، فيكفى أن يرهبنى الجميع .

بريتانيكيس : إما أننى لا أحسن فهم جونى ، وإما أن شعورك وأفكارك هذه جديرة بإثارة سخطها .

نيرون : إن كنت لا أعلم السر فى كسب رضاها ، فإننى على الأقل أجيد فن معاقبة أى منافس متهور .

بريتانيكيس : أما أنا ، فمن جميع البلايا التى يمكن أن تنتابنى ، لا أرتجف إلا أمام خطر واحد وهو بغضها أو عداؤها لى .

نيرون : ليتك تتمنى هذا البغض وذلك العداء ، فلم يعد لدى الآن ما أقوله لك .

بريتانيكيس : إن السعادة فى نيل رضاها هى السعادة الوحيدة التى أصبو إليها .

نيرون : لقد وعدتك هى بذلك ، فسوف تحظى دائماً برضاها .

بريتانيكيس : إننى على الأقل لا أسترق السمع حين تتكلم ، بل أتركها حرة فى التعبير عن كل ما يعنينى . فأنا لا أنتحى ركناً أختبئ فيه لأغلق فمها عن الكلام .

نيرون : إننى أفهم قصدك . حسناً . أيها الحراس !

جونى : ماذا تفعل؟ إنه أخوك، واحسرتاه ! إن هو إلا عاشق غيور! مولاى ! إن آلاف النكبات والبلايا تلاحقه وتفترسه ! فهل يثور حسدك أن لاح له خيط من السعادة ؟ فأذن لى أن أختبئ بعيداً عن عينيك وأن أتوارى بعيداً عن عينيه لأقرب الصلات بين قلبيكما . إن فرارى سيبطل هذا الشقاق المشئوم الذى اندلع بينكما .

مولاى ! سأذهب لأزيد عدد عذارى معبد « فستا » واحدة أخرى[1] . فكف عن منافسته فى هذا الحب المنكوب ، ودعنى لا أشقى به سوى الآلهة .

نيرون : إن هذه الخطة يا سيدتى غريبة ومفاجئة، أيها الحراس ، اذهبوا بها إلى جناحها الخاص . أما بريتانيكيس فقوموا على حراسته داخل جناح أخته .

بريتانيكيس : وهكذا يعرف نيرون كيف يسطو على قلب من يحب .

جونى : أيها الأمير ! لنخضع لهذه العاصفة دون أن نثير غضبه .

نيرون : هيا أيها الحراس ، أطيعوا ولا تتوانوا أكثر من ذلك .

---

(١) كان عددهن ثمانى عشرة عذراء يرعين الشعلة المقدسة التى تتقد دائماً فوق مذبح « فستا » ، إلهة النار عند الرومان ، وكانت الواحدة منهن تقطع نذراً بأن تظل عذراء طاهرة، فلا يجرؤ رجل على أن يقربها .

المشهد التاسع

نيرون – بيروس

بيروس : ماذا أرى ؟ يا للسماء !

نيرون : (دون أن يرى بيروس) : وهكذا تتضاعف نار حبهم . إننى أعرف اليد التى ربطت بينهما ، فأجريين لم تمثل أمام ناظرى ، ولم تفِضْ طويلا فى الحديث إلاّ لكى تضرب على هذا الوتر البغيض .

(يلمح بيروس) : فلنسأل عما إذا كانت أمى لا تزال فى هذا القصر . أريد يا بيروس احتجازها هنا ، وعليها حرسى الخاص بدلا من حرسها !

بيروس : ماذا ؟ دون أن تسمع أقوالها ؟ إنها[1] أم يا مولاى !

نيرون : كفى ! إننى أجهل يا بيروس الخطة التى تدبرها. ولكننى أرى منذ بضعة أيام أن جميع رغباتى تجد فيك رقيباً يتأهب دائماً لمعارضتى . إنك مسئول عنها أمامى . هذا ما آمرك به . أما إذا رفضت، فإن آخرين سيُسألون أمامى عنها وعن بيروس .

* * *

(١) تاسيت : الحوليات ، باب ١٣ ، ٢٠ .

الفصل الرابع

المشهد الأول

أجربين – بيروس

بيروس : أجل يا مولاتى ، سيكون فى سعك أن تدافعى عن نفسك فى حرية كاملة وراحة تامة . فالقيصر نفسه قبِل أن يستمع إليك فى هذا المكان . وإن كان قد أمر باحتجازك فى هذا القصر فربما كان يقصد من وراء ذلك أن يتحدث إليك .

ومهما يكن من أمر فهل لى أن أجرؤ على الإفصاح عن رأيى؟ إذن فلتبعدى عن ذاكرتك ما تظنينه إهانة ألحقها بك. بل يحسن أن تهيئى نفسك لتفتحى له ذراعيك . إن لك أن تدافعى عن نفسك يا مولاتى ولكن لا توجهى له أى اتهام فأنت ترين أنه هو وحده موضع تقدير البلاط وقبلة أنظاره . وبالرغم من أنه ابنك بل صنيعتك . فلا تنسى أنه الإمبراطور . فأنت مثلنا جميعاً خاضعة لهذا السلطان الذى تسلمه منك . وعلى حسب ما ينالك من تهديد أو تدليل ، ترين البلاط من حولك ينفض مدبراً أو يقبل

مرحباً . والناس حين يلتمسون عونك وتأييدك ، إنما ينشدون عونه وتأييده هو . — ولكن ها هو ذا الإمبراطور قادم .

أجربين : اتركني معه بمفردي .

* * *

المشهد الثاني

أجربين — نيرون

أجربين : (تجلس) تقدم يا نيرون واتخذ مكانك على مقربة مني . إنهم يريدون أن أبرر لك موقفي فأبدد ما لديك من شكوك كي أنال رضاك . إنني أجهل الجرم الذي استطاعوا أن يصموني به . والآن سأوضح لك جميع ما ارتكبت من جرائم . حقاً إنك تتربع على عرشك الآن ، ولكنك تعرف كم باعد . مولدك بينك وبين الإمبراطورية . بل إن حقوق أجدادي [1] التي أقرتها روما ، لولاي أنا ، لظلت ألقاباً جوفاء لا طائل من ورائها . فبعد أن أدينت أم بريتانيكيس ولقيت حتفها [2] ، تنافست النساء على الزواج

(١) كانت أجربين ابنة الإمبراطور جرمانيكوس . ثم تزوجت بعمها الإمبراطور كلوديوس . وكان جدها الأكبر الإمبراطور تيبير (طيبريوس) الذي تبناه الإمبراطور أغسطس حين تزوج بليڤي .

(٢) كانت ميسالين أم بريتانيكيس معتقلة للتحقيق معها في بعض الاتهامات . ثم أذن =

بكلوديوس ، وأخذن يلتمسن تأييد مستشاريه[1] الذين سبق أن أعتقهم .

ومن بين جميع الفاتنات اللواتى كانت تدبر كل منهن خطة ليقع اختياره عليها ، كنت أنشد الوصول إلى مضجعه من أجل فكرة واحدة ، هى أن أضمن لك العرش الذى كنت سأتربع أنا عليه . وعندئذ لم أحفل بكبريائى وتوجهت بالرجاء إلى بالاس وحرصت على أن أدالل سيده كل يوم بين ذراعى إلى أن أخذ ينهل ، دون أن يدرى ، من عينى ابنة شقيقه ، ذلك الحب الذى كنت أريد أن أوجه إليه عاطفته .

ولكن صلة الدم التى كانت تربط بيننا أقصت كلوديوس عن مضجع غير شرعى ، فلم يجرؤ على الزواج بابنة أخيه .

= لها زوجها الإمبراطور كلوديوس بالمثول أمامه لتدافع عن نفسها . وكان بعض رجال البلاط يريدون التخلص منها ، فاستدعى نارسيس أحد قواد الحرس وأبلغه أمراً مزعوماً من الإمبراطور بقتل ميسالين . فلما توجه إليها ذلك القائد وجدها ممسكة بخنجر لا تجسر على أن تغمده فى صدرها . فطعنها بسيفه وقالوا للإمبراطور إنها ماتت فلم يستفسر عن الطريقة التى ماتت بها ، وكان عندئذ يتناول طعامه فطلب مزيداً من الخمر (انظر « حوليات » تاسيت . الباب الحادى عشر ، فقرات ٣٦ — ٣٨) .

(١) نارسيس وبالاس وكاليست ، كان كل منهم يرشح زوجة للإمبراطور . وكان بالاس يزكى أجريبين .

فتمكنتُ من التغرير بمجلس الندوة ، ومن ثم صدر قانون لا قسوة فيه أحلّ الكلوديوس مضجعى ووضع روما عندقدمى . كان هذا شيئاً عظيماً بالقياس إلىّ ، ولم يكن شيئاً مذكوراً بالقياس إليك ، فجعلتاك تحذو حذوى وتنتمى إلى أسرته واخترتاك صهراً له وزوجتاك بابنته . كان سيلانس يحبها ، فلما رآها تهجره ، انتحر مسجلا بدمه شؤم ذلك اليوم . وهذا أيضاً لم يكن شيئاً مذكوراً بالقياس إليك . هل كنت تزعم أو تطمع فى أن يفضل كلوديوس زوج ابنته على ابنه فى يوم من الأيام ؟ فذهبت إلى بالاس عينه ألتمس منه العون ، وعندئذ تغلبت على كلوديوس أحاديث بالاس فتبناك ولقبك بنيرون[1] وأراد ، قبل الأوان ، أن يشرك بنفسه بإسناد السلطة العليا إليك .

وهنا تنبه الجميع وتذكروا الماضى ، فاكتشفوا خطتى بعد أن قطعت فيها شوطاً بعيداً . وما إن أحدق الفشل والعار ببريتانيكيس حتى ثار أصدقاء أبيه ساخطين . فلجأت إلى الوعود أبهر بها عيون بعضهم ، وإلى النفى أتخلص به من المتمردين . بل إن كلوديوس نفسه حين أعيته شكواى

---

(١) كان اسمه دومتيوس .

التى لا تنقطع ، أقصى بعيداً عن ابنه جميع الذين عاهدوه من قبل فى حماستهم على أن يظلوا لمصيره أوفياء ، والذين يخشى منهم أن يمهدوا له ثانية الطريق إلى العرش .

بل ذهبت إلى أبعد من ذلك : انتقيت بنفسى من بين رجال حاشيتى من وددت أن أعهد إليهم بالإشراف على تنشئته وتربيته . ثم عنيت بأن أنتقى لك — على عكس ذلك مربين تكرمهم روما بأسرها . وسددت أذنى عن تدبير الطامعين فى هذا المنصب ، واطمأنت نفسى إلى الشهرة الطيبة ، فاستدعيت سنيكا هذا نفسه من المنفى ، وسحبت بيروس هذا عينه من الجيش . ومنذ ذلك الحين ، أخذ الاثنان . . .

كانت روما عندئذ تكبر ما لهما من فضائل وتقدر ما لهما من شجاعة . وأخذت يداى بعدئذ تنهلان من خزائن كلوديوس ، وتجزلان باسمك النعم والمكرمات ، وأكثرت من حلبات المصارعة[1] وأغدقت العطايا والمنح ، وذلك كله إغراء ، لا يقاوم ، لم يلبث أن جذب إليك قلوب الشعب والأجناد ، فتيقظ فيهم حبهم الأول

---

(١) فى تلك العصور كانت حلبات المصارعة أمراً جوهرياً ، كالخبز تماماً ، يقاس بها مدى رفاهية الشعب وحبه للإمبراطور .

لجرمانيكوس ، وأعزّوا فيك أبي .

أما كلوديوس فقد بدأ نجمه يأفل . وبعد أن ظلت عيناه مغمضتين فترة طويلة ، أخذتا تتفتحان أخيراً ، فتبين خطأه ، ولما استبد به الخوف على ابنه ، أفلتت منه عبارات تفصح لابنه عن بعض شكواه . وأراد ، بعد أن سبق السيف العذل ، أن يجمع شمل أصدقائه . غير أن حرسه وقصره ومضجعه ، كل أولئك كانوا يدينون لى بالخضوع . فتركته يستنفد كل عواطف الحب لابنه دون جدوى ، وأقمت نفسي مهيمنة على لحظات نزعه الأخير[1] ، وتظاهرت بالرغبة فى تجنيبه الألم ساعة احتضاره ، حرصاً منى على أن أخفى عنه دموع ابنه[2] ، ثم مات . فسرت آلاف الشائعات تشهر بخزيى وتفضح عارى ، فأخفيت نبأ منيته التى عاجلته . وبينما كان بيروس يتوجه سرًّا إلى الجيش ليطالبه بأن يقسم يمين الولاء بين يديك ، وبينما

(١) أحكمت تدبير قتله فاختارت لذلك سماً بطيئاً لا يفضح جريمتها واستعانت بامرأة اسمها « لوكيست » خبيرة بهذا الفن . كما استعانت بطبيب اسمه « كزينفون » تواطأت معه على التعجيل بسم الإمبراطور .

(٢) كانت أجربين تدعى الحزن والألم وتحتضن بريتانيكيس ملقبة إياه بالصورة الحية لأبيه ، وتدبر جميع الحيل لتحتجزه فى جناحه الخاص بعيداً عن أبيه .

كنت تتقدم إلى معسكر روما متمتعاً بحمايتي وتأييدى ،
كان دخان الذبائح والقرابين يتصاعد من هيا كل روما كلها .
وكان الشعب ــ مدفوعاً بأوامرى المضللة ــ يبتهل داعياً
بالشفاء للإمبراطور الذى كان قد فارق الحياة .
وأخيراً بعد أن دانت لك جميع فرق الجيش بالطاعة ، فدعمت
بذلك سلطان إمبراطوريتك ، سمحت برؤية جثمان كلوديوس .
ولقد هل الشعب من المصير الذى آل إليه ، إذ علم فى
آن واحد نبأ وفاة الإمبراطور ونبأ توليك الحكم .
هذا هو الاعتراف الصادق الخاص الذى كنت أود دائماً أن
أفضى لك به . تلك هى جرائمى . وها هو ذا الثمن الذى تقاضيته .
فلم تكد تنعم بثمرة تدبيرى وعنايتى الفائقة ، حتى ظهرت
معترفاً لى بالفضل مدة ستة أشهر ، سئمتَ بعدها أن تبدى
لى احتراماً لعله كان يضايقك . فتصنعت أنك تتجاهلنى .
لقد رأيت بيروس وسنيكا يثيران الشكوك فى نفسك ويلقيان
عليك دروساً فى الجحود ، مغتبطين بأن يبزّاهما فى صميم
الفن الذى أتقناه . كما رأيتك تحابى أوتون[1] وسينسيون[2]

(١) هو الذى سيخلف نيرون على عرش الإمبراطورية . وكانت زوجته تدعى بوبيه ، وسوف يتزوجها نيرون بعد أن يطلق أوكتافى .

(٢) ابن أحد المستشارين الذين أعتقهم الإمبراطور كلوديوس .

فتمنحهما ثقتك ، وهما شابان تستعبدهما الشهوة وييسران لك جميع ملذاتك ويثنيان عليها فى احترام وتبجيل . وحينما أثار احتقارك لى السخط فى نفسى ، سألتك تعليلا لكل هذه الإهانات، وهى الملاذ الوحيد لكل جاحد أسقط فى يده ، فأجبتنى بإهانات جديدة .

واليوم حيث اخترت جونى زوجة لأخيك واغتبط كل منهما مزهوًّا باختيار أمك هذا، فماذا كان منك ؟ أمرت باختطاف جونى ونقلها إلى القصر، وما لبثت أن ألفت نفسها بين عشية وضحاها مناط حبك ، ورأيتُ أوكتافى ينمحى حبها من قلبك ، بل توشك أن تُقصى عن المضجع الذى جئت بها إليه . كما أرى بالاس منفيًّا وأخاك مقبوضاً عليه . ثم بلغ بك الأمر أخيراً أن اعتديت على حريتى فجرؤ بيروس على أن يمد يديه المتهورتين لإلقاء القبض علىّ . وحينما اقتنعت بكل هذه الخيانات ، كان حريًّا بك ألا تطلب مقابلتى إلا لتكفر عن أعمالك بدلا من أن تأمرنى بأن ألتمس لتصرفاتى تعليلا وتبريراً .

نيرون : لا يغيب عن ذاكرتى أبداً أننى مدين لك بالإمبراطورية ، دون أن تكلفى نفسك عناء الحرص على تذكيرى بذلك . فإن قلبك الكبير ، يا سيدتى ، يمكنه أن يطمئن

كل الاطمئنان إلى وفائى لك واعترافى بفضلك . فهذه
الظنون المريبة ، وهذه الشكاوى المتلاحقة جعلت كل من
يسمعها يؤمن بأنك فى السنوات الماضية — واسمحى لى بأن
أفضى إليك بهذا فيما بيننا — كنت تتسترين باسمى لتعملى
لمصلحتك دون سواها .

كان الناس يتساءلون : « هل كل مظاهر التكريم وآيات
التبجيل هذه ليست إلا مكافآت هزيلة لأفضالها عليه ؟
ترى أى جرم قارفه هذا الابن الذى ينصب عليه اللوم
والتأنيب انصباباً ؟ هل توجته إمبراطوراً ليدين لها بالطاعة
والخضوع ؟ أليس السلطان بين يديه سوى وديعة لا يحق له
التصرف فيها ؟ » .

إن كنت قد وفقت إلى إرضائك حتى الآن ثم توقفت ،
فهذا لا يعنى أننى غير مرتاح إلى التخلى لك يا سيدتى عن هذا
السلطان الذى يبدو أن صيحات احتجاجاتك تلح فى طلبه .
ولكن روما تريد سيداً لا سيدة .

ولقد سمعت شائعات السخط التى أثارها ضعفى ، ففى كل
يوم كان أعضاء مجلس الشيوخ وأفراد الشعب يتقدون غضباً
إذ يستمعون إلى إرادتك يمليها عليهم صوتى ، ويشيعون أن
كلوديوس عند وفاته قد أورثنى مع السلطان سذاجة ضعفه

وخضوعه . كما رأيت بنفسك مرات ومرات جنودنا الحانقين يزمجرون وهم يحملون أمامك أعلامهم تعلوها النسور ، وقد اعتراهم الخجل بسبب هذا التقليد المشين الذى يحط من كرامة الأبطال الذين تخلد هذه الأعلام ذكراهم .

إن أية سيدة أخرى كانت تستجيب لرغبتهم ، أما أنت فإما أن تحكمى وإما أن تضجى دائماً بالشكوى .

لقد تحالفتِ مع بريتانيكيس ضدى ، ثم عززت جانبه بضم جونى إليه ، وكانت يدك بالأمس تحيك هذه المؤامرات كلها . وحين أخذت أعمل مرغماً على تأمين سلامتى ، رأيتك تنفجرين غضباً وحقداً ، وتريدين تقديم منافسى للجيش ، ولقد سرت فعلا هذه الشائعات فى معسكر روما .

أجربين : أأنا التى أنادى به إمبراطوراً ، أيها الجحود ! أوَصدقت ذلك ؟ إذن ما عساى أن أقصد من وراء هذه الخطة ؟وماذا أطمع عندئذ فى الوصول إليه؟ أى تبجيل أرجوه فى بلاطه ، وأية مكانة كنت أنتظر ؟ يا للعجب ! إن كنت لا أنعم بالهدوء فى ظلك ، وإن كان المتجنون علىّ يرصدون علىّ الخطى ، وإن كانوا يتطاولون هكذا على أم إمبراطورهم ، ترى ماذا يكون مصيرى فى بلاط غريب علىّ ؟ إذن لما

أخذونى بصيحاتى العاجزة هذه ، ولا بالخطط الموءودة فعلا فى مهدها ، وإنما يأخذوننى بجرائم أنا آتيها أمام عينيك ودفاعاً عنك ، ولكنت أبادرهم بالاعتراف بها .

عبثاً تحاول تضليلى لأنخدع فيك ، فإننى أكشف عن حيلك وأعرف ألاعيبك . إنك لجحود وهكذا أنت دائماً . وإن رعايتى وعطفى اللذين أحبوك بهما منذ حداثة سنك لم ينتزعا منك سوى ملاطفات مصطنعة . لم يستطع شىء أبداً أن يثنيك عن طبعك ، وإن إمعانك فى القسوة علىّ مدى الأيام ، كان عليه أن يدفعنى إلى أن أمسك عن طيبتى !

يا لى من بائسة شقية ! ويا له من حظ عاثر وسوء طالع ، قضيا بأن كل سعى منى ينقلب ضدى ! إنه ليس لى سوى ابن واحد ، وأشهدك أيتها السماء التى تنصت إلىّ الآن . هل تمنيت عليك خيراً إلا لأجله هو ؟ أما الندم والخوف والمخاطر ، فلا شىء من هذا كله كان يردنى عن عزمى . لقد أعرضت تماماً عن ألوان احتقاره وازدرائه ، ولم أعبأ ببؤس المصير الذى أنبئت به . لقد فعلت كل ما استطعت . وهأنتذا الآن تتبوأ العرش وحسبى ذلك . لقد انتزعتَ حريتى فانتزع معها إن شئت حياتى ، علىّ ألاّ يثير موتى غضب الشعب فينزع عنك ما كلفنى ثمناً غالياً .

نيرون : هلمي إذن ، تكلمي ، ماذا تريدين أن أفعل؟

أجريبين : أن تُنزل العقاب بكل من جرؤ على اتهامي . وأن تهدئ من سورة غضب بريتانيكيس ، وأن تترك لجوني الحرية في اختيار زوجها وأن يطلق سراح الاثنين ، وأن يعود بالاس من منفاه ، وأن تصرح لي بمقابلتك في أي وقت . (تلمح بيروس في صدر المسرح) وأخيراً بيروس هذا الذي جاء ليتسمع إلى حديثنا، عليه ألا يجرؤ فيما بعد على أن يوصد بابك في وجهي .

نيرون : أجل يا سيدتي ، إنني أود منذ اليوم أن يدمغ وفائي لك قلوب الناس برهبة سلطانك . وإنني لأشكر هذه الفرصة المواتية التي أتاحها لنا ذلك الفتور ، إذ سمح لعاطفتنا أن تضطرم من جديد . أما بالاس فلقد نسيت له كل شيء بالرغم مما أتاه. وهذا يكفي ،وسوف أصطلح مع بريتانيكيس. أما عن ذلك الحب الذي أشاع الفرقة بيني وبينه ، فسأقيمك حكماً لتفصلي فيه بيننا ، هيا إذن انقلي عني هذه البشرى السعيدة إلى أخي .

أيها الحرس ، عليكم بإطاعة أوامر أمي .

* * *

المشهد الثالث

نيرون — بيروس

بيروس : مولاى ! لكم يسحر عينى هذا الصلح وذلك العناق ! فأنت تعلم إن كان قد علا صوتى بمعارضتها يوماً من الأيام، أو إن كنت حاولت أن أثنيك عن حبها ، أو إن كنت أستحق منها هذا الغضب وهذا السخط الذى لا مبرر له .

نيرون : إننى لا أود أن أمتدحك الآن ، فقد كنت أشكو منك يا بيروس لأننى ظننتكما معاً علىّ . ولكن عداءها لك رد إليك ثقتى فيك . إنها تتعجل النصر يا بيروس ، أما أنا فإنما أحتضن غريمى لكى أكتم أنفاسه .

بيروس : ماذا تقول يا مولاى ؟

نيرون : لقد طفح الكيل ، فيجب أن أقضى على بريتانيكيس لأتخلص إلى الأبد من سورات غضب أجريبين . فطالما هو على قيد الحياة ، فإننى لا أعيش إلا نصف حياة ، لقد أعيتنى بترديد هذا الاسم العدوّ لى ، وليس فى نيتى أن أدع جرأتها المذنبة تلوح له بعرشى مرة أخرى .

بيروس : إذن ستجعلها تبكى بريتانيكيس عما قريب ؟

نيرون : قبل أن تغرب شمس هذا اليوم، سينتهى إلى الأبد خوفى منه .

بيروس : ومن الذى زين لك هذه الخطة ؟

نيرون : إنه مجدى وحبى ، إنها سلامتى وحياتى .

بيروس : كلا ، مهما قلت ، فإن هذه الخطة البشعة يا مولاى لم تنبع قط من قرارة نفسك .

نيرون : بيروس !

بيروس : أوَمن لسانك أنت أقف على هذا النبأ ؟ يا للسماء ! وأنت ؟ أنت نفسك استطعت أن تصغى لهذه الخطة دون أن تقشعر وأن ترتجف ؟ هل فكرت فى أى دم سوف تسفح ؟ وهل سئم نيرون أن يتربع على عرش القلوب جميعاً ؟ ماذا سيقول الناس ؟ وعلى أى شىء عقدت النية ؟

نيرون : ماذا ! وهل سأظل مكبلا بأغلال مجدى الماضى ، فلا أرى أمام عينى سوى حب — لست أدرى أى حب — تسوقه إلينا المصادفة لتنزعه عنا فى اليوم نفسه ؟ وهل سأظل خاضعاً لأمانى الشعب ومعارضاً لرغباتى أنا ؟ أوَلست إمبراطوراً إلا لأعمل على إرضائهم ؟

بيروس : أوَلا يكفى لرغباتك يا مولاى أن تكون سعادة الشعب هى إحدى أفضالك ؟ لك وحدك أن تختار ، فما زلت السيد المطاع ، لقد كنت شهماً فاضلا حتى الآن . ويمكنك أن تظل دائماً كذلك ، فالطريق مرسوم أمامك ، ولا شىء مطلقاً

يعوق سيرك فيه ، فما عليك إلا أن تسير من فضائل إلى فضائل أخرى . أما إذا اتبعت نصح المتملقين ، فسيلزمك يا مولاى أن تخلص من جريمة إلى أخرى لكى تدعم قسوتك بتعسف آخر ولكى تغسل فى الدم يديك المخضبتين بالدماء

إن موت بريتانيكيس سيثير حمية أصدقائه وهم على أهبة الاستعداد للانتصار له . وسيجد هؤلاء المنادون بالانتقام أعواناً جدداً يناصرونهم ، وهؤلاء بدورهم — حتى بعد موتهم — سيخلفهم آخرون ، وهكذا سوف تشعل ناراً لا يمكن لها أن تخبو . وبعد أن كان العالم بأسره يخشاك ، سيتعين عليك أن تخشى الجميع ، وأن تعمل دائماً على إنزال العقاب بالآخرين ، وأن ترتجف دائماً فى مشاريعك وخططك ، وأن تعتبر جميع رعاياك أعداءك . آه يا مولاى ! هل التجربة الموفقة التى قمت بها فى سنواتك الأولى جعلتك تمقت حبك للسلام ؟ هل تذكر السعادة التى وسمت تلك السنوات ؟ وفى أية راحة قضيتها ؟ يا للسماء ! يا لها من لذة عظمى حين تذكرها وتحدث نفسك قائلا : « الآن يحبنى الجميع فى كل مكان ويدعون لى بالخير . فلست أرى الشعب ينزعج أبداً عند ذكر اسمى ، ولم تتطلع

إلى السماء عيون دامعة تستنزل عليّ النقمة ، حتى أولئك الذين يضمرون لى الحقد الأسود لا يفرون من وجهى ، وإنما أرى القلوب تطير فرحاً فى كل مكان أمرّ به ! » .

تلك كانت لذتك . فياله من تحول ! أيتها الآلهة ! إن دم أبشع الجناة كان غالياً عندك ، وما زلت أذكر يوم أن كان الشيوخ يتعجلونك فى توقيع حكم عادل بالإعدام على أحد المذنبين ، فكنت تقف فى وجه قسوتهم يا مولاى وكأنك تتهم قلبك بالغلظة البالغة ، وترثى لحالك وتئن من المشاق التى فرضها عليك المنصب ، فتقول : « ليتنى كنت أجهل الكتابة ! » .

لا ، لا ، إما أن تصدقنى وإما فليخلصنى الموت من رؤية هذا البلاء وما يعقبه من ألم ، فلو أقدمت على مثل تلك الفعلة الشنيعة ، فلن يرانى أحد على قيد الحياة ، ولن أعيش بعد موت مجدك .

(يجثو عند قدمى نيرون) هأنذا مستعد يا مولاى : فقبل أن تمضى ، مُر بطعن هذا القلب الذى لا يستطيع أن يقرك على فعلتك ، هيا ادع القساة الذين أوحوا لك بها ليختبروا أيديهم المرتعشة فى قتلى أنا .

لكننى أرى أن دموعى تمس قلب سيدى الإمبراطور ، وأرى أن مروءته تقشعر من فظاعتهم . إذن لا تضع الوقت واذكر لى أسماء الخونة الذين تجاسروا على بذل هذه النصائح لك لقتل أهلك . أرسل فى طلب أخيك وانس بين أحضانه . . .

نيرون : ما هذا الذى تطلبه ؟

بيروس : لا ، إنه لا يكرهك يا مولاى. إنه ضحية الخونة . إننى أعلم حق العلم أنه برىء ، وأنا مسئول أمامك عن ولائه وطاعته لك . إننى ماض سريعاً إليه لأتعجل لقاء عذباً كهذا .

نيرون فلينتظرنى معك فى جناحى الخاص .

* * *

المشهد الرابع

نيرون — نارسيس

نارسيس : مولاى ، لقد رتبت كل شىء لموت لا شك عادل ، إن السم معد ، ولقد حرصت لوكيست[1] — أم الصيت — إكراماً لى — على أن تضاعف من عنايتها فى تفننها الخفى . واختبرته

---

(١) تخصصت هذه المرأة فى القتل بالسم ، وهى التى عهدت إليها أجربين بسم كلوديوس .

أمام عيني في أحد العبيد فأسلم الروح في الحال . إن السيف أبطأ فى بتر الحياة من هذا السم الجديد الذى سلمته لى بيدها .

نيرون : كفى يا نارسيس . إننى أشكر لك هذا الاهتمام ولا أود أن تذهب إلى أبعد من ذلك .

نارسيس : ماذا ! وهل ضعف حقدك على بريتانيكيس بحيث تمنعنى . . .

نيرون : أجل يا نارسيس سيصالحوننا معاً .

نارسيس : حاشا لى أن أثنيك عن هذا يا مولاى . ولكنه ألفى نفسه سجيناً منذ قليل وستظل هذه الإهانة حية فى قلبه إلى أمد طويل ، وما من سر إلا وفضحه الزمن ، وسيعلم أن يدى هذه كان عليها أن تقدم له سماً أعد تنفيذاً لأوامرك . ألا ليت الآلهة تنسيه كل ما دبرناه من خطط ! ولكن ربما أقدم هو على تنفيذ ما لم تجرؤ أنت عليه .

نيرون : إنهم يؤكدون لى ولاء قلبه وبراءة ساحته ، ولذا سأكبح جماح قلبى .

نارسيس : ترى هل زواجه بجونى هو السبيل إلى هذا الصلح ؟ هل تضحى له بهذا أيضاً يا مولاى ؟

نيرون : إذن لكان ذلك مغالاة منا فى السعى إلى الصلح . ولكن مهما يكن من أمر ، يا نارسيس ، فلن أضعه بعد فى صفوف أعدائى .

نارسيس : إن أجربين يا مولاى كانت على حق حين كانت تمنى نفسها بذلك . لقد استردت سلطتها العليا عليك .

نيرون : ما هذا الهراء ؟ ماذا قالت ؟ وماذا تعنى أنت بهذا الكلام ؟

نارسيس : لقد تباهت بهذا أمام الناس جميعاً .

نيرون : وبم تباهت ؟

نارسيس : بأنه ما كان عليها إلا أن تقابلك لحظة واحدة حتى نرى هذه السورة العارمة ، وذلك الغضب الفتاك يتمخضان عن صمت وديع ، وأنت نفسك تكون أول من يحبذ السلام ، وأسعدك أن طيبة قلبها محت من ذاكرتها كل آثار الماضى .

نيرون : إذن قل لى يا نارسيس ، ماذا تريدنى أن أفعل ؟ فإن لدى استعداداً قوياً لمعاقبة جرأتها . ولو طاوعت نفسى لجعلت عدم تحفظها فى الجهر بما توهمته من نصر جارف ، ينقلب عليها وبالاً وحسرة إلى الأبد .

ولكن بأى لسان يتحدث عنى العالم بأسره ؟ أتريدنى أن أسلك مسلك الطغاة وأن تمحو روما كل ألقاب المجد التى نلتها ، ولا تترك لى إلا لقب القاتل بالسم ؟ ويضعنى الناس

بانتقامى هذا فى عداد قتلة الآباء والأمهات ؟

نارسيس : وهل تتخذ يا مولاى من نزواتهم هدًى ومرشداً لك فى التصرف ؟ وهل توهمت أن ألسنة الناس ستظل صامتة إلى الأبد ؟ وهل من كان مثلك يأبه بأقوال الناس؟ وهل زالت من ذاكرتك جميع أطماعك ؟ أويصدقك الجميع ولا تجرؤ أنت على تصديق نفسك ؟

إذن فأنت لا تعرف الرومان يا مولاى ! كلا ، كلا ، إنهم متحفظون فى كلامهم أكثر مما تظن . وهذا الاحتياط المفرط يضعف من حكمك ويزعزع سلطانك ، وعندئذ سيعتقدون ولا شك أنهم جديرون بأن تخشى بأسهم. إنهم يا مولاى قد ألفوا الخضوع لنير العبودية منذ أمد طويل ، بل إنهم يقدسون تلك اليد التى تمسك بهم فى الأغلال . وسترى أن رغباتهم تتأجج سعياً فى إرضائك . فإن استجابتهم السريعة لنداء العبودية قد أتعبت الإمبراطور تيبير وأعيته . بل أنا نفسى حين أعتقنى كلوديوس ووهبنى بعض السلطان إلى حين ، خبرتهم مئات المرات وبلوت صبرهم على البلاء طيلة أيام مجدى الغابر ، فما عيل هذا الصبر ولا نفد .

أوتخشى الآن بشاعة القتل بالسم ؟ مُرْ إذن بهلاك هذا الشقيق ، واهجر أخته ، وسترى روما تقدم الذبائح فى

سخاء داخل الهياكل ، حتى لو كان ضحاياك أبرياء ، فستختلق لهم روما جرائم مفزعة ، وتضع اليوم الذى ولد فيه ذلك الأخ وتلك الأخت ضمن أيام الشؤم فى التاريخ .

نيرون : صبراً يا نارسيس ، لا أستطيع الإقدام على هذه الفعلة ، فلقد وعدت بيروس وكان على أن أرضخ ، ولا أود أن أحنث له فى عهدى لكيلا أثير نخوته وأزودها مرة ثانية بأسلحة ضدى . إننى أدفع حججه بشجاعة لا طائل تحتها . ولا أصغى إليه أبداً بنفس مطمئنة .

نارسيس : إن بيروس يا مولاى لا يعنى كل ما يقول ، وإنه يرمى من وراء هذه الشهامة وتلك الاستقامة إلى أن يعزز مكانته ويمكن لنفوذه ، أو على الأصح لا يشغل هؤلاء إلا أمر واحد : ذلك بأنهم سيرون سلطانهم يضمحل إن أقدمت على هذا العمل . وعندما تصبح مطلق الحرية يا مولاى ، سيرتجف أمامك هؤلاء السادة المتعجرفون وترتعد فرائصهم مثلنا جميعاً. كيف إذن ؟ أو تجهل كل ما يتجاسرون على التقول به ؟ : « إن نيرون — وهيهات أن يصدقهم أحد — لم يولد قط ليكون إمبراطوراً ، فإنه لا يقول قولاً ولا يحسم أمراً إلا كما يملى عليه . فبيروس يتحكم فى مشاعره وسنيكا يتسلط على تفكيره ،

وإن أقصى ما يطمح فيه ، بل أبرز شجاعة يحرص على أن ينفرد بها هى أن يجيد قيادة العربة فى حلبة السباق ، ثم ينافس الآخرين على نيل جوائز لا يستأهلها ولا تليق به ، ويستعرض نفسه أمام الرومان . ثم يأتى ليمطرنا بوابل من صوته على المسرح ، فيلقى أشعاراً يصر على أن ينال بها إعجاب الناس ، بينما يندس الجنود من حين لآخر لينتزعوا له التصفيق من الحاضرين » .

آه يا مولاى ! أوَلا تريد أن تلزمهم الصمت ؟

نيرون : تعال يا نارسيس . هيا بنا لنتدبر معاً ما ينبغى أن نفعله .

* * *

الفصل الخامس

المشهد الأول

بريتانيكيس – جونى

بريتانيكيس : أجل ، إن نيرون ينتظرنى فى جناحه الخاص لكى يعانقنى . ومن كان يصدق ذلك أو يتوقعه يا سيدتى؟ لقد أمر بدعوة شباب البلاط إلى هناك ، فهو يود إقامة وليمة تزخر بمظاهر الأبهة والبهجة بحيث تدعم أمام عيون الجميع صدق عهد الوفاء الذى نرتبط به ، وتضفى حماسة على عناقنا وتآخينا . لقد عزم على أن يخمد ذلك العشق الذى كان مصدر البغض والكراهية بيننا ، فجعل منك حكماً مطلق الحرية فى اختيار مصيرى .

أما أنا – فبالرغم من أنى أقصيت عن مكانة أجدادى ، وبالرغم من أنه يتزين أمامى بتراث مجدهم ، فإنه منذ أن كف عن معارضة حبى متخلياً لى عن مجد الفوز برضاك أشعر فى قرارة نفسى أن قلبى قد صفح عنه ، تاركاً له كل ما تبقى دون أسف كبير عليه .

يا للسماء ! لن يبعدنى شىء عن سحر جمالك ! بل أستطيع

الآن ، دون خوف أو فزع ، أن أتطلع فى هاتين العينين اللتين لم تنل منهما تنهدات الحب ولا إرهاب الوعيد ، واللتين ضحتا من أجلى بالإمبراطور والإمبراطورية ؟

آه يا سيدتى ! . . . ولكن ماذا بك ؟ أى خوف جد عليك فيحبس سرورك أمام فيض شعورى المتدفق ؟ ما السبب فى أنك حين تنصتين لى تتجهين بعينيك ، الحزينتين ، إلى السموات فتبعثى إليها بنظرات شاردة طويلة ؟ مم تخافين ؟

جونى : أنا نفسى أجهل ذلك ، لكننى خائفة .

بريتانيكيس : هل تحبيننى ؟

جونى : واحسرتاه ! أو تسأل إن كنت أحبك ؟

بريتانيكيس : إن نيرون لم يعد يعكر صفو سعادتنا .

جونى : ولكن هل تضمن لى إخلاصه ؟

بريتانيكيس : ماذا ؟ هل رتابين فيه وتشكين فى أنه يخفى لنا حقداً دفيناً ؟

جونى : منذ قليل ، كان نيرون يحبنى ، وكان يقسم مصراً على هلاكك ، وهو الآن يفر منى ويسعى إليك ، فهل يمكن أن يكون مثل هذا التحول العظيم وليد ساعته ؟

بريتانيكيس : هذه حركة يا سيدتى دبرتها أجربين ، إذ اعتقدت أن فى

هلاكى ضياعاً لها . وهكذا بدافع من وساوس الغيرة وحرصا على اتخاذ كافة الاحتياطات ، تكفل أخطر أعدائنا بالكفاح من أجلنا . إننى أثق فى شعورها المتدفق الذى أظهرته لى ، كما أثق فى بيروس بل فى سيده أيضاً . وأعتقد أنه مثلى تماماً يعجز عن الخيانة ، وإذا كره أحداً فإما علانية وإلاّ فلا .

جونى : لا تحكم يا سيدى على قلبه بالقياس إلى قلبك . فكلا كما يسير فى طريق يختلف عن طريق الآخر تمام الاختلاف . إننى لا أعرف نيرون ولا البلاط إلا منذ يوم واحد . ولكن ، لو تجاسرت على الكلام -- فيا للأسف ! كم هو شاسع الفرق بين ما يقوله أهل هذا البلاط وبين ما يبطنون ! فلا اتفاق هناك ولا ترابط بين اللسان والقلب ، فهم يطربون كل الطرب حين يحنثون فى العهد ، إن كل شىء هنا غريب ، غريب علىّ وغريب عليك .

بريتانيكيس : ولكن سواء أكانت محبة نيرون خالصة أم زائفة ، فلعله -- وأنت خائفة منه -- خائف هو أيضاً من خطر يتهدده . كلا كلا ! إنه لن يقدم على اعتداء وضيع يؤلب ضده الشعب وندوة الشيوخ . بل ماذا أقول ؟ لقد اعترف بآخر ما اقترف من ظلم وتجلى ندمه واضحاً حتى فى نظر

نارسيس . آه ! ليته أسمعك يا أميرتى إلى أى حد . . .

جونى : ولكن ألا يخونك نارسيس أبداً ؟

بريتانيكيس : ولأى سبب تريدين أن أحذر منه ؟

جونى : لست أدرى ماذا أقول ؟ ولكن حياتك يا سيدى تتوقف على صدق حدسنا . فكل شيء يثير الريبة فى نفسى وأخشى أن يكون هذا كله تضليلا فى تضليل . إننى أخشى نيرون وأخشى النحس الذى يلازمنى . إن إحساساً كئيباً ينذر بالشؤم يخيم بالرغم منى على قلبى . لذا فإننى سأدعك تنصرف عنى وأنا آسفة أشد الأسف . ويا للهول ! لو كان هذا الصلح الذى تمنى به نفسك يخفى شركاً للقضاء على حياتك ! ولو كان نيرون قد ثار سخطه لما بيننا من وفاق، فاختار الليل ليخفى ما بيّته من انتقام ! ويا للهول لو كان يدبر لضربته فى هذا الوقت الذى تتملاّك فيه عيناى ! ويا للمصيبة لو كانت هذه آخر مرة أتحدث فيها إليك ! آه أيها الأمير !

بريتانيكيس : أنت تبكين يا أميرتى العزيزة ! وهل يُشغل قلبك بى إلى هذا الحد ؟ إنك حين تجلى أمامك نيرون فى ملء عظمته مؤمناً بأنه سيبهر عينيك بما له من أبهة، وإذ تحاشانى جميع الناس وتسابقوا إلى تبجيله ، آثرت أنت جانبى التعيس

على جلال بلاطه وروعته. عجباً! فى هذا اليوم نفسه، وفى هذا المكان بعينه ترفضين إمبراطورية وتذرفين الدموع من أجلى! لكن كلا يا سيدتى، كفكفى هذه الدموع الغالية، فسرعان ما ستبدد عودتى إليك جميع مخاوفك. إننى أخشى أن أثير الريبة إذا تأخرت أكثر من ذلك. فإلى اللقاء. أنا ذاهب وقلبى يفيض بحب يتدفق فى فورة الشباب، وقد أعماه سحر جمالك، فلا أرى ولا أناجى إلا أميرتى الحسناء. إلى اللقاء.

جونى : أيها الأمير!

بريتانيكيس : إنهم ينتظروننى يا سيدتى، ويجب أن أذهب إليهم.

جونى : ولكن على الأقل اصبر حتى يرسلوا فى طلبك.

* * *

المشهد الثانى

أجربين – بريتانيكيس – جونى

أجربين : أيها الأمير، ما الذى أخرك؟ اذهب بسرعة، فنيرون بادى القلق والشكوى من غيابك، وقد أمسك جميع المدعوين عن المرح والابتهاج حتى يتم العناق بينكما على مشهد منهم؛ فلا ترهق صبرهم وعجل نوالهم لهذه الأمنية

التي هي من حقهم . هيا . أما نحن يا سيدتي، فلنذهب عند أوكتافي .

بريتانيكيس : هيا يا جوني الجميلة ، وأسرعي بقلب مفعم بالسرور إلى معانقة أختي التي تنتظرك . (مخاطباً أجربين) ، وأنت يا سيدتي سألحق بك متى استطعت لأعبر لك عن شكري لخدماتك وأفضالك .

* * *

المشهد الثالث

أجربين – جوني

أجربين : إما أنني مخطئة فيما أرى يا سيدتي ، وإما أنك ذرفت دموعاً كست بالغشاوة عينيك أثناء توديعك له. فهل لي أن أعلم أي انزعاج سبب هذه الغشاوة ؟ أترتابين في صلح يتم بتوجيه مني ؟

جوني : أيمكنني بعد مرارة كل هذه الهموم التي ذقتها في هذا اليوم ، أن أهدئ من روعي ؟ واحسرتاه! إنه ليتعذر علىّ أن أدرك سر هذه المعجزة ! فاعذريني لو خشيت أن تقوم بعض العقبات دون هذا العمل الكريم . فإن الغدر أمر مألوف في البلاط ، كما تعلمين أن الحب يا مولاتي يلازمه دائماً

إحساس بالقلق والخوف .

أجربين « كفى ، لقد تكلمتُ فتبدل هنا كل شيء . كما أن اهتمامى بالأمر لا ينبغى أن يدع مجالا للريبة فى نفسك . إننى مسئولة عن هذا الصلح الذى أقسم نيرون بين يدى على الوفاء به ، مقدماً لى ضمانات أكيدة لا تحتمل أدنى شك . آه لو رأيت كم أفاض فى ملاطفتى وإرضائى ليجدد لى الولاء والوفاء بالعهد ! لقد أوقفنى منذ لحظات ليعانقنى . . . وأى عناق ! فعندما كنا نودع أحدنا الآخر لم تطعه ذراعاه على تركى سريعاً . وإن طيبته السمحة قد تجلت على جبينه بعد أن سرت فى طيات قلبه جميعاً . كان يحنو على كابن بار ، جاء حراً مختاراً ليرتمى فى أحضان أمه . تاركاً وراءه كل صلف وكبرياء ؛ ولكن سرعان ما استعاد سمات الجد والحزم ، شأنه شأن إمبراطور يستنصح أمه . ثم إن ثقته السامية بى دفعته إلى أن يودعنى أسراراً عليها يتوقف مصير بعض الناس . كلا ! بل يجب علينا إنصافاً لمجده أن نعترف بأن قلبه لا يحمل أدنى ميل إلى الشر أو الخبث . فأعداؤنا وحدهم هم الذين شوهوا طيبته واستغلوا عطفه السمح استغلالا سيئاً فألبوه علينا . ولكننا نرى أخيراً أن سلطانهم أخذ بدوره يضمحل ، وستعود روما مرة أخرى إلى عهد أجربين ، بل

لقد اغتبط الناس فعلا لنبأ استرداد مكانتى .
والآن ، لا داعي للانتظار هنا حتى يجن الليل . فلنتوجه إلى أوكتافى لنقضى معها بقية هذا اليوم الذى فاض سعداً بعد أن حسبته نحساً وشؤماً .
ولكن ماذا أسمع؟ ماهذه الضوضاء التى يضطرب بها القصر؟ ماذا تراهم يفعلون ؟

جونى : أيتها السماء ! ألا فانقذى بريتانيكيس !

* * *

المشهد الرابع

أجربين – جونى – بيروس

أجربين : بيروس ، إلى أين تسرع الخطى ؟ مهلا ! ما معنى . . .

بيروس : مولاتى ، لقد قضى الأمر . إن بريتانيكيس يحتضر .

جونى : أواه ! أى أميرى !

أجربين : يحتضر؟

بيروس : أو إن شئت ، لقد مات يا مولاتى .

جونى : اغفرى يا سيدتى لمشاعرى اضطرابها الجارف ، فسأذهب لنجدته إن استطعت ، أو ألحق به .

* * *

المشهد الخامس

أجربين – بيروس

أجربين : يا له من اغتيال بشع يا بيروس !

بيروس : لن أقوى على الحياة بعد الآن يا مولاتى. وينبغى أن أغادر البلاط والإمبراطور .

أجربين : كيف ؟ ألم يتورع عن إراقة دم أخيه ؟

بيروس : لقد تتابعت الخطة فى سر غامض لم تسفك معه قطرة دم. فما إن رأى الإمبراطور أخاه قادماً حتى نهض وعانقه ثم ساد الصمت، وفجأة تناول القيصر كأساً بيده قائلا : « لكى نختتم هذا اليوم بفأل حسن ، فإن يدى تسكب فى هذه الكأس باكورة الشراب . فيأيتها الآلهة التى شاهدت رى الأرض بهذا الشراب ، تعالى وباركى اجتماعنا وصلحنا » . وأقسم بريتانيكيس بالعهد نفسه، ثم تناول كأساً ملأها له نارسيس ،وما إن لامست شفتاه حافتهاحتى انطفأ نور عينيه؛ إن السيف يا مولاتى لا يجهز بمثل هذه القوة الصاعقة . فسقط فوق مقعده وقد تثلج جسده وفارق الحياة . لك أن تقدرى مدى ما أصابت به هذه الطعنة جميع الناس ، فلقد

خرج نصف الحاضرين فى ذعر يصرخون ويولولون . أما الذين تمرسوا بأمور البلاط من زمن بعيد فقد تفرسوا فى عينى القيصر لكى تطابق سحنتهم سحنته. بينما ظل نيرون متكئاً على مقعده دون أن يبدو عليه أن ثمة دهشة قد مسته ، ثم قال : « إن داء الصرع هذا الذى تخشون حدته ، كثيراً ما هدد طفولته فنجا منه » .

وحاول نارسيس عبثاً أن يتصنع بعض الأسى والحزن ، لكن فرح الغادر بزغ فى عينيه بالرغم منه .

أما أنا ، فقد اخترقت الزحام الشديد فى هذا البلاط البغيض ، غير آبه بما ينزل بى الإمبراطور من عقاب جزاء جرأتى ، وخرجت مثقلا ببشاعة هذا الاغتيال لأبكى بريتانيكيس والقيصر والدولة بأسرها .

آجريبين : ها هو ذا قادم ، وسنرى إن كنت أنا التى أوحيت إليه بما فعل .

* * *

المشهد السادس

أجربين – نيرون – بيروس – نارسيس

نيرون : (يلمح أجربين) يا للآلهة!

أجربين : قف يا نيرون . لدى كلمتان أقولهما لك . بريتانيكيس قد مات . إن مثل هذه الأمور لا تلتبس علىّ خططها . إننى أعرف القاتل .

نيرون : و . . . من هو . . . يا سيدتى ؟

أجربين : أنت .

نيرون : أنا ! تلك هى الظنون والاتهامات التى لا تقدرين إلا عليها . فلا يوجد بلاء إلا وأنا المذنب . ولو أننا يا سيدتى أصغينا إلى أقوالك وأخذنا بها ، لكانت يدى هى التى أجهزت على كلوديوس نفسه . لقد كان ابنه عزيزاً عليك ، فلا غرو أن أضل موته بصيرتك . غير أننى لا أستطيع أن أكون مسئولا عن قضاء القدر .

أجربين : لا ، لا ، إن بريتانيكيس قد مات مسموماً ، فقد دبر نارسيس الخطة وأنت أمرت بتنفيذها .

نيرون : سيدتى . . . ! ومن الذى استطاع أن يقول لك هذا الكلام ؟

نارسيس : كيف يا مولاى ! وهل هذا الظن يهينك أو ينال منك إلى هذا الحد ؟

إن بريتانيكيس يا سيدتى كان يدبر خططاً سرية لو تحققت لكلفتك من نفسك حزناً أشد مما تشعرين به الآن . فقد كان يصبو إلى ما هو أبعد من الزواج بجونى ، كان سيعاقبك على أياديك وأفضالك عليه . لقد كان يخدعك أنت نفسك ، وكان قلبه الذى اكتوى بالإخفاق والإهانات يعتزم أن يبعث الماضى من رقدته إن آجلا أو عاجلا . فسواء تدخل القدر ليواتيك الحظ بالرغم منك ، أو أن القيصر حين علم بالمؤامرات التى تهدد حياته اطمأن إلى مشورتى واعتمد على ولائى ، سواء هذا أو ذاك ، فأرجو يا سيدتى أن تتركى الدموع يذرفها أعداؤك وحدهم ، ودعيهم يعتبروها نكبة ويضعوها فى عداد أبشع ما رأوا من نكبات .

أما أنتِ . . .

أجربين : سر إذن فى طريقك هذا يا نيرون مع مستشارين من هذا الطراز ، فستتألق بمثل هذه الأعمال المجيدة . سر فى طريقك هذه ، فإنك لم تخط هذه الخطوة لكى تتراجع . لقد بدأت يدك بدم أخيك ، وأرى أن الضربة القادمة

ستمتد إلى أمك . فأنا أعلم أنك تمقتني في قرارة نفسك . وأنك تود أن تتحرر من نير أفضالي عليك . ولكنني أتمنى ألا يعود موتي بأدنى فائدة عليك . فلا تحسبن أنني بعد موتي سأدعك هادئاً مطمئن البال ، فإن روما وهذه السماء وهذه الحياة التي منحتك إياها ، ستجعلني أمثل أمامك في كل لحظة وفي كل مكان ، ولسوف يطاردك الندم وكأنه زبانية الجحيم . وعندئذ ستحسب أنك تهدئ من ثورتها بأفعال وحشية أخرى ، ويتململ غضبك وهو يتفاقم فيأبى إلا أن يلطخ كل يوم جديد بدم جديد . ولكنني آمل أن تضج السماء في النهاية بجرائمك فتقضي بهلاكك لتضمك إلى بقية الضحايا ، كما آمل ، بعد أن تتلطخ يدك بدمائي ودمائهم ، أن ترى نفسك مكرهاً على إراقة دمك أنت . وفي الأجيال القادمة ، سيكون اسمك في نظر أكثر الظالمين استبداداً ، وصمة عار ووحشية .

هذا ما يتنبأ لك به قلبي . فوداعاً . يمكنك الآن أن تنصرف عني .

نيرون : اتبعني يا نارسيس .

* * *

المشهد السابع

أجربين – بيروس

أجربين : إيه أيتها السماء! يالإثم ظنونى ! كنت أتهم بيروس وأدينه لأصغى إلى نارسيس ! هل رأيت يا بيروس أية نظرات وحشية ودعنى بها نيرون ؟ لقد قُضى الأمر . ولم يعد أمام هذا المستبد العاتى أى شيء يوقفه : إن الضربة التى تنبأوا بها لى سوف تنزل بى قريباً . ولسوف يصب غضبه عليك أنت بدورك .

بيروس : آه يا مولاتى ! أما عن نفسى فإنى أشعر أن حياتى طالت يوماً أكثر مما ينبغى ، وليت السماء تهدى يده ، التى اتصفت لحسن حظى بالقسوة ، إلى أن تختبرفىّ حدة غضبه القادم ، بل ليت السماء لم تقدم لى برهاناً أكيداً عن نكبات الدولة بهذا الاغتيال المشئوم . إن جريمته لا تستأثر وحدها بيأسى وقنوطى ، بل أضيف إليها غيرته الحقود التى أمكن لها أن تؤلبه على أخيه . ولو شئت يا مولاتى أن أفسر لك مصدر ألمى ، لقلت إن نيرون رأى أخاه يموت دون أن يمتقع لونه ، فإن النظرة التى ألقاها على المشهد بغير اكتراث لا تبرق

بثبات إلا من عيني ظالم عات ، قد تمرس بالإجرام منذ نعومة
أظفاره .
فليمض فى الانتقام إلى غايته ، وليأمر بهلاك مستشار ممجوج
مزعج لم يعد يطيق تعسفه .
واأسفاه ! لم يعد لى منأى من تحاشى غضبه ، لأن أحب
موت إلى نفسى هو الموت العاجل .

* * *

المشهد الثامن

أجربين – بيروس – ألبين

ألبين : آه يا مولاتى ! آه يا مولاى ! أسرعا إلى الإمبراطور ، هيا إلى القيصر لتنقذاه من هياج جنونه إذ ألفى نفسه قد حرم من جونى إلى الأبد .

أجربين : ماذا ؟ هل جونى أيضاً أجهزت على نفسها ؟

ألبين : إنها يا مولاتى لكى تغمر قلب القيصر بألم مرير إلى الأبد ، صممت على أن تصبح عنده فى عداد الموتى دون أن تموت .
فإنك تعلمين كيف ولت هاربة من هذا المكان وادعت أنها ذاهبة لرؤية أوكتافى اليائسة ؛ لكنها سرعان ما اختارت دروباً وسككا غير مطروقة ، وكانت عيناى تلاحق خطواتها

المسرعة ، فرأيتها تخرج من أبواب القصر هائمة على وجهها. وكان تمثال أوغسطس أول ما لاح لها ، فراحت تحتضن بذراعيها رخام قدميه ، وتبلله بدموعها وهى تقول : «أيها الأمير ، باسم هاتين القدمين اللتين أقبلهما ، أسألك اللحظة أن تحمى البقية الباقية من نسلك ، فمنذ قليل شهدت روما فى قصرك مصرع ابن أخيك، الوحيد الذى كان يمكن له أن يشبّ على غرارك . والآن يريدون لى بعد موته أن أخون عهده . لكننى لكى أصون حبى الوفى له ، فى طهر دائم ، فإننى أنذر نفسى أيها الأمير للإلٓهة الخالدة التى أفسحت لك فضائلك مكاناً كريماً بين هيا كلها» .

وفى هذه الأثناء ، هب الشعب الذى صعقه هول ذلك المنظر ، وأقبل من كل مكان يتزاحم حولها ويحيط بها ، وأخذت القلوب ترق لدموعها وترثى لحزنها وأساها . ثم أجمعت كلمة الشعب على أن يساندها ويحميها . فاقتادها إلى ذلك المعبد الذى تؤمه العذارى منذ سنوات طوال ، ليقفن حياتهن على خدمة الهياكل ، وليحفظن فى ولاء وإيمان تلك الوديعة الثمينة ، فيسهرن على أن تظل تلك الشعلة المقدسة متقدة أمام آلهتنا إلى الأبد .

آهم القيصر يذهبون بها إلى هناك دون أن يجرؤ على أن

يثنيهم عن عزمهم. ولكن نارسيس كان أكثر تهوراً، فبادر — إرضاء لسيده — بالتقدم نحو جونى ليوقفها بيده المدنسة دون أن يخشى عاقبة ذلك. فانهالت عليه آلاف الضربات القاتلة، تنزل العقاب بجرأته المتهورة، وتناثرت بعض قطرات من ذلك الدم الخائن لتلوث جونى.

أما القيصر فقد صدم من هول هذه المناظر المتلاحقة، فترك نارسيس بين يدى من أشرفوا على تكفينه، ثم عاد إلى القصر.

والآن يفر الجميع من صمته الوحشى الشرس، ولا تنفرج شفتاه إلا بنطق اسم جونى. فهو يسير هائماً لا يلوى على شىء، وعيناه الزائغتان لا تجرؤان على أن ترفعا للسماء إلا نظرات شاردة. والجميع يخشون أن يجتمع عليه ظلام الليل ووحشة الوحدة، فتثير اضطراب يأسه، وتزيد من حدة همه وقلقه. ولو طال ترككما له دون عون فربما عجل ألمه بالقضاء على حياته. إن الوقت ضيق، فأسرعوا؛ إنه لا يحتاج يا مولاتى إلا إلى الاستجابة لأول حث من نزوته حتى يقضى على نفسه.

أجريبين : إذن لاقتص منها للعدالة.

ولكن هيا بنا يا بيروس لنرى إلى أى مدى يقوده اضطرابه

العقلى ولنتبين ماذا فعل به الندم وما إذا كان قد اعتزم منذ اليوم أن يهتدى لمبادئ ومثل أخرى ، وأن يسلك مسلكاً جديداً .

بيروس : ألا ليت الآلهة تكتب الآن لجرائمه الخاتمة !

* * *



٣

بريتيس

(١٦٧١)

ترجمة

الدكتور أنور لوقا

الدكتور أحمد عبد الحميد يوسف

مراجعة وتقديم

حسن نديم

فحص

عبد الحميد الدواخلى

مكتبة الأسرة ٢٠١٥ - مسرحيات راسين جـ ١

تقديم

يقول فولتير إن مسرحية « برنيس » كانت تحظى دواماً ببالغ الإعجاب ، حين تتوافر الممثلة الملهمة التي تحسن أداء دور برينيس ، والحق أن هذا القول لا يعتوره شيء من المبالغة ، فإن بريق المسرحية يشع من وجه واحد ، وجه الأميرة برينيس ملكة فلسطين ومحبوبة الإمبراطور الرومانى تيتوس ، وكان لا بد لهذا الحب العارم الذى ألف بينهما أن يؤتى أكله ، فيمنحها تيتوس تاجه كما منحها قلبه ، غير أن شعبه أبى عليه أن يقترن بغير رومانية ، فأصاخ السمع ، بعد تردد ، لنداء الواجب ، ونزل على مشيئة الملك وتقاليده على كره منه ، وطرح الحب وراء ظهره تضحية منه وإيثاراً .

والمأساة من حيث الحدث كما نرى غاية فى البساطة ، بل ليس هناك موضوع يبز موضوعها بساطة بين روائع المسرح الكلاسيكى ، ومن ثم لا نجد فيها ما يقتضى التفكير والتحليل العميق ، فقد نسجت برمتها من تردد تيتوس وأمانى برينيس الواجفة ، ثم تنتهى المأساة بخاتمة طبيعية تتسق ومنطق الأحداث ، فيفترق العاشقان فى رضى واستسلام . ولكى يدعم راسين هذا الحدث البسيط فى ذاته ويزيد من بلورته ، عمد إلى خلق شخصية « أنطيوخوس » وجعل هذا الملك يتوله بحب برينيس ويقتفى أثرها

إلى روما ، مؤملا فى الإفادة من تلك القطيعة التى نشبت بينها وبين تيتوس. غير أن برينيس ، وقد ارتضت أن تتنكب سبيل تيتوس، قد آلت على نفسها أن تحيا وحيدة على ذكراه ، فيستسلم أنطيوخوس للقنوط ، ويغرب بدوره عن وجهها كاسف البال حسيراً .

لقد أثار مؤرخو الأدب روايات شتى عما حدا راسين إلى اختيار هذا الموضوع ، فهناك من قائل إنه قد أراد بمسرحيته الإشارة إلى غرام الملك لويس الرابع عشر بمارى مانسينى ، ابنة أخ وزيره مازاران ، ويقرب بين مشهد وداعها للملك وقولها له : « إنك تهوانى ولكنك ملك ، ومن ثم فإنى راحلة » . وبين عبارة جرت على لسان برينيس إذ ودعت تيتوس : « إنك إمبراطور يا مولاى وبرغم ذلك تبكى . . . » ومن أجل هذا الموقف المؤثر اصطلح الناس على أن يصفوا برينيس بأنها مرثية علوية . غير أن « جول لوميتر » يرى أن هذا الوصف يهن من قدر المسرحية ، فيعدل لفظ العبارة ويسمو بمعناها إلى أفق أعلى إذ يقول : «إن برينيس مأساة علوية إلى أبعد مدى» . وهناك من يقول إن هنريت ملكة إنجلترا — وكانت تصبو إلى الزواج من لويس الرابع عشر ، فخيبت دواعى السياسة أملها فى هذا الزواج المنشود — قد اختارت بنفسها هذا الموقف الدرامى واقترحته على كل من راسين الشاب — وكان قد أهدى إليها مسرحيته أندروماك — ومنافسه العجوز كورنى فى آن واحد ، ليكون موضوع مسرحية يتبارى فيها الشاعران كفرسى رهان . ولقد ذكرت هذه الرواية الأخيرة بادئ الأمر فى ثنايا

عبارات مبهمة وردت فى كتاب « حياة كورنى » للكاتب « فونتنيل » ثم تناولها بعد ذلك بمزيد من الإيضاح لويس راسين ثم فولتير. غير أن الرواية على هذه الصورة، وإن صدقها الأقدمون ردحاً من الزمن طويلا، فإنها تفتقر إلى المصدر الوثيق ولا تعدو اليوم إلا مجرد أسطورة.

ومهما يكن من أمر، فإن المنافسة القديمة بين الغريمين كورنى وراسين قد وجدت فى هذا المضمار مجالا رحباً، فقد وضع كورنى مسرحيته، « تيت وبرينيس » وكتب راسين مسرحيته « برينيس ». والحق أن هناك تشبهاً بين المأساتين، ويبدو أن أحد الشاعرين — ولعله راسين — كان عليماً بالقصة التى يدبجها غريمه فسطا عليها. ولكن شتان ما بين أسلوب الشاعرين فى تناول الموضوع: فبينما نجد مسرحية راسين غاية فى البساطة قليلة الأشخاص، تعتمد أكثر ما تعتمد على تحليل النفس البشرية وما يعتمل فيها من عواطف وانفعالات، وتبرأ من المفاجآت المسرحية المفتعلة، نرى مسرحية كورنى مشوبة بالتعقيد البالغ، مشحونة بالأشخاص بغير داع، بعيدة كل البعد عن واقع الحياة. ولقد عرضت « برينيس » راسين للمرة الأولى فى الحادى والعشرين من نوفمبر عام ١٦٧٠ على مسرح « أوتيل دى بورجونى » فصادفت ما هى أهل له من نجاح. وبعد أسبوع من ذلك التاريخ، قام فريق « موليير » بتمثيل مسرحية « تيت وبرينيس » للشاعر كورنى، فقوبلت بفتور ملحوظ. والحق أنها لا تسمو إلى ما بلغته برينيس راسين من شأو، فقد سادها تعقيد فى الأحداث والانفعالات،

وأقحم فيها أشخاص اقتبسها المؤلف من قصة طويلة للشاعر « سجريه » . أما راسين فقد نأى بمسرحيته عن كل ما يشتت ذهن المشاهد ويبعده عن المرمى المنشود ، وحرص كل الحرص على إبراز الإيثار وكرم النفس وصدق العاطفة وعنفوانها ، فى الأشخاص الثلاثة على حد سواء : الإمبراطور والملكة وأنطيوخوس .

وإذ يتطرق بنا الحديث إلى المورد الذى انتهل منه راسين مسرحيته فإننا نرى أن الشاعر قد التمس مبتغاه فى التاريخ القديم . غير أنه لم يجد بين صفحاته فى هذا الصدد سوى مادة ضئيلة ، فقد استقى موضوع برينيس من عبارات موجزة وردت فى الفصل السابع من كتاب تيتوس للمؤرخ الرومانى « سويتون » هذا نصها :

« إن تيتوس الذى جن بحب برينيس ، حتى قيل إنه وعدها بالزواج ، قد أبعدها عن روما فى مستهل حكمه ، على كره منه وكره منها » . ثم يروى سويتون أن تيتوس صديق بريتانيكوس الصدوق كان بغيضاً إلى قلوب الشعب قبل ولايته مقاليد الحكم ، وحدث أن عاب عليه مجلس الشيوخ كلفه ببرينيس ومن ثم أكره على إبعادها إلى المشرق .

أما المؤرخ الرومانى « تاسيت » فيعرض لنا الجزء الثانى من كتابه « التاريخ » شخصية تيتوس فى إطار أكثر إشراقاً ولطفاً ويقول : إن تيتوس قد وقع فى غرام برينيس حين كان فى مملكة يهوذا غير أنه لا يذكر شيئاً عن مصير عاطفته تلك حين آب إلى روما . وأخيراً فإن برينيس كانت كذلك بطلة

قصة طويلة كتبها الشاعر الفرنسى القديم سجريه؛ ولكن راسين لم يقتبس من هذه القصة غير شخصية أنطيوخوس فحسب. وهكذا يعتبر النقاد برينيس مسرحية تاريخية، ترجع أصولها إلى حدث من التاريخ القديم، ولئن كان هذا الحدث بسيطاً فى ذاته، إنه يشكل الدعامة اللازمة لبناء المأساة الكلاسيكية التقليدية ، تلك التى تقضى القواعد بأن تستمد أصولها من أحداث التاريخ . ولعل ذلك ما شد إلى المسرحية جمهور ذلك العصر ، وهو الذى اتسم بسعة الاطلاع وعمق المعرفة .

لقد تميز راسين بتبسيط المواقف ، وحصرها فى أضيق الحدود ، ثم هو فوق ذلك يجعلها فى المرتبة الثانية من اهتمامه ، ويقدم عليها وصف الأشخاص وتحليل انفعالاتها . وهذا ما يبدو جلياً فى مسرحيتنا هذه ، وهو فى هذا الصدد يقول فى مقدمة المسرحية : « قد يظن البعض أن هذه البساطة دليل على ضآلة الخلق والإبداع ، وفاتهم أن الأمر على النقيض من ذلك . وإن الإبداع كل الإبداع يكمن فى قدرتنا على أن نخلق شيئاً من لا شىء ؛ أما تكديس المواقف والمشاهد فإنما يلجأ إليه الشعراء الذين تفتقر عبقريتهم إلى الخصب ، فتعوزهم المقدرة الكافية على هز مشاعر المشاهدين — طوال فصول خمسة — بحدث بسيط ، تدعم من روعته أصالة الانفعال وصدق العاطفة ورشاقة التعبير » . وكان ذلك فى الحق ما توخاه راسين فى مسرحيته ، وإليه يعزى ما أصابت من نجاح منقطع النظير .

وبعد، فهذه مسرحية «برينيس» حملها راسين طابعه أكثر مما حمل سائر روائعه، وصاغها من زفرات عاشقين شاءت الأوضاع الجائرة أن يفترقا، فأذعنا لتلك الأوضاع كرهاً، وفى حنايا الضلوع لوعة لا يخمد لها أوار.

حسن نديم

أشخاص المسرحية

تيتوس	:	إمبراطور روما .
برينيس	:	ملكة فلسطين .
أنطيوخس	:	ملك كوماجين .
بولان	:	أمين تيتوس .
أرساس	:	أمين أنطيوخس .
فينيس	:	أمينة برينيس .
روتيل	:	رومانى .
		حاشية تيتوس .

المنظر : فى روما ، فى بهو بين جناح تيتوس وجناح برينيس فى قصر الإمبراطور.

الفصل الأول

المشهد الأول

أنطيوخس ، أرساس

أنطيوخس : لنقف لحظة ، يا أرساس ، فإنى أرى أبهة هذا المكان جديدة لناظريك . هذه الغرفة الفخمة المنعزلة ما أكثر ما تكون مختبأ سر تيتوس . إنه هنا يتوارى عن بلاطه بين وقت وآخر ، ساعياً إلى الملكة يشرح لها حبه . انظر فإن هذا الباب قريب من جناحه ، وذاك يفضى إلى جناح الملكة . هيا اذهب لديها ، وقل لها إنى سأجرؤ فأثقل عليها آسفاً بطلب حديث خاص .

أرساس : أتثقل عليها أنت يا مولاى ؟ أنت الصديق البار الذى تحتفل بها هذا الاحتفال الكريم ؟ أيثقل عليها أنطيوخس ، حبيبها القديم ؟ أتثقل عليها أنت يا من يعدك الشرق من أعظم ملوكه ؟ ماذا ؟ إنها ما عدت أن تكون زوج تيتوس فى عالم الأمل ، أفتفصل هذه المنزلة بينها وبينك منذ الآن بهذا البون الشاسع ؟

أنطيوخس : قلت اذهب ، ولست أحملك أكثر من أن تستطلع إن كنت أستطيع عما قليل محادثتها على انفراد .

المشهد الثانى

أنطيوخس وحده

إيه أنطيوخس ! أما تزال دائماً كما أنت ؟ أوَ أستطيع أن أقول لها دون أن أرتعد « إنى أحبك » ؟ ولكن ماذا ! هأنذا الآن مرتعش ، مضطرب الفؤاد ، أرهب هذه اللحظة بقدر ما تمنيتها . لقد حرمتني برينيس فيما مضى كل آمالى . بل فرضت على صمتاً أبدياً . فصمت ، صمت خمس سنوات ، وما زلت حتى يومى هذا أحجب بستر من الصداقة حبى . فهل لى أن أعتقد أنها ستصغى إلىّ وهى فى هذه المنزلة التى يعدها لها تيتوس خيراً مما كانت تصغى إلىّ فى فلسطين ؟ إنه سيتزوجها ، فهل قد انتظرت هذه اللحظة حتى أفاتحها بحبى من جديد ؟ وما عسى أن يجدى هذا الاعتراف الجرىء ؟ آه ! ما دام الرحيل قد حقّ علىّ ، فلأرحل من غير أن أسوءها . لأنسحبن ولأخرجن ، دون أن أبوح بما أكنّ لها ، هيا بعيداً عن عينيها إما لنسيان أو لموت ، آه !

ولكن ، أأشقى دائماً وهى لا تدرى بعذابى ؟ أأظل أسكب من الدمع ما ينبغى أن أحبسه ؟ وما لى أخاف غضبها وقد فقدتها ؟ أيتها الملكة الجميلة ، وعلام تغضبين ؟ هل أتيتك أطلب أن تتزلى عن الإمبراطورية ؟ أو طلبت منك أن تحبينى ؟ واحسرتاه ! ما أتيت إلا لأخبرك بأنى بعد أن طال تعللى بأن تعرض لأمانى غريمى عقبة كئود ، الآن وقد أصبح تيتوس قادراً على كل شىء ، ومضى زواجكما قدماً ، وغدوت مثلا شقيًّا على وفاء طال عهده ، هأنذا أرحل بعد خمس سنوات من حب ومن أمل ضائع ، هأنذا أرحل على وفائى وإن لم يعد لى أمل بعد ذلك . قد ترق لى بدلا من أن تغضب على . مهما يكن من شىء ، فلأحدثها ، حسبى حزناً ما حملت حتى اليوم ، وماذا يحذر ، واحسرتاه ! محب يائس قد يضطر إلى أن يقضى على نفسه بألا يراها أبداً ؟

المشهد الثالث

أنطيوخس ، أرساس

أنطيوخس : أرساس ، هل آذنت بلقائى ؟

أرساس : لقيت الملكة يا مولاى ، ولكنى لم أستطع أن أمثل بين يديها إلا بعد أن شققت فى عناء لجحاً متجددة من خلق حتى دفعها إلى ترسم خطاها ما هى مقبلة عليه من المجد . فقد انتهى تيتوس من بكاء أبيه فسبازيان بعد ثمانية أيام قاسية من الحداد ، ثم انصرف ذلك المحب إلى شجون غرامه ، ولئن صدقت أحاديث البلاط يا مولاى ، فقد تبدل برينيس السعيدة بلقب الملكة لقب الإمبراطورة قبل أن يجن الليل .

أنطيوخس : واحسرتاه !

أرساس : ماذا ؟ أيمكن أن يسوءك هذا الحديث ؟

أنطيوخس : أفلا أستطيع إذن أن أحدثها دون ما رقيب ؟

أرساس : ستراها ، مولاى ، فقد عرفت برينيس أنك تود لقاءها هنا وحيدة دون أتباع . وقد تفضلت الملكة بنظرة منها فوعدتنى بأنها مجيبة سؤلك ، ولا شك فى أنها تنتظر اللحظة المواتية التى تتوارى فيها عن أعين حاشية تضيق بها .

أنطيوخس : يكفى . ولعلك لم تهمل شيئاً من المهام الخطيرة التى حملتك إياها .

أرساس : مولاى يعرف سرعة طاعتى ، وإن فى « أوستى » لسفناً قد أسرعت إلى عدتها ، متأهبة لأن تبرح الميناء ، تهم بين لحظة وأخرى ، ولا تنتظر ، كى ترحل ، إلا أوامرك . ولكن

مولاى ، من ذا الذى تريد رحيله إلى مملكتك كوماجين ؟

أنطيوخس : لا بد من الرحيل ، أرساس ، بعد أن ألقى الملكة .

أرساس : ومن ينبغى له الرحيل ؟

أنطيوخس : أنا .

أرساس : أنتم ؟

أنطيوخس : فإنى عندما أخرج من القصر ، سأخرج يا أرساس من روما ، وسأبرحها إلى غير عودة .

أرساس : إنى لفى عجب ، ولى الحق فى دهشتى . عجباً ! فقد انترعتك الملكة برينيس من قلب ولاياتك منذ أمد بعيد ، ووقفت خطاك فى روما أعواماً ثلاثة ، حتى إذا تحققت هذه الملكة من ظفرها ، وانتظرتك لكى تكون شاهد ذلك الحفل الرائع ، وحتى إذا أعد لها تيتوس الحبيب ، وقد أصبح زوجها ، مجداً ساطعاً يفيض نوره عليك . . .

أنطيوخس : أرساس ، دعها تسعد بنعماها ، وأقلع عن حديث تضيق به نفسى .

أرساس : إنى فهمتك سيدى ، فإن ما قد حظيت به برينيس قد ردّها كافرة بمودتك ، والكفر مخبثة لنفس المنعم .

أنطيوخس : كلا ، أرساس ، فما كرهتها يوماً أقل مما أكرهها الآن .

أرساس : ماذا إذن ! أوَقد شط الكبر بالإمبراطور الجديد وازدهته

عظمته فأنكرك ! أيدفعك استياء من إهماله قدرك إلى تجنب محضره بعيداً عن روما ؟

أنطيوخس : لا ، تيتوس لم يبد لى قط متنكراً ، وإنى لأجور عليه إذا شكوت .

أرساس : فعلام الرحيل إذن؟ وأى نزق يجعل منك عدوًّا لنفسك؟ لقد شاءت السماء أن تبوئ العرش أميراً يحبك ، أميراً قد شهد نضالك ، ورآك تطلب المجد والاستشهاد فى أثر خطاه ، وهو الذى أخضع لنيره اليهودية المتمردة حين ظاهرت عزيمته بجهادك . إنه ليذكر ذلك اليوم المشهود الأليم ، ذلك اليوم الذى حسم حصاراً طويلا مريباً ، يوم وقف الأعداء على حصونهم المثلوثة ، مطمئنين لا يخشون بأساً ، يتأملون هجماتنا الخائبة ، إذ كانت عبثاً تهددهم كباشنا العاجزة ، هناك لم يكن إلا أنت يا مولاى ، أنت وحدك الذى حملت المعراج فى يدك فحملت الموت إلى ذرى جدرانهم . وأوشك ذلك اليوم أن يكون نعيك ، فقبلك تيتوس وأنت تحتضر بين ذراعىّ ، وبكى الأجناد المنتصرون وفاتك . لقد حان يا مولاى الموعد الذى ينبغى أن نتوقع فيه ثمرة ذلك الدم الغزير الذى شهدوك تريقه. فإن كنت عجلا يستخفك الحنين إلى رؤية بلادك ، وإن كنت قد سئمت العيش حيث لا سلطان

لك ، فهل ينبغي أن يلقاك الفرات بلا محمدة ؟ انتظر لرحيلك أن يبعثك قيصر مظفراً ، محملا بألقاب الإمارة التي تضيفها كذلك إلى الملوك صداقة الرومان . أو لن يقدر شيء يا مولاي ، أن يغير من عزمك ؟ إنك لا تجيب ؟

أنطيوخس : ماذا تريد أن أقول؟ فإني أنتظر من برينيس لحظة للحديث .

أرساس : ثم ماذا بعد يا مولاي ؟

أنطيوخس : سيقرر حظها مصيري .

أرساس : كيف ؟

أنطيوخس : إني أنتظر أن تجلو لي أمر زواجها ، فإن أكد قولها ما يذاع بين الناس جميعاً ، وإن كان حقًّا أنها سترقى إلى عرش القياصرة ، وإن كان تيتوس قد صرح بزواجه إياها ، فإني راحل .

أرساس : ولكن ما الذي أسبغ هذا الشؤم كله على هذا الزواج في في عينيك ؟

أنطيوخس : سأظهرك إذا ما رحلنا على بقية الأمر .

أرساس : ما أشد يا مولاي الحيرة التي تلقي بها في نفسي !

أنطيوخس : الملكة قادمة . وداعاً ، واصدع بكل ما أمرتك به .

* * *

المشهد الرابع

برينيس ، أنطيوخس ، فينيس

برينيس : هأنذى آخر الأمر أفر من ذلك الابتهاج الثقيل الذى يحطينى به هؤلاء الأصدقاء المحدثون الذين ساقهم لى القدر، أفر من إطنابهم فى التحيات واسترسالهم فى التجلات ملتمسة صديقاً يحدثنى من فؤاده ، وما أريد الكذب ؛ فقد حملنى صبرى النافد بحق على اتهامك بأنك أهملتنى بعض الإهمال . لقد قلت عجباً لأنطيوخس ، ذلك الذى شهد الشرق بأسره عودته كما شهدتها روما ، ذلك الذى كنت أراه فى أزماتى وفياً دائماً يتابع بخطى ثابتة ما ينتابنى من سعد وبؤس . عجباً لك اليوم إذ تبشرنى السماء، فيما يلوح ، ببهجة من المجد أود أن أقتسمها معك ، أنظر فإذا أنطيوخس نفسه يحتجب عن ناظرى ويتركنى تحت زحمة جمهور من الناس لا أعرفهم .

أنطيوخس : أحق إذن يا سيدتى؟ وتصديقاً لهذا الحديث، سيتبع الزواج غرامكما الطويل ؟

برينيس : سيدى ، بودى أن أفضى إليك بمخاوفى : لقد شهدت هذه الأيام عينى تغمرها الدموع ، فإن هذا الحداد الطويل الذى

فرضه تيتوس على بلاطه قد أسكت ضمناً حبه إياى ، فما عاد يكن لى مثل ذلك الأجيج المستعر حين كان يقضى الأيام متعلقاً بعينى . فهو الآن صامت ، مثقل بالأعباء ، قد أغرورقت عيناه بالدموع . وأصبح لا يلقى إلى سوى تحيات حزينة. قدر ألمى ، أنا التى لاتنشد عاطفتى المضطرمة إلى أقصاها شيئاً ، كما قلت لك مائة مرة ، ولا تحب فيه سوى شخصه ، أنا التى ، بغض النظر عما أكتسى من عظمة ومجد ، لم أكن لأختار إلا قلبه ولم أكن لألتمس إلا مناقبه .

أنطيوخس : وهل عاودك عاطفته الأولى ؟

برينيس : لقد كنت شاهداً لهذه الليلة البارحة حين ظاهره الشيوخ فى حمل أعبائه الدينية فأحلوا أباه فى مصاف الآلهة . ولما رضيت تقواه بهذا الواجب العادل ، أفسحت له الطريق يا سيدى إلى مودة حبيبته ، وهو فى هذه اللحظة — وما أخبرنى بذلك — مع شيوخ الشورى المجتمعين بأمره ، حيث يبسط حدود فلسطين ، ويضم إليها بلاد العرب وسوريا كلها ؛ ولئن صدقت ما يقول أخدانه ، وإن أخذت بما أقسم من الأيمان مرات ، فسيتوج برينيس على كل هذه البلاد ، كى تعظم الألقاب التى يضيف إليها لقب الإمبراطورة . ولسوف يسعى

إلىّ بنفسه ليؤكد لى ذلك ها هنا .

أنطيوخس : إذن ، فقد أتيت أقول لك وداعاً إلى الأبد .

برينيس : ماذا تقول ؟ آه ! يا للسماء! أى وداع ! وأى حديث هذا ! إنك تضطرب أيها الأمير . وإن وجهك ليحول .

أنطيوخس : سيدتى ، لا بد من الرحيل .

برينيس كيف ؟ أفلا أستطيع أن أعرف ما الداعى إلى . . .

أنطيوخس : (مخاطباً نفسه) : كان ينبغى لى أن أرحل دون أن أراها .

برينيس : ماذا تخشى ؟ تكلم ، حسبنا هذا الصمت الطويل ، سيدى ، ما سر هذا الرحيل ؟

أنطيوخس : اذكرى على الأقل أنى إنما أنزل على ما أردت ، وأنك تسمعيننى لآخر مرة . فإن كنت تذكرين ، وأنت الآن فيما أنت فيه من رفيع الشأن والمجد والاقتدار ، تلك الربوع التى ولدت فيها ، فستذكرين يا سيدتى أن فؤادى قد تلقى فى هذه الربوع أول سهم أرسلته عيناك ، فأحببت ، واستنصرت رضا أخيك أجريباس ، فحدثك من أجلى . ولعلك أوشكت دون غضب أن تقبلى فريضة حبى ، وإذا تيتوس لسوء طالعى ينزل ، فيراك ، ويروقك ؛ وإذا هو يبدو أمام ناظريك فى أعظم ما يكون من روعة الرجل الذى يحمل بين يديه ثأر روما . ولقد روع اليهود . ولكن أنطيوخس

البائس نظر فرأى نفسه أول المغلوبين . وما لبث لسانك حتى غدا الترجمان القاسي الذي يفصح عن شقائي ، فأمرني بالصمت . ولقد ناضلت طويلا ، وجعلت عيني تتكلمان ، وتعقبتك دموعي وزفراتي أنني حللت من الأرض . ثم رجحت الميزان قسوتك ، وعرفت كيف تفرضين علي النفي أو الصمت . فلم يكن لي بد من أن أعدك بصمتي ، بل لقد أقسمت لك عليه . ولكني ما دمت هذه اللحظة قد اجترأت على التصريح ، فهأنذا أعترف بأن قلبي ، حين انتزعت مني ذلك الوعد الجائر ، كان يقسم أن يظل مقيماً على حبك .

برينيس : آه ! ماذا تقول لي ؟

أنطيوخس : لقد فرضت الصمت على نفسي خمس سنوات يا سيدتي ، وسأصمت منذ اليوم صمتاً أطول من ذلك .

حالفت سلاح غريمي المجدود ، وقد كنت أرجو أن يراق دمي بعد أن أرقت الدموع ، أو على الأقل أن تحمل إليك أنباء المعارك اسمي لعله يستطيع أن يحدثك بدلا من صوتي . وبدا أن السماء قد أذنت بخاتمة لألمي . فإذا أنت تبكين موتي ، وا أسفي ! ما كان أبعده عن اليقين ! يا لها من أخطار باطلة ! وما أشد ما كان ضلالي ! لقد طغى قدر

تيتوس على همّى ، ولا مفرّ من أن يتبع قدرى فضله فمع أنه يا سيدتى هو الذى قضى له أن يسود العالم ، وأن تعزّه الدنيا ، وأن تحبيه أنت آخر الأمر ، فكأنّ له وحده كانت تنتسب كل رمية ساعد ، على حين لم يكن يبدو غريمه التعس ، المستيئس ، البغيض ، الكاره للحياة إلاّ تابعاً يتبعه .

إنى لأرى قلبك يسر لى الثناء ، أرى أنك تصغين لى وأنت أقل أسفاً على ما أعرتنى من وعيك ، وأنك ، وقد أرهفت السمع إلى هذه القصة المشئومة ، ستغتفرين لى من أجل تيتوس أن أتمها .

أخيراً ، وبعد حصار كان هائلا مروعاً بقدر ما كان بطيئاً ثقيلا ، قمع الثوار ، وأقام شاحباً دامياً من الحريق والجوع والحقد ، ثم مضى عنهم وقد أخفى تحت الحطام حصونهم . ولقد شهدتك روما يا سيدتى تحلين عليها فى صحبته . وفى الشرق المهجور ما كان أمض وحشتى ! أقمت طويلا فى قيصرية هائماً : كانت مهاد السحر حيث تعبد لك قلبى . ورحت أسائل عنك بلادك الحزينة ، وأفتقد باكياً آثار خطاك . فلما رزحت تحت لوعتى ونؤت بشجونى ، حوّل اليأس خطاى نحو إيطاليا . وهنا كان القدر يدخر لى آخر

ضرباته . فقد عانقنى تيتوس واصطحبنى إليك . وهو سر
من الصداقة عليك وعليه ، فغدا حبى ذلك الأمين
الذى تودعينه أسرار حبك . غير أن شيئاً من الأمل
كان لى دائماً من شقائى روحاً وعزاء . فقد أنكرت روما
وأنكر ڤسبازيان عليك زفراتك، ولربما أذعن تيتوس بعد
ذلك النضال العنيف . ولكن ڤسبازيان قد مات ، وأصبح
تيتوس هو السيد . فلماذا لم ألذ بالفرار إذ ذاك ! لقد أردت
أن أرقب بضعة أيام كيف يمضى ملكه الجديد .

أما الآن فقد أكمل حظى ، وتهيأت لك العزة . وما أكثر
من سيشهدون هذا الحفل سواى ، فيقبلون عليكما يضيفون
إلى أفراحكما الهنيئة غبطتهم وبهجتهم . أما أنا الذى
لا أستطيع أن أمزج بها إلا دموعاً ، أما أنا وقد ذهبت
ضحية أسرفت فى الوفاء لحب باطل ، وقد أسعدنى فى
شقائى أننى استطعت غير آثم أن أروى قصته بأكملها
للعينين اللتين بعثتاه ، فإنى راحل وأنا أشد ما أكون حباً .

برنيس : سيدى ، لم أكن أعتقد أن امرأً يأتينى غير وجل فى
اليوم الذى قدر لمصيرى فيه أن يرتبط بقيصر فيعلن على مرأى
منى حبه إياى . ولكن صداقتى كفيلة بصمتى ، وسأنسى
إكراماً لها حديثاً يهيننى . إنى لم أشأ أن أعكر مجرى هذا الحديث

المسيء . وسأتقبل فوق ذلك وداعك آسفة . وتشهد السماء أنى وسط ما تنعم به على من هبات الشرف ، لم أكن أنتظر سواك شاهداً لفرحتى . لقد كنت مع الدنيا بأسرها أبجل فضائلك ، وكان تيتوس يعزك ، وكنت تعجب بتيتوس . وكم من مرة متعت نفسى بلذة عذبة وأنا أحدث تيتوس فى شخص تيتوس آخر .

انطيوخس : وهذا ما حرصت على أن أفر منه . فإنى أتجنب ، ولكن بعد أن فات الأوان ، هذه الأحاديث الجائرة التى ليس لى فيها نصيب . أفر من تيتوس : أفرّ من ذلك الاسم الذى يقلقنى . ذلك الاسم الذى ترده شفتاك فى كل لحظة . وبعد ، فماذا أقول لك ؟ سأفر من هاتين العينين الشاردتين ، من هاتين العينين اللتين كانتا تنظران إلى دائماً ولم تريانى أبداً . وداعاً ، فسأمضى والقلب ممتلىء بصورتك ، أنتظر ، وأنا على حبك ، الموت لى نصيباً . ولكن لا تخشى قط أن يملأ العالم أسى أعمى بحديث شقائى . فلن يذكرك يا سيدتى بأنى كنت حيًّا إلا نبأ الموت الذى أنشده . وداعاً .

* * *

المشهد الخامس

برينيس ، فينيس

فينيس : كم أرثى له ! مثل هذا الوفاء يا مولاتى كان يستحق حظًّا أكبر من التوفيق . أما ترثين له ؟

برينيس : إنى أعترف ، يافينيس ،أن هذا الانسحاب العاجل قد أثار فى نفسى حزناً خفيًّا .

فينيس : لو كان الأمر لى لأبقيته .

برينيس : من ؟ أنا ؟ بل ينبغى أن أنسى حتى ذكراه . أوَتبغين أن أمنى بالأوهام جذوة حمقاء ؟

فينيس : إن تيتوس لم يجل للآن ما يكن فى ضميره . وروما تنظر إليك ياسيدتى بعين حاسدة ، وإن صرامة قوانينها لتخيفنى عليك : فغير مشروع لدى الرومان أن يتزوج المرء بغير رومانية. إن روما تبغض الملوك طرًّا. وبرينيس ، يا مولاتى ، ملكة :

برينيس : لقد مضى ، فينيس ، العهد الذى كنت أفرق فيه. إن تيتوس يحبنى ، وهو قادر على كل شىء ، فما عليه الآن

إلا أن يتكلم. وسوف يرى مجلس الشيوخ يحمل إل
ولاءه، والشعب يتوج بالزهور تماثيله.
ألم ترى، يا فينيس، روعة تلك الليلة؟ أما امتلأت عيناك
بجلالها؟ أما رأيت هذه المشاعل، وذلك الوقود المتأجج
بل تلك الليلة المضطرمة الساطعة؛ تلك النسور والباقات.
وذلك الشعب وذلك الجيش، وهذا الحشد من الملوك وهؤلاء
القناصل والشيوخ الذين كانوا جميعاً يستمدون بهاءهم من
حبيبي؟ أما امتلأت عيناك بهذا الأرجوان وذلك العقيان
اللذين ازدهيا بمجده، وذلك الغار الذي ما زال يشهد
بانتصاره، وتلك العيون التي رأيتاها تقبل من كل فج
لتختلط نظراتها النهمة وتستقر عليه وحده، وتلك الطلعة
المهيبة وذلك المحضر الرقيق. أيتها السماء! بأى إجلال وأية
مودة كانت القلوب تسر له الإخلاص وتؤكد له ولاءها!
قولى: أيستطيع امرؤ أن ينظر إليه دون أن يخالجه
ما يخالجني من أنه قدر عليه أن يولد نكرة مغموراً،
فلا بد أن العالم عارف فيه سيده حين يراه، ولكن إلى أين،
يافينيس، تحملني هذه الذكرى الساحرة؟
إنما روما قاطبة تزجى فى هذه اللحظة الدعوات وتنحر الهدى
احتفاء ببواكير ملكه الوليد. ففيم التوانى، تعالى نحن أيضاً

نرفع الدعوات إلى السماء كى تحفظ ملكه الميمون . وسأعود فألتمسه فى الحال ، من غير أن أنتظره دون أن ينتظرنى ، وفى ذلك اللقاء سيقول كل منا ، وهو سعيد بصاحبه ، ما يوحى به إلى القلب شعور الفرحة والهيام الحبيس حتى الآن .

* * *

الفصل الثانى

المشهد الأول

تيتوس ، بولان ، حاشية

تيتوس : ألم يرَ أحد من قِبلى أمير كوماجين؟ أيعرف أنّى أنتظره ؟

بولان : لقد أسرعت إلى الملكة. فقد شوهد ذلك الأمير فى جناحها ، ولكنه كان قد خرج حالما أسرعت إلى هناك . ولقد أمرت أن يعلموه بإرادة مولاى .

تيتوس : كفى . وماذا تفعل الملكة برينيس ؟

بولان : إن الملكة فى هذه اللحظة ، وقد أحسّت بجميل مودتكم ، تحمل السماء بالنذور من أجل يمنكم ، لقد كانت خارجة يا مولاى .

تيتوس : يا للأميرة المحبوبة ! واأسفاه !

بولان : بحقها ما مصدر هذا الأسى ؟ فسيخضع الشرق جله تحت حكمها ، أتشفق عليها ؟

تيتوس : فلتتركن معى بولان .

المشهد الثانى

تيتوس : بولان

تيتوس : أجل! ما زالت روما، على غير بينة مما اعتزم، تنتظر يا بولان ما يكون مصير الملكة، لقد أصبحت أسرار قلبينا حديث الناس فى الأرض . وها قد آن لى الآن أن أجلو ذات نفسى . فماذا يقول الناس عن الملكة وماذا يقولون عنى ! تكلم : ماذا تنتظر ؟

بولان : إنى أسمع الألسن من كل صوب تشيد بفضائلكم، يا مولاى، وتتحدث بجمالها .

تيتوس : وماذا يقولون فيما أصعد لها من زفرات ؟ وماذا يتوقعون لهذا الحب الوفى من عواقب ؟

بولان : إن مولاى يقدر على كل شيء: يستطيع أن يحب، ويستطيع أن يكف عن ذلك ، وسيظل البلاط دائماً مؤيداً لرغباتك .

تيتوس : أنا أعرف هذا البلاط المنافق ، ولقد رأيته أحرص ما يكون على أن يرضى سادته دائماً، رأيته يؤيد من جرائم نيرون أبشعها، ورأيته جاثياً يقدس بغيه وجنونه. لا، إنى لن أتخذ قضاتى

من هؤلاء الذين يركعون لأصنامهم من الملوك يا بولان :
وإنما أعرض نفسي على شهود أشرف من أولئك، لن غير
سمعي لصوت المتملقين، وإنما أريد أن أسمع من فيك أنت
حديث القلوب جميعاً . ولقد وعدتني ذلك . إن الإجلال
والرهبة يغلقان دوني سبيل الشكاة ، وقد عهدت إليك ،
يا عزيزي بولان، أن تكون ذا سمع وبصر كيما أكون بك أدق
سمعاً وأبعد بصراً. وبهذا الشرط قد علقت صداقتي الخاصة .
أردتك أن تكون ترجماناً للقلوب، وأن يسير إخلاصك إلى
الحق خلال نفاق المداهنين . تكلم إذن . ماذا ينبغي
لبرينيس أن تأمل ؟ هل ترفق بها روما أو تقسو عليها ؟ وهل
أعتقد أن ملكة في مثل هذا الجمال تؤذي أنظار روما إذا
استوت على عرش القياصرة ؟

بولان : لا تشك في ذلك مولاي : إن كان عن عقل أو عن نزق ،
فإن روما لا تتوقعها قط أن تكون إمبراطورة عليها . إنهم
يرونها ذات فتنة ورواء ، ويبدو لهم أن هاتين اليدين
الجملتين خليقتان بأن تسألاك عرش العالمين . بل إن لها ،
فيما يقولون ، قلب الرومانيات. وإن لها من الفضائل ما لا يعد
ولا يحصى . ولكنها يا مولاي ملكة أجنبية . ولن تقبل روما
بما استنت من شرعة لا سبيل إلى تبديلها ، أن يقترن بدمها

دم أجنبي ولن تعترف بذرية كانت ثمرة زواج يخالف أحكامها. ومع ذلك فإنك تعرف أن روما منذ نبذت ملوكها قد حملت لهذا اللقب، وما كان أسماه وأقدسه من لقب، بغضاً شديداً مدى الدهر. وعلى الرغم من ولائها وطاعتها لقياصرها فما زال هذا البغض، وهو من آثار كبرها، حياً في القلوب بعد عصر الحرية. لقد كان يوليوس، وهو أول من أرغم روما بأسلحته، وهو الذى أخرس الشرائع في صخب وعيده، يتحرق حباً لكليوباترة، ولكنه رحل عنها دون أن يعلن حبه، وخلفها في الشرق وحيدة والهة. ولم يجرؤ أنطونيو على أن يدعو نفسه زوجها، وهو الذى جن بحبها حتى كاد يعبدها ونسى في أحضانها شرفه ووطنه. لقد مضت روما فافتقدته هنالك عند ركبتيها، ولم تهدأ ثورة ضغنها حتى بطشت بالعاشق والعاشقة. ومنذ ذلك الحين، يا مولاى، لم يخف نيرون وكاليجولا، هذان الوحشان اللذان آسف أن ذكرت اسميهما أمام مولاى، هذان اللذان لم يحتفظا من الإنسان إلا بصورته، واللذان داسا بأقدامهما كل شرائع روما، لم يخش هذان الطاغيتان إلا ذلك القانون وحده، فلم يستطيعا أن يضرما مشعل هذا الزواج المنكر. ولقد أمرتنى أن

أكون قبل كل شىء صادقاً مخلصاً . إذن فسأقول إننا قد رأينا فيلكس، أخا الرقيق المعتق بالامس — فيلكس هذا الذى وسمه بالحديد مولاه كلوديوس — رأيناه يصبح زوجاً للملكتين . وإذا كان علىّ أن أطيع مولاى إلى النهاية ، فسأقول إن هاتين الملكتين كانتا من دم برينيس، أفتعتقد أنك تستطيع دون أن تؤذى أنظارنا ، أن تُدخل إلى سرير قياصرتنا ملكة شرقية ، على حين قد شهد الشرق عبداً خارجاً من أصفادنا يدلف إلى سرير ملكاته ؟ ذلك رأى الرومان فى حبك ، وأكبر الظن أن مجلس الشيوخ سوف يأتيك ، قبل انقضاء النهار ، يحمل إليك أمانى الإمبراطورية جمعاء ، فيعيد عليك ما حدثتك به الآن ، وأكبر الظن أن روما سوف تخر معه ضارعة عند قدميك ، تسألك أن تختار من هو جدير بكرامتها وكرامتك ، ولك يا مولاى أن تعدّ جوابك .

تيتوس : واحسرتاه ! فى أى حب يريدوننى أن أزهد !

بولان : إنه حب مستعر ، لا بد أن نعترف بذلك .

تيتوس : مستعر ألف ضعف فوق ما تستطيع أن تقدر يا بولان . فلقد جعلت لنفسى من رؤيتها فى كل يوم، ومن حبها ، وإرضائها لذة لا غناء عنها لى . بل إنى (ولا أخفى عنك سرًّا) قد حمدت للآلهة مائة مرة أنها اختارت أبى عاهلا لفلسطين ،

وأنها جمعت الشرق والجيش تحت إمرته ، وأنها فى إثارتها لبقية الخلق قد وضعت روما الدامية فى يديه الآسيتين. بل لقد تمنيت مكانة أبى ومنصبه ، أنا الذى ما كنت أحجم يا پولان ، لو كان القدر أخفّ مضاء ، أن أهب له من عمرى مزيداً لأيامه . كل ذلك (وما أشق على المتيم أن يعرف من أمره ما يريد) كل ذلك على أمل أن أرفع برينيس إلى عرش الإمبراطورية ، وأن أعترف يوماً بجميل ما أولتنى من حب وإخلاص ، وعلى أمل أن أرى العالم يركع معى عند قدميها . والآن : يا بولان ، على الرغم من كل ما بى من حب ، وعلى الرغم من كل ما لها من سحر ، وبعد ألف قسم وكدتها بدمعى ، الآن إذ أستطيع أن أتوج تلك الفتنة ، الآن أحبها كما لم أحبها من قبل ، وإذ يوشك زواج سعيد أن يربط مصيرينا فيحقق فى يوم واحد آمال خمس سنوات ، سوف . . . آه أيتها السماء ! هل أستطيع أن أعلن ؟

بولان : ماذا يا مولاى ؟

تيتوس : سوف أفارقها إلى آخر الدهر . إن قلبى فى هذه اللحظة يعصانى ويثور على قرارى . إن كنت قد أردتك على الحديث وأردت أن أسمعك ، فقد كنت أرجو أن ينتهى فى الخفاء إخلاصك لى بأن يخرس حباً صامتاً مرغماً على الصمت.

لقد ظلت برينيس تؤرجح ميزان الفوز زماناً طويلا .
ولئن ملت آخر الأمر إلى ترجيح كفة شرفى ، فكن على
يقين من أن انتصارى على كل هذا الحب قد كلفنى
صراعاً سيدمى منه قلبي مليًّا. لقد كنت أحب وكنت أصعد
الزفرات فى هدوء عميق ، إذ كان على غيرى عبء ملك
العالم : كنت سيد مصيرى ، طليقاً فى عواطفى ، لا مردّ
لرغبات نفسى إلا لنفسى . فما كادت السماء تدعو أبى ،
وما كادت يدى الحزينة تغمض عينيه حتى صحوت من
ضلالى العذب ، وأحسست ما أُلقى على عاتقى من عبء ،
وعرفت أنى لن أكون عما قليل لمن أحب فحسب ، بل إن
علىّ ، يا عزيزى بولان، أن أزهد فى نفسى ، وعرفت أن
إرادة الآلهة ، المعارضة لعاطفتى ، قد قضت بأن تهب
العالم بقية عمرى . إن روما لترقب اليوم ما يكون من خطتى
الجديدة ، فأى عار علىّ وأى نحس لها إن أنا قلبت شرائعها
منذ الخطوة الأولى ، وشيدت سعادتى على حطام قوانينها !
لقد عزمت على أن أبذل هذه التضحية القاسية ، وأردت
أن أهيئ لها برينيس المسكينة ، ولكن من أين لنا أن نبدأ ؟
لقد حاولت فى هذه الأيام الثمانية أن أفتتح الحديث على
مسمعها ، حاولت عشرين مرة فعىّ لسانى كل مرة لدى الكلمة

الأولى وظل فى فمى جامداً. وقد كنت أرجو على الأقل أن ينبهها اضطرابى وألمى إلى ما سيصيبنا من شقاء، غير أنها لم تخالجها فىّ ريبة، وإنما عطفت على أشجانى، فأهدت إلىّ يدها تكفكف من دمعى، وهى تستطيع أن ترى فى هذا القتام كل شىء إلا نهاية حب قد أسرفت فى استحقاقه. وأخيراً أهبت هذا الصباح بعزمى: فلا بد من لقائها، يا بولان، وقطع هذا الصمت. وإنى فى انتظار أنطيوخس حتى أعهد إليه بهذه الوديعة الثمينة التى لا أستطيع لها وعياً. أريد أن يردها إلى الشرق. وغداً ستشهد روما الملكة راحلة معه. وهى ستعلم ذلك بعد قليل بلسانى، فسوف أحدثها حديثى الأخير.

بولان : ما كنت أنتظر من حب الشرف الذى تعقبكم بالنصر فى كل ميدان شيئاً أقل من ذلك. إن اليهودية المستعبدة وحصونها المجللة بالدخان لآثار خالدة لهذه الجذوة الكريمة كانت تضمن لى أن بطولتكم تأبى، يا مولاى، أن تدمر ما شيدت؛ وأن صنديداً قهر كل هذه الأمم لقاهر عواطفه عاجلا أو آجلا.

تيتوس : آه! ما أقسى ما يخبئ الشرف تحت هذه الألقاب الجميلة! وما أجمل هذا الشرف فى عينى لو لم يكن أمامى

إلا أن ألقى الردى! ماذا أقول؟ فإن برينيس هى التى قد أشعلت فى صدرى جذوة تعلقى بالشرف. وأنت لا تجهل أن الصيت لم يدع اسمى بنسبة واحدة من المجد فى كل آن. فقد أنبت صباى فى بلاط نيرون، فضلله المثل الفاسد، وانحدر فى سبيل المتع الهينة الميسرة. ثم راقتنى برينيس. وأى شىء لا يفعله القلب حتى يرضى من يحب ويغتنم غالبه؟ لقد بذلت دمى، وأفسح كل شىء لأسلحتى الطريق. ورجعت ظافراً منتصراً. غير أن دمى ودمعى لم يكفيانى لكى أصبح جديراً بحبها فأخذت على عاتقى إسعاد ألف شقى. ورأى الناس إحسانى ينتشر فى مناكب الأرض. وما كان أسعدنى! كنت أسعد مما تستطيع أن تتصور يوم تمكنت من أن أبدو لعينيها القريرتين محدواً بألف قلب غزوتها بمآثرى. إنى مدين لها بكل شىء يا بولان. فيا له من جزاء قاس! لسوف ينقلب عليها كل ما أدين لها به، وسوف أقول لها ثمناً لكل هذا الشرف وكل تلك الفضائل: «ارحلى، ولن ترينى بعد ذلك».

بولان كيف؟ كيف يا مولاى؟ هل يدع لك هذا الإنعام السخى الذى سيبسط اليوم سلطانها حتى الفرات، وألقاب الشرف

التى أدهش مجلس الشيوخ إغداقها عليها ، أيدع لك كل هذا خشية على نفسك من الجحود ؟ فلسوف تحكم برينيس مائة شعب جديد .

تيتوس : يا لها من تسلية واهية عن أسى عميق ! إننى أعرف برينيس وما أعلم إلا يقيناً أن قلبها لم ينشد فى يوم من الأيام سوى قلبى . أحببتها وأعجبتها . ومنذ ذلك اليوم (وما أدرى إن كان نحساً أو سعداً) منذ ذلك اليوم ، ولا وطر لها من حبها إلا حبها ، غريبة فى روما ، خاملة الذكر فى أهل القصر ، إنها تقضى أيامها لا تطلب إلا بعض ساعة كى ترانى وسائر الساعات فى انتظارى . فإذا كنت على شىء من الإهمال وأنسيت ميعاداً تنتظرنى فيه ، فإنى لا ألبث حتى أراها وهى تشرق بدموعها ، فتظل يدى تجهد فى كفكفتها طويلا . وكل ما للحب من رباط أوثق ، من عتاب عذب ، وهيام يتجدد فى كل آن ، وتودد فى غير تكلف ، وخوف يلوح دائماً ، ثم من جمال وشرف وفضيلة ، كل ذلك أجده فيها . إننى منذ خمسة أعوام كاملة أزورها كل يوم ، وفى كل يوم أعتقد أنى أراها للمرة الأولى ، لنقلع عن هذا التفكير . ولنمض ، يا عزيزى بولان ، فإنى كلما نظرت فى الأمر أحسست أن عزمى العنيد يترنح . أى نبأ يأيتها السماء سوف

أسوق إليها ! مرة أخرى ، هيا ، فما ينبغى أن نفكر فى الأمر بعد ذلك . إنى أعرف واجبى ، وعلىّ أنا أن أتبعه ، ولست أبالى إن كنت أستطيع العيش بعده .

* * *

المشهد الثالث

تيتوس ، بولان ، روتيل

روتيل : برينيس ، يا مولاى ، تطلب أن تتحدث إليكم .

تيتوس : آه ! بولان .

بولان : ماذا ؟ أيبدو عليك التقهقر منذ الآن ؟ تذكر يامولاى ما عقدت عليه الرأى من عزم نبيل ، فقد أتى الميعاد .

تيتوس : حسناً ، فلنرها . لتأتى .

* * *

المشهد الرابع

برينيس ، تيتوس ، بولان ، فينيس

برينيس : لا تغضب إن أفسد عليك حماسى النزق هدوء وحدتك .
وهل من الحق ، يا مولاى ، أن أظلّ وحدى صامتة
لا أشكر فضلك على حين يلهج بلاطك الملتف حولى بما
غمرتنى به من نعم ؟ ولكن مولاى (وأنا أعلم أن هذا

الصديق الأمين يعرف أسرار قلبينا) لقد انتهى حدادك . وما يوقف خطاك شيء، وقد انفردت أخيراً بالأمر كله . . . ومع ذلك فأنت لا تفتقدنى . وهأنذى أسمع أنك أهديت إلىّ تاجاً جديداً ، غير أنى لا أستطيع أن أسمعك أنت . عفواً مولاى ! أريد طمأنينة أكبر ومجداً أقل . أوَما يستطيع حبك أن يظهر إلا فى مجلس الشيوخ ؟ آه تيتوس إن الحب ليفرّ من تكلف كل هذه الألقاب التى يتبعها الإجلال والخوف ،فماهذا الهمّ الذى راح يتجشمه حبك ؟ أما توجد إلا ولايات تستطيع أن تهديها إلىّ ؟ ومتى ظننت أن عظمتى تستخفنى ؟ إن زفرة أو نظرة أو كلمة من شفتيك ، هو كل ما يطمح إليه قلب كقلبي . أكْثِرْ من زيارتى ، ولا تهب لى شيئاً . أوَقد كرست لحظاتك جميعاً للإمبراطورية ؟ أما لدى هذا القلب شيء يقوله لى بعد أيام ثمانية ؟ لكم تطمئن كلمة واحدة نفسى الوجلة ؟ أتراك كنت تتحدث عنى حينما فاجأتك الآن ؟ وهل كان يجرى ذكرى فى أحاديثك الخاصة ؟ هل كنت على الأقل ماثلة فى خاطرك .

تيتوس : لا تشكى فى ذلك سيدتى ، وإنى لأشهد الآلهة على أن برينيس لا تبرح ماثلة أمام عينى. وأقسم لك مرة أخرى

أن الزمن لن يستطيع ، كما لن تستطيع الغيبة أن تنتزع منك هذا القلب الذى يعبدك .

برينيس : ماذا ؟ أراك تقسم لى على جذوة خالدة ، فهل فى مثل هذا الفتور تقسم لى عليها ؟ بل فيم تشهد آلهة السماء ؟ أوَلا بد من الأيمان دافعاً لشكوكى ؟ إن قلبى لا يسر تكذيبك قط يا سيدى . وحسبى منك زفرة واحدة تقنعنى .

تيتوس : سيدتى . . .

برينيس : إيه سيدى؟ بل ماذا ؟ أراك لا تجيب وإنما تشيح بعينيك عنى كأن بك اضطراباً . أفلن تلقانى بغير هذا الوجه المضطرب ؟ أيستغرق نفسك موت أبيك دائماً ؟ أوَما يستطيع شىء أن يسكن ما يضنيك من لوعة ؟

تيتوس : واحسرتاه ! ليت السماء مدّت فى حياة أبى ! فكم كان عيشى سعيداً !

برينيس : سيدى ، إنما يصدر كل هذا الأسى عن عاطفة صادقة . غير أن دموعك قد كرمت ذكراه بما فيه الكفاية . وعليك الآن واجبات أخرى نحو روما ونحو مجدك . أما عن خاصة أمرى فلا أجرؤ أن أحدثك . لقد كانت برينيس تستطيع أن تواسيك فيما مضى ؛ وكنت تصغى إلى فى سرور شديد ! وكم قضى على بالألم من أجلك ، فكنت أضحى

بدموعى لكلمة واحدة منك ! أتأسى على أب ! وا حسرتاه يا لها من آلام هينة ! وأما أنا (وما زلت أفرق من ذكر هذا النبأ) فقد شاءوا أن ينتزعونى ممن أعبد ، أنا التى تعلم شدة ولهى وعذابى حين تتركنى بعض لحظة ، أنا التى لا بد هالكة يوم يريدون أن يحرمونى منك . . .

تيتوس : وا حسرتاه ! سيدتى، ما الذى أقبلت تقولين لى ؟ آه ! رحماك ! أمسكى . إنه كثير على جحود أن تغدقى عليه إحسانك .

برينيس : على جحود يا مولاى ؟ أوتستطيع أن تكون كذلك ؟ أم لعل مودتى تثقل عليك ؟

تيتوس : كلا يا سيدتى . إن قلبى ، ما لم يكن بد من الحديث إليك ، لم يشعر بأنه أوهج منه اليوم جذوة . ولكن . . .

برينيس : أكمل ؟

تيتوس : وا حسرتاه !

برينيس : تكلم .

تيتوس : روما . . . الإمبراطورية . . .

برينيس : حسناً . وبعد ؟

تيتوس : لنخرج يا پولان ، فما أستطيع أن أقول لها شيئاً .

المشهد الخامس

برينيس ، فينيس

برينيس : عجباً؟ أوَيتركني بهذه السرعة ، وما يقول لى شيئاً؟ عزيزتى فينيس ، ويلى! يا له من لقاء مشئوم! ماذا فعلت؟ وماذا يريد؟ وما معنى هذا الصمت؟

فينيس : إنى مثلك يضل بى الرأى كلما أمعنت فى اجتلاء الموقف. ولكن ألا تذكرين شيئاً ربما ترامى إليه فأسخطه عليك؟ انظرى ، نقبى.

برينيس : يا للحسرة! تستطيعين أن تصدقينى : فإنى كلما استعرضت فى ذاكرتى ما جرى منذ يوم لقيته حتى هذا اليوم المحزن ، رأيت أنه لن يستطيع امرؤ أن يأخذ علىّ إلا إفراطاً فى حبه. ولكن ، لقد كنا على مسمع منك. حدثينى. فما ينبغى أن تكتمى عنى شيئاً. ألم أقل شيئاً يغضبه؟ من يدرينى ، لعلى أكون فى سورة من التحمس قد غضضت من هداياه أو آخذته بأحزانه. ألا يعدو الأمر أنه يخشى نقمة روما عليه؟ لعله يخشى ، يخشى الزواج من ملكة. يا للحسرة! فإن كان ذلك حقًّا... بل لا ، فقد أمننى مائة مرة من شرائعهم القاسية ، مائة مرة... آه! ليشرح لى إذن ذلك

الصمت الثقيل ، فقد ضاق صدرى واختنقت أنفاسى في هذا الشك. أفأعيش ، يا فينيس ، وأستطيع أن أظن أنه يهملنى أو أنى قد أسأت إليه ؟ هيا نتعقب خطاه . لكننى أعتقد ، يا فينيس ، أنى أستطيع حين أفحص ذات نفسى أن أعرف أصل ذلك الانقلاب . فأكبر الظن أنه عرف كل ما كان ، وربما ساءه غرام أنطيوخس . وإنه ينتظر فيما يقولون ملك كوماجين . لا نبحث فى غير ذلك فى علة ألمى . فلا شك أن هذا الهم الذى أزعجنى الآن ما هو إلا ريبة واهية ، يسير أن يقضى عليها . ولكنى لن أهنئك بهذا النصر الهيِّن يا تيتوس . آه ! ليت غريماً أقوى — رعت السماء شرفك — قد شاء أن يمتحن بالإغراء وفائى ، واستطاع أن يضع عند قدمى أكثر مما تضع أنت من ملك ، وأن يدفع ثمناً لحبى عدداً لا يحصى من الصوالجة ، على حين لا يكون لحبك ما يقدمه لى إلا نفسه ، إذن لرأيت إذ ذاك ، أيها الحبيب الظافر ، أى ثمن لفؤادك عندى . هيا ، فينيس ، فكلمة واحدة تبعث الرضا إلى نفسه . ولتطمئن يا قلبى ، فما زلت خليقة بأن أروقه . لقد تعجلت احتساب نفسى فى زمرة الأشقياء . لئن كان تيتوس غيوراً ، فإن تيتوس عاشق متيَّم .

الفصل الثالث

المشهد الأول

تيتوس ، أنطيوخس ، أرساس

تيتوس : ماذا ؟ أكنت راحلا عنا أيها الأمير ؟ فما هذه العلة الطارئة التى تدفعك إلى الرحيل أو على الأصح إلى الفرار ؟ أكنت تريد أن تخفى عنى حتى وداعك؟ أكنت تاركاً هذه الربوع عن قلى ؟ ترى ماذا كان يقول معى البلاط ، وماذا كانت تقول روما والإمبراطورية ؟ وماذا أقول عن نفسى وأنا صديقك ؟ بم تتهمنى ؟ أترانى حتى اليوم قد خلطتك بجمهور الملوك فعاملتك بلا تمييز منهم ؟ لقد كان قلبى متفتحاً لك فى حياة أبى ، وكان ذلك كل ما أستطيع أن أهديه إليك ، حتى إذا ما استطاعت يدى وقلبى أن يشملاك إذا بك تفر من أنعمى التى توشك أن تلتمسك؟ أفتعتقد أنى نسيت ماضى ولا أقف تفكيرى منذ اليوم إلا على عظمتى وحدها ؟ وأن جميع أصدقائى يمثلون فى خاطرى من بعيد، كأنهم نكرات لا حاجة بى إليهم ؟ إنى محتاج إليك أنت أيها الأمير الذى تريد أن تتوارى عن

أنظارى كما لم أحتج إليك من قبل .

أنطيوخس : أنا يا سيدى ؟

تيتوس : أنت .

أنطيوخس : وا حسرتاه ! ماذا تستطيع أن تنتظر من أمير شقى إلا أن يتمنى لك العز والسؤدد ؟

تيتوس : إنى لم أنس أيها الأمير أن ظفرى مدين لبلائك بنصف مجده ، ولم أنس أن روما قد شهدت فى عداد المدحورين أكثر من أسير راسف فى أصفاد أنطيوخس ، وأنها ما زالت تشهد ما انتزعت يداك من غنائم اليهود معلقاً فى الكابيتول . ولكنى لا أسألك الآن شيئاً من هذه المواقع الدامية ، وإنما أريد أن أستعير صوتك فقط . فإنى لأعرف أن برينيس ، المدينة لمودتك ، تعتقد أنه اتدخر فيك صديقاً وفياً . فهى هنا فى روما لا ترى غيرك ولا تصغى إلى سواك ، ولسنا وإياك إلا قلباً واحداً ونفساً واحدة . وإنى أناشدك بحق هذه الصداقة الأمينة الجميلة أن تستخدم مكانتك عندها ، فتزورها من قبلى .

أنطيوخس : أنا ؟ أأبدو أمام عينيها ؟ لقد تقبلت الملكة وداعى لها إلى أبد الحياة .

تيتوس : أيها الأمير ، ينبغى أن تتحدث إليها مرة أخرى من أجلى .

أنطيوخس : آه ! حدثها أنت يا سيدى، فإن الملكة تعبدك ، لم تسلب نفسك فى هذه اللحظة لذة الإفضاء إليها بهذا التصريح الرائع؟ إنها لترقب ذلك النبأ بصبر نافد. وإنى لزعيم لك، وأنا راحل، بأنها راضية بما تعرض عليها من أمر ، بل لقد قالت هى لى إنك، وقد تأهبت لزواجها، لن تلقاها إلا لتهيئها لهذا الزواج .

تيتوس : آه ! يا له من تصريح حلو كان خليقاً بأن ينشينى ! وما كان أسعدنى لو آن علىّ أن أزف إليها ذلك النبأ ! فاليوم كانت فرحتى جديرة بأن تنطلق ، ولكنى اليوم ، أيها الأمير ، ينبغى أن أهجرها .

أنطيوخس : أن تهجرها ! أنت يا مولاى ؟

تيتوس : ذلك ما قدّر علىّ. فلن يكون بينها وبين تيتوس زواج. لقد كنت أعلل نفسى فى غير جدوى بهذا الأمل الخلاب؛ فإنها ينبغى أن ترحل معك أيها الأمير غداً .

أنطيوخس : ماذا أسمع ؟ أيتها السماء ؟

تيتوس : ارث لذلك الملك الثقيل الذى ينغص على الحياة. فإنى أرانى سيد العالم ، أدبر مصايره ، أستطيع أن أصطنع الملوك وأستطيع أن أطوح بهم ، على حين لا أستطيع أن أتحكم فى فؤادى . إن روما التى دأبت على الثورة فى وجه

الملوك لتحتقر جمالا نشيء في الأرجوان . وإن بريق التاج والنسبة إلى أجداد من الملوك ليصمان بالعار عاطفتى ويجعلانها قذى فى عيون الناس . ولكن قلبي مع ذلك حر يستطيع أن يتأجج سراً دون أن يخشى همسات اللوم ما شاء أن يتأجج ؛ بينما تقبل روما من يدى حفية مسرورة أحطّ جمال مغمور نشأته فى كنفها. لقد أسلس يوليوس نفسه لهذا التيار الذى يجرفنى . ولئن لم ير الشعب الملكة راحلة غداً ، فستسمعه غداً بأذنيها يقبل علىّ غاضباً ثائراً يطلب إلىّ على مرأى منها رحيلها . فلننقذ من هذه الإهانة اسمى وذكراها ، وإذا لم يكن بد من الخضوع فلنخضعن لعزتنا . لقد كان يستطيع فمى وناظرى الصامتان منذ أيام ثمانية أن يهيئاها لهذا الحديث المحزن . وهى ما زالت فى هذه اللحظة قلقة لَـهْفَـى ، تود أن أبسط أمامها ما أنتوى فى ضميرى . فارحم محبّاً مبلبلا مما يرهقه من عذاب ، وأعف فؤادى من هذا الإيضاح . اذهب فاشرح لها اضطرابى وصمتى . ولتجنبنى محضرها قبل كل شىء . كن أنت الشاهد الوحيد على دموعها ودموعى ؛ احمل إليها وداعى وتقبل منها وداعها ، وانفلت كلانا من هذا المشهد الرهيب المشئوم الذى لا بدّ يودى بما بقى لنا من عزم . ولئن كان الأمل فى ملكها

وحياتها في فؤادى مستطيعاً أن يخفف من حدة بؤسها ، آه !
فاحلف لها أيها الأمير أنى سأظل لها أبد الدهر وفيًّا أعظم الوفاء
وسأظل متأوهاً في ملئى ، في نفى أقسى من نفيها ، حاملا
صفة حبيبها حتى إلى القبر . وإن ملكى لن يكون إلا نفياً
طويلا ، إذا كانت السماء التى لم يشفها أنها اختطفتها منى
تريد أن تفجعنى بعد ذلك بأجل طويل. أما أنت وما تربطك
بخطاها إلاّ الصداقة وحدها، فلا تتركها فى محنتها أيها
الأمير . ليشهدك الشرق عائداً فى صحبتها ، وليكن هذا الرحيل
نصراً لا فراراً ، ولتمتد إلى الأبد أواصر هذه الصداقة الرائعة ،
وليذكر اسمى فى أحاديثكما دائماً . ولكى تكون بلادكما أدنى
جواراً ، فسوف يحد الفرات مملكتيكما . وأنا أعرف أن
مجلس الشيوخ الذى يزخر إعجاباً باسمك سيؤيد هذه
المنحة فى صوت واحد . إنى أضم قيلقيا إلى مملكتك كوماجين.
وداعاً ، لا تترك أميرتى ،ملكتى ، كل الذى كان أمنية قلبى
الوحيدة ، كل الذى سأحب حتى النفس الأخير .

* * *

المشهد الثانى

أنطيوخس ، أرساس

أرساس : هاهى ذى السماء تتأهب لإنصافك . فسترحل يا مولاى ، ولكن فى رفقة برينيس . ولن يغتصبها أحد منك ، بل ستسلم إليك تسليماً .

أنطيوخس : أرساس ، أتح لى أن أتنفس . إن هذا الانقلاب هائل ، وقد بلغت دهشتى أقصاها . أيودع تيتوس بين يدى كل من يحب ؟ هل لى أن أصدق ، أيتها الآلهة الأعلون ، ماذا سمعت الآن ؟ فإذا صدقت فهل لى أن أبتهج بهذه الأحداث ؟

أرساس : وماذا ينبغى أن أعتقد أنا يا مولاى ؟ أية عقبة جديدة تعترض ابتهاجك ؟ أوَ كنت تخدعنى منذ قليل ونحن خارجان من هذه الربوع ، حين راح قلبك ، ولم يزل شديد التأثر من وداعكما الأخير ، يقص لى جرأته الجديدة مرتعداً إذ تجاسر فباح لها بما يطوى ؟ لقد شئت أن تفر من زواج كنت تفرق لذكره . وها هو ذا الزواج قد انفصم ، فأى هم بعد ذلك يقلقك ؟ أطع مولاى انطلاق الفرحة

الحلوة التي يدعوك الحب إليها .

أنطيوخس : أرساس ، أراني موكلا باصطحابها ، إذن فسأسعد طويلا بأحاديثها العزيزة، بل قد تألف عيناها عينيّ، وربما وازن قلبها ما رأت من جفاء تيتوس بما ترى من وفائي .وإن تيتوس يبهرني هنا بثقل عظمته، وكل شيء في روما يتلاشى أمام جلاله، أما في الشرق وإن امتلأ بذكره ، فسترى برينيس هناك آثاراً من مجدي .

أرساس : لا تشك في ذلك مولاي ، فكل شيء يواتي أمنياتك .

أنطيوخس : آه ! كم نحن نستمتع بخداع أنفسنا !

أرساس : وفيم نخدع أنفسنا ؟

أنطيوخس كيف ؟ أوَ أستطيع إرضاءها ؟ أوَلن تصدمني برينيس في أماني؟ وهل تعزيني برينيس عن أشجاني بكلمة واحدة؟ أتعتقد أن الجاحدة آذنة لي بأن أمنحها دمعي ، وتتنازل بقبول عطف قد تظنه صادراً عن حبي ، إلا وهي في محنتها، وقد أغضى العالم عن سحرها ؟

أرساس : ومن أقدر منك على مواساتها في مصابها ؟ سوف يتخذ مصيرها الآن يا مولاي وجهاً آخر . فإن تيتوس يهجرها .

أنطيوخس : وا أسفاه ! فلن يأتيني من هذا التحول الهائل إلا العذاب الذي سيجدّ عليّ حين ألمس من دمعها مبلغ حبها إياه .

فسأراها باكية نائحة ، وسترني لها نفسى ، ولا أجنى من كل هذا الحب إلا مهمة محزنة أقوم بها ، مهمة أن أتلقى دموعاً لم تذرف من أجلى .

أرساس : عجباً ! أما يروق لك إلا أن تنغص على نفسك دائماً ؟ ما رأت عين مثل هذا الضعف فى قلب كبير . افتح مولاى عينيك ، وهيا نفكر فيما بيننا ، ولنعدد الأسباب التى تجعل برينيس لك. ما دام تيتوس لن يسعى إلى مودتها منذ اليوم، فانظر إلى أن زواجك منها قد أصبح أمراً مقضياً

أنطيوخس : أمراً مقضياً ؟

أرساس : دعها لدموعها بضعة أيام ،واترك لشهقاتها الأولى أن تأخذ مجراها وتنقضى ، فإن كل شىء سيحدث بعد ذلك من أجلك : الحنق والحفيظة والنقمة ، ومغيب تيتوس ، ومرور الأيام ، ومحضرك، وصوالجة ثلاثة لا تستطيع ذراعها وحدها أن تحملها ، ومملكتا كما المتصاقبتان اللتان تلتمسان الاتحاد . إن المنفعة والرأى والصداقة ، كل شىء يجمعكما برباط واحد .

أنطيوخس : نعم ، إنى أتنفس الآن يا أرساس ، لقد رددت إلى الحياة . وها هى ذى نفسى تتفتح فى سرور لذلك الفأل الجميل . وفيم تأخرنا؟ لنفعل ما يرجى منا. لندخل على برينيس ،

وما دمنا قد أمرنا بذلك فلنمضين إليها نعلنها بأن تيتوس يهجرها. لا بل جدير بنا أن نبقى. علام أقدمت ؟ أرساس ! أوَقد حملت أنا تلك المهمة القاسية ؟ لا فسواء صدرت عن فضيلة أو عن حب، فإن قلبي لينفر من أدائها. أتسمع برينيس الحبيبة من فمي أن امرأً يهجرها ؟ آه ! أيتها الملكة، ومن كان يظن أنه مقدر لهذه الكلمة أن تقال لك يوماً !

أرساس : فسيحل على تيتوس كلّ غضبها، لأنك يا مولاى لن تتحدث إلا إجابة لرجائه .

أنطيوخس : لا، لن نراها . لنحترمن ألمها ؛ وما أكثر الذين سينبئونها بمصابها سواى . ألا ترى أن حسبها شقاء أن تعلم إلى أى حد نبذها تيتوس وحقرها؟ وحسبها ذلك من غير أن يزيدها كمداً مشئوماً أن الذى يسوق إليها نبأ هذا التحقير هو غريمه نفسه. مرة أخرى، لنفرّ ، ولا نذهب إليها قط بهذا النبأ فتحملنا بغضاً لا يخمد أبداً .

أرساس آه ! ها هى ذى يا مولاى ! فاتخذ قرارك .

أنطيوخس : يا للسماء !

* * *

المشهد الثالث

برينيس ، أنطيوخس ، أرساس ، فينيس

برينيس : عجباً ؟ ألم ترحل بعد يا سيدى ؟

أنطيوخس : أرى أنك لقيت سيدتى ما لم تتوقعى ، وأن قيصر هو الذى كانت تفتقده عيناك. ولكن لا تتهمى سواه إن كان محضرى ، رغم وداعى ، يؤذى عينيك مرة أخرى . فلربما كنت الآن فى « أوستى » لو لم يحل هو دون خروجى من بلاطه .

برينيس : إنه يبحث عنك وحدك ، ويتجنبنا جميعاً .

أنطيوخس : إنه لم يبقنى إلا ليحدثنى عنك .

برينيس : عنى أنا ، أيها الأمير ؟

أنطيوخس : نعم ، سيدتى .

برينيس : وماذا عساه قال لك ؟

أنطيوخس : يستطيع ألف غيرى أن يخبروك بذلك خيراً منى .

برينيس : كيف ؟ يا سيدى . . .

أنطيوخس : على رسلك . سواى لا يسكت فى مثل هذه اللحظة ، بل قد ينتهزها شامتاً فينزل ، وكله ثقة ، على سؤلك . غير أنى ، أنا

المضطرب دائماً، أنا الذى تعرفين يقيناً أن راحتك أعز لديه من راحته ، أوثر أن أغضبك على أن أقض راحتك، وأخشى عليك اللوعة أشد مما أخشى منك النقمة. ولعلك ترين قبل أن ينقضى هذا اليوم أنى على حق .

وداعاً سيدتى .

بيرنيس : أيتها السماء ! ما هذا الكلام ! أقم ! لقد أسرفت أيها الأمير فى إخفاء اضطرابى عنك حتى الآن . فإنك لترى أمامك ملكة والهة تسألك ، والموت فى صدرها ، كلمتين . تقول إنك تخشى أن تقض راحتى ، ولكن إباءك القاسى لا يذود عنى الألم، بل يثير لوعتى ويؤجج غضبى ومقتى . فإن كانت راحتى أثيرة لديك إلى هذا الحد ، وإن كنت أنا عزيزة عليك يوماً ، فاجلُ هذه الحيرة التى تضطرب فى نفسى كما ترى ، بماذا أنبأك تيتوس ؟

أنطيوخس : بحق الآلهة ، يا سيدتى . . .

برينيس : ماذا ؟ أوهكذا تستخف بعصيانى ؟

أنطيوخس : ليس على إلا أن أتحدث حتى أوغر صدرك على

برينيس : أريد أن تتحدث .

أنطيوخس : أيتها الآلهة ! يا له من عنف ! سيدتى . مرة أخرى أقول : ستحمدين صمتى .

برينيس : أيها الأمير، حقق منذ هذه اللحظة رغباتى، و إلا فكن من مقتى إلى الأبد على يقين .

أنطيوخس : لن أستطيع يا سيدتى بعد ذلك صمتاً . هأنتذى تريدين هذا الأمر ، فعلىّ أن أجيب رغبتك. ولكن لا تتعللى بالأمل فسأعلن لك من الكوارث ما لاقبل لك على التفكير فيه. إننى أعرف قلبك ، فينبغى أن تتوقعى أنى سأسدد إليه الضربة فى أرق شغافه لقد أمرنى تيتوس . . .

برينيس : ماذا ؟

أنطيوخس : أن أعلن إليك أنكما ستفترقان إلى الأبد .

برينيس : نفترق ؟ من ؟ أنا ؟ تيتوس عن برينيس؟

أنطيوخس : يجب علىّ أن أنصفه أمامك، فلقد رأيت فى قلبه من الهول كل ما يمكن أن يجتمع بين الحب واليأس فى قلب رقيق كريم . إنه يبكى، إنه متيم بك ، ولكن ماذا يجديه بعد أن يظلّ على حبك ؟ فإن الإمبراطورية الرومانية لا تحسن الظن بالملكات ، لا بد إذن من فراقكما ،ولسوف ترحلين غداً .

برينيس : نفترق ! واحسرتاه ، فينيس !

فينيس : ولكن سيدتى ، ينبغى هنا أن تظهرى قوة نفسك . ولا شك أنها ضربة شديدة خليقة بأن تروعك .

برينيس : أبعد جميع تلك الأيمان يهجرني تيتوس ! تيتوس الذي كان يقسم لي . . . ، لا ، لن أستطيع أن أصدق هذا . إنه لن يتخلى عني ، إن شرفه لرهين بذلك . إنهم يريدون أن يوغروا صدري وهو بريء . فما نصب لنا هذا الشرك إلا ليفرق ما بيننا . إن تيتوس يحبني . تيتوس لا يريد أن أموت . هلمي إليه لنراه ، فإني أريد أن أحدثه الآن . هيا بنا .

أنطيوخس : ماذا ؟ أتستطيعين هنا أن تعتقدي أني . . .

برينيس : إنك لتسرف في تمني ذلك لكي تقنعني به . لا ، لن أصدقك ومهما يكن من هذا الأمر ، فاحذر أن تظهر أمامي بعد ذلك أبداً .

(إلى فينيس) : لا تتركيني وأنا على هذه الحال. واحسرتاه ! إني أبذل ما في وسعي كي أخدع نفسي .

* * *

المشهد الرابع

أنطيوخس ، أرساس

أنطيوخس : أما أخطئ ؟ تراني فهمتها ؟ أأحذر أنا من الظهور أمامها ! أجل ، فسأحذر ذلك كل الحذر . أوما كنت راحلا لو لم يوقف تيتوس خطاي بالرغم مني ؟ أما الآن

فلا بد من الرحيل. فلنتابع أرساس ما قد رأينا . إنها تظن أنها أحزنتني ، لا لقد نزل على بغضها برداً وسلاماً . فمنذ قليل كنت تراني قلقاً هائماً ، إذ كنت راحلا وقلبي مزدحم بالحب والغيرة واليأس . ولكني الآن يا أرساس، بعد هذا الصدود ، قد أرحل وأنا لا أبالي بشيء .

أرساس : بل بقاؤك الآن يا مولاي أوجب منه في أي وقت كان .

أنطيوخس : أأبقى أنا لكي أراها تحتقرني؟أأصبح مسئولا عن جفاء تيتوس؟ وهل أعاقب لأنه هو المذنب؟ بأي جور وبأي إسفاف تشك في صدق على مرأى مني! تقول إن تيتوس يحبها وإني قد خنتها . يا للجاحدة ! تتهمني بهذا الاثم ! وفي أي لحظة ؟ في اللحظة الرهيبة التي أبسط فيها أمام عينيها دموع غريمي ، في اللحظة التي شئت فيها أن أواسيها ، فصورته متيماً وفياً ، أكثر مما قد يكون في واقع الأمر .

أرساس : وبأي هم ستقلق نفسك يا مولاي ؟ دع لهذا السيل أن يجري مجراه . وسواء مر خلال ثمانية أيام أو انقضى في شهر فلا بد من أن ينتهي . عليك بالبقاء فحسب .

أنطيوخس : لا ، سأتركها يا أرساس ، فقد أحسست أني قد أعطف عليها في محنتها ،وقد أشاطرها ألمها. إن عزتي وراحتي ، كل شيء يدفعني إلى الرحيل . هيا فلنتجنب القاسية ولنكن منها على

بعد شاسع ، ولا يحدثني عنها أحد أمداً طويلا. على كل حال ، أمامنا فسحة من الوقت ، وسأمضي إلى قصري أنتظر عودتك ، فاذهب إليها وانظر إن كان الألم قد برح بها . أسرع . ولنرحل على أقل تقدير مطمئنين على حياتها .

* * *

الفصل الرابع

المشهد الأول

برينيس وحدها

فينيس لا تأتى بعد ! يا لك من لحظات قاسية ! وما أثقل إبطاءك على أمانى العجلة ! إنى أضطرب وأعدو ، هامدة ، خامدة ، قواى تفارقنى ،والسكون يقتلنى قتلا . فينيس لم تأت بعد ! آه ! ما أشد ما يروع هذا الإبطاء قلبى بنذير الشر ! لن تحمل فينيس إلىَّ جواباً ، فإن تيتوس ، تيتوس الجاحد ، قد أبى أن يستمع لها . إنه يروغ ويفر من ثورتى العادلة .

المشهد الثانى

برينيس ، فينيس

برينيس : عزيزتى فينيس ، ما وراءك ؟ ألقيت الإمبراطور ؟ ماذا قال ؟ أهو آت ؟

فينيس : نعم . لقيته يا مولاتى ، وصورت لعينيه بلبلة نفسك ، ورأيت دموعاً تجرى كان يود لو يحبسها .

برينيس : أَوَ يأتى ؟

فينيس : لا تشكى فى ذلك مولاتى . فإنه لآت . ولكن أتريدين أن تظهرى أمامه فى هذا الاضطراب الشديد؟ عودى إلى هدوئك يا مولاتى . وارجعى إلى نفسك . دعينى أرفع هذه النقب التى انحلت ، وهذا الشعر المتهدل الذى يحجب عينك . وائذنى لى أن أصلح ما أفسدت دموعك .

برينيس : خلى فينيس خلى ، سسيرى ما قد صنع . وما الذى يعنينى ، واحسرتاه ! من هذه الزينة التى لا طائل وراءها ؟ إن كان وفائى ، إن كانت دموعى إن كان أنينى ، ماذا أقول ؟ دموعى؟ بل إن كان هلاكى المحقق وموتى الوشيك لا يرده إلىّ ، فخبرينى ماذا تؤتى معونتك النافلة ، وما أثر كل هذا البهرج الهين الذى لم يعد يبلغ نفسه ؟

فينيس : ولماذا تلومينه هذا اللوم الجائر ؟ إنى أسمع صوتاً يا مولاتى ، الإمبراطور مقبل. هيا ، تجنبى القوم ، ولنعد أدراجنا سريعاً. وستحدثينه على حدة فى جناحك .

* * *

المشهد الثالث

تيتوس ، بولان ، حاشية

تيتوس : اذهب إلى الملكة ، يا بولان ، فهدئ من روعها . ولسوف أزورها . أما الآن ، فإنى أريد أن أخلو إلى نفسى بعض الوقت . فليتركنى الجميع .

بولان (على حدة) : يأيتها السماء ! ما أشد ما أخشى هذا النضال ! جل جلالك أيتها الآلهة ، أنقذى مجده ، وصونى شرف الدولة ! لأذهب إلى الملكة .

* * *

المشهد الرابع

تيتوس وحده

إيه تيتوس ! علام أقدمت؟ إن برينيس تنتظرك . إلى أين جئت أيها المتهور ؟ فهل أعددت وداعك ؟ هل أحسنت مشورة نفسك ؟ هل وعدك قلبك بالقسوة البالغة ؟ فما يكفيك فى النضال الذى يعد لك أن تكون حازماً ، وإنما ينبغى أن تكون همجيًّا . وهل سوف أصمد لهاتين العينين

ولحظهما الحلو الذى يحسن كشف الطرق إلى قلبي ؟ وحين أرى هاتين المقلتين وقد تسلحتا بكل سحرهما وتعلقتا بعيني تبهظانني بدموعهما : أفسأذكر حينئذ واجبى المحزن ؟ وهل أستطيع أن أقول بعد ذلك « إنى أريد ألا أراك منذ اليوم . وإنى قد أتيت لأحطم قلباً أعبده ويحبنى ؟ » ولماذا أحطمه ؟ من ذا الذى يأمر بذلك ؟ أنا نفسى إذ أن روما لم تكشف بعد عن رغباتها ؟ أنسمعها تصيح حول هذا القصر ؟ أو أرى الدولة قد انحدرت على شفا الهوة ؟ أولن أستطيع إنقاذها إلا بهذه التضحية ؟ كل شيء صامت ، وأنا وحدى الذى أسرع إلى تنغيص حياتى ، وأسرف فى هذه السرعة ، فأتعجل كوارث أستطيع أن أؤجلها . ومن يدرى ، لعل روما ، التى تقدر فضائل الملكة ، سوف ترضى أن تعتبرها رومانية . لقد تؤيد رغبة روما رغبتى . بل لا لا ، فلا نستعجل شيئاً ، ولا نتورط مرة أخرى فى شيء . لتضع روما فى كفة الميزان شرائعها ولتضع فى الكفة الأخرى كل هذه الدموع ، وكل هذا الحب ، وكل هذا الوفاء ، إذن فستقضى لنا روما . . . بل افتح تيتوس ، عينيك ! أى هواء تستنشق ؟ أولست فى هذه البلاد التى يرشف أبناؤها مع اللبن معاداة الملوك ، فلا تستطيع رهبة ولا رغبة أن تمحو هذا الحقد من نفوس الشعب ؟ ألم

تـلقّن أنت هذا الصوت وأنت بعد وليد ؟ أولم تسمع كذلك هذه السنة تحثك على واجبك حتّى فى جيشك ؟ وحين جاءت برينيس وراءك، فما الذى قالته روما فى مقدمها، أما سمعته ؟ أفينبغى إذن أن تذكر به مراراً ؟ آه! أيها الجبان، استجب للحب وانزل عن العرش . هلم إلى أقصى الدنيا فانتبذ لك منفى ، وافسح مكاناً لقلوب أحق منك بالملك . أوهذا ما عقدت عليه العزم من مشروعات العظمة والشرف الخليقة بأن تخلد ذكرك فى القلوب ؟ إنى توليت الملك منذ أيام ثمانية ، فما الذى أديت للشرف حتّى اليوم ؟ لقد وقفت على الحب كل شىء . أى حساب أستطيع أن أقدمه عن وقت كهذا ثمين ؟ أين منى هذه الأيام السعيدة التى جعلت الشعب يرتقبها ؟ أى دموع كفكفت ؟ وفى أى عيون قريرة قد تذوقت ثمر فعالى ، هل شهد العالم على يدى تبدل مصيره ؟ وهل أعلم كم قدرت لى السماء من أيام الحياة ؟ آه ! يا لى من شقى ! فكم ضيعت منها حتّى اليوم !

لا مطل ولا تقاعس منذ الآن ، لأفعلن ما يقتضيه الشرف ، ولأقطعن الرباط الوحيد . . .

* * *

المشهد الخامس

برنيس ، تيتوس

برينيس : (وهى خارجة) : لا ، دعيني ، أقول لك دعيني . فلن تفلح جميع نصائحك فى استبقائى هنا . لا بد أن أراه . آه ! سيدى ! هذا أنت .

إنه حق إذن أن تيتوس يهجرنى ؟ لا بد أن نفترق ، وهو الذى يأمر بذلك ؟

تيتوس : رفقاً ، سيدتى ، بأمير شقى . وما ينبغى أن نلين هنا نحن الاثنان : إن بلبالا عنيفاً يهزنى ويفترسنى ولما تمزق نفسى هذه الدموع العزيزة . فالأحرى أن تهيبى بتلك الشجاعة التى عرفتنى صوت واجبى مراراً . فلقد حان موعد هذه الإهابة . أكرهى حبك على الصمت وقدرى بعين يهديها الشرف والعقل قسوة واجبى وحدته . شددى أنت قلبى وأعينيه على نفسك . ساعدينى ، لو أمكن ، لأنتصر على ضعفى وأحبس دموعاً تفلت منى دائماً . وإن لم نستطع أن نتحكم فى دموعنا ، فليعضدنا المجد فى آلامنا على الأقل ، وليعرف الملأ فى غير عناء ما سكب

إمبراطور وما سكبت ملكة من عبرات . فإنه ينبغى آخر الأمر ، يا أميرتى ، أن نفترق .

برينيس : آه ! أيها القاسى ، أهذا وقت إعلانك إياى هذا النبأ ؟ ماذا فعلت ؟ واحسرتاه ! فقد كنت أظن أنك تحبنى . إن نفسى التى اعتادت لذة رؤيتك لا تعيش الآن إلا لك. أفكنت تجهل شرائعكم يوم بحت لك بحبى أول مرة؟ إلى أى شطط فى الحب أوغلت بى! ولماذا لم تقل لى « أيتها الأميرة التعسة فيم تتورطين؟ وما أملك ؟ لا تمنحى قط قلباً لا يستطاع قبوله ؟ » أولم تأخذ هذا القلب أيها القاسى ، إلا لترده يوم أن يكون رهيناً بيديك أنت وحدك ؟ لقد ائتمرت بنا الإمبراطورية جمعاء عشرين مرة وكان الوقت مناسباً فلماذا لم تهجرنى؟ إذ ذاك كانت ألف حجة تواسى بؤسى : كنت أستطيع أن أحمل أباك وزر موتى ، كنت أستطيع أن أحمله للشعب ، ولمجلس الشيوخ وللإمبراطورية الرومانية كلها ، وللدنيا بأسرها إلا هذه اليد العزيزة . لقد كان بغضهم إياى سافراً منذ أمد بعيد، فكنت أوطن نفسى على شقوتى منذ زمن طويل . إذن لما كنت تلقيت هذه الضربة القاسية فى الوقت الذى آمل فيه نعيماً أبدياً ، فى هذا الوقت الذى يستطيع فيه حبك الموفق أن يحقق رغبـــاته جميعاً . الآن وقد صمتت روما ،

وتوفى أبوك ، وانحنت الدنيا بأسرها عند قدميك ، الآن حين أصبحت لا أخشى سواك .

تيتوس : وأنا وحدى الذى كنت أستطيع تدمير نفسى . كنت أستطيع إذ ذاك أن أعيش وأن أسلس للفتنة . فقد كان قلبي حريصاً على ألا يسترسل فى تقدير المستقبل ملتمساً ما عسى أن يفرقنا فى يوم ما. كنت أريد ألا يستعصى على أمانى شىء. وما أمسيت أحص شيئاً ، بل بت آمل المحال . ليت شعرى ! لقد كنت أود أن أقضى أمام عينيك قبل أن تمتد بى الأيام إلى هذا الوداع الأليم . كأن العقبات كانت تزجج جذوة حبي. لقد كانت الإمبراطورية كلها تتحدث ، ولكن المجد يا سيدتى لم يكن يدوى فى قلبي بهذا الصوت الذى به يدوى فى قلب إمبراطور . إنى لأعلم ما سيدفعنى إليه هذا التدبير من صنوف العذاب . وإنى لأشعر كل الشعور بأنى لن أستطيع بعدك الحياة ، وأن قلبي قد أزمع يبتعد عنى . غير أن الأمر لم يعد أمر حياة وإنما هو واجب الملك .

برينيس : إذن فتربع على العرش أيها القاسى وأرض مجدك ! أنا لن أجادلك ، وإنما كنت أنتظر حتى أصدقك ، أن ينطق هذا الفم ، بعد ألف قسم على حب كان خليقاً أن يجمع كل لحظة لنا ، فيعترف لسانه على مسمعى بأنه خائن ، ويقضى

هذا اللسان نفسه بفراق أبدى . لقد أردت أن أسمعك بأذنى فى هذا المكان ولن أصغى بعد ذلك إلى شيء ،وداعاً إلى الأبد . إلى الأبد ! آه ! سيدى ،هل تتصور فى نفسك كم تروع القلب هذه الكلمة القاسية إذا كان القلب محبًّا ؟ ففى شهر ، وفى سنة كيف تحتمل ، يا سيدى ، أن تفصل بينى وبينك بحار لها زخرة وعباب ،وأن يبدأ اليوم ، ثم ينقضى اليوم دون أن يستطيع تيتوس لقاء برينيس لحظة واحدة ، ودون أن أستطيع اليوم كله أن أرى تيتوس ؟ بل يا للضلال الذى أتردى فيه ! ويالك من جهود ضائعة ! ترى الغادر ، وقد تعزى عن فراقى قبل رحيلى ، هل سيتنازل فيحصى أيام غيبتى ؟ هذه الأيام الطويلة علىّ ، ستبدو له جدّ قصيرة .

تيتوس : لن يكون لى يا سيدتى أن أحصى هذه الأيام الكثيرة . فإنى لأرجو أن يبادر النعى فيحملك على الاعتراف بأننى كنت أحبك . وسوف ترين أن تيتوس لم يستطع دون أن يلقى الموت . . .

برينيس : آه ! إذا كان ذلك حقًّا ، ففيم افتراقنا ؟ أنا لا أحدثك قط عن زواج سعيد . . . ولكن هل قضت علىّ روما بألا أراك بعد اليوم ؟ لماذا تحرمنى الهواء الذى تتنفسه ؟

تيتوس : وا حسرتاه ! إنك تستطيعين كل شيء يا سيدتى . أقيمى فما

أعارض في ذلك بتاتاً ، ولكني أحس بضعفي ، فعليّ أن أجاهدك وأن أتقيك بلا هوادة ، وألا أنيَ في الحرص على وقف خطاي التي تجذبها نحوك في كل ساعة محاسنك . ماذا أقول ؟ إن قلبي قد شط الآن فنسي نفسه ، ولم يعد يذكر إلا أنه يحبك .

برينيس : وهل في ذلك من بأس يا سيدي ؟ وما عسى أن يحدث ؟ أترى الرومان قد تأهبوا للثورة ؟

تيتوس : ومن يدري بأي عين سينظرون إلى هذه الإهانة ؟ لئن كانوا قد بدءوا يتهامسون ، ثم تلت الصيحات الهمسات ، أفينبغي أن أحقق بسفك الدماء رغبتي ؟ فإن صمتوا يا سيدتي وباعوني شرائعهم ، فإلام تعرضينني ؟ بأي ثمن يحق علي يوماً ما أن أجزي صبرهم ؟ وأي مطلب لا يجرؤون إذ ذاك على أن يسألونيه ؟ وكيف أصون شرائع لا أستطيع أن أرعاها ؟

برينيس : فإنك لا تحفل بدموع برينيس .

تيتوس : لا أحفل بها ؟ آه أيتها السماء ! يا له من ظلم !

برينيس : ماذا ؟ أمن أجل شرائع جائرة تستطيع أن تغيرها ، تغمر نفسك في حزن أبدي ؟ لروما حقوقها يا سيدي ، وأنت ، أليست لك حقوقك ؟ وهل شئون روما أقدس من عواطفنا ؟ قل ، تكلم .

تيتوس : وا حسرتاه ! إنك تمزقين نفسي !

برينيس : مولاى ، إنك إمبراطور وتبكى !

تيتوس : نعم سيدتى هذا حق ، فإنى أبكى ، وأصعد الزفرات ، وأرتعد . ولكنى ، حين قبلت السلطان، قد أخذت علىّ روما قسماً أن أصون شرائعها ،فينبغى إذن أن أصونها . لقد بلت روما أكثر من مرة وفاء أسلافى . آه ! فإنك لو صعدت فى التاريخ إلى طور نشأتها لرأيتهم دائماً خاضعين لأوامرها . فهذا أمين على ما قطع من عهد ، يمضى إلى الأعداء ملتمساً مع الموت العذاب الواقع ؛ وذلك يدقّ عنق ابنه الظافر وثالث ، بمقلتين جافتين لا تأثر فيهما ، يشهد موت ولديه اللذين يقتلان بأمره . فيا لهم من أشقياء! ولكن الغلبة عند الرومان كانت للوطن والشرف دائماً . وإنى لعالم أن تيتوس التعس ليبزّ ، حين يهجرك ، صرامة مآثرهم جميعاً . أفلا ترينني يا سيدتى خليقاً بأن أترك للخلف مثلا دون الاقتداء به جهود جبارة ؟

برينيس : لا ، إنى أرى كل شىء ميسوراً لوحشيتك . أراك خليقاً بأن تنتزع منى الحياة يا غـُدر . لقد عرف قلبى الآن جميع أحاسيسك . فلن أحدثك فى أن تبقينى هنا . من ؟ أنا ؟ أوَقد كنت أريد ، مستخزية محقرة، أن أتلقى استهزاء شعب يمقتنى؟ لقد أردت أن أدفعك إلى هذا الرفض . أما الآن

فقد انقضى كل شيء، وعن قريب لن يكون لك أن تخشانى. لا تنتظر هنا أن أنفجر فى السباب ، ولا أن أشهد عليك السماء ، عدوة الخائنين . ولئن ظلت السماء تعطف على دموعى ، فإنى لأضرع إليها ، وأنا أموت ، أن تنسى آلامى. ولئن تعالت بأمنيات ضد جورك ، لئن أرادت برينيس الحزينة أن تعقب قبل موتها ثائراً لها ، فإنى لا ألتمس ذلك ، أيها الجاحد إلا فى أعماق قلبك . لأنى أعلم أن حبًّا كهذا لن يمحى منه ، وأن ألمى الحاضر ، وسماحتى الماضية ، ودمى الذى أريد أن أسكبه هنا فى هذا القصر ، هى الأعداء التى سوف أخلفها لك . ومن غير أن أندم على وفائى سأعتمد عليها فى أن تثأر لى كل ثأرى . وداعاً .

* * *

المشهد السادس

تيتوس ، بولان

بولان : على أى عزم خرجت الآن يا مولاى ؟ هل هُيئت للرحيل ؟

تيتوس : بولان ، إنى لهالك ، لن أستطيع بعدها عيشاً . تريد الملكة أن تنتحر . هلم ، ينبغى أن نعقبها . ولنسرع إلى نجدتها .

بولان : ماذا ؟ أوَلم تأمر منذ حين بأن تراقب خطاها ؟ إن نساءها الملتفات حولها فى كل ساعة قائمات على خدمتها ليعرفن كيف يحولنها عن الأفكار السوداء : لا لا ، لا تخش بأساً . هذه هى الضربات العظيمة يا مولاى ، امض فيها ، فإن النصر لك. إنى لأعلم أنك لم تستطع أن تسمعها من غير أن ترق لها ، فإنى أنا أيضاً حين رأيتها لم أستطع أن أردّ نفسى عن الإشفاق عليها . ولكن أرسل النظر إلى مدى أبعد ، وفكر وأنت فى هذا الشقاء أى مجد ستعقبه لحظة ألم ، وأى إعجاب تعدّ لك الدنيا ، وأى منزلة فى المستقبل .

تيتوس : لا ، فإنى بربرى متوحش . إنى لأشنأ نفسى . وما امعن نيرون ، ذلك البغيض ، فى قسوته إلى مثل هذا الشطط . لن أحتمل أن تقضى برينيس . هيا ، ولتقل روما فى ذلك ما شاءت أن تقول .

بولان : ما هذا يا مولاى ؟

تيتوس : إنى لا أدرى ، يا بولان ، ماذا أقول، فإن شدة الألم تبهظ أفكارى .

بولان : لاتكدر إطلاقاً مجرى صيتك، فقد أذيع نبأ وداعك إياها. وإن روما التى كانت تئن لتتنصر الآن وحقّ لها أن تتنصر، وإن جميع الهياكل الآن مفتوحة تصعد البخور باسمك ، والشعب،

رافعاً مناقبك حتى السحب ، طائف فى كل مكان يكلل بالغار تماثيلك .

تيتوس آه روما ! آه برينيس! يا لى من أمير شقى! لماذا أنا إمبراطور؟ ولماذ أنا عاشق ؟

* * *

المشهد السابع

تيتوس ، أنطيوخس ، أرساس ، بولان

أنطيوخس : ماذا فعلت يا مولاى؟ فإن برينيس الحبيبة كادت تقضى بين ذراعى فينيس . هى لا تستجيب لدمع ولا لنصح ولا لنهى ، وإنما تصرخ طالبة السيف والسم . أنت وحدك تستطيع أن تقتلع منها هذه الرغبة العنيدة . فهم يذكرون اسمك ، واسمك يردها إلى الحياة . وكأن عينيها المتجهتين دائماً إلى جناحك من القصر ، تدعوانك بين لحظة وأخرى . إنى لم أستطع أن أحتمل ، فهذا المشهد يقتلنى . وما قعودك عنها ؟ هلم اطلع لناظرها . أنقذ هذه الفضائل ، وهذه المحاسن ، وهذا الجمال ، أو فتخل يا سيدى عن كل رحمة . قل لها كلمة .

تيتوس : وا حسرتاه ! أى كلمة أستطيع أن أقول لها ؟ بل هل أدرى أنا فى هذه اللحظة إن كنت أتنفس ؟

* * *

المشهد الثامن

تيتوس ، أنطيوخس ، بولان ، أرساس ، روتيل

روتيل : مولاى ! إن جميع النقباء، والقناصل ، ومجلس الشيوخ ، قد أقبلوا يطلبونك باسم الدولة كلها . وفى إثرهم جمهور كبير من الشعب متلهف ينتظر حضورك فى جناحك من القصر .

تيتوس : جل جلالكم أيها الآلهة ، لقد فهمت قصدكم . فإنكم تريدون أن تثبتوا هذا القلب الذى ترونه يتخبط ويكاد يضل .

بولان : هلم يا مولاى، لننتقل إلى القاعة المجاورة . هيا نلق مجلس الشيوخ .

أنطيوخس : آه ! أسرع إلى الملكة .

بولان : ماذا؟ أو تستطيع يا مولاى أن تطأ بقدميك جلال الإمبراطورية وتهينها هذه الإهانة التى لا تليق بك ؟ فإن روما . . .

تيتوس : حسبك ، يا بولان ، فسنسمع لهم .

(إلى أنطيوخس) لن أستطيع أيها الأمير أن أمتنع عن هذا الواجب ، زر أنت الملكة . امض . وأرجو عند عودتى ألا يخامرها بعد ذلك شك فى حبي .

* * *

الفصل الخامس

المشهد الأول

أرساس وحده

ترى أين أجد هذا الأمير الوفى الأمين؟ سددى خطاى أيتها السماء، وأعينى ولائى. أتيحى لى فى هذه اللحظة أن أبشره بسعادة قد لا يجرؤ الآن أن يفكر فيها.

* * *

المشهد الثانى

أنطيوخس، أرساس

أرساس : أى قدر سعيد يردك إلى هذه الربوع يا مولاى؟

أنطيوخس : إن كانت عودتى تجلب لك بعض السرور، يا أرساس، فاردد الفضل فيها إلى يأسى وحده.

أرساس : الملكة راحلة يا مولاى.

أنطيوخس : أراحلة هى؟

أرساس : فى هذا المساء. فقد صدرت أوامرها. ساءها أن يتركها تيتوس لدموعها هذا الوقت الطويل، فثارت، وأعقب

ثورتها سخط أبيّ . وإن برينيس لترغب عن روما ، وعن الإمبراطور ، بل إنها لتريد أن تظعن قبل أن تقف على أمرها روما فتستطيع أن تشهد اضطرابها وتشمت بفرارها . وهي تكتب لقيصر .

أنطيوخس : يأيتها السماء ! من كان يصدق ذلك ؟ وتيتوس ؟

أرساس : تيتوس لم يلحقط أمام عينيها . فإن الشعب في بهجة يستوقفه ويلتف به مهللا لما يخلع عليه مجلس الشيوخ من الألقاب ، وهذه الألقاب وهذا الإجلال ، وهذه الهتافات ، تغدو على تيتوس ضروباً من العهود تربطه برباط شريف ينبغي أن يصونه ، بالرغم من كل ما يصعد من الزفرات وبالرغم من كل ما تذرف الملكة من الدموع ، فتثبت في واجبه إرادته المذبذبة . لقد قضي الأمر ، ولعله لن يراها بعد ذلك أبداً .

أنطيوخس : كم من دواعي الأمل يا أرساس ! إني أعترف بذلك . ولكن القدر حريص حرصاً قاسياً على أن يلعب بي . ولقد رأيت كل آمالي تخيب مراراً ، حتى إني لأصغي مرتعداً إلى كل ما تقول لي ، وإن قلبي الذي تساوره رهبة ثقيلة ليعتقد أنه إذا رجا أملا أغضب القدر . ولكن ماذا أرى ؟ تيتوس مقبل علينا . ماذا يريد ؟

* * *

المشهد الثالث

تيتوس ، أنطيوخس ، أرساس

تيتوس : (وهو يدخل) مكانكم ، لا يتبعني منكم أحد . لقد جئت آخر الأمر أيها الأمير أحلّ وعدى . فإن برينيس لتشغلنى وتحزننى دائماً . لقد جئت. وقلبي جريح من دموعك، أهدئ آلاماً أهون من آلامى تعال أيها الأمير ، تعال. فإنى حريص على أن ترى بنفسك للمرة الأخيرة إن كنت أحبها .

* * *

المشهد الرابع

أنطيوخس ، أرساس

أنطيوخس : إذن ، فهذا هو الأمل الذى رددته إلى ، وهأنتذا ترى ما كان يتوقعنى من الفوز. برينيس كانت راحلة وقد غضبت وثارت لكرامتها، وتيتوس قد هجرها فلن يراها بعد ذلك أبداً ! ماذا جنيت أيها الآلهة الجبابرة ؟ وماذا قدرتم على حياتى المشئومة من بؤس الأيام ؟ فليست جميع لحظاتى سوى انتقال دائم من الرهبة إلى الأمل ومن الأمل إلى الثورة .

وما زلت حيًّا أتنفس ؟ برينيس ! تيتوس ! وأنتم أيها الآلهة القساة ! لن تتضاحكوا من دموعى بعد اليوم .

* * *

المشهد الخامس

تيتوس ، برينيس ، فينيس

برينيس : كلا ، لن أسمع شيئاً . لقد قرّ قرارى ، وإنى لأريد الرحيل . لماذا تبدو أمام بصرى ؟ وما مجيئك مرة أخرى تمض من يأسى ؟ ألست مسروراً ؟ إنى لا أريد أن أراك منذ اليوم .

تيتوس : بل رحماك . أصغى لى .

برينيس : لقد فات أوان ذلك .

تيتوس : سيدتى ، كلمة واحدة .

برينيس : لا .

تيتوس : فى أى بلبال تلقى بنفسى ! أميرتى ، ما مصدر هذا الانقلاب الفجائى ؟

برينيس : لقد انقضى كل شىء . أنت تريد أن أرحل غداً ، وأما أنا ، فقد قررت أن أرحل فى الحال ، وإنى لراحلة .

تيتوس : أقيمى .

برينيس : أقيم ، يا غُدر؟ ولماذا ؟ لكى أسمع شعباً وقحاً يجعل هذه الربوع تدوى كلها بشقائى ؟ أوَلا تسمع أنت هذه الفرحة الشامتة ، بينما أنا فى دموعى أغرق وحدى؟ أى جريمة وأى إهانة استطاعت أن تهيجهم؟ وا حسرتاه! وماذا فعلت إلا أننى أسرفت فى حبك ؟

تيتوس : أتسمعين يا سيدتى لحشد ضاع صوابه ؟

برينيس : أنا لا أرى هنا شيئاً لا يجرح شعورى . فكل هذا البيت الذى قمت على إعداده ، وهذه الربوع التى شهدت حبى دهراً طويلا ، وكأنها كانت تؤكد لى حبك إلى آخر الدهر ، وأكاليل الأغصان والزهر هذه التى تحمل اسمينا وقد اندمج كلا الاسمين فى الآخر ، تعرض لأنظارى الحزينة وتظهر لها من كل ناحية ، وكلها غدّار لا أستطيع أن أحتمل غدره . هيا بنا ، يا فينيس .

تيتوس : أيتها السماء ! يالك من جائرة !

برينيس : ارجع ، ارجع إلى مجلس الشيوخ الجليل ، هذا الذى صفق لك الآن على قسوتك . فهل فى سرور إذن قد أصغيت إليه؟ هل امتلأت غبطة وحبوراً بمجدك وصيتك ؟ وهل أجدت وعدهم بأنك ستنسى ذكراى ؟ ولكن هذا لا يكفى للتكفير عن حبك ، فهل وعدت أيضاً بأن تبغضنى بغضاً متصلا ؟

تيتوس : كلا ، لم أعد بشىء ، أوَأعد أنا بأن أبغضك ؟ وبأنى أستطيع يوماً أن أنسى برينيس ؟ آه أيتّها الآلهة ! فى أية لحظة تثور حدتّها الجائرة فتفجع قلبى بهذا الشك القاسى ! هل عرفتنى يا سيدتى ؟ وهل أحصيت منذ سنوات خمس جميع اللحظات وجميع الأيام التى أعلنت لك فيها رغبات قلبى ، هائماً أشد الهيام ، مصعداً أعمق الزفرات ؟ فإن يومنا هذا ليفوق الماضى بجملته .وأعترف لك أنك ما كنت فى يوم من الأيام محبوبة مرموقة أكثر منك اليوم .وإلى أبد الدهر ...

برينيس : إنك تحبنى ، وتؤكد لى حبك . ومع ذلك فأنا راحلة ، وأنت الذى تأمرنى بالرحيل ! ماذا ؟ أتجد كل هذا السحر فى يأسى ؟ أوَتخشى أن تذرف عيناى قليلا من الدموع ؟ وماذا تجدينى رجعة هذا القلب الباطلة ؟ آه أيها القاسى ! رحمة بى ، أقل مما تظهر لى من الحب ، لا تذكرنى بعاطفة جد عزيزة على نفسى ، ودعنى على الأقل أرحل وأنا مقتنعة بأنك قد أقصيتنى فى قرارة نفسك عن نفسك ، وبأنى أترك جاحداً يفقدنى غير آسف .

(يقرأ رسالة)

لقد انتزعت منى ما كتبت الآن ، وهذا قصارى ما أتمناه من حبك . اقرأ يا غُدر ، اقرأ ، ودعنى أخرج .

تيتوس : لن تخرجى بتاتاً ، فما أستطيع أن أقرّ ذلك .
ماذا ؟ ليس هذا الرحيل إذن سوى مكيدة قاسية ؟ أتلتمسين الموت ؟ فلا يبقى ممن وقفت عليه حبي إلاّ ذكرى حزينة ؟ ليبحث عن أنطيوخس ، وليدع إلى هنا .

(تتهالك برينيس على مقعد)

* * *

المشهد السادس

تيتوس ، برينيس

تيتوس : سيدتى . من الحق علىّ أن أفضى إليك باعتراف خالص . فإنى حينما واجهت اللحظة الرهيبة ، التى فيها أرهقتنى شرائع واجب صارم ، حتى كان على أن أرغب إلى آخر الدهر عن رؤيتك ، وحينما أحسست دنو هذا الوداع المحزن ، وأحسست بوادر خوفى ، ونضالى ، ودموعك ، ولومك ، هيأت نفسى لجميع الآلام التى يثيرها فى القلب أجل الخطوب ، ولكن ينبغى أن أقول لك إنى ، على شدة ما تهيبت ، لم أكن مقدراً من هذه الآلام إلا جنحها الأصغر . كنت أعتقد أن شجاعتى أقل أهبة للانهيار . والآن أستحيي من هذا الاضطراب الذى أراها قد تهاوت

إليه . لقد شهدت نصب عيني روما بأسرها مجتمعة ، وخاطبني مجلس الشيوخ ، غير أن نفسي المرهقة كانت تصغى ولا تسمع ، ولم تترك لهم لقاء تهللهم إلا صمتاً مثلوجاً . وما زالت روما حتى الآن مرتابة فى مصيرك . وأنا نفسى ، فى كل لحظة ، لا أذكر إلا فى عناء إن كنت إمبراطوراً أم رومانياً.
لقد أقبلت نحوك وأنا لا أدرى ما خطتى ، فقد جذبنى إليك حبى ، ولعلى إنما جئت أبحث عن نفسى وألتمس أن أتعرفها. فماذا وجدت ؟ هأنذا أرى الموت مرتسماً فى عينيك ، وأرى أنك تغادرين هذه الربوع ساعية إليه . هذا كثير . هذا هول لا يطاق ! لقد بلغ ألمى فى هذا المشهد الحزين مداه . وإنى لأكابد الآن جميع ما أستطيع أن أكابده من الآلام . ولكنى أرى مخرجى منها .
لا تتوقعى قط ، وقد أجهدتنى كل هذه المخاوف ، أن أغيض دمعك بزواج سعيد . فمهما يكن ما تدفعيننى إليه من شطط ، فإن شرفى الصارم الذى لا يلين يتبعنى فى كل لحظة . وهو لا ينى يمثل لنفسى الذاهلة نفور الدولة من قرانك ، ويحدثنى بأننى بعد الصخب الذى ثار وبعد الخطى التى خطوتها ، قد أصبحت اليوم أبعد ما أكون عن الاقتران بك .
أجل سيدتى ، وأبعد من ذلك قولى لك إنى مستعد آن أنزل

من أجلك عن العرش ، فأتعباك ، وأمضى ، راضياً مغتبطاً بأغلالى ، إلى أقصى الدنيا أرسل وإياك الزفرات . بل إنك لتخجلين — لو فعلت — من مسالكى هذا الخسيس ، وإنك لترين آسفة فى إثرك ملكاً وضيعاً ، ملكاً بلا كرامة ، وبلا مملكة وبلا قصر . ويا له من مشهد زرىّ يمثل للناس ما فى الحب من الهوان !

دون خروجى من هذه الآلام التى تفترس نفسى ، طريق — وأنت تعلمين — أنبل وأشرف . ولقد رأيتنى ، يا سيدتى ، أتعلم هذه الطريق من أكثر من بطل ومن أكثر من رومانى . فهؤلاء حينما أجهدت الخطوب والنوازل وفاءهم ، أولوا جميعاً دأب القدر العنيد على إرهاقهم بأنه قضاء خفى يأمرهم ألا يقاوموه . فإن اتصل انسجام دمعك ومضى يؤلم ناظرى ، وإن رأيتك دائماً تصرين على الموت ، وإن كان علىّ فى كل لحظة أن أرتعد خوفاً على حياتك ، وإن لم تقسمى لى أنك سوف تصونين حرمة أيامك ، فعليك يا سيدتى أن تتوقعى دموعاً أخرى ، فإنى ، فى الحال التى أنا فيها ، أستطيع أن أقدم على كل شيء ، ولا أضمن آخر الأمر ألا تضرج يدى بالدماء على مرأى منك وداعنا المشئوم .

برينيس : وا حسرتاه !

تيتوس : لا ، إنى لا أعجز عن شيء وما من شيء يستعصى علىّ . فهأنتذى الآن مسئولة عن حياتى . قدرى الأمر يا سيدتى وأحسنى التقدير ، فإذا كنت عزيزاً عليك . . .

* * *

المشهد السابع

تيتوس ، برينيس ، أنطيوخس

تيتوس : تعال ، أيها الأمير ، تعال ، لقد أرسلت ألتمسك . كن شاهداً هنا على جميع ضعفى ، وانظر إن كان حبى قد وهنت لوعته ، ثم احكم بيننا .

أنطيوخس : أما أنا فمصدق كل شيء ، وإنى لأعرفكما . فهلا عرفت أنت أميراً شقياً؟ لقد شرفتنى يا سيدى بتقديرك . وإنى لأستطيع هنا أن أقسم لك غير آثم أنى نازعت أعز أصدقائك هذه المنزلة ، بل نازعتهم إياها باذلا دونها دمى . ولقد آمنتمانى كلاكما بالرغم منى ، فأفضت إلىّ الملكة بحبها ، وأفضيت يا سيدى إلىّ بحبك ، وقد تستطيع الملكة التى تسمعنى الآن أن تكذبنى . بيد أنها رأتنى دائماً متحمساً فى مدحك ، أجيب بعنايتى ثقتك . وأنت لذلك تعتقد أنك مدين لى ببعض الجميل . ولكن هل تستطيع أن تصدق فى هذه اللحظة الرهيبة

التى فرضها القضاء ، أن هذا الصديق الوفىّ قد كان غريمك ؟

تيتوس : غريمى ؟

أنطيوخس : لقد آن لى أن أظهرك على جلية الأمر. أجل ، فلقد أحببت برينيس دائماً وعبدتها . ولكى أمتنع عن حبها جاهدت نفسى جهاداً عنيفاً متصلا ، فلم أستطع أن أنساها ، فاعتصمت بالصمت. ثم ظهر من انقلابك الخالب ما ردّ إلىّ منذ حين أملا خافتاً ، ولكن دموع الملكة أطفأت هذا الأمل : كانت عيناها المغمورتان بالدمع تسألان رؤيتك. فجئت ، يا سيدى ، أهيب بك وأدعوك إليها بنفسى . ورجعت . وهأنتذا تُحِب ، وهأنتذا تُحَب ، وقد استسلمتَ ، وما كنت أشك فى ذلك. أما أنا فقد استشرت نفسى للمرة الأخيرة . وامتحنت شجاعتى آخر امتحان ، ودعوت الآن عقلى كله . فلم أشعر يوماً أنى متيم مثل ما أشعر اليوم . لا بدّ دون قطع هذه العقد الكثيرة من جهود أخرى . فإنى لن أستطيع أن أقضى عليها إلا بقضائى ، وإنى لمسرع إلى هذا القضاء . ذلك ما أردت أن أخبرك به .

نعم سيدتى ، لقد حثثت إليك خطاه ، فنجح سعيى ، ولست على ذلك نادماً . سقت السماء جميع أعوامك سعادة متصلة . فإن كانت تحفظ لك بقية من غضب ، فإنى ضارع إلى

الآلهة أن تكيل جميع الضربات التى عسى أن تهدد هذه الحياة الجميلة الرائعة على أيامى المنكودة التى أضحيها لك

برينيس (ناهضة) : حسبك ، أمسك . أيها الأميران الكريمان النبيلان ، إلى أى شأو تلقيان بنفسى كلا كما ؟ أن أواجهك أو أنظر إليه ، أشهد صورة اليأس من كل ناحية . فإنى لا أرى إلا عبرات ، ولا أسمع إلا حديثاً عن بلبلة ، وهول ، ودم قد أزمع أن يسيل .

(إلى تيتوس) لقد عرفت قلبى يا سيدى . وأستطيع أن أقول إنه لم يكن يوماً يتمنى الإمبراطورية . فإن جاه الرومان ، وأرجوان القياصرة لم يجذبا قط أنظارى ، وأنت تعلم ذلك . لقد أحببت يا سيدى ، وكنت أريد أن أحب . واليوم خالجتنى الشكوك وساورتنى المخاوف . وإنى لأعترف بذلك . فلقد ظننت أن حبك قد أوشك أن ينقضى . ولكنى عرفت الآن غلطى ، فإنك تحبنى دائماً . ولقد تبلبل قلبك ، ورأيت دمعك ينسجم . على أن برينيس يا سيدى لا تستحق كل هذا الجزع ، ولا تستحق أن يتعس الملأ حبك ، فترى الدنيا — وقد انعقدت على تيتوس جميع آمالها ، وبدأت تتذوق بواكير فضائلك — ترى نفسها قد حرمت فى لحظة من رغدها . وأعتقد أنى منذ خمس سنين

حتى هذا اليوم الأخير ، قد أحببتك حبًّا صادقاً برهنت
عليه . ولكن ، ليس هذا كل شيء ، فإني أريد في هذه
اللحظة الرهيبة أن أكلل بجهود أخير جميع ما تبقى
سأعيش ، وسأتبع أوامرك المطلقة . فوداعاً سيدى . املك ،
ولن أراك بعد اليوم .
(إلى أنطيوخس) وأنت أيها الأمير ، إنك لترى بنفسك ،
بعد هذا الوداع ، أنى لا أرضى بأن أخلى حبيبي ،
لأمضى بعيداً عن روما فأصغى لأمان أخرى . عش ،
وجاهد نفسك جهاداً نبيلا . اسلك مسلك تيتوس ومسلكى .
فهأنذى أحبه وأنأى عنه ، وها هو ذا يحبنى ويخلينى .
فاحمل بعيداً عن عينى نفثاتك وأغلالك . وداعاً . ولنكن
نحن الثلاثة للدنيا مثلا لأصدق الحب عاطفة وأتعسه
حظًّا ، مثلا قد تحفظ الدنيا قصته الأليمة .
والآن كل شيء معد ، وأتباعى ينتظروننى . لا تتعقبا
خطاى .
(إلى تيتوس) : للمرة الأخيرة ، وداعاً يا سيدى .

أنطيوخس : وا حسرتاه !

فهرس المسرحيات

الجزء الأول :

الجزء الثانى :

طبعة خاصة بمكتبة الأسرة تصدر عن
الهيئة المصرية العامة للكتاب

الوصول إلى الحقيقة يتطلب إزالة العوائق
التي تعترض المعرفة، ومن أهم هذه العوائق
رواسب الجهل، وسيطرة العادة، والتبجيل المفرط
لمفكري الماضي
أن الأفكار الصحيحة يجب أن تثبت بالتجربة

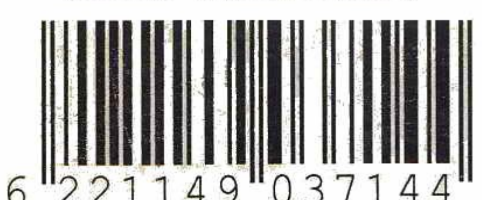
روجر باكون

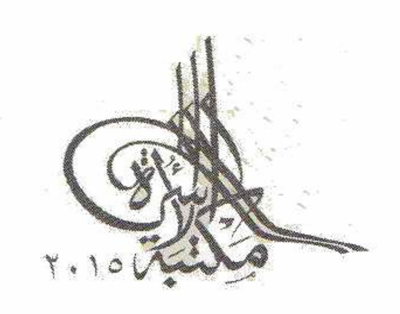
التعليم ليس استعدادا للحياة ، إنه الحياة ذاتها
جون ديوي
فيلسوف وعالم نفس أمريكي

أدب

سلسلة تهتم بنشر النصوص المتميزة من الإبداع، معاصرة كانت أم حداثية، متمثلة فى النماذج المضيئة من الشعر والسرد والنقد الأدبى بالإضافة إلى تاريخ الآداب، من أجل إثراء خبرة القارئ وتنمية وجدانه الأدبى ووعيه الجمالى، والسعى إلى نشر القيم الفنية، التى تحقق للمتلقى الفائدة المرجوة من قراءة هذه النصوص الراقية؛ حيث يمنح الاشتباك مع فضاء النص متعة الفن الجميل ويدرب على كيفية تذوقه، كما تمنح القارئ مساحات لا نهائية للدخول إلى هذه العوالم السحرية، التى يعكف الأدباء على بنائها بعصارة وجدانهم وحبر قلوبهم.

ISBN# 9789779103617






Exclusive
For
www.ibtesama.com